من لطائف التفسير

للشيخ أحمد فرح عقيلان
رحمه الله تعالى

المجلد الثالث

دار القبلتين
للنشر والتوزيع

دار اليقين
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م



دار اليقين للنشر والتوزيع
مصر - المنصورة
هاتف: ٣٥٥٢٤١

آيات توجه الرسول إلى كريم الشمائل وعظيم الفضائل

فى آخر سورة الشعراء آيات كريمات تطمئن قلب محمد ﷺ ، وتثبته فى وجه موجة العناد الظالم الذى واجه المشركون به دعوته العظيمة ، وهى ترسم لرسول الله ﷺ منهاج التعامل مع من يكفر برسالته ، ومع من يؤمن بها .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ و وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ * فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء : ٢١٠ ـ ٢٢٠].

أولاً : هذه الآيات الكريمات نزلت والرسول ﷺ فى غمار دوامة من أمواج الإيذاء والعناد والكفر والتكذيب والافتراء على القرآن الكريم ، لقد ادعى الكفار أن محمداً ﷺ شاعر له شيطان ينزل بالقرآن عليه ، فجاءت الآيات بلسماً شافيا تثبت فؤاده بالقرآن وتعلمه فى إيجاز خاطف دروس الصبر والثبات ، والتعامل مع من يؤمن به ، ومع من لا يؤمن به ، وأن يوثق دواماً علاقته مع ربه ، فيجعل توكله عليه وتمسكه بحباله .

ثانياً : الآيات الثلاث الأولى توضح: أن القرآن الكريم لا دخل فيه للشياطين، وأن الأحكام والنبوءات الصادقة التى اشتمل عليها هى من أمور السماء وأسرارها ، والشياطين أذل من أن يصلوا إلى حمي السماوات أو يسمَّعوا إلى الملأ الأعلى : ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا

يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ . ومعنى الآيات الكريمات : أن الشياطين أقل وأذل من أن ينزلوا بالقرآن العظيم ؛ لأن هذا الأمر لا يتأتى لهم ولا يستطيعونه ، فلقد عزلهم الله جل جلاله عن التسمع لأسرار السماء وكلمات الله ، ومن ثم فليطمئن محمد ﷺ أن هذا القرآن العظيم محروس من كل شيطان ، وأنه تنزيل رب العالمين نزل به على قلب محمد لينذر به الناس كافة .

ثالثاً : الآيات الأربع الكريمات : ﴿ فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ شد لعزيمة محمد ﷺ للمضى قدماً فى ثبات على العقيدة والتبليغ بالحكمة واللين .

وقوله تعالى : ﴿ فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ هو خطاب للنبى ﷺ يقصد به أن تتبعه أمته ؛ لأن من المستبعد بل المستحيل أن يدعو محمد ﷺ إلها آخر ، ولكن الأمر الإلهى كثيراً ما يوجه إلى النبى ﷺ ويكون المقصود أمته. وقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ إشارة إلى أن يبدأ الإنسان فى كل دعوة خيرة بأهل بيته وأقاربه ؛ لعل الله أن يهديهم به فيشتد بهم أزره ، ويقوى أمره، وقد جاء فى كتب التفسير: أن النبى ﷺ لما نزلت هذه الآية دعا قريشاً فاجتمعوا فعم وخص فقال : « يا بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى عبد شمس ، يابنى عبد مناف ، يابنى هاشم ، يابنى عبد المطلب» إلى أن قال: «يافاطمة أنقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها » . وهو يعنى أنى سأصل الأرحام فى الدنيا أما مغفرة الله ودخول الجنة فتلك عند الله جل جلاله ، وفى هذا الكلام درس لمن يتمسحون بقبور آل البيت ـ رضى الله عنهم ـ يرجون عندهم

مغفرة الذنوب ، إذ إن رسول الله ﷺ يعلن أنه لا يملك لآل بيته نفعاً ولا ضراً إلا أن يشتروا أنفسهم من النار بالإيمان بالله ، وبصالح الأعمال . وقوله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ يرسم للنبى ﷺ منهاج الدعوة بالحكمة ومعاملة المؤمنين بالرفق والتواضع لتتألف من حوله القلوب ، وفى هاتين الآيتين درس لكل داعية أن يخفض للمؤمنين جناح الحنو والرفق والرحمة ، وأن يقابل الخصوم باعتزالهم والتبرؤ من أعمالهم.

رابعاً : أما ختام الآيات : فحث لرسول الله ﷺ على أن يتوكل على ربه ، وأن يثق بقدرته ، وواسع علمه ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ومعنى الآيات الكريمات : بعد أن تؤدى ما كلفت به من تبليغ رسالة الله كن معه دائماً مهما عصوك وعاندوك ، وتوكل على الإله القادر القاهر ذى العزة والجبروت ، فهو الذى يراك فى ظلمة الليل وأنت قائم للعبادة ، ويرى صلاتك وسجودك . وقيل : إنه ـ جل جلاله ـ كان يرعاك وأنت تتقلب وتتحدر فى أصلاب الأطهار الساجدين المصلين من لدن نوح . وختم جل جلاله الآيات بقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ . لبعث الثقة العظيمة فى نفس محمد ﷺ بأنه إلهه ومولاه وناصره هو الذى لا تغيب عن سمعه غائبة ولا عن علمه شاردة ولا واردة ، ومن كان هذا إلهه ومولاه ووكيله فلن يرى ضيماً بإذن الله .

القرآن ليس شعرا
ومحمد ﷺ ليس شاعرا

كان الشعر عند العرب ديوان حياتهم ، ودعاية أمجادهم ، وسجل تاريخهم ، وكان لكل قبيلة شاعر يشيد بمناقبها ، وينافح عن مآثرها ومفاخرها ، فلا عجب أن أولى القرآن الكريم قضيته اهتماماً يليق بحساسيتها ، فقال فى ختام سورة الشعراء .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢١ ـ ٢٢٧].

أولاً : الشعر قول بليغ تتقبله النفوس ، وتطرب له القلوب ؛ لأنه يخاطب العواطف ، ويثير المشاعر والأحاسيس ، وكان العرب يعتقدون أن لكل شاعر شيطاناً من الجن أو رئياً يلهمه الشعر ، فلما نزل القرآن الكريم وأدهشهم ببلاغته ألصقوا برسول الله ﷺ تهمة الشعر ؛ لكن الله ـ جل جلاله ـ أعلن أن القرآن ليس شعراً ، وإن محمداً ﷺ ليس شاعراً فقال تعالى فى سورة الحاقة : ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ [الحاقة : ٤١] وقال فى سورة يس: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس : ٦٩] وفى هذه الآيات الكريمة يلفت القرآن الكريم نظر مشركى قريش إلى أن منهج محمد ﷺ فى الدعوة ونشر العقيدة هو منهج فى قمة الجدية والواقع ، وهذا غير منهج الشعراء الذين يعيشون

على الخيال . والقرآن الكريم كتاب هدى وذكر ، ومن ثم فهو غير الشعر الذى يدخله الباطل والكذب والفخر المغرق فى الغلو والمبالغة . ثم إن محمداً ﷺ داعية إلى الهدى ، والحق بعيد عن الهوى والغوغائية ، ومن ثم فمثله لا يمكن أن تتنزل عليه الشياطين بالشعر ؛ لأن الشياطين تتألف أهل الإفك والإثم والغواية ، ومحمد ﷺ أبعد الناس عن طريق الغواة . إن الشياطين يعتمدون على استراق السمع ثم هم إذا وقعت لهم كلمة واحدة من أسرار السماء زادوا عليها مائة كذبة . والقرآن الكريم لا يقر الكذب بل يدمغه ، ومن ثم فالقرآن على النقيض من الشعر وعن إيحاء الشياطين الغواة : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴾ هذه الآيات الكريمات مدنية ، والله أعلم ؛ لأنها تتحدث عن شعراء المشركين الذين جندوا ألسنتهم لهجاء المسلمين ، من أمثال : ابن الزبعرى ، وأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وقد تابا فيما بعد وأسلما وحسن إسلامهما ، وكانا كلما ذكرا هجاءهما لرسول الله ﷺ ركبهما وجد شديد ، ومعنى الآيات الكريمات : أن الشعراء بوجه عام معظمهم غواة ؛ ولهذا يتبعهم الغواة ، وقد علل القرآن الكريم سبب غواية الشعراء وإغوائهم غيرهم فقال : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ ومعنى هذا: أنهم يركضون وراء الخيال، ويهيمون فى أودية الضلال ، وكل بضاعتهم الغلواء والمبالغة والمدح الكاذب ، والهجاء المقذع ، والفخر الأجوف ، وكثير منهم يتمدح بالإقدام وهو جبان ، ويفاخر بالجود وهو بخيل ، ويتظاهر بالصلاح وهو منافق ، نعم! إنهم يقولون مالا يفعلون .

وهنا لابد لى من كلمة حول الشعر والشعراء فى أيامنا هذه : فلقد أتاحت لى الظروف أن أخالط الشعراء من قريب ، وأن أزور روابطهم ومنتدياتهم فى الداخل والخارج ، ولا أغالى إذا قلت : إن أكثر من تسعة أعشار الشعر فى أيامنا هذه لا خير فيه ، وإنى لأقرأ عشرة دواوين مما تقذف به المطابع ودور النشر فأجد معظم شعرهم دعوات هدم ، أو كلاماً فارغاً لا علاقة له بالحكمة والمثل العليا ومكارم الأخلاق ، ولقد زرت بعض روابط الأدباء والشعراء والكتاب ، وحضرت اجتماعات كبيرة للشعراء ، فوجدت فى الشعراء أكبر نسبة من أهل الطاس والكاس ، وأقل نسبة من أهل النجدة والباس ، وأقسم لقد كان وقت الصلاة يظلنا ، وصوت المؤذن ينبهنا ، فلا أرى واحداً يرطب لسانه بذكر الله ، وفى هذه الأيام بالذات يقود حركة الشعر ، وتجديد الشعر ، وتحرير الشعر ، طغمة كل همهم تخريب لغة القرآن ، ونبذ تراث البلاغة ، وترويج مذاهب الهدم والتهكم بأعلام البلاغة ، راكضين وراء شعراء الكفار الذين يباهى الكثيرون منهم بالشذوذ الجنسى ، ولولا أنى أربأ بصفحات التفسير أن تدنسها أسماؤهم لذكرت العشرات من مشاهيرهم ، ممن يربأ الحيوان عن أخلاقهم ، ومع هذا فقد اتخذهم بعض الشعراء العرب قدوات يتبعونهم حذو القذة بالقذة ، حتى لو سكنوا بؤر الفساد لأقاموا معهم .

ثالثاً : على أن الشعر هو كلام له مواصفاته وكل كلام فيه الحسن والقبيح والشعر كذلك منه الحسن ومنه غير ذلك ، والحق أن الشعر طيبه طيب ، وخبيثه خبيث ؛ ولهذا فقد استثنى القرآن الكريم الشعراء المسلمين الذين يجندون شعرهم لغرس المثل العليا ونشر دعوة الحق وإتحاف القراء والمستمعين حكماً وتجارب نافعة وممتعة ، وهؤلاء موجودون بفضل الله من لون حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، إلى

شعراء الدعوة الإسلامية فى أيامنا هذه ، وإلى هذا أشار الاستثناء الوارد فى الآيات الكريمة الأخيرة : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ ، فالشاعر المؤمن المحسن الحريص على صالح الأعمال والذى يذكر ربه كثيراً فى شعره ، والذى لا يبتدئ بالعدوان ولكنه يدافع عن الحق بصدق ، والذى ينتصر للإيمان ببلاغته ، لا يدخل فى عداد شعراء الغواية ، وقد كان النبى ﷺ يحب جيد الشعر ، ويتمثل به ، ورُوى عنه أنه تمثل بقول لبيد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

هذا وقد ختم ـ جل جلاله ـ سورة الشعراء بتهديد مرهب موجه للظالمين عموماً وللشعراء المضللين بشكل خاص ألا وهو قوله تعالى : ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾ .

القرآن بشرى للمؤمنين .. والكافرون هم الأخسرون

هذه ست آيات كريمات افتتح الله تبارك وتعالى بها سورة النمل ، وسورة النمل من السور المكية التى موضوعها العقيدة ، وهى كسورة الشعراء افتتحت بالحديث عن الإيمان والقرآن ، ثم أوردت ذكر خمسة أنبياء هم : موسى وداود وسليمان وصالح ولوط ـ عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ ثم ختم السورة بخاتمة ضافية موضوعها : إثبات وحدانية الله ، وقد جاءت قصة سليمان ـ عليه السلام ـ مطولة ممتعة متنوعة الشخصيات من جن وإنس وطير ، وامتد مسرح أحداثها من فلسطين إلى اليمن .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ * وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل : ١ ـ ٦].

أولاً : قوله تعالى : ﴿ طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ فيه إشارة إلى أن معجزة محمد ﷺ معجزة خالدة بإذن الله ؛ لأنها مقروءة ومكتوبة . إنها قرآن يقرأ فى كتاب واضح المعانى والمقاصد والألفاظ :﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ ، وفى الآية الكريمة نبوءة بأن معجزة محمد ستظل بإذن الله أبد الدهر قرآنا وكتاباً ، وما أعظم صدق تلك النبوءة ، فما على ظهر الأرض كتاب يقرأ ويحفظ ويكتب كما هى حال القرآن الكريم ، إذ على الرغم من ضعف المسلمين وتفريط معظمهم فى الدين لا يزال

القرآن الكريم أعظم حظوة وسبقاً من سائر الكتب السماوية فى عدد من يقرؤونه ، وفى عدد من يطبعونه ، ولو أحصى فى هذه الأيام قراء التوراة والإنجيل ومن يطبعونهما لما بلغ ذلك عشر قراء القرآن وطابعيه ، ولا غرو، فالقرآن محفوظ ومكنون فى اللوح المحفوظ ، وقد مات رسول الله ﷺ بعد أن أورث الكتاب عدداً كبيراً ممن اصطفى ربنا من عباده من القراء ـ رضوان الله عليهم ـ كما كان من بين تركته العظيمة مصحف مشتمل على كل حرف من حروفه . وقوله تعالى : ﴿ طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ يقابله فى مطلع سورة الحجر قوله تعالى : ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ ففى مطلع سورة النمل قدم القرآن، وفى مطع سورة الحجر قدم الكتاب ؛ وذلك لأن كلاً من التعبيرين يوضح مدلولاً واحداً هو القرآن الكريم مقروءاً ومكتوباً ، ويلاحظ أن القرآن الكريم عطف بالواو فقال ﴿تِلْكَ آياتُ القرآنِ وَكِتَابٍ مُبِين﴾ مع أن القرآن هو الكتاب المبين ، ولكن المقصود هو أن آيات معجزة محمد هى: آيات قرآن يقرأ وكتاب مبين يكتب ، ومن ثم فتعبر كلمة ﴿وكتاب مُبين﴾ فى حكم المعرفة ؛ لأنها إذا ذكر دلت على القرآن الكريم فى شكله المكتوبَ .

ثانياً : في قوله تعالي : ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِين * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ كلمة ﴿ هدى ﴾ منصوبة على الحال، ويكون تفسير الآيتين : أن الله ، جل جلاله أنزل القرآن الكريم هادياً للمؤمنين إلى صراط الله ومبشراً لهم بجنة الله . وخلاصة صفات المؤمنين : أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويؤمنون بالحساب والجزاء فى اليوم الآخر ، وإلى هذا تشير الآية العظيمة الشاملة فى سورة البينة التى لخصت جميع الرسالات السماوية ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة : ٥]. من شاء أن يعرف مدى عمق إيمانه فلينظر فى نفسه هل توفرت فيه ثلاثة أمور ؟ وهى : إقام الصلاة ، وإقام الصلاة تعبير عظيم ، إن قولنا : فلان يصلى غير قولنا : فلان يقيم الصلاة ، فالأولى معناها : أن يصلى كيفما اتفق ولو أداها حركات وسكنات ، وقراءة غير واعية ، أما الثانية فمعناها: أنه يقيم الصلاة صحيحة تامة فيها الخشوع وحضور القلب ، وفيها الإحساس برفعة منزلة الصلاة إذ هى عمود الدين وعلامة الأمانة والإيمان .

ونعود عوداً على بدء فنقول الأمر الثانى من براهين الإيمان هو : إيتاء الزكاة، ومعناه : إعطاؤها مستحقيها بنفس طيبة تعشق صنائع الخير ، وأما البرهان الثالث على صدق الإيمان فهو الإيمان باليوم الآخر ، يوم البعث والجزاء . إن أحرزتها أيها الأخ المستمع فاحمد الله وأبشر ، وإن رأيت تقصيراً فاعزم على الخير وتوكل على الله .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ* أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ معنى الآيتين : وكما جعلنا القرآن هدى وبشرى للمؤمنين فهو على النقيض إزاء الكافرين ومنكرى البعث ، فهؤلاء فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، والله ــ جل جلاله ــ كما يحب الإيمان والعمل الصالح للمؤمن، كذلك يفتح النجد الآخر على مصراعيه للكفار ، فإذا سلك نجد الشيطان وزاغ أزغنا قلبه ، فرأى القبيح حسناً فسار يخبط فى الحياة أعمى ، وكان فى الآخرة أخسر الناس ، وأى خسارة أشد من تجارة تباع فيها الجنة وتشترى بها النار !!

رابعاً : والآية الأخيرة فيها تثبيت لمحمد ﷺ ، ونقض لكلام والكفار ؛ ولهذا ورد فيها توكيدان : إن ولام التوكيد ﴿ **وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ** ﴾ .

ومادام القرآن من لدن حكيم عليم فسيظل ينبوع الحكمة والعلم ، وستظل قصصه وأخباره عبرة لأهل الإيمان ، فاستمع إلى قصة موسى إذ قال موسى لأهله ﴿ **إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون**﴾ [النمل : ٧] .

إيجاز غير مخل لقصة موسى عليه السلام

قصة موسى عليه السلام وردت فى قرابة خمس وعشرين سورة من سور القرآن، وتفاوتت طولاً وقصراً ، فوردت فى سورة الحج خاطفة فى سطر واحد ، وفى سورة العنكبوت فى سطرين ، وفى سورة السجدة فى أربعة أسطر ، وفى سورة فصلت فى آية واحدة ، بينما جاءت مبسوطة فى سورة البقرة ، ووردت أطول ما تكون فى سورة الأعراف ، وجاءت مفصلة فى سورة طه ، وفى سورة الشعراء ، أما فى سورة القصص فعرضت قصة موسى من ولادته إلى نهاية قومه، وقد تدبرت تلك القصص فوجدت أنها جميعها تذكر مصير الكافرين ، ولا تغفل هذا الأمر حتى عندما عرضت القصة فى سطر واحد ، ألا وهو قوله تعالى فى سورة الحج : ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ، ويبدو أن تكرار القصة على هذه الطريقة يحمل تحذيراً للإنسانية من بنى إسرائيل ، فقد كانوا ومازالوا ـ على قلة عددهم ـ سوسة فساد العالم ، ومصدر المؤامرات عليها ، فما من فتنة فى شعوب الدنيا إلا وتجد لها جذوراً يهودية ، وهنا حكمة أخرى لهذا التكرار وأعنى به تكرار قصة موسى ، وقصص غيره من الأنبياء ، وهى أن معظم الناس إذا قرأ القرآن لم يتسع وقته لقراءته كله، لكن إذا استطاع أن يقرأ ولو جزءاً واحداً فإنه سيجد فى الجزء الذى قرأه جميع موضوعات القرآن من قصص ومواعظ ومن تبشير وإنذار ، أى : أن أى عينة من القرآن الكريم تكشف عن سائر معدنه ، ومن هنا تتكرر قصص الأنبياء؛ ليستفيد منها كل من يقرأ ولو قدراً قليلاً من كتاب الله ، ولقد أوردت هذه المقدمة بين يدى تفسيرى لقصه موسى عليه السلام كما وردت فى سورة

النمل.

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : ٧ ـ ١٤].

أولاً : حين قال الله لرسوله ﷺ قبل هذه الآيات : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل : ٦] أردف ذلك بقصة موسى ليبين له أنه ليس الوحيد الذى كذبه قومه من بين أنبياء الله ، فهنالك موسى عليه السلام الذى كذبه فرعون وملؤه ؛ على الرغم من أنه جاءهم بتسع آيات بينات كلها من الخوارق ، ومع ذلك لم تغن عنهم الآيات والنذر . ومن هنا فإذا كذبك قومك من قريش فاعلم أن كثيراً من الأنبياء من قبلك كذبوا وأوذوا فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا .

ثانياً : فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ يبدو فى الآية أن موسى عليه السلام قد ضل طريقه وهو عائد من مدين ، ودليل ذلك قوله : ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ فهو يلتمس فى ذهابه إلى النار خبراً هادياً ، أو شهاباً مقتبساً من تلك النار، أى شعلة أقبسها لكم من النار تستدفئون بها . وقد تصرف

القرآن الكريم فى أداء هذه العبارة فأوردها بأساليب مختلفة ، فهنا فى سورة النمل يقول : ﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ، وفى سورة طه يقول: ﴿ لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ [طه : ١٠] وفى سورة القصص يقول : ﴿ لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ [القصص : ٢٩] وتصريف الأساليب يعرض الحقيقة فى أثواب مختلفة ، فيدل بذلك على قدرة عظيمة ، كما أنه أسلوب تعليمى ينوع طرق التعليم لتغرس الحقائق فى الأذهان، وإلى هذا يشير قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ اشتمل على نداء إلهى جليل فيه : يا موسى بورك فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين إنه أنا الله العزيز الحكيم ، إنها نار مباركة ومبارك من حولها من ملائكة، وأنت أيضاً من المباركين إذ صرت حولها ، ثم إليك أول قبس لا من النار ولكن من نور عقيدة الإيمان ﴿ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، وذكر اسمين من أسمائه الحسنى ليعلم موسى أنه فى كنف ذى العزة الذى لاينال ، وذى الحكمة فى جميع الأفعال . وفى سورة طه كان النداء : ﴿ إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى * إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾ [طه : ١٢ ـ ١٥] ، وفى سورة القصص ﴿ نودى من شاطئ الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب

العالمين﴾[القصص : ٣٠] تصريف بليغ للأساليب ، ليثبت به الله قلوب الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ **وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جان ...** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ** ﴾ أعطى ربنا ـ جل جلاله ـ كليمه موسى آيتين ، ووعده سبع آيات أخرى تؤيد رسالته وتكون برهاناً لصدقه ، وذلك أعظم عدد من المعجزات أوتيه نبى ليتناسب مع أعند طاغية متجبر متكبر فى الأرض لا يؤمن بيوم الحساب ، والآيتان اللتان أوتيهما حالاً هما : عصاه تتحول إلى حية كأنها جان ، والجان نوع من الحيات صغير ينطلق كالسهم فى سرعة، ويده يدخلها فى جيبه فتخرج بيضاء من غير ما مرض جلدى ، أما السبع الآيات الباقية فهى سنوات القحط ، ونزع البركة بنقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وهو البق ، وواضح أن الآيات قد اشتملت على أعظم أساليب العزاء والتسلية لرسول الله ﷺ ، لقد كان فسوق قوم فرعون أشد من فسوق قريش ؛ لأن قريشاً لم تر من محمد إلا معجزة واحدة هى القرآن الكريم وهى معجزة عقلية غير خارقة ، أما فرعون وقومه فقد رأوا من موسى عليه السلام تسع معجزات واضحة مبصرة ، وما أروع المجاز فى قوله : ﴿ **مبصراً** ﴾ وهو مجاز علاقته الفاعلية ، وقد ورد فى سورة يونس : ﴿ **والنهار مبصراً** ﴾ [يونس : ٦٧] وفى سورة الإسراء ﴿**وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً**﴾ [الإسراء : ١٢] ومع كل هذا فقد كذب آل فرعون الآيات ، فانظر يامحمد كيف كان عاقبة أولئك المفسدين ، واصبر على ما تلقاه من هؤلاء المعاندين .

قصة سليمان وحديث الهدهد وبلقيس

إن قصة سليمان عليه السلام وما كان من حديث الهدهد وبلقيس قد بسطت فى سورة النمل بصورة موسعة لم تسبق فى أى مكان آخر من القرآن ، فقد احتلت القصة ثلاثين آية فى ثلاث صفحات تقريباً من القرآن الكريم ابتدأت بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : ١٥] وانتهت بقوله تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤] من الآية الخامسة عشرة إلى الآية الرابعة والأربعين ، ولطول القصة لا يمكن أن أحيط بها فى حلقة من لطائف التفسير ؛ ولهذا رأيت أن أشير إلى بعض إشاراتها الأخلاقية والبلاغية :

أولاً : القصة فى مجموعها محورها العلم ، فمطلعها : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ ، ومعروف علم داود عليه السلام بترتيل الزبور ، ذلك الترتيل الذى كان يطرب الطير فتؤوب معه ، وعلمه بصناعة الحديد ، فقد علمه ربه صنعة لبوس يحمى أثناء الحرب ، وهو الدروع ، كما علمه القضاء وفصل الخطاب والحكمة ، وأما علم سليمان عليه السلام فمنطق الطير وبالقضاء أيضاً كما فى سورة الأنبياء ، وفى القصة يصغى سليمان للهدهد وهو يقول له : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ إنه يستزيد العلم حتى من الهدهد ، وفى القصة علم عفريت الجن ، وعلم الذى عنده علم من الكتاب ، وحتى بلقيس تقول : ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا

وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ . وفى السورة ما يوحى أن العلم خير من الملك ؛ إذ لم يذكر ـ جل جلاله ـ من كل النعم التى أنعم بها على داود وسليمان، إلا نعمة العلم فقال جل جلاله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ ولما أعلن سليمان نعم الله عليه ذكر العلم خاصاً قبل العام فقال : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾.

ثانياً: فى القصة ما يدل على أن للطير لغةً كان سليمان عليه السلام قد عُلِّمها، ويؤيد ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ فما داموا أمماً ، فلابد من لغة يتفاهم بها مجتمعهم، وكثيراً ما نسمع للطيور المنزلية أصواتاً تتنوع حين تجوع أو تشبع أو تنادى، ومن الطبيعى أن يكون خالقها جلَّ جلاله عالمًا بلغاتها، وبحكمته القاهرة علّم سليمان لغة الطير معجزة تشد ملكه وتؤيد إيمانه .

ثالثاً: كان موكب سليمان عليه السلام مكوّناً من إنس وجنٍّ وطير، وليظل منتظماً منضبطاً كان له وزعة ينظمونه ضمن معسكره ، واستنتج الفقهاء من هذا أنه يجوز للإمام أو القاضى أن يتخذ وزعةً ينظمون صفوف المراجعين ، ليتمكن الحاكم من قضاء أمورهم فى نظام وعدل ، بحيث لا يطغى قويهم على ضعيفهم ولا تعوق الفوضى مصالحهم .

رابعاً : فى فلسطين واد بجوار عسقلان يسمونه إلى هذه الأيام : وادى النمل، ولعله الذى مر عليه سليمان في تلك الجولة التفقدية ، وفي قوله تعالى : ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ تبدو النملة بليغة ، فقد صاحت بقومها وحذرتهم وبينت لهم طريقة النجاة ، وهوّلت لهم الخطر ، ومدحت النبى وجنوده ، بأنهم لايقتلون ولو نملةً إلا عفواً وهم لا يشعرون . ذكرت كل هذا فى

بضع كلمات، ومن ثمّ فقد تبسّم عليه السلام مسروراً بقولها إلى درجة الضحك ، وما ضحك إلا حين نسبت إليه وإلى جيشه الرفق والعدل ، وذلك فضل عظيم من الله يفرح به الأنبياء . وفى الآية ما يفيد جواز التبسم والضحك القليل ، وقد كان رسول الله ﷺ كثير التبسم ، وربما زاد الأمر فضحك حتى تبدو نواجذه ، لكن المكروه من الضحك هو كثيره ؛ لأنه يميت القلب ويذهب بالهيبة والمروءة .

خامساً : يبدو سليمان عليه السلام على الرغم من عظمة ملكه ومعجزاته عبداً شكوراً كلُّ همه رضاء الله ، فهو يقول هو ووالده حين أوتيا العلم : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، وحين سمع كلام النملة : ﴿**رب أوزعنى ـ أى ألهمنى ـ أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين**﴾ وحين رأى العرش مستقراً بين يديه فى ثوان قال: ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ . إن فى سيرة سليمان عليه السلام لدرساً لأولى النعمة أن يقابلوها بالشكر ويتجنبوا البطر وغمط الحق . إن أصحاب النظر القصير هم الذين تبطرهم النعمة ، أما العقلاء فيعلمون أن الدنيا إلى فناء ، وأن الباقيات الصالحات خير عند الله فيكون همهم دائماً الفوز برضاء الله وجنته .

سادساً : فى القصة عدة نماذج أخلاقية ، فالهدهد فى منتهى الدأب والنشاط والصدق والأمانة ، وسليمان عليه السلام يتفقد رعيته حتى لم يغب عن فكره هدهد ، ثم هو يسأل عن سبب غيابه ويتوعده إن لم يكن غيابه بعذر ودليل ، ثم هو بعد عودته يصغى إليه حتى لا يصيبه بدون ذنب ، ويتحمل لهجته وهو يقول له : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن

سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ وأخيراً يمتحن صدقه فيرسل معه الكتاب .

سابعاً : كانت بلقيس ملكة سبأ ، ويبدو أن ذلك كان سارياً قبل رسول الله ﷺ: أن تعمل المرأة فى وظائف الدولة حتى تصبح ملكة ، لكن الإسلام لا يؤيد هذا، فقد روى البخارى أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن الفرس ولّوا أمرهم ابنة كسرى : « لن يفلح قومٌ ولوا أمرهم امرأة » . ومع أنه روى عن بعض الفقهاء المسلمين جواز أن تعمل المرأة قاضية ، فالصحيح والله أعلم : أن ذلك كله ممنوع ، وأن المسؤولية الكبرى للمرأة هى الإنجاب وتربية الأبناء .

ثامناً : فى سيرة بلقيس ما يدل على أنها كانت ذات عقل راجح ، فقد استشارت وأشارت برأى سديد جنب قومها ويلات حرب غير متكافئة ، ثم أرسلت هدية ، وأخيراً وفدت بنفسها على سليمان . ولما عرض عليها عرشها لم تندهش جدا لكنها قالت: ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ ، ويفسّر الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ هذه الآية : إنه يشبه عرشى ، ثم تردف قائلة: ولقد بلغنا علم نبوّتكم قبل هذه المعجزة وجئنا على نية الإسلام .

تاسعاً : فى القصة أن الله ـ جلّ جلاله ـ قد يمنح عبداً من عباده من العلم الإلهى العظيم ما يحقق به على يديه ما لا يتحقق بقوة عفاريت الجن ، فهذا الذى عنده علم من الكتاب أحضر العرش من اليمن إلى الشام فى ثوان ، بينما عرض عفريت الجن أن يأتى به فى بضع ساعات .

عاشراً : يجوز لمن أراد أن يتزوج امرأة أن ينظر إلى ساقيها . ويبدو أن سليمان عليه السلام كان يسمع أن بعض نساء العرب رجلاها كرجلى الماعز فى كثرة الشعر ؛ ولعله هو الذى دبّر موضوع دخولها الصرح لتكشف عن ساقيها فيتثبت من الأمر ، والله أعلم .

آيات الله على عباده تترى
والكفار يجحدون !

هذه آيات من سورة النمل إذا قرأها المؤمن فى تفكر وتدبر ، أحس أنه فى جوٍّ من الخشوع للإله الواحد المنعم المتفضّل ، وقد اشتملت كل آية منها على برهان يثبت وحدانية الله ـ جلّ جلاله ـ وتنزهه لا إله إلا هو عن الشريك والمثيل ، وجاء فى كل آية استفهام بلاغى يحدث فى القلوب تجاوباً ، فيرى القارئ نفسه وقد تحرك لسانه لاشعورياً يقول : سبحانك لا إله إلا أنت .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل : ٥٩ ـ ٦٦] .

أولاً : هذه الآيات هى خطبة مؤثرة تعتبرُ قمة فى الأسلوب الخطابى علمها ربنا ـ جل جلاله ـ نبيه محمداً ﷺ ليلقيها على المشركين ، وقد بدأها بحمد الله والسلام على رسله الكرام ، وكذا يجب أن تبدأ كلُّ خطبة

ذات شأن ؛ لأن كل أمر ذى بال إذا لم يبدأ بحمد الله فهو عندئذ أبتر .

ثانياً : من أهم خصائص الأسلوب الخطابى كثرة الأساليب الإنشائية ، كالاستفهام والأمر والنهى والتعجب والتمنى والترجى ، والآيات الكريمة المذكورة يسود أسلوبها الاستفهام ؛ وذلك لأن أسلوب الاستفهام البلاغى هو من أهم الأساليب التى تحدث التجاوب العاطفى بين المتكلم والمستمع، والجميل الرائع فى هذه الاستفهامات أنها تشتمل على روائع من آيات الله ومخلوقاته ، ومن آلائه ونعمه لا يمكن أن يجادل فيها مجادل ، وأن الحقائق التى تضمنتها الآيات بديهية يدرك جميع المشركين صدقها ولايستطيع مشرك أن يشك فى صحتها ، وقد أمطرت الآيات المشركين وابلا متتابعاً من الاستفهامات المتلاحقة ؛ لتذهلهم عن جدلهم وعن آلهتهم التى تبدو فى غاية الضعف والهزل ، أمام قدرة الله وعظمته وعلمه وكرمه وجبروته .

ثالثاً : أول استفهام بدأت به الخطبة الرائعة بعد حمد الله والسلام على أنبيائه هو قوله تعالى : ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ؟! وهو استفهام يحمل معنى التوبيخ للمشركين والتهكم بعقلياتهم حين اتخذوا مع الإله الذى خلق كل شىء ورزق كل حى وأبدع كل ما فطره ، آلهة لايخلقون شيئاً ولايملكون لأنفسهم نفعاً ولاضراً . وقد جاء هذا الاستفهام الذى أحرج المشركين ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فى مقدمة الخطبة ، فقرع أسماع المشركين بموازنة لانسبة بين طرفيها ، وبدت كأنها عنوان الخطبة ، فالآيات كلها موضوعها واحد ﴿ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

رابعاً : وقد حبكت الآيات الكريمات حبكاً عجيباً فى إطار الاستفهام البلاغى فهى تبدأ باستفهام متنوع وتنتهى باستفهام موحد عظيم البلاغة هو قوله

تعالى: ﴿ أَإِلَه مَّعَ اللَّه ﴾ ؟ إنه استفهام يحمل معنى الإنكار والتوبيخ للمشركين ، ثم هو يحرجهم ؛ لأنه ما من مشرك يعتقد أن صنمه أو معبوده قد اشترك فى خلق ذرة من مخلوقات . وهنا تؤزهم أسئلة محرجة تشخن ضمائرهم كيف يكون الله هو الخالق الوحيد ، ثم يعبد إله غيره لايخلق ؟ وكيف يكون الإله هو الرازق الوحيد ثم يشكر إله غيره لايرزق؟ وكيف يكون الله هو المنعم المتفضل الوحيد ثم يتقرب إلى غيره؟

خامساً : ومما يلفت النظر خواتيم الآيات الكريمات ، ففي قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّه ﴾ ذكر هنا آيتين واضحتين يشاهدهما الناس فى كل وقت هما : السموات والأرض ، ثم الحدائق والبساتين ذات الأشجار ، وهما برهانان على الوحدانية ، حاضران ساطعان في كل لحظة لاينكرهما إلا مكابر منحرف ؛ ولهذا جاءت الخاتمة ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُون ﴾ ، أى يميلون عن الحق رغم وضوحه وسطوعه . وبذلك جاءت الخاتمة ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُون ﴾ . ملابسة تماماً للكافر المعاند الذى يملأ نور الحقيقة عينيه ، فيأبى إلا أن يخبط فى ظلام الباطل ! وفى الآية التالية جاءت الخاتمة على نفس هذا النهج البلاغى ؛ إذ فيها ذكر الله ـ جلّ جلاله ـ عظمة خلق الأرض وبديع التناسق بين العناصر التى تثبتها ليسعى الناس فى أرجائها ويمشوا فى مناكبها وهى ذلول ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ . هذه أمور يدركها العلماء الذين يعلمون أثر الجبال والأنهار والبحار فى استقرار الأرض ، ومن ثم جاءت الخاتمة ﴿ أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ . إن هذه

الجبال والأنهار البحار تتفاوت فى كثافتها وعمقها ومقدار ضغطها على قيعانها ، ومن ثم فقد نشرها الله على سطح هذه الأرض فى توزيع حكيم لتظل الأرض قراراً ، أى مستقراً لبنى الإنسان يتجولون عليه فى سلامة وسهولة ومتعة .

ثم لما ذكر الله ـ جل جلاله ـ صنائع فضله من إجابة الدعاء ، وتفريج الكروب ، وكشف البلاء ، وتسخير الأرض للإنسان ليكون خليفة فيها ، ختمها بخاتمة فى أروع درجات التناسب البلاغى : ﴿ **أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾ . إن هذه النعم تتطلب من العباد أن يتذكروها ويتعرفوا بها ويشكروا المتفضل الذى ساقها، لكن الكافرين قليلا ما يتذكرون الجميل. وفى إعـراب ﴿ **قليلاً ما تذكرون** ﴾ إشكال خـفـيف ، وتبـدو (مـا) هنا وكأنها زائدة للتوكيد ، وتعرب قليلاً مفعولاً مطلقا نائباً عن المصدر ، والتقدير ﴿**قليلاً**﴾ تتذكرون .

سادساً : فى الآيات الأخيرة كان ختام الآيات لوناً من التحدى ، فبعد أن سطع الحق لكل ذى بصـر لم يبق إلا هذه المواجـهـة : ﴿ **تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ ، والخاتمة الأخيرة : ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ وهو أمر بلاغى يفيد التعجيز ، أما الآيتان الخاتمتان فقد كانتا بمثابة حكم صدر بعد حيثيات منطقية، فلقد جزم القرآن بعد الحقائق الساطعة بقوله تعالى : ﴿ **قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ** ﴾ . ومعنى الآية الكريمة : أن علم المشركين بالآخرة قـد تدارك، أى : تتـابع حـتى وقف عند حـد ، وهو حـد الجـهـل التـام بأمورها ؛ ولهذا فهم فى شك من البعث وعمى عن الحقيقة .

تسلية للرسول ﷺ وعزاء

هذه عشر آيات من سورة النمل جاءت فى أواخر السورة كلها تسلية لرسول الله ﷺ ، وقد وردت فيها ألوان من العزاء بأساليب رائعة متنوعة ، مما يجعلها سلوى لكل ذى دعوة شريفة ، يقابلها الناس بالأذى والسخرية والكنود .

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ * إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ * إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ * وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل : ٧٠ ـ ٨٢].

أولاً : موضوع الآيات هو الآية الأولى : ﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ إنها تعزية لرسول الله ﷺ ، وقد نزلت الآية حين أمعن كفار فى مكرهم بالدعوة ، حتى لقد شكلوا فرقة المستهزئين الذين

اقتسموا عقاب [١] مكة ليصدوا الناس عن دعوة محمد ﷺ، ولتكون جملة الاستهزاء منظمة وموزعة فى كل مكان . والضِيق والضَيق بمعنى: الحرج والهم .

ثانياً : كان رسول الله ﷺ يخوّف المشركين من عذاب الله ، فبدلاً من أن يخافوا من العذاب كانوا يستهزئون به ويستعجلونه ويطلبونه بألسنتهم ، ويقولون فى استبطاء وضجر واستبعاد : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟! ﴿**ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ**﴾ ومعنى الآية الثانية : قل لهم يا محمد ، قل لهؤلاء الذين يسألونك عن موعد العذاب فى استبعاد وتكذيب : عسى أن يكون هذا الذى تستعجلونه قد ردف لكم ، أى دنا منكم واقترب فهو على أبوابكم .

ثالثا : قوله تعالى:﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ أول أسلوب من أساليب التسلية ، ومعناه : أن هؤلاء الكفار لا يسيؤون إليك فقط إنما يسيؤون أيضاً إلى ربّهم المنعم المتفضل فيقابلون نعمه بالكفران ، خير الله عليهم نازلٌ وشرهم إلى ربهم صاعد ، يتحبب إليهم ويتقرب إليهم ربهم بالنعم والأفضال ويتمقتون إليه بالمعاصى والكفران . خلقهم فعبدوا غيره ، ورزقهم فشكروا سواه ! فلتكن لك من ربّك أسوة حسنة فى عفوه وحلمه وإمهاله وعدم تعجيله بالعذاب والانتقام .

---

(١) جمع عقبة .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أسلوب آخر من أساليب التسلية لرسول الله ﷺ ولجميع الدعاة إلى الخير ، يذكر الرسول الكريم بأن أعمال الكفار لاتخفى على الله ، فهو ـ جلّ جلاله ـ يعلم سرّهم وعلانيتهم ، ولايخفى عليه مكرهم ، وعنادهم ، ومن ثم فسكوته عن عذابهم ليس عن غفلة أو تهاون ، إنما لكل مهلك موعدٌ ، ولكل أمة أجل ، وليؤكد الله ـ جل جلاله ـ لرسوله إحاطته بالناس وأمورهم ، ذكّره بأن كل غائبة فى السموات والأرض ـ مما لا يبصره الناس ولايدرونه ـ هى مسجلة فى علم الله العظيم وفى لوحه المحفوظ ، فليطمئن الرسول الكريم بأن قريشاً لن تعجز ربها ولن تغالبه .

خامساً : ويأتى دور اليهود الذين أنكروا الحق وسكتوا على الكفر وأيدوا الكافرين، فيمضى القرآن الكريم فى أسلوب ثالث من أسلوب التسلية فيقول: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ .

روى أن اليهود كانوا يختلفون حول الكثير من الأحكام الواردة فى التوراة لكثرة ما حرفوا فيها وبدلوا ، فينزل القرآن بالحكم مؤيداً أولى العلم منهم فيحسم الخلاف . ومع علم اليهود العميق بصدق القرآن والرسالة المحمدية، فقد كفروا حسداً من عند أنفسهم ، ولاغرو فالقرآن إنما

يهتدى به من نور الله قلبه، وهيأه لقبول الحق ؛ لأنه هدى ورحمة للمؤمنين . وإذا كان ربك يمهل اليهود والمشركين إلى أجلهم حسب سنته التى لا تبدل ، فهو بهذا إنما يقضى بحكمه العادل الذى يصدر عن عزته القاهرة ، وعلمه الواسع العظيم : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ .

سادساً : ويأتى أسلوب آخر من أساليب التسلية الجميلة لرسول الله ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ * إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

آيات كريمات تثبت القلب وتحدد المسؤولية وتقول للرسول الكريم : ما دمت على الحق الساطع فكن على ثقة بتأييد الله ، واجعل توكلك عليه، ثم إنك لاتكلف إلا وسعك . وإن هؤلاء الكفار فى حكم الموتى فى جمود قلوبهم وغيبة إحساسهم ، وهم فى حكم الصم والعميان فى إغلاق حواسهم عن الحق. وإنسان مثلك يا محمد طاقاته بشرية فما يستطيع أن ينور عينى الأعمى ولا أن يسمع الأصم وبخاصة وهو مدبر ولايستطيع أن يسمع ميتاً ؛ لأن الميت قد تعطلت حواسه . وإذا قيل : إن محمداً ﷺ خاطب قتلى المشركين ببدر من أصحاب القليب ، فذلك إما أن يكون عظة للأحياء ، أو لأن الموتى يسمعون ما شاء الله لهم أن يسمعوه فقط ولايتعدون إلى غيره .

سابعاً : من أشراط الساعة التى لايقبل بعدها توبة ، خروج دابة من الأرض تخاطب الناس وتفضح الكفار ، وقد جاء فى شكل الدابة بضعة عشر قولاً كلها ضعيفة السند ، وجاء فى المكان الذى تظهر فيه أقوال كثيرة

منها أن الأرض تنشق عنها بين الركن والمقام ، وقال البعض : إن اسمها الجساسة ، وإن طولها ستون ذراعاً . والأفضل أن نلتزم ما ورد فى كتاب الله من أنها دابة من أشراط الساعة الحاسمة ، وأنها تكلم الناس وتفضح الكافرين ، فهم يخافونها لكنها تتعقبهم والله العالم بالصواب والهادى إليه .

مشهد مروع من مشاهد القيامة .. ودرس فى الثبات

هذه هى الآيات الكريمات التى ختم بها ربنا ـ جل جلاله ـ سورة النمل ، وهى تشتمل على مشهد مروّع من مشاهد القيامة حيث القضاء الحقّ والجزاء العادل ، وفى الآيات الثلاث الأخيرات درس فى الثبات العظيم يلقيه ربنا ـ عز وجل ـ على نبيه ليكون على طول المدى قدوة المجاهدين الأبرار .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ * وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ * مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل : ٨٧ ـ ٩٣] .

أولاً : الصور بوقٌ عظيم روى عن رسول الله ﷺ فى وصفه أن دارته ـ أى محيط فتحته المستديرة ـ كعرض السماء والأرض، والمسؤول عنه ملكٌ كريمٌ من ملائكة الله الأربعة الكبار، وحين يصدر أمر الله ـ جلّ جلاله ـ ينفخ فيه الملك الكريم نفختين: الأولى: يميتُ الله بها كل حيّ ، والثانية: يحيى الله بها كل ميت . وكلٌّ من نفختى الصور يصحبها فزعٌ أكبر يُذهل الناس عن أنفسهم ، ويبدو أن النفخة المذكورة هنا هى النفخة

الثانية التى تروّع الناس ؛ لكنها تشقق الأرض عنهم فينطلقون إلى ربهم سراعاً داخرين ، أى : أذلة خاضعين صاغرين: **﴿ ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين﴾** وقد أسلفت فى غير موضع أن فى الآية الكريمة إشارة لطيفة فى قوله تعالى : **﴿ إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين ﴾** من أولئك الذين لايفزعون من نفخة الصور ، ولايحزنهم الفزع الأكبر ؟ لقد ذكر الله ـ جلّ جلاله ـ أنهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى . وقد قيل : إنهم الشهداء تقوم عليهم القيامة وهم لابسو أسلحتهم حول عرش الرحمن فلا يموتون ولايفزعون؛ لأن الله ـ جل جلاله ـ حين رآهم جادوا بالنفوس فى سبيله ، والجود بالنفس أقصى غاية الجود ، كافأهم مكافأة تليق بكرمه كما تليق بتضحيتهم ، إذ أعطاهم بنفوسهم الفانية حياة باقية لاموت فيها أبداً . والفزع هو : الذُّعر المقترن بالحزن .

ثانياً : ويبدو أنّ القيامة يتغير فيها كل نظام الأرض وشكلها وجبالها وما يحيط بها من شمس وقمر ونجوم **﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ﴾** يكون المشهد فى القيامة مفزعاً حقاً تنظر فى السماء فلا ترى شمساً ولا قمراً ولانجوماً ، وترى البحار وهى تشتعل بانفجارات مروعة ، وترى الجبال وقد بست ، أى فتتت ونسفت وتحوّلت خفيفة كالهباء المنبث ، أو الصوف المنفوش ، تراها منطلقة فى سرعة عظيمة وأنت تحسبها لشدة سرعتها جامدة واقفة ، منظر تنخلع له القلوب **﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون﴾** ولقد ختم الآية بقوله : **﴿ إنه خبير بما تفعلون ﴾** لأن يوم القيامة هو يوم

حساب على الأعمال ، فيا لفضيحة المجرمين حين يعلمون يقيناً أن ما كانوا يسترونه من آثامهم يعلمه الله عن خبرة ودراية وإحاطة شاملة . قوله تعالى : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ نصبت ﴿صُنع﴾على أنها مصدر مفعول مطلق لفعل محذوف ، أو حالاً مؤولة بالمشتق والتقدير : تمر مصنوعة ... ثم لماذا يذكر الإتقان والسياق هنا سياق زلزال وصعق فى السموات والأرض ؟ والجواب : أنّ البعث والزلزلة وطمس الشمس والقمر والنجوم ، يتم أيضاً بإتقان ، وكما أتقن الله إضاءة الشمس والقمر والنجوم ، فهو يتقن إطفاءها ، وكما أتقن الإله القادر والقاهر إرساء الجبال ، فهو يتقن نسفها وتسييرها .

ثالثاً : ثم يأتى بعد ذلك مشهد الحساب العادل الذى لايغفل مثقال حبة من خردل من الخير ويعفو عن كثير من الخطايا والآثام . وأى عدل أعظم من مضاعفة الحسنات ، وعدم مضاعفة السيئات ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُون ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ أهل الحسنات لهم الحسنى وزيادة، حتى إن التمرة يربها ربنا بإخلاص صاحبها حتى تكون مثل أحد ، أما أهل الآثام والظلم والفواحش، فتهانُ كرامتهم كما أهانوا أنفسهم بالمعاصى ؛ ولهذا يبدأ فى العقوبة بوجوههم التى هى أشرف الجسد ، والمشهد مهين حقاً حينما يؤخذ المجرم فيكب فى النار كباً ، كأنه القمامة ثم يكون أول ما يكب وجهه ، وبينا هو يهوى فيها تقول له الملائكة فى استفهام يهيج حسرته : هل تجزى إلا بعملك ؟ وإذن فلا تلم إلا نفسك ، ولمثل هذا الموقف وهذا السؤال سمي يوم الحساب يوم الحسرة . قال الله تعالى فى سورة مريم : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ

الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُون ﴾ [مريم : ٣٩] .

رابعاً : وأخيراً يأمر الله رسوله أن يصدع فى كل مكان بدعوته ، ويعلن خلاصة لما أمره الله به ، وهذه الخلاصة أن يعبد رب البلد الحرام ، وإضافة البلد الحرام للرب المعبود تشريف لمكة ، وتليين لقلوب أهلها ؛ إذ هو يذكرهم بهذا بنعمة ربهم حيث حرّم حرمهم وجعله آمناً لايسفك فيه دم ، ولا يروع فيه صيد ، ولا يعضد له شجر ، ولايظلم فيه أحد ، ثم يعلن أنه أُمر أن يكون من المسلمين الذين أسلموا حياتهم ووجوههم ودنياهم وآخرتهم لله . ويعلن أيضاً أنه أمر بقراءة القرآن وتبليغه ، فمن اهتدى فقد أعتق نفسه، ومن ضل فما على الرسول إلا البلاغ والهدى بعد هذا هدى الله. ثم تأتى الآية الأخيرة التى تحققت نبوءتها كفلق الصبح وهى آية عظيمة البركة بدأت بحمد الله الذى سيظل يعرض على البشرية دلائل قدرته حتى تصل إلى معرفة ربها عن طريق آياته فى الآفاق والأنفس ثم كان مسك ختام السورة قوله تعالى : **﴿ومَارَبكَ بِغَافِلٍ عَما تَعمَلُونَ ﴾** وهى عبارة تجعل العقلاء فى مراقبة دائمة لله ، لا تغفل عن عبادته وطلب رضائه .

الله يتولى أنبياءه ورسله وعباده الصالحين .. ويهلك الظالمين المفسدين

سورة القصص من أمتع سور القرآن ؛ لأنها كما يبدو من اسمها قصص ممتع يروى لنا قصة واحدة تقريباً ، إنها قصة موسى عليه السلام من لدن ولادته إلى هلاك فرعون وقومه ، وتعتبر قصة قارون امتداداً لقصة موسى ؛ لأن قارون كان من قوم موسى بل لعله من أقاربه ، وسورة القصص من أواخر السور المكية، حتى إن إحدى آياتها الكريمة نزلت على الرسول ﷺ وهو بالجحفة ـ مكان رابغ ـ وهو مهاجر إلى المدينة المنورة ، وتبدأ سورة القصص بقوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **طسٓمٓ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [القصص : ١ ـ٣] حيث تعرض قصة نبى كريم أرسله الله إلى طاغية متكبر ، فكانت القصة معركة بين الإيمان ممثلاً فى موسى وهارون عليهما السلام ، وبين الكفر والظلم والطغيان ممثلة فى فرعون وقارون وهامان. أما خاتمة السورة فدرس إلهى لمحمد ﷺ صيغ فى ست آيات تعتبر من أعظم آيات الذكر الحكيم تأثيراً فى النفس ، وبلاغة فى الأسلوب، موضوعها ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا في الأرض ولافساداً والعاقبة للمتقين** ﴾ [القصص : ٨٣] . وبما أن قصة موسى وفرعون قد احتلت من أول السورة الكريمة أكثر من نصفها ؛ لهذا فإنى سأكتفى بتسجيل لقطات من أسرار بلاغتها وروعة إعجازها :

أولاً : قوله تعالى فى مقدمة السورة : ﴿ **نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ الآية الكريمة خبرية غرضها التشويق ، كقولك حين تريد أن تقص قصة : سأحكى لكم حكاية طريفة ، وقوله تعالى : ﴿ **من نبأ موسى وفرعون** ﴾ يعنى : لقطة من حياة موسى وفرعون ؛ لأن بقية

القصة وردت فى سور أخرى ، وفى قوله تعالى : ﴿ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ عاملان آخران للتشويق ولفت الأنظار، أولهما : كلمة ﴿ بالحق ﴾ أى بغاية الصدق الذى لا ريب فيه ، والثانى : ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لكى يصغى كل من يريد أن يتشرف بلقب مؤمن ؛ وبذلك كانت هذه الآية الكريمة قمة فى التشويق وتهيئة الذهن .

ثانياً : روي أن كاهناً منجماً أخبر فرعون أنه سيولد فى بنى إسرائيل مولود يكون قتل فرعون على يديه ، فأمر بأن يذبح كلٌ مولود من بنى إسرائيل ، ووكل بذلك قابلات وعين عيوناً ثم خاف أن ينقرض نسلهم فجعل الأمر عاماً بعد عام ، وكان إذا ولد مولود أخذته القابلة ثم دعت ذبّاحاً ليذبحه أمام أمه ثم يسلم إليها لتدفنه ، فولد هارون فى سنة السلامة وولد موسى بعده بسنه فى سنة الذبح . وكان ربك قادراً أن يجعل ولادة موسى فى سنة سلامة ، لكنه التحدى الذى يثبت عجز البشر ؛ إذ جعل ولادة موسى فى سنة الذبح وجعل تربيته فى بيت فرعون وجعل فرعون يربيه فى بيته ، ويتبناه حتى لقد كان الناس يسمونه موسى ابن فرعون .

ثالثاً : من أعجب آيات القرآن الكريم وأبلغها هذه الآيات الحاشدة بالغرائب : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص : ٧] آية فى قمة الإيجاز البليغ اشتملت على أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين. ومعنى ﴿أَوْحَيْنَا﴾ ألهمنا أم موسى أو كلمها ملك دون أن تكون نبية . ومن الأساليب المعجبة قوله تعالى : ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ إن الإلقاء فى اليم معناه : الهلاك المحقق ، أما هنا فهو سبيل للنجاة وطمأنينة النفس ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ كونى مطمئنة وانبذى الحزن ، فإنه ليس فقط سيعود إليك إنما سيعود وسيكون رسولاً . ولعظم إيمانها

استجابت حالاً فصنعت تابوتاً من البردى ، وقيرته ـ أى طلته بالقار ـ حتى لاينفذ منه الماء، ووضعت موسى فى التابوت وتسللت ليلاً فألقت به فى النيل ، ويبدو أن الله الذى صنع موسى على عينه ألهم القابلة أن تتغاضى عن قتل موسى لما رأت من نور فى وجهه .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص : ٨] تعبير فيه استعارة غريبة يسمى الاستعارة بالحرف . إن لام التعليل : ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً وَحَزَنًا ﴾ لم تستعمل فى معناها القاموسى وإنما فى معناه المجازى .

لقد التقطه آل فرعون ليكون لهم ولداً حتى لقد همت من الأسى أن تصيح: وا ولداه فتفضح الأمر ، لكن الله ربط على قلبها وثبتها لتكتب فى من آمن بالله وبوعد الله ، فكانت النتيجة أن كان عدواً وحزناً لفرعون وللكافرين ، والتعبير شائع فى كلام العرب كقولك : صادقنا فلانا لنتورط فى مشكلاته ، نعم لم يكن لفرعون ولآسيا امرأته ولد ، فلما رأيا وجه موسى أُخذا بنوره وجماله ، والله مقلب القلوب ، فقد ألان قلب فرعون ، فوافق على رأى آسيا ـ رضى الله عنها ـ وشاء الله أن ترى أم موسى وعد الله حقاً كالشمس فى الضحى .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ [القصص : ١٠] الفؤاد فى لغة العرب هو العقل ، والمعنى : أصبحت أم موسى وعقلها فى الغم والحزن والخوف هواءً طائراً، إنها عاطفة الأمومة . لقد كان قلبها متأكداً من وعد الله ؛ لأنها مؤمنة ، لكن للوالدة عاطفة حين تنطلق تفعل الأعاجيب . وهنا قالت لأخته : تحسسى خبره وقصى وراءه ، فأبصرت أخت موسى جنود فرعون يحملونه إلى آسيا ؛ رأتهم عن جنب، أى من جنب لم يروها فيه . ولما استقر رأى آسيا وفرعون على اتخاذه ولداً رفض

المراضع وأبى أن يلتقم أى ثدى ، فكان ذلك سبباً فى رجوعه إلى أمه حيث التقم ثديها فى نهم واتفق فرعون معها أن يدفع لها كل يوم ديناراً، وبذلك تحقق لأم موسى بإيمانها وصبرها أجرة مجزئة فى الدنيا ، وأجر فى الآخرة .

سادساً : لقد قتل موسى رجلاً قبطياً أراد أن يسخّر رجلاً إسرائيلياً وقد وكزه ليحجزه دون أن ينوى قتله وبذلك كان قتلاً خطأ ، والقتل الخطأ ليس من الكبائر؛ ولهذا عرف موسى طريق المغفرة بالاستغفار فغفر له ربه . وألهمه أن يهرب إلى مدين لتتوفر أسباب القضاء الحكيم .

سابعاً : فى قصة موسى مع ابنتى شعيب طائفة من المثل العليا فقد رآهما موسى تذودان غنمهما أى تبعدانها عن الماء ، ورأى الناس يسقون فسألهما نجدة منه وعطفاً ومروءة سؤالاً من كلمتين : ﴿ **ما خَطْبُكُمَا** ﴾ ؟ فأجابتا فى غاية الإيجاز: ﴿ **لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير** ﴾ كانتا مؤدبتين لاتحبان المزاحمة والدخول فى الرجال وكانت إجابتهما لاتحتمل التزيد، ولا غرو ، فهما تربية بيت النبوة، ومن أدب موسى أنه سقى لهما ولم يكلمهما كلمة واحدة ، ومع أنه زاحم وتعب واستخدم قوته ، فإنه لم يعرِّض لهما بجوعه أو يطلب أجراً ولم ينظر إليهما ، لكنه تولى إلى شجرة ليطلب قوته، من الله ، ولما عادت الأختان مبكرتين تعجب أبوهما شعيب عليه السلام ، فأخبرتاه بقصة ذلك الشاب الشهم وكيف سقى لهما ، وبينما موسى يعانى الجوع تحت الشجرة جاءته إحداهما تغطى وجهها بكمها وخاطبته فى حياء وإيجاز : ﴿ **إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾ [القصص : ٢٥] علم شعيب نبوة موسى ، وزوجه إحدى بنتيه على أن يأجره ثمانى حجج أو عشر سنين ، فرجع موسى بعدها إلى بلده ، وتجلى عليه ربه فى طور سيناء .

القرآن من عند الله
والنبى ﷺ لا يعلم الغيب

هذه الآيات المباركات من سورة القصص جاءت تعليقاً على قصة موسى ، وهو تعليق يثبت به ربنا ـ جلّ جلاله ـ أن هذا القرآن هو من عند الله ، وأن محمداً ﷺ كان غافلاً قبل نبوته عن هذه الأخبار كلها ، وأن الذى نبأه بتلك الدقائق من قصص الأنبياء ، إنما هو ربه ـ جلّ جلاله ـ هذا المعنى ورد فى قصة مريم ـ رضى الله عنها ـ وفى قصة يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، ففى التعليق على قصة مريم فى سورة آل عمران يقول ربنا جل جلاله : ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ** ﴾ [آل عمران : ٤٤] ومعنى الآية : إن ما نوحيه إليك من قصص الأنبياء هو أخبار الغيب التى لم تكن تعلمها أنت ولا قومك ، فأنت ماكنت حاضراً عندما ولدت امرأة عمران ابنتها مريم ، فعطف عليها قلوب أوليائها ، حتى إنهم ليجرون القرعة بأسهمهم أيهم يكفل مريم ويختصمون من أجل ذلك . وفى سورة يوسف يقول ربنا لمحمد ﷺ : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ** ﴾ [يوسف : ٢] ويقول فى أواخرها : ﴿**ذلك من أبناء الغيب نوحيه إليك وماكنت لديهم** ـ أى لدى إخوة يوسف ـ **إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** ﴾ [يوسف : ١٠٢] ولنعد بعد هذا الاستطراد إلى آيات سورة القصص.

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ**

ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : ٤٤ ـ ٥٠].

أولاً : قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ . معنى هذه الآيات الكريمات : حين قضينا إلى موسى أمرنا ، أى أمرناه بتكاليف النبوة ، وحملناه أمانة تبليغ الرسالة ، لم تكن أنت حاضراً بجانب الجبل الغربى من طور سيناء ، ولا كنت شاهداً تشاهد ما دار بيننا وبين موسى . ولقد مرت قرون وأزمان بعد ذلك الحدث العظيم ، فتطاول العمر على تلك القرون ونسيت كثيراً من كتاب موسى الذى اشتمل على بشارة محمد ونبوته . ثم إنك لم تكن فى مدين حين كان موسى هناك أجيراً عند نبى الله شعيب ، لكننا حين أرسلناك وأنزلنا عليك القرآن علمت ما لم تكن تعلم ، ولم تكن يا محمد بجانب طور سيناء إذ نادينا موسى : ﴿ **اذهب إلى فرعون إنه طغى**﴾ [النازعات : ١٧] نعم لم تكن يامحمد حاضراً شيئاً من ذلك

لكننا أوحينا هذه الأخبار كلها إليك فى قرآننا لتكون رحمة ونذيراً للناس كافة وللعرب خاصة ، أولئك الذين لم نبعث فيهم من قبلك رسولاً منهم حتى كنت أنت ذلك النبى الذى ينذرهم لعلهم يتذكرون رسالة الله ويعملون بها . نعم إن من أكبر البراهين على أن القرآن هو من عند الله أن أخباره وقصصه ، ووقائع القرون الأولى لم تكن معروفة ولامعلومة لدى محمد وقومه .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فى هذه الآية جواب الشرط محذوف وتقديره : ﴿ ما أرسلناك إليهم ﴾ ، ويكون المعنى: لقد أرسلناك يامحمد لهؤلاء الناس حتى لاتكون لهم حجة على الله ، إذا سقنا إليهم العذاب بذنوبهم فيقولوا : هلا أرسلت إلينا ياربنا رسولاً ينذرنا عذابك فنتبع ما جاء به ونكون من المؤمنين ، ومن ثم ننجو من العقاب؟! وهذا المعنى أثبته ربنا تبارك وتعالى فى آية أخرى من نفس هذه السورة سورة القصص في قوله ـ جل جلاله ـ : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾ معناه : فلما بعثنا محمداً بالحق وأقمنا عليهم بنبوته الحجة ، قالوا : لماذا لم يؤيد بمعجزات كالتى أعطيها موسى كالعصا واليد والسبع الأخر من الآيات التسع ؟! وهنا يفحمهم الحق ـ جل جلاله ـ باستفهام تقريرى : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾؟! جاء فى مناسبة هذه الآيات : أن قريشاً حين بعث فيهم رسول الله ﷺ

أرسلوا إلى اليهود يستشيرونهم بوصفهم أهل علم وكتاب عن نبوة محمد. فقال لهم بعض اليهود : اطلبوا من محمد معجزات كتلك الآيات التى أوتيها موسى ، وقال لهم أولو العلم الراسخ من اليهود : إن نبوة محمد ثابتة عندنا فى التوراة وهذا أوانها ، فلما رجعوا إلى قريش أخبروهم بما كان من أجوبة اليهود . فقالت قريش : إن علماء اليهود سحرة وقد تعاون سحران علينا ليصدونا عن آلهتنا ، واتبعت قريش نصيحة اليهود الآخرين الذين نصحوهم أن يطلبوا من محمد آيات ومعجزات كمعجزات موسى، وهنا يدفعهم الله بمنطق فى غاية الإقناع : هؤلاء اليهود الذين نصحوكم أن تطلبوا منى معجزات كمعجزات موسى ، ألم يكفر هؤلاء وآباؤهم بكل معجزات موسى ؟ وإذن فإن هذ الطلب ماهو إلا تنطع ، وجميع معجزات موسى لاتساوى المعجزة العظمى التى جاءكم بها محمد ، إلا وهى : هذا القرآن المعجز ، الهادى إلى صراط مستقيم.

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ معنى الآيات : إذا لم يستجب كفار مكة لإقناعك فقل لهم : إذا كان هذا القرآن العظيم وما فيه من ذكر حكيم لم يقنعكم للرجوع إلى الحق، وإذا كانت التوراة وما فيها من تبشير بنبوة محمد لم تقنعكم فأتونى بكتاب أعظم هدى وهدياً ، وأروع لهجة وحكمة من القرآن والتوراة لكى أتبعه إن كان فعلاً أهدى منهما . فإذا ظلوا بعد ذلك على كفرهم ، فاعلم أنهم طمسوا العقول واتبعوا أهواءهم ، والهوى يردى صاحبه ويضله ، ومن أظلم من سار وراء هواه ، ورفض منطق عقله ، ولجأ إلى الغوغائية

التى تستغل العواطف الرعناء . نعم لا أحد أضل من هذا النموذج من الناس : ﴿ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾. اللهم أحينا على الحق ، وأمتنا على الحق ، وجنبنا نزوات النفــوس ، وتبلد الرؤوس ، ونور بصــائرنا بنور الإيمان ، وأحى ضمائرنا بهدى القرآن .

الله لا يهلك إلا الأمم المتبطرة الظالمة

هذه أربع آيات من سورة القصص يوحى إلىّ تفسيرها بكثير مما يكتنف أحوالنا فى هذه الأيام .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ * وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص : ٥٧ ـ ٦٠].

أولاً : الجو الذى كان يعيشه أهل مكة قبيل بعثة محمد ﷺ كان إلى حد يشبه جو العرب فى هذه الأيام . كانت قوافل قريش تجوب الشام واليمن فى رحلتى الشتاء والصيف ، لا يقترب من حماها لص ولا قاطع طريق ؛ ذلك لأنها قوافل قريش سدنة بيت الله وخدام وفوده ، أهل السقاية والعمارة والرفادة ، كان لقريش فى كل حين طبول مبتهجة تزف القوافل العائدة وتعلن عن أصناف بضائعها المترفة . لقد آلفهم الله رحلة الشتاء والصيف وشرفهم بخدمة الحجيج ، وبذلك أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، وقد جاء وصف مكة المكرمة فى القرآن الكريم قرية آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان . هذه الحال تشبه إلى حد كبير ما عليه كثير من العرب فى هذه الأيام وبخاصة دول الخليج العربية ، من

مال وأمن ورخاء وعمران ورغد ما تصوروه فى أحلامهم ، خصوصاً وأن هذه الرخاء قد جاء بعد مجاعات عاشها الجيل الماضى من آبائنا حين أكلوا أوراق الشجر ، وكان من غذائهم الضّباب واليرابيع والهبيد والجراد.

ثانياً : إن حالاً من هذا القبيل تفتح فيها أبواب الأرزاق والبركات على مصاريعها ، تورث الشعوب أحد أمرين : إما شكراً على النعمة وأداء لحقها وقياماً بمطالبها من الدأب والنشاط ، وأما بطراً للمعيشة وكنوداً لحق النعمة وكسلاً واسترخاء فى ظلال الترف الرخيص والنعومة المتأنثة ، والذى يبدو من سلوك قريش مع دعوة الإصلاح العظمى : أنهم كانوا من الصنف الثانى ، يبدو ذلك مما شاع فى كبرائهم من غمط للحق واستعلاء على الضعفاء ، وعمى عن أنوار الإيمان حين أنفقوا أموالهم فى سخاء ليصدوا عن سبيل الله ، حتى لقد ردوا الأعشى عن الإسلام بمائة ناقة ، وخصصوا مائة ناقة لمن يقبض على محمد وصاحبه غداة الهجرة .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جاء فى مناسبة هذه الآية الكريمة : أن مشركى قريش قالوا لرسول الله ﷺ : إذا نحن آمنا بك واتبعناك تألبت علينا قبائل العرب ورمتنا عن قوس واحدة ؛ لأنهم سوف يظلون متمسكين بأصنامهم . وقد أرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ رجلاً من بنى عبد مناف اسمه الحرث بن عثمان بن نوفل يقول له : إنا لنعلم أن قولك حق ولكن الذى يمنعنا أن نؤمن بك ونتبع الهدى معك خوفنا أن يتخطفنا العرب من أرضنا لاجتماعهم على مخالفتك ، ونحن لا طاقة لنا بهم وهنا فى الآية الكريمة يذكرهم ربهم بأن الله ـ جل جلاله ـ رزقهم ببركة الحرم فى

جاهليتهم وجعل الحرم أمناً لكل خائف ، وجعل مكة مثابة لكل الناس ، وبارك فى تلك الأماكن المقدسة ، حتى إن جميع الخيرات من جميع البلاد تجبى إليه ، ومعنى تجبى : تجمع وتوجه إلى مكة ومنه الجابية التى يجمع فيها الماء ، وجمع جابيه جوابى ومن ذلك قوله تعالى فى أوعية الطعام التى كان يصنعها الجن لسليمان ﴿ **وجفان كالجواب وقدور راسيات** ﴾ فإذا كان الله ـ جل جلاله ـ رزقكم وأمنكم فى مكة وأنتم مشركون ، فكيف لا يرزقكم إذا أصبحتم مؤمنين؟! وهنا أرى من المناسب أن أشير إلى أن جواب قريش هذا يقوله العرب فى هذه الأيام إذا طلبت منهم الجهاد ، قالوا لك : إن دول الشرق والغرب مجمعة على نصرة اليهود ، فهل نستطيع أن نقاتل روسيا ، وأمريكا ، وأوروبا ؟ وهو كلام غوغائى لا سبب له إلا أن الأمة أصبحت غثاء كغثاء السيل ، وأصبح كل همها حب الدنيا والخوف من الموت ، وبهذا ألقى الله فى قلوبها الوهن . إن هنالك عاملاً ضخماً للنصر غفلنا عنه وهو أن النصر من عند الله ينزله بحكمة على من ينصره ، وهذا العامل غفلنا عنه فى عدة حروب ، فكانت هزائمنا نفسية وأخلاقية أكثر من كونها عسكرية ، لقد كان عددنا وعتادنا ملء الميدان لكن الذى أردانا كان غياب الإيمان!!

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا من قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِين** ﴾ هذا تهديد لأهل مكة ، لكنه تهديد لكل ديار تقابل النعمة بالبطر . والبطر عرفه رسول الله ﷺ بأنه «غمط الحق» ؛ إنه مقابلة النعمة بالظلم ونسيان الأخلاق ، والبطر هو الذى يقابل النعمة بالطغيان بدلاً من الشكران ، ومن ثم فقد كان رسول الله ﷺ يخاف على أمته من النعمة أكثر مما يخاف عليهم من

الفقر ، فقد جاء عنه ﷺ أنه قال: « والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا كما فتحت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها » ، وهنا يذكر الأمة الإسلامية بأن عاقبة البطر هى الهلاك ، وتعرب ﴿كم ﴾ الخبرية هنا مفعولاً به للفعل ﴿ أَهلَكْنا ﴾ ويكون المعنى : لقد أهلكنا كثيراً من القرى التى طغت ، وقابلت النعمة بالكفران، وهذه مساكنهم ترونها فى طريقكم لايسكنها إلا مسافر أو مضطر ، والله ـ جل جلاله ـ هو الذى يرث كل ما على الأرض .

خامساً : الآيتان الأخيرتان ؛ أولاهما توضح عدالة الله جل جلاله ، فهو لا يهلك قرية إلا بعد أن يرسل إليها رسولا ينذرها ويعلمها ويتلو عليها كتاب الله . ومن سننه ـ جل جلاله ـ ألا يهلك إلا الظالمين ، ولا غرو فقد حرم على نفسه الظلم كما حرمه على عباده ، وكتب على نفسه الرحمة ليتراحم عباده ، أما الآية الخاتمة فهى ذكرى لبنى الإنسان : أن متاع الحياة الدنيا مهما بلغ مداه واتسع بهرجه فهو إلى زوال ، أما ما عند الله جل جلاله فهو الباقى ، والعقلاء لا يمكن أن يشتروا فانياً بباق، ومن ثم ختم الآية بقوله : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ . إن العرب عامة فى هذه الأيام وأهل الخليج خاصة ، مطالبون أن يصونوا النعمة بالشكر ، وألا تلهيهم النعمة عن التضحية فى سبيل الله ، وأن يتجنبوا الترف المبطر، وأن يتخذوا من المال عوناً على طاعة ربهم ليديمها نعمة ويحفظها من الزوال، وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ . وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون**﴾.

آيات تؤدب النفوس وتوقظ الضمائر

هذه ست آيات من سورة القصص هى من خير ما تؤدب به النفوس ، وتوقظ به الضمائر ، الثلاث الأولى : تحيى القلوب بذكر الحساب ، والثلاث الأخرى : توقظ الضمائر بمعرفة الله .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ * فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ * وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٦٥ ـ ٧٠] سبحان من هذا كلامه .

أولاً : إذا عرض الناس فى القيامة أصبحت أسرارهم علانية ، وبرزوا لله لا تخفى منهم خافية ، هنالك تبلى السرائر ، ويحصّل ما فى الصدور ، وتقوم الشهود والأشهاد من كل جانب تشهد على المرء ، تشهد عليه الملائكة والرسل ، بل ويشهد عليه جلده ويداه ورجلاه ، وما تلك الشهادات إلا إقامة حجة ، وإلا فالقاضى الأعظم نفسه ـ لا إله إلا هو ـ خير الشاهدين . لقد كان الإنسان لجهله يقترف ما يقترف ، ويتستر ويستخفى من الله وهو معه أقرب إليه من حبل الوريد، ومع هذه البينات والإثباتات كلها ، ينادى الله الكافرين من أهل الغطرسة والعناد يناديهم : يا ويلهم حين يصك السؤال مسامعهم : ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ؟ ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ماذا يقولون ؟ وبم يجيبون ؟ وقد سمع الله ـ جل جلاله ـ إجابتهم ، أليس هو السميع البصير يسمع نبض

النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ؟! ولأنهم علموا أن الله نفسه ـ جل جلاله ـ قد سمع إجابتهم لرسله ، هنالك يخرسون ، وتعمى حججهم ، ولهول الموقف لا يسأل أى منهم صاحبه عن الجواب.

ثانياً : أن قوله تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاء ﴾ تعبير معجب معجز حقاً ، ألفاظ ترسم صورة لذلك الجو الذى يكتنفهم مليئاً بالاضطراب والذهول والظلام . إن الأنباء عادة تنور الحقائق وتجمع المعلومات ، أما هؤلاء فأنباؤهم نفسها عمياء كما لو هزم جيش ، وتشتت شمله فما يدرى حابله نابله ، هنالك تتضارب حوله الأنباء ، حتى تعمى فلا تبصر الحقائق ولا تبصر بها ، وفى الموقف بين يدى الله تعالى ، تعمى نفس حججهم فتنطمس فى ظلام الخزى والخوف ، وإذ ذاك لا يتساءلون ؛ لأن التساؤل يتطلب حضور الفكر وهؤلاء انقطعوا أمام سؤال الله وهو يدوى : ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ؟.

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ عسى فى كلام العبد فعل رجاء لكنها فى كلام الله فعل وجوب ، وهذه الآية تأتى فى ظلام الخوف نوراً يمزق حجب الظلام ، نعم هنالك فى وسط الهوى والظلام قوم يكتنفهم نور يؤنس الطريق ويزيل الوحشة يتفحصهم المشركون فيعرفونهم ، لقد كانوا أهل عناد ، مثلهم فى أول الأمر ، لكنهم تابوا عن العناد ، والكفران ، وآمنوا بالله حق الإيمان ، واتبعوا إيمانهم بالإحسان ، وعندئذ استحقوا أن يطمئنهم ربهم بقوله : ﴿ فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ إن كلمة عسى إذا صدرت من عظيم من عظماء الدنيا تعتبر للوجوب ، فلو أن ملكاً من ملوك الدنيا قال لك : عسى أن نساعدك ، كان معناه شبه وجوب ؛ لأن

رجاء الملوك يغلب أن يتحقق ، فما بالكم برجاء ملك الملوك سبحانه وتعالى ؟!.

رابعاً : قوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُون ﴾ قيل في مناسبة الآية : إنها رد على بعض زعماء قريش ، ومنهم الوليد بن المغيرة ، وكان معتداً بنفسه : ألم يجد ربنا غير محمد ليرسله لولا أرسل أحد العظماء البارزين مثلي أو مثل عروة بن مسعود الثقفي ؟! وهنا يرد ـ جل جلاله ـ بقوله : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةَ﴾ ، ومعناها : إن الله ـ جل جلاله ـ يخلق الخلق كما يشاء ويختار من رسله من يشاء والعبد لا اختيار له في مثل هذه الأمور العظيمة ، إنها من شأن الله ـ جل جلاله ـ سبحان الله وتعالى عن كل شريك ، وتشتمل هذه الآية على أدب يتأدب به المؤمنون، وهو أن يعتقدوا بأن الله ـ جل جلاله ـ لا يختار إلا الخير ، ومن ثم فهم دائماً يطلبون منه الخيرة ، وقد كان رسول الله ﷺ يصلي صلاة الاستخارة إذا هم بأمر ذي شأن ، وكان يعلّم أصحابه ـ حسب رواية البخاري ـ الاستخارة في كل شيء ، وكيفية الاستخارة أن يركع العبد ركعتين نافلة لله جل جلاله يقرأ في الركعة الأولى سورة ﴿ الكافرون ﴾، وفي الثانية ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، وقال بعض الأشياخ : بل يقرأ في الأولى آية القصص : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُون ﴾ وفي الثانية آية الأحزاب ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضي الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ثم يدعو إما بعد السلام ، وإما في رفعه من ركوع الثانية بهذا المأثور : « اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ،

فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه ، اللهم وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى فاصرفه عنى ، واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به » ، ثم ينظر بعدئذ ما يكون من التسهيل وبشاشة القلب ، وبعد هذا الاستعراض العظيم لقدرة الله وجلاله ، وهوان الكافر وإذلاله جاء ختام الآيات قولاً جامعاً ، أسأل الله أن يجعله آخر كلامنا من الدنيا ﴿وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

عاقبة الغنى المتبطر .. الهلاك والخسف

هذه قصة قارون جاءت فى سبع آيات كريمات من سورة القصص تبين عاقبة كل غنى يقابل النعمة بالبطر ، بدلاً من أن يقابلها بالشكر ، وقد سبق أن حكى القرآن فى مطلع سورة القصص عاقبة من أبطرهم السلطان ، من أمثال فرعون ، وهامان ، وها هو ذا هنا يروى لنا عاقبة من أبطرة المال .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [القصص : ٧٦ ـ ٨٢].

أولاً : قارون كما تنطق الآية الكريمة : كان من قوم موسى ، وقال المفسرون : إنه كان ابن عمه يتآمر ، وقالوا : كان قارون خال موسى ، والمهم أنه كان من بنى إسرائيل ؛ لكنه كان كما روى مؤذياً لرسول الله موسى ، وكان يتآمر عليه ، وفى الآية ما يوحى أنه كان ظالماً لقومه ، ويبدو أنه ما

جـمع تلك الثـروة الطائلة إلا من طمع مُرِدٍ ؛ وأكل لأمـوال الناس بالباطل، وغمط لحقوق العباد حتى اجتمع له كنوز اختزنها فى خزائن حديدية ذات مفاتيح قوية ، وكانت تلك الخزائن من الكثرة بحيث إن مفاتيحها فقط كانت تحتاج إلى عصبة من الرجال الأقوياء لينوءوا بحملها . وقد اختلف فى العصبة كم عددها ؟ وأصح الأقوال أنها بين الثلاثة والعشرة، وقد كان إخوة يوسف عليه السلام عشرة فقالوا : ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ .

وكان على ما يبدو فى قوم قارون جماعة من أولى العلم والإخلاص فنصحوه نصيحة جامعة رائعة ﴿ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ومعنى ﴿لا تفرح ﴾ : ألا يستبد بك الفرح بالنعمة فيوصلك إلى البطر والغطرسة والظلم . ومعني قوله تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ اطلب بمالك جنة الله ورضوانه ، ولا تنس أن تنال نصيبك من فرص الدنيا التى تتيح لك المتع الحلال، والأعمال الصالحة ، إنها نصيحة وددت لو أن أغنياءنا كتبوها فى بيوتهم ، ونقشوها فى قلوبهم ؛ لأن من عمل بها فقد سلم من آفات الغنى، وما ظنك بغنى موفق يطلب بماله الآخرة ولا ينسى نصيبه من المتع المباحة ، والأعمال الصالحة ، ويحسن كما أحسن الله إليه ، ثم إنه قبل ذلك وبعده ، لا تستفزه النعمة إلى فرحة تنسيه التواضع والعدل والحق ، وتخرجه إلى الكبرياء والطغيان والظلم !

ثانياً : يبدو أن قارون هذا كان فى أسلوب حياته متبجحاً معجباً بنفسه ومهارته ، يبدو ذلك من إجابته لعلماء قومه وصلحائهم : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ

عِلْمٍ عِنـدِي ﴾ يعنى : لقـد جـاء لى هذا المال بسـبب ذكـائى وعلمى ومعرفتى بوسائل جمع المال، وبهذه الإجابة تحول كافراً لإنكاره أن الله ـ جل جلاله ـ هو واهب النعم ، وأن جميع جهود العباد ومساعيهم ما هى إلا أسباب يأخذون بها ، ثم يجرى القضاء بعدئذ بالمشيئة الإلهية ، فلا يجد العبد أمامه إلا أن يقول : قدر الله وما شاء فعل ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الـــلَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ فى الآية الكريمة استفهام توبيخ وتهديد وتقرير ، نعم ؛ لقد غفل هذا الأحمق عن مصير جميع الطواغيت من قبله ، أولئك الذين جاءهم أمر الله بالهلاك فباغتهم دون أن يترك لهم مجالاً للاعتذار، ولا غرو فإذا جاء أمر الله بهلاك مجرم ، فاجأة الهلاك دون أن يسأل عن ذنبه ، أو يعطى فرصة للاحتجاج .

ثالثاً : حين بلغ قارون أوج نعمته ، وأتم بناء قصره أقام موكباً عظيماً بمناسبة افتتاح القصر ، فحمل خزائنه على بغال يسوقها الخدم ، ومشى هو يحيط به الحشم ، لبس من الحلى ما لا عهد لعقول الناس به ، وهنا حقت عليه سنة الله التى ذكرها ربنا فى سورة الأنعام سنته فى كل من ينسى الذكر والدين ، ويركن إلى متاع الغرور : ﴿ **فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتي إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ﴾ [الأنعام : ٤٤] الحمد لله الذى يأخذ الظالم ؛ لأن هذا الأخذ عدل مطلق ، وحكمة بالغة ، نعم ، الحمد لله معطياً وآخذاً ، والحمد لله معافيا ًومبتلياً ؛ لأنه فى كل شأنه نبع العدالة والحكمة ، وهنا جاء دور قارون لتحل عليه سنة الله فى الذين خلوا من قبل . لقد مر موكب قارون على بنى إسرائيل، فانقسموا إزاءه قسمين : قسم من أهل السطحية

دهشوا

والاغترار بالمظهر والبهرج، وهؤلاء شدهوا بمنظر الأبهة وقالوا : ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُون ﴾ ، وقسم ممن أوتى العلم والإيمان ، وهؤلاء لم يروا فى كل هذه المظاهر إلاحطاماً زائلا ، وأنها ليست شيئاً إذا قيست بثواب الله الذى يرفل فيه المؤمنون أبداً ، وهذه المنزلة من أولى العلم لا يطيقها إلا عظماء الناس ﴿ وَلا يلَقاهَا إلا الصَّابِرُون ﴾ .

رابعاً : حين دخل قارون بيته ورتب كنوزه وأخذ مجلسه ، جاءه أمر الله فانشقت الأرض وابتلعت القصر ، وانتهى المال والزخرف فى لحظة ، وهنا سطع قول أهل العلم وندم أهل الجهل على ما تمنوه ، إذ لو تحققت أمنياتهم القاصرة لكانت خسفاً . وحين شاهدوا هول العذاب صاحوا مستعملين كلمة : « وى » مرتين وهى كلمة للذهول والتعجب ﴿ **ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون** ﴾ .

اللهم ارزقنا ثواب المؤمنين ، وجنبنا مصارع الظالمين .

العاقبة للمتقين .. ووصايا لسيد المرسلين

إن خواتيم السور القرآنية تأتى عدة خلاصات شافية لأحداث السور ، وأوامرها ، وأحكامها ؛ ولهذا تجدها فى ذروة البلاغة روعة وإيجازا وتأثيراً ، وهذا هو ما يسمى فى البديع : حسن الختام ، ومعناه : أن يختم الكلام بعبارة أو عبارات تكون من القوة بحيث تهز المشاعر وتترك فى النفوس أثراً يدوم مدة طويلة بعد انتهاء الخطبة أو القصيدة أو المقال ، وهذه الآيات الكريمات التى ختم الله بها سورة القصص هى أعظم النماذج البلاغية لحسن الختام ، وأشهد ما قرأتها إلا وجدت لها معانى متجددة حتى كأنى أقرؤها لأول مرة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ * وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٨٣ ـ ٨٨] .

أولاً : فى الآية الأولى وعدان من الله ـ جل جلاله ـ ووعده الحق أولهما : أن كل مؤمن يلقى ربه وقد سلم من صفتين فسيكون من ورثة جنة النعيم على ما يكون فى كتابه من هنات وتقصير ، الصفة الأولى : الاستعلاء المتغطرس على العباد ، والصفة الثانية : السعى فى الأرض بالفساد ، ومعنى هذا : أن أشد الصفات مقتاً عند الله هى احتراف التكبر والإفساد ،

تلك هى قاصمة الظهر التى يخشى على صاحبها دوام السخط ، وأليم العذاب . أما الوعد الثانى : فهو أن كل من يخاف الله ويرجو لقاءه ويتقيه فى جميع أحواله ، فهو مبشر بحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وأنه وإن وجد فى حياته مواقف من البلاء ، فإنه فى عقبى أمره سينال السعادة بإذن الله : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ . وفى الآية إيجازان رائعان ، فقد لخص الأول كل الرذائل فى كلمتين هما العلو والفساد ولخص الثانى جميع الفضائل فى كلمة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، وكلمة ﴿ نَجْعَلُهَا ﴾ أعظم دلالة من كلمة نعطيها ، أو نمنحها ، فحين تقول لابنك : أعطيتك نصيبا من العقار لايكون المدلول مثل قولك : جعلت لك نصيباً ، إذ يستروح فى الأول نسمة من المنّ ، وكأن المرء أخذ نصيبه منحة قد لا يكون له فيها سالف استحقاق ، أما التعبير الثانى ففيه معنى الثبوت والأحقية . وتعبير ﴿لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا ﴾ أبلغ من قولنا : « لا يستعلون فى الأرض ولا يفسدون » ؛ لأن التعبير الأول يفيد أنهم لا يرضون الفساد من أنفسهم ولا يريدونه من غيرهم .

ثانياً : فى قوله تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ جاءت عبارتان : إحداهما مطلقة لا حدود لها ، والثانية محصورة ومقصورة ؛ أما ثواب الحسنات فمطلق لا حدود لمضاعفته ؛ لأن كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ غير محدودة ، وأما جزاء السيئات فمحصور بالمثل فقط ، وقد ورد بأسلوب الحصر ﴿ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ يبدو لأول وهلة وكأنه فكرة

مقحمة فى سياق غيرها ، والحق أن موضوع الآيات الست كلها هو تثبيت رسول الله ﷺ على العقيدة والإيمان . وهذه الآية ليست مكية ولا مدنية ، فقد نزلت على رسول الله ﷺ وهو مهاجر إلى المدينة نزلت عليه بالجحفة ـ مكان برابغ ـ وفيها وعد لرسول الله ﷺ ، أن الذى نزل القرآن معجزة للدنيا وذكرى للعالمين، سوف يرده بعد هجرته سيرده إلى مكة ظافراً منتصراً ، وقد أكد الله هذا الخبر بمؤكدين هما : إن ، واللام ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ . لقد خرج النبى ﷺ من مكة مهدداً فكان يمشى وهو لا يدرى أين يتوجه ، لقد توجه جنوباً إلى غار ثور بإشارة الدليل وكانت الطريق تبتدئ من الشمال الغربى ، أما فى العودة فقد سار فى الطريق الآمن الذى كان يعرفه حين كان يسافر للتجارة ، وقد روى أنه حين بلغ الجحفة انساحت أمامه الطريق واسعة على الساحل فعرفها جيداً وأبدى شوقه إلى مكة عليه الصلاة والسلام ، وإذن فالآية أيضاً فى موضوع التثبيت ؛ ولهذا اختتمها ربنا ـ عز وجل ـ بقوله : **﴿ قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ظلال مبين ﴾**، وهو أمر بالثبات والجهر بالحق ، مهما ضيّق المجرمون .

رابعاً : الآيات الثلاث الأخيرات : أولها تذكير لمحمد ﷺ بشرف الوحى ونزول القرآن عليه ، وأمر له عليه الصلاة والسلام أن يجعل شكره لهذه النعمة في عدم مساندة الكافرين أو تصديقهم أو الانخداع بأقوالهم ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ﴾ . والآية الثانية أمر بالثبات مهما حاول الكفار أن يزلقوه عن عقيدته ، أما الآية الأخيرة فنهى قاطع عن أى شرك متلو بثلاث صفات من صفات الله لا يمكن أن يدعى عبد أنه يملك واحدة منها ، ألا وهى: الوحدانية ، والبقاء ، والحكم بين العباد حين يرجعون إليه ، ولقد جربت

ترداد الآية الأخيرة فوجدت لها أثراً عجيباً فى خشوع القلب : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وكلمة ﴿ وَجْهَهُ ﴾ معناها : ذات ؛ لأن الوجه أشرف ما فى الكائن .

وفى ختام الآية أسلوبا تقديم ، كلاهما يفيد الحصر ﴿ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ومعناهما : أن الحكم له لا لغيره ، وأن المرجع إليه لا إلى غيره . اللهم إنا نسألك إيمانا يستمد رسوخه من إيمان محمد ومن معجزة محمد .

سورة العنكبوت
تجمع مقاصد السور كلها

سورة العنكبوت سورة جليلة القدر وقد تدبرتها فلفت نظرى فيها أنها تلخيص بليغ للقرآن الكريم ، ففيها من مكى القرآن ومدنيه ، وفيها خلاصة لقصص جميع الأنبياء الذين كذبهم أقوامهم وهم : نوح ، وإبراهيم ، ولوط ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وموسى ، ومحمد صلى الله عليهم جميعاً ، وفيها وصية بالوالدين ، وإشادة بالصلاة وأثرها فى الأخلاق ، وفيها ذكر ضافٍ مركز لمعجزة القرآن الكريم ، وإرشاد للدعاة المسلمين حول مجادلة أهل الكتاب ، وفى ختامها عرض لآيات الله وبديع مخلوقاته ، على أن الموضوع الرئيسى الذى تعرضه السورة من أولها إلى آخرها هو موضوع الجهاد بأنواعه : جهاد الأعداء ، وجهاد النفس بالطاعات ، واجتناب المعاصى ، فقد افتتحها ربنا بآيتين من أعظم آيات الجهاد ، وختمها بآية من أجل آيات الجهاد فى شمولها وإيجازها وبلاغتها. لقد افتتحها ربنا جل جلاله بقوله : ﴿ الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : ١ ـ ٢] واختتمها بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩]وبين الآيتين عرض لصور رائعة من الجهاد الشريف فى أشكاله المختلفة ، ولقد أدهشنى فى طريقة التلخيص أن سيرة استوعبت فى غيرها عدة صفحات قد لخصت فى العنكبوت فى آية أو آيتين ، ومع ذلك أعطت فكرة عن وقائع القصة تكاد تكون شاملة لها كلها . ولنستمع ماورد عن نوح عليه السلام :﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

[العنكبوت : ١٤ ـ ١٥] أى إيجاز أبلغ من هذا ؟ وتلخص السورة الكريمة قصة شعيب فى آيتين ، وقصة هود وصالح فى آية واحدة ، وقصة موسى فى آيتين : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين** ﴾ [العنكبوت : ٣٦ ـ ٣٧] وفى مصير قوم هود وقوم صالح يقول ـ جل جلاله ـ ﴿ **وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين** ﴾ [العنكبوت : ٣٨] وفى تلخيص قصة موسى التى وردت فى الأعراف، والقصص فى بضع عشرة صفحة يقول ـ جل جلاله ـ : ﴿**وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين* فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ [العنكبوت : ٣٩ ـ ٤٠].

وسورة العنكبوت مكية ما عدا الإحدى عشرة آية الأولى منها ، وانظر كيف سماها الله ـ جل جلاله ـ باسم حشرة واهنة ، ومن قبل ذلك سمى سورة النحل ، وسورة النمل ، ولا غرو فلكل حشرة من هذه رسالتها ، وربك لا يستحى أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ، وقد ورد الذباب فى معرض مثل بليغ فى سورة الحج ، ولله الحجة البالغة والحكمة البالغة . بعد هذه المقدمة الطويلة حول السورة أنصح من يريد أن يحفظ سورة واحدة من القرآن يأخذ بها فكرة عن القرآن كله أن يحفظ سورة العنكبوت. وإنى مورد هنا إن شاء الله آيتين هما فاتحة العنكبوت لأبين ما فيهما من جليل المقاصد ، ونبيل الأخلاق ، ودروس الجهاد:

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : ١ ـ ٣].

أولاً : ﴿الٓمٓ﴾ شد انتباه ولفت أنظار إلى القرآن الحكيم الكريم المعجز ، جاء بعده حالاً هذا الاستفهام البلاغى ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُون ﴾ ؟! . استفهام إنكارى معجب ممتع حقاً . ومعناه: أيظن الناس أن نكتفى منهم بكلمة ﴿ آمنا ﴾ ثم نتركهم بعد ذلك دون اختبار يمحص الصادق من الكاذب ؟ ما يجوز للناس أن يظنوا هذا الظن ، فالاكتفاء بدعوى اللسان أمر لا يليق بعلم الله العظيم وعدله المطلق ، إن الإيمان ليس كلمة تصدر من الفم، فالمنافق يشهد بلسانه أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . إن الإيمان جهاد وصبر وثبات وصدق ؛ ولهذا لابد أن يفتن ، أى يختبر بالبلاء كل مؤمن ؛ ليتبين الصادق من الكاذب ، ومن التعبير الذى يحتاج إلى جلاء قوله تعالى : ﴿فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ إذ فيه يقسم الله ـ جل جلاله ـ أن يعلم بالاختبار والبلاء من الصادق ومن الكاذب ، إن الله ـ جل جلاله ـ يعلم هذا علماً لا حدود له ولا يتطرق إليه الشك ، ولكن القرآن الكريم نزل بلسان العرب ، والعرب قد تستعمل الكلمة لتحملها معنى غيرها لغرض بلاغى ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿والنَّهارَ مُبصراً ﴾ فكلمة مبصراً استعملت لتعنى منيراً مضيئاً ، وكلمة ﴿ فليعلمن ﴾ الواردة فى الآية حملت معنى لنكشفن لكل ذى بصيرة وهذا من المجاز الجميل.

ثانياً : هاتان الآيتان الكريمتان فيهما إيعاز للمؤمنين أن يستعدوا لتحمل البلاء والاختبار ، وهو بلاء يسمو بنفوس المؤمنين إلى أشرف آفاق البطولات

والتضحيات، وبه يمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، وفى القرآن الكريم كثير من مثل هذا الاستفهام ، ففى سورة البقرة ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾ وفى سورة التوبة : ﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الذين آمنوا منكم ... ﴾ ، وقد جاء فى سبب نزول الآية : أنها نزلت فى مهجع مولى عمر بن الخطاب ، وكان أول شهيد يوم بدر فجزع عليه والداه وزوجته ، وقيل نزلت فى المستضعفين الذين عذبوا بمكة ، وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى عن خباب رضى الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا له : ألا تستنصرلنا ؟ ألا تدعو لنا؟ فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل منهم فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعله نصفين ويمشط بأمشاط الحديد لحمه وعظمه فما يصرفه ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون» .وفى الحديث الصحيح : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل » . وروى عبد الرحمن بن زيد : أن عيسى عليه السلام كان له تلميذ مخلص وكان عضده الأيمن فى الدعوة فأكله أسد فقال عيسى: يارب وزيرى سلطت عليه أسدا فأكله !! فقال الله جل جلاله : نعم كانت له عندى منزلة رفيعة.

التوحيد يسمو بالعبد
عن كل صنوف العبودية والذل لغير الله

إن أعظم شرف للإنسانية تسمو به إلى فوق ، وتترفع به عن كل أنواع الدنية ، وتنضم به إلى حزب الرحمن الغالب القوى هو التوحيد . إن ولاء العبد لله ـ جل جلاله ـ يسمو به عن كل أنواع العبودية ويعلو به عن كل صنوف الذل، ويهذب فى نفسه غرائز الخوف والطمع ، ويبعده عل كل صفة تسقط المروءة أو تنافى صفات الكمال الأسمى التى يتحلى بها الإله الواحد العادل الكريم الرؤوف الرحيم . إن توحيد الله ـ جل جلاله ـ فضيلة تستقطب كل الفضائل ، فحين يخلص المرء عبادته لله الواحد ويسلم نفسه وأمره لله القادر القاهر، وينضم إلى حزب الله الغالب المفلح يشعر بالعزة التى خص بها ربنا نفسه ورسوله والمؤمنين ، ويحس أن كل ما سوى الله من طاغوت أو متسلط إنما هو كيان واهن واه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً ، إلا ما جاء بمشيئة الله مالك الملك . إلى هذه الحقيقة الكبرى تشير هذه الآيات الكريمات من سورة العنكبوت .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ * خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ * وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ**

إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤١ ـ ٤٦] .

أولاً : شتان بين من يوجه ولاءه وتوكله وحلفه ومحياه ومماته وعبادته ودعاءه لله خالق الكون وملك الدنيا والآخرة ، وبين من يربط ولاءه بحجر أو شجر أو بشرٍ أو مخلوق مسير بيد الله لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً .

إن المخلوق مهما عظم شأنه واستهوت سطوته وسلطانه رغبتك أو رهبتك فهو فى النهاية مدين خاضع للذى خلقه ، وحسبك دليلاً أن أعظم ملوك الدنيا يمكن أن ينزل فى لحظة واحدة عن سطوته وسلطانه ليتحول جثة هامدة أكرم مثوى لها تراب الأرض ؛ ولهذا فقد ضرب ربنا ـ جل جلاله ـ لكل الشركاء الذين يعبدون من دونه مثلاً بدويبة من دواب الأرض هى العنكبوت تبنى لنفسها على الجدران أو فى الهواء بيوتاً واهية واهنة ، إنها حشرة رخيصة واهنة وأوهن منها بيتها ، وقد شبه الله ـ جل جلاله ـ كل مشرك يتخذ من دون الله معبوداً يدعوه ويبتغى عنده الحماية بهذه العنكبوت داخل بيتها الواهن ، لا تكاد تهب عليه خفقة ريح حتى يتمزق نتفاً فى الفضاء الواسع العريض ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا من دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ والعنكبوت معروفة تنسج فى الهواء نسيجاً مهلهلاً وتجمع ـ كما روى الجوهرى فى صحاحه ـ على عناكيب وعناكب ، وعِكاب وعكب ، وأعكب ، وحكى أنها تسمى عنكباً وعكنباه .

ثانياً : حينما ضرب الله هذا المثل لم تستقبله قريش بالاعتبار والتفكر فى ضعف آلهتها وهزال حيلتهم ، وإنما طفقت تسخر من المثل وتقول : إن رب محمد يذكر فى كتابه العناكب والبعوض والذباب فنزل قوله تعالى :

﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ ومعناها : أن التشبيهات العظيمة البليغة التى نذكرها للناس تحتاج إلى عقول لفهمها، وهؤلاء الذين يتهكمون بمثل العنكبوت هم جهلة سفهوا أنفسهم وأضلوا عقولهم ، وإلى هذا أشارت آية سورة البقرة : ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيراً ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ [البقرة : ٢٦].

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ معناها : أن الله ـ جل جلاله ـ يعلم جميع أنواع الشرك وحتى ما تضمره القلوب وتخفيه من شرك فإن الله يعلمه ، والله ـ عز وجل ـ يصدر فى علمه الهائل عن عزته القاهرة ، وحكمته الباهرة ، وإذا ظن مشرك أنه يستطيع أن يخفى عن الله شركه فهو واهم ؛ لأنه عز وجل لا يخفى عليه أى شىء من معبوداتهم ومعتقداتهم .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ معناه : أن المؤمن يرى برهان الوحدانية كلما ألقى نظرة واحدة إلى ما حوله ، إذ إن أعظم آية تدل على وحدانيته هى خلق السموات والأرض ، وتلك الآية هى تحت أبصار المؤمنين فى كل حين .

خامساً : وحين ثبت الله قلب نبيه فذكر ضعف الشركاء وعظمة الإله الواحد، مضى يثبت عزمه فيقول له ولكل داعية من أمته : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ . إنه أمر لرسول الله ﷺ أن يمضى فى دعوته فيتلو على مسامع الدنيا كتاب الله ، وأن يقيم الصلاة ويأمر أمته

بإقامتها ، وأن يداوم ذكر الله وقد اقتصر على هذه الأوامر الكريمة ؛ لأن من أداها وقام بحقها فقد استكمل الدين كله . وفى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ ذكر لرسالة الصلاة وعظمة أثرها . إن العبد يظل بالصلاة على صلة بربه فيستحى من اقتراف المعاصى، خصوصاً وأن أوقات الصلاة تغطى جميع مقاطع النهار ، ففى بداية نور النهار ومع إطلالة الفجر يستقبل المصلى نهاره بذكر الله، وإذا عاد من عمله ظهراً عطر منتصف نهاره بذكر الله ، وإذا أراد أن يبدأ الفترة الثانية من عمله أدى الصلاة الوسطى ثم يستقبل ليله بالصلاة ، ويودع نهاره قبل النوم بالصلاة فيظل ضميره متجدداً ويظل صوت الصلاة فى أذنيه يذكره أنه من العيب حقاً أن ينتقل من بين يدى الله ليعصيه. وما أجمل التعبير المجازى فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ فالصلاة نفسها لا تأمر ولاتنهى لكنه تمثيل رائع أما من يصلى ولم ينته عن معاصى الله فلا تزيده الصلاة عن الله إلا بعداً ؛ لأنها حينئذ تكون مصيدة للمصالح يخدع بها العباد ليثقوا به فيقابل الثقة بالغش .

دروس للدعاة إلى الله جل علا

هذه آيات كريمات من سورة العنكبوت تلزم أكثر ما تلزم للداعية المسلم ؛ لأنها تزيد إيمانه وبصيرته بصدق النبوة والقرآن ، ثم هى تعلم الداعية درساً فى أدب الدعوة ومنطقية الإقناع .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٦ ـ ٥١].

أولاً : وددت لو أن شبابنا الذين يذهبون إلى خارج الديار لطلب العلم يحفظون الآية الأولى من هذه الآيات الكريمات ثم يطبقونها عندما يحصل بينهم وبين النصارى أي مناقشة حول الدين ، والآية ثلاثة مقاطع : أولها : ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ ، والثاني : ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُم** ﴾ ، والثالث : ﴿ **وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون** ﴾ ولكل من هذه المقاطع أهمية تستحق وقفة تأمل وتدبر ، فقوله تعالى : ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن** ﴾ رسم ربنا جل جلاله جو المناقشة وأنه يجب أن يكون

فى إطار الكلام الحسن وبأخلاق حسنى ، فما يجوز فى الجدل أن يكون غوغائياً ، أو عنيفاً ، أو بذيئاً ، إذ إن قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ قد أوجز فى كلمات ضئيلة كل الآداب التى بجب أن تتوفر فى المناقشة وقد قال بعض أشياخنا : أن هذه العبارة قد نسخت بآيات القتال ، والحق والله أعلم أنها من الآيات المحكمة غير المنسوخة ؛ لأن أدب الجدال مع غير المسلمين يجب أن يستمر لكى تنعطف قلوب الكافرين إلى الإسلام بما يرونه من أدب المؤمنين .

إن أهل الكتاب فى هذه الأيام صنفان : صنف مثقف ينشد الحقيقة ليرسى مركب حيرته على شاطئها ، وهؤلاء يجب أن تكون مناقشتهم كما أوصى ربنا بالحسنى ، وقسم كشف قناعه وعن وجه أشوه متوحش عدو للإسلام ، ومثل هذا يجب أن يؤدب بشتى الوسائل ، ولعل هذا ما تشير إليه الجملة الاعتراضية بأسلوب الاستثناء ﴿ إلا الذين ظلموا منهم﴾ . وفى الآية مقولة فى غاية العذوبة استعملها رسول الله ﷺ مع نصارى نجران فألانت قلوبهم ، وقد جاء أسلوب الألفاظ فى هذه المقوله أعذب من انسياب الماء على المهجة الحرى : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ومعناها : إننا كما نؤمن بالقرآن نؤمن بالتوراة والإنجيل ، ونحن نعبد الإله الواحد الذى تعبدون ، وقد أسلمنا قيادنا إليه كما أسلمتم قيادكم ؛ لأن دين الله من لدن آدم إنما هو الإسلام الذى جاء به جميع الرسل بما فيهم موسى وعيسى عليهما السلام : لقد استقبل النبى ﷺ وفد نصارى نجران بأكرم ضيافة وأجمل بشاشة ، وأنزلهم المسجد ، وسمح لهم بالصلاة فى طائفة من المسجد ، وقال لهم : إلهنا وإلهكم واحد . إن أى داعية إذا استعمل أسلوب العنف أو اتهم من يدعوهم بالزندقة والإلحاد ، أو استعمل معهم

قارص القول فلن تتحقق على يديه أى فائدة للإسلام؛ لأنه خالف المنهاج الذى رسمه ربنا ـ عز وجل ـ للدعاة .

ثانيا : الآيات الخمس التالية كلها تدور في فلك نورانى واحد هو القرآن الكريم، فقوله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ** ﴾ معناه : على هذه الطريقة الوضاءة أوحينا إليك القرآن لتتلوه على الناس بهذا الأسلوب الذى رسمنا . وقوله تعالى : ﴿ **فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به** ﴾ معناه : أن علماء أهل الكتاب يؤمنون بالقرآن ، لأنهم يعرفون الإسلام والقرآن ومحمداً ﷺ ، ومن هؤلاء أى وإن من كفار قريش من يؤمن بأن هذا القرآن من عند الله ؛ لما رأى من عظمته بلاغته ، فإذا جحدوا كتاب الله بعد ذلك العلم ، وهذه البلاغة فهم عندئذ كافرون منكرون للحق الذى سطع فى عيونهم ببراهينه المقنعة وبلاغته الممتعة .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ معناه : إنك يا محمد أمىٌّ ما قرأت قبل نبوتك كتاباً ولا كنت تعرف الكتابة ، ولو كنت قارئا كاتبا لكان للمشركين شيء من العذر فى شكهم وارتيابهم ، لكن كونك أميا وتجىء لهم بهذا الكتاب المعجز فذلك أعظم برهان على صدقك ، وعلى أن كتابك هذا هو من عند الله . هذا وأن ما جاء فى الأقوال أن النبى ﷺ قد مسح بيده كلمة بسم الله الرحمن الرحيم ، وكلمة محمد ﷺ وعرفهما من بين الكتاب فهذا لاينافى أنه أمى ؛ لأن كثيراً من الناس يعرف شكل بعض الكلمات مع أنه أمى لا يقرأ ولا يكتب .

رابعاً : قوله تعالى فى وصف القرآن الكريم : ﴿ **بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ**

الَّذِيـنَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الـظَّالِمُون ﴾ مـعناه: أن الله ـ جل جلاله ـ قد كتب للقرآن الكريم أن يظل فى صدور العلماء محفوظاً يرتلونه ويعملون به ويفتون بأحكامه ، ويفتحون أعين الناس وقلوبهم على سطوع آياته المحكمة ، ومن ثم فإن كل جاحد للقرآن الكريم لا يكون إلا ظالماً .

خامساً : وحين طلبت قريش من النبى ﷺ معجزات كمعجزات الأنبياء من قبله كسفينة نوح وعصا موسى أو معجزات عيسى ، جاءت إجابة الله ـ جل جلاله ـ مسلية لهم حقاً ، إذ قال لهم : أو لم يكفكم أنا أنزلنا عليكم ما هو أعظم من معجزات الأنبياء ألا وهو هذا القرآن الذى هو رحمة للمؤمنين ، وذكرى لهم كلما غفلوا عن ذكر ربهم . نعم إن محمداً لا يملك أن يأتى بمعجزة ولا سلطان إلا بإذن الله ، والله هو الذى يقدر على إنزال الآيات ، وما أجمل العبارات القرآنية وهى تثبت هذه الحقائق **﴿ وقالو لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى للمؤمنين ﴾** . اللهم اجعل القرآن شفيعاً لنا وذكرى تذكرنا بربنا فى غفلاتنا .

أرض الله واسعة ... ورزق الله آتٍ لا محالة

قلنا : إن سورة العنكبوت موضوعها الجهاد ، به ابتدأت وبه انتهت ، وهذه خمس آيات من أواخر سورة العنكبوت ، يطمئن فيها المجاهدين على رزقهم ؛ ذلك لأن الشيطان يوسوس لمن أراد الجهاد فى سبيل الله فيخوفه ضيعة الأولاد من بعده ، ويحذره الجدود العواثر ، وضيعة الطفل والقاصر .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت : ٥٦ ـ ٦٠] .

أولاً : لقد عز على كثير من المسلمين أن يهاجروا من مكة المكرمة ، ويفروا بدينهم إلى حيث يتمتعون بحرية العبادة ، ويبتعدون عن الإيذاء والفتنة ، وتساءلوا : كيف نهاجر إلى المدينة وليس لنا فيها مال ولا دار ولا عقار؟! وكأنهم حملوا همّ الرزق ، فنزلت هذه الآيات الكريمات تحرض المؤمنين على الهجرة فراراً بدينهم ، وتطمئنهم أن أرض الله واسعة وأن رزق الله واسع ، وإذن فليحرصوا على توحيدهم ويفروا به ، حتى لا يفتنهم الكفار عن أعز ما يدخره المؤمن .

ثانياً : بدأ الآية الكريمة بقوله : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ليذكرهم بأشرف انتماء فهم ينتمون إلى عبادة الله ، وإلى العبودية لجلاله وهم ينتمون إلى الإيمان الذى به عزتهم وكرامتهم فى الدنيا والآخرة ، وهو إذ يناديهم

بهذا الشرف العظيم إنما يذكرهم بصلتهم الوثيقة بربهم ، ويغريهم بالهجرة إليه ، وفى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَة ﴾ نسب الأرض إليه؛ ليبين لهم أنهم أينما تنقلوا فهم فى أرض الله ، وفى رحاب ملكه الواسع، ومن ثم فهو متكفل أن يؤويهم ويغنيهم أينما توجهوا مادام كل ذلك فى مرضاته .

ثالثاً : ختم الآية الكريمة بقوله : ﴿ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون ﴾ وهى عبارة فيها قصر أو حصر بلاغى ويكون المعنى : أخلصوا العبادة لى وحدى ، وإذا اقتضى الأمر أن تتركوا دياركم وأموالكم وأولادكم ، ولا تحملوا همَّ الرزق، فالأرض أينما توجهتم أرض الله والخلق كلهم عباد الله .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ يطمئن المؤمنين أن الموت لا مندوحة عنه ، وإذا كانت الهجرة فى الله لا تقطع رزقاً فهى أيضاً لا تقرب أجلا. إن الرزق فى السماء وإن الأجل فى الكتاب ، فليطمئن كل مؤمن على رزقه وعلى أجله . وما أجمل ما ختم به الآية وهو قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُون ﴾ إذ فيه إغراء عظيم أن يجعلوا أكبر همهم ما بعد الموت وليس الموت نفسه . إن الرجوع إلى الله والحساب بين يديه ، والموقف الأعظم الذى ليس بعده إلا الجنة أبداً أو النار أبدا ، هذه الأمور هى التى يصرف المؤمن كل اهتمامه إليها، أما خوف الموت وخوف الفقر فأمران لا يجوز أن يعوقا مسيرة الجهاد فى سبيل الله .

رابعاً : بعد أن ذكر الله حسن عاقبة المؤمنين فى الدنيا ذكر هنا فى الآية التالية ما ينتظر المؤمنين الصابرين من ثواب الآخرة . إن المؤمنين الصابرين المخلصين المجاهدين لا يكتفى ربهم من ثوابهم أن يدخلهم الجنة، ولكنه – جل جلاله – يعلى منازلهم فى أهل الغرف ، وأهل الغرف كما جاء

فى الحديث الصحيح : « يتراءاهم أهل الجنة كما يتراءون النجم الدرى فى السماء » لعظمة منازلهم عند الله ، روى مسلم ـ رحمه الله ـ فى صحيحه من حديث سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف كما تتراءون الكوكب الدرى العابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم » قالوا : يارسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال «بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » ، ومعناه والله أعلم: أنهم رجال أتبعوا إيمانهم بالله اقتداء تاماً برسلهم يدل على إخلاصهم فى تصديق رسلهم . ورواية الترمذى فى هذا المعنى عن على رضى الله ؟! عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن فى الجنة غرفاً يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها » فقام إليه أعرابى فقال لمن هى يارسول الله قال « هى لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلي والناس نيام » وقد ختم ربنا عز وجل هذه الآية بقوله : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِين ﴾ وأتبعها بقوله : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون ﴾ مشيراً بذلك إلى أن الدرجات العلا فى الجنة تتطلب عملا فى مرضاة الله دائباً وصبراً على بلائه متصلاً وتوكلا عليه مهما بدا الباطل فى مراكز النفع والضر .

سادساً : وقد ختم ربنا عز وجل هذا المقطع العظيم المتعلق بالجهاد والهجرة بهذه الآية الرائعة التى تمحو من النفوس كل خوف من الفقر أو الضياع، وهي بحق مسك ختام وسحر بيان ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم ﴾ إنها آية تعرض علينا حقيقة مشاهدة، إن الغالبية العظمى من الطيور البرية والحيوانات المفترسة لا تحمل قوتاً ولا تختزن رزقا ، ولعلك لو فتشت عش حمامة ما وجدت فيه حبة واحدة مما يصلح قوتا للفراخ أو غذاء لها ولكنها مع ذلك لا تجوع

بإذن الله ، ويندر فعلاً أن ترى طائراً فى ملك الله الواسع يموت جوعاً . إن الطيور قد زودها ربها بغريزتين هما العمل الدائب المستمر والتوكل التام على الخالق إنها تنطلق مبكرة فى الصباح وتنهض أحيانا قبل الإنسان ، ثم تنطلق فى أرض الله ، سلاحها العمل الدائب ، والتوكل الحق فلا يمضى بعض النهار حتىَ تملأ حوصلتها بالغذاء النظيف من الحب والبقول والخضار والفواكه ، وتعود بطانا بإذن الله لتغذو صغارها غذاءها ، ثم تبدأ رحلة السعى اليومية الثانية لتشبع وتعود إلى الصغار بعشائها .

نسأل الله جل جلاله أن يرزقنا وإخواننا المسلمين جميل التوكل عليه ، وعظيم الثقة بلطفه وعفوه ، وأن يهيئنا للأعمال الصالحة التى بها يرفع درجات الأبرار .

جــــزاء المجـاهـدين

إنى جاعل هذه الحلقة كلها إن شاء الله لتفسير آية واحدة هى مسك الختام الذى به ختم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ سورة العنكبوت ، ألا وهى وقوله تعالى : **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾** [العنكبوت : ٦٩].

أولاً : حين تكون الأمة أمة مجاهدة فى سبيل الله رافعة لرايته مخلصة فى نشر دينه ، فإن الله ـ جل جلاله ـ يشيع فى مجتمعاتها توفيقه وهدايته ؛ لأن لها حينئذ من الجهاد والتضحيات والفداء ما يلهيها عن الفساد واللهو واللعب ، ثم إن رجاءها لنصر الله يجعل قلوبها متوجهة دواماً إليه ، ويجعل اعتمادها فى الشدائد عليه ، ومن ثم تشغل الألسنة بالدعاء والذكر والصلاة لعلمها أن النصر يتنزل من عند الله ، فتراها أمة عابدة ، ومجاهدة فى آن واحد ، وقد رأيت بنفسى أن مواسم المعارك تكون عادة مواسم أخلاق يقلع فيها الشباب عن ملاذهم لينصرفوا بكل قوتهم إلى حيث الشرف والبطولة والنصر ؛ ولهذا جعل الله ـ جل جلاله ـ الجهاد ذروة الإسلام وسنامه ، وأعلى مراتب الشرف وأجل درجات الجنة ، هذا ما يشير إليه قوله ـ عز وجل ـ : **﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾**.

ثانياً : لقد كان جيل النبى ﷺ أشرف الأجيال ، وكذلك كان جيل خلفائه الراشدين ، وجيل التابعين ؛ لأنهم حملوا نفوسهم على راحاتهم وسيوفهم بأيمانهم ، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفاً صفاً ، شعارهم أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الكفر هى السفلى ،

حداؤهم القرآن ، وغناؤهم الأذان ، انضاء عباده ، وأطلاح سهر ، فرسان ميادين، وملائكة محاريب ، نهارهم بطولة فداء ، وليلهم دعاء لربهم وبكاء ، ينظر الله إليهم فى جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، وقد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وجباههم ، واستقلوا ذلك فى جنب الله .

تزهو محاريب التقى بدموعهم ... ودماؤهم يزهو بها الميدانُ
يحدون بالآيات خيل فتوحهم ... وغناؤهم عند الصلاة أذانُ
رحماء بينهم فإن حمى الوغى ... ثاروا كما يتفجر البركانُ

ثالثاً : إذا تخلت الأمة عن الجهاد فرغت للبطالة واللهو ، والوقت سلاح ذو حدين إذا لم تملأه بالعمل الشريف جرك إلى المعاصى المردية ، وإذا توفر فى الأمة شباب وفراغ وغنى ، فلا مناص إذ ذاك من شيوع الترف ، والمترف إذا مرد على الكسل والفسالة وسقوط الهمة تحول إلى طفيلى يلتصق بسرحة أمته الزكية ، ليمتص منها عصارة الحياة ، ويعطيها جراثيم الموت . نعم إن العزوف عن الجهاد والتضيحات والبطولات يقلب شباب الأمة إنعاماً كل همهم شهوات البطون وشهوات الجنس ، ولا يزالون يوغلون فى الفسوق حتى تحل بالأمة كلها سنة الله التى لا تبديل لها ولا تحويل ، ألا وهى إهلاك الأمم إذا شاع فيها الخبث والفسوق والترف **﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾** [الإسراء : ١٦] .

رابعاً : وفى قوله تعالى **﴿ لنهدينهم سبلنا ﴾** ، إشارة لطيفة إلى أن الأمة المجاهدة بإذن الله يحقق الله لها الأمن والسلام ، وبمقدار ما يكون السلاح ثقيلاً على عواتق جنودها يكون الأمن والسلام والعيش الكريم ، كل هذه

تكون رخية جميلة متألقة فى مجتمعها . وفى سورة المائدة توضيح لكلمة ﴿ **سبلنا** ﴾ فسبل الله ـ جل جلاله ـ هى سبل السلام ، توفر للأمة سلاماً فى الدنيا ودار السلام فى الآخرة . يقول الله تعالى فى سورة المائدة يصف من يقتدون برسول الله ويعملون بكتاب الله ﴿**يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾ .

خامساً : وثمة معنى آخر تتضمنه الآية الكريمة فى قوله تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ ومعناه : أن المجاهد الذى كان قبل الجهاد ظالماً لنفسه يؤدبه ربه بالجهاد أحسن الأدب ، فيهديه طرق العمل الصالح ويفتح له سبل الخير ، وفى القرآن الكريم ما يفيد أن المجاهد إذا استشهد ظل عمله الصالح ينمى له حتى يأتى يوم القيامة ، وقد استحق منازل الصديقين والشهداء، ومن ثم يتسع معنى الآية الكريمة ليصبح معناها : والذين جاهدوا فى الله ، أى وجهوا جهادهم كله مخلصاً لله ولدينه وكتابه ، سيهدى الله الأحياء منهم سبل الأعمال الصالحة ، فيهيئ نفوسهم للتقوى ، ويزكيها ويؤتيها تقواها ويفتح لهم شتى مسالك الحسنات حتى تمتلئ بالصالحات كتب أعمالهم ، أما المجاهدون الذين يقتلون وأعمالهم الصالحة قليلة ، فإن الله ـ جل جلاله ـ بفضله ومنه يحييهم بعد موتهم ويهديهم إلى أعمال صالحة يداومون فعلها ، حتى توصلهم مراتب الصديقين .

سادساً : يحاول الأعداء فى أيامنا هذه أن يسدوا فى وجوه الشباب المسلم طرق الجهاد ليركن إلى الدعة والنعومة والفساد ، وقد نجح الأعداء فى تخطيطهم اللئيم حتى لقد أصبحت السجون فى كثير من الدول العربية والإسلامية تغص بالمجاهدين ، ولقد رأيت بأم عينى كيف كانت الرقابة

والمضايقة والاعتقال فى وقت من الأوقات ، وقفاً على الشباب الصالحين المجاهدين ، وأخبرنى أحدهم أنه ذهب إلى إدارة الجوازات يطلب تأشيرة وكان وراءه تاجر مخدرات معروف، فلما وصله الدور رفضوا إعطاءه الإذن بحجة أنه خطر على الأمن ، ثم جاء دور تاجر الحشيش فرحب به المدير أجمل ترحيب وحقق طلبه فى غاية اليسر والسهولة ! وهنا ثار الأخ الشاب المسلم وقال للمدير : ما تهمتى لديكم؟ فقال له المدير : لا تنس أنك من الإخوان المسلمين !

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . اللهم ول أمورنا خيارنا . ولا تول أمورنا شرارنا.

وقد ختم الله ـ جل جلاله ـ الآية الكريمة بقوله : **﴿ وإن الله لمع المحسنين﴾** مشيراً إلى أن مرتبة الإحسان وهى أعلى مراتب الإيمان إنما ينالها المجاهدون فى الله ، وقد جمع فى الآية الكريمة ثلاثة توكيدات : نون التوكيد فى قوله **﴿لنهدينهم﴾** وإن ولام التوكيد فى قوله : **﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾** لتأكيد بشارة المجاهدين بالخير والسعادة .

الله ينصر المؤمنين .. وهو لا يخلف الميعاد

سورة الروم من السور المكية موضوعها الرئيسى عرض لبراهين التوحيد ، ودلائل القدرة الإلهية المدبرة لهذا الكون ، والحكمة البالغة الميسرة لأموره ، وقد ابتدأها ربنا ـ جل جلاله ـ بذكر موقف من مواقف الحرب النفسية التى كان المشركون يشنونها على النبى ﷺ ؛ لينالوا من معنويته ، وختمها ـ عز وجل ـ بدعوة محمد ﷺ إلى الصبر والثبات مهما حاول المشركون زعزعته عن عقيدته العظمى ، ورسالته الكريمة وهذه الآيات الكريمات هى المقطع الأول من سورة الروم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم : ١ ـ ٧] .

أولاً : كان لنزول هذه الآيات مناسبة تاريخية : كان النبى ﷺ بمكة ، وكانت الدولتان العظميان فى تلك الأيام هما فارس والروم ، وكان قلب النبى ﷺ يميل إلى الروم لأنهم أهل كتاب أما قريش فكان حبها وولاؤها لفارس ؛ لأنهم أهل أصنام ومعبودات وشرك مختلط مثل قريش والمشركين ، وكان بين الروم وفارس عداء يسفر أحيانا عن اشتباكات تتطور إلى حروب ، وقد نشبت حرب بين فارس والروم قبل هجرة النبى ﷺ من مكة بخمس سنين ، وانتصر الفرس على الروم فيها انتصاراً

كبيراً، ففرح المشركون بذلك النصر وعدُّوه انتصاراً للوثنية على أهل الكتاب ، أما المسلمون فحزنوا ؛ لأن الغلبة كانت لأهل الشرك ؛ ولأن النصارى كان يرجى منهم خير ؛ لما عرفوا من الحق فى كتبهم ، ولما لديهم من خلفية من الإيمان والتوحيد . وهنا وفي غمار حزن المسلمين وشماتة المشركين نزل قوله عز وجل : ﴿ **الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ .

ثانياً : فى هذه الآيات الكريمات بدأ الله السورة بقوله ﴿ **الٓمٓ** ﴾ وهو إشارة إلى أن القرآن حق مهما تقلبت الأحوال بأهله ، ثم ذكر هزيمة الروم فى أقرب ملكهم إلى جزيرة العرب ؛ ذلك لأن المعركة قامت فى الأجزاء الشمالية من بلاد العرب ، وهنا يطمئن الله ـ جل جلاله ـ المؤمنين بأن الروم النصارى سوف ينتصرون فى سنوات ـ قلائل بين الثلاث والعشر ـ على فارس نصراً عظيماً يفرح به المؤمنون ويرتكس له الكافرون ، وقد ختم الله ـ عز وجل ـ هذه الآيات بقوله : ﴿ **لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم** ﴾ .

وهى خاتمة من أربعة مقاطع ﴿ **لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْد** ﴾ ومعناه : أن أمر هذه الدنيا هو بيده ـ تعالى ـ يدبره بحكمته ويسيره بقدرته ، فهو إن نصر المؤمنين فلحكمة بالغة ، وإذا خذلهم فلكى يمحصهم بالشدائد .

والمقطع الثانى : ﴿ **وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ** ﴾ وهذا المقطع كان نبوءة معجزة ساطعة من نبوءات القرآن الصادقة ، فقد قامت حرب بين الروم والمشركين بعد حوالى ست سنوات ونصف من الحرب الأولى ،

وكان قيامها إبان معركة بدر الكبرى، فأذل الله المشركين ببدر على يد المؤمنين الصابرين ، وأذل الفرس فى شمال الجزيرة على يد النصارى الكتابيين ، وبذلك اجتمعت للمؤمنين فرحة مضاعفة وتحقق مثل فلق الصبح قوله تعالى : ﴿ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ إشارة إلى أن النصر لا يتم إلا بمشيئة ، وحتى حين ينتصر الكافرون على المؤمنين فإن الأمر عندئذ لا يكون خارجاً عن مشيئة الله ؛ لأنه هو المهيمن القاهر فوق عباده ، وهو سبحانه وتعالى يسوق النصر من منطلق عزته القاهرة ، ورحمته لأهل الأرض ، إذ لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض وهدمت المعابد ، والله ـ جل جلاله ـ هو العزيز الرحيم .

ثالثاً : وفيما يطمئن الله المؤمنين ويعدهم وعده الحسن ، يكشف سذاجة المشركين وسطحيتهم وأن علمهم وإدراكهم لايتجاوزان ظواهر الأمور ، فيقول جل جلاله : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾. ومعنى الآيتين الكريمتين : أن الله ـ جل جلاله ـ إذا وعد وعدا فهو لابد منجزه وقد وعد المؤمنين أن ينصر أهل الكتاب وهو منفذ وعده لا محالة ؛ ولكن المشركين لا يعلمون ولا يدركون حكمة الله وقدرته ، ولا يفقهون شيئاً من أمور دينهم وآخرتهم ، إنهم يعلمون بعض سطحيات من هذه الحياة : كيف يتاجرون وكيف يجمعون الأموال وينقدون الدراهم ، ويتحايلون على الحياة ، أما الأمر العظيم الذى ليس وراءه إلا الجنة أبداً أو النار أبداً فهم فى غفلة منه ولا يعلمون عنه شيئاً .

رابعاً : من الغريب أن النصارى فى هذه الأيام يضمرون للإسلام والمسلمين كرها شديداً ، فقد كشفت صليبيتهم عن وجهها الكريه مئات المرات عبر التاريخ، وكان آخر هذه المواقف من النصارى العرب الذين وثق بهم المسلمون وآخوهم وشاركوهم لقمة عيشهم ثم ما هى إلا أن ملك النصارى الفرصة حتى حالفوا اليهود اللؤماء ليذبحوا أطفال المسلمين ونساءهم وشيوخهم ، وتقف من ورائهم الصليبية المركزية فى البلاد الرأسمالية ، والبلاد الشيوعية ! مع أن المسلمين منذ قيام الدعوة ربطوا صداقتهم بالنصارى يأملون منهم أن ينعطفوا إلى ما علموه من الحق ، وصدق الإسلام ، والنبوة المحمدية ؛ لكن الحقد البغيض أعمى النصارى عن عواطف المسلمين النبيلة ، وكلامهم الجميل الحق عن عيسى ومريم، وجعلهم يحالفون اليهود الذين يقولون على المسيح وأمه بهتاناً عظيماً !

اللهم أنصف عدالة الإسلام من ظلم النصارى واليهود والمنافقين .

براهين على قدرة الله وشدة بطشه

قلنا : إن سورة الروم هى عرض لبراهين التوحيد والقدرة الإلهية ، والآيات التالية منها تشتمل على براهين وبشائر وإنذار ، وهى أهم موضوعات السور المكية .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ * أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ [الروم: ٨ _ ١٠] .

أولاً : كل دعوة تخاطب التفكير والعقل تكون بلاشك دعوة خيرة ، وكل دعوة يلفها الغموض والطلاسم وتحظر التساؤل والبحث عن الحقيقة ، تكون دعوة مريبة تخشى مزالقها المظلمة ، ودروبها المعتمة ، والقرآن الكريم من مطلع آياته ، بل ومن الكلمة الأولى التى أنزلت منه ، دعوة إلى العقل والعلم والقراءة والكتابة ؛ لأن العلم هو الذى يعطى العقل حريته فى الوصول إلى الحقائق ، ولو مضيت تعد الآيات التى دعا فيها القرآن إلى التفكر والعقل لوجدتها فيضاً بلا غيض ، ففى سورة سبأ يدعو الله قريشا أن يخلو بأنفسهم بينهم وبين الله مثنى وفرادى ثم يتفكروا ، وفى سورة البقرة تكرر مرتين قوله تعالى : ﴿ **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** ﴾ ، وفى سورة الأعراف يقول الله تعالى : ﴿ **أولم يتفكروا ما**

بصاحبهم من جنة ﴾ وهنا فى سورة الروم **﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ﴾** وفى سورة آل عمران يمدح الله أولى الألباب : **﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ﴾** [آل عمران: ٩١] . وفى سورة الأعراف : **﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾** ، وفى سورة يونس : **﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾** [يونس : ٢٤] ، وقد تكرر قوله تعالى : **﴿ إن فى ذلك لآيات ـ أو لآية ـ لقوم يتفكرون﴾** ست مرات فى سور الرعد ، والنمل ، والروم، والزمر ، والجاثية ، وفى سورة النحل : **﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾** ، وفى سورة الحشر : **﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾** [الحشر : ٢١] .

لقد دعا الإسلام الكريم إلى التفكير فى وقت كانت الكنيسة تكره التفكير، وقد عاقبت الكثيرين من المثقفين واتهمتهم بالإلحاد والهرطقة ، وفصلت رؤوسهم بالفؤوس فى محاكم التفتيش الجائرة ، لا لسبب إلا لأنهم استعملوا عقولهم فأرادوا أن يصلحوا تصرفات الكنيسة ، ويطوّروا مفاهيم المجتمع ومقاصد الدين .

ثانياً : قوله تعالى : **﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ﴾** استفهام غرضه الحث على التفكر وإنكار التخلى عن الفكر . وقد أعقب هذا الاستفهام الكريم بقوله: **﴿ ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾** مشيراً بذلك إلى أنهم لو فكروا بينهم وبين أنفسهم وخلوا إلى صفاء الفكر وإيحائه الوضيء ؛ لاستنتجوا أن الله ـ جلّ جلاله ـ لايمكن أن يكون خلقه لهذا العالم عبثاً ، وأنه ما خلق السماوات والأرض إلا لحكمة عظيمة ولعدالة مطلقة، خلقها ليقام فيها الحق ويقوم الخلق فيها بالحقّ ، وقد

أجل للسماوات والأرض وعامرهما أجلاً محدداً مسمىً يعود الخلق فيه إلى ربهم ليقام بينهم الحق فى الآخرة ، ولكن كثيراً من الناس ينكرون العود إلى الله ويكفرون بلقائه .

ثالثاً : وكما حث الله الناس على الفكر حثهم على طلب التجارب والخبرات عن طريق الرحلات ، فقال جل من قائل : ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا** ﴾ الآية ، ومعناه : حث للناس أن يتجولوا فى الأرض فينظروا مصائر المعاندين ومصارع الكافرين من قوم عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين ، و أولئك الذين كانوا أشد قوة ومهارة من قريش ؛ لأن قريشاً لم تشتهر بزراعة ولاصناعة ولانحت فى الجبال . إن الأمم السابقة كانوا بارعين ، فقد فلحوا الأرض وحرثوها وعمروها ، فأرسل الله إليهم رسله ليقرنوا النعمة بالطاعة ، لكنهم حين بطروا معيشتهم وكفروا نعمة ربهم دمر عليهم ، وما ظلمهم ؛ لأنه أرسل إليهم رسله بالنذارة عن الشرك ، ومن ثم فقد كانت جريرة هلاكهم واقعة بالكامل عليهم .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون** ﴾ فى هذه الآية ما يستحق الوقوف عند إعرابها ؛ لأن إعرابها هو الذى يوضح معناها . إن كلمة ﴿ **عاقبة** ﴾ هى خبر كان مقدماً ، وكلمة (**السوأى**) هى اسم كان مؤخراً ، ويصبح التقدير : ثم كانت السوأى هى عاقبة الذين أساؤوا فالله ـ جل جلالة ـ يجازى الذين أحسنوا بالحسنى ويجازى الذين أساءوا بالسوأى . والحسنى اسم تفضيل ، كذلك السوأى اسم تفضيل وهى مؤنث كلمة : الأسوأ كما أن الحسنى مؤنث كلمة : الأحسن .

وقوله تعالى : ﴿ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ﴾ يعرب المصدر المؤول مفعولاً لأجله ؛ لأن التقدير هو لقد كانت السوأى عاقبة الذين أساؤوا بسبب تكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بآيات الله . لقد لخص الله ـ تبارك وتعالى ـ الأسباب التى يهلك بها الظالمين فى اثنين : وهما :

أولاً : تكذيبهم بآيات الله الباهرة التى تدعوهم بغير لسان إلى توحيد الله ، وإفراده بالعبادة .

وثانياً : أنهم لايكتفون بالكفر بآيات الله ، وإنما يستهزئون بها أيضاً .

ولابد من الاعتراف أن هذين السببين يحصلان هذه الأيام فى سلوك الكثيرين من المتعملين ومن يسمون أنفسهم رجال الفكر ، فكثير منهم لايكاد يحصل على نصيب قليل من التعليم حتى تراه يتخلى عن أمور الدين ، ويهزأ بالمصلين ، ويخوض مع الخائضين .

نسأل الله أن يجنبنا شطط العقول وفتنة الأفكار وزيغ القلوب ، وأن يرزقنا العلم الموصل إلى التوحيد ، والفكر الهادى إلى الإيمان .

براهين الإيمان

هذه الآيات الكريمات من سورة الروم ما خلوت إليها إلا وجدتنى تلقائيا ماثلاً فى محراب الإيمان ، يمر أمام عينى وعقلى وخيالى شريط مبارك عنوانه : براهين الإيمان .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢١ ـ ٢٥].

أولاً: يريدنا ربنا ـ جل جلاله ـ أن يكون إيماننا عن علم وعقل ، وعن بصيرة وبصر، لأن يكون ذلك الإيمان التقليدى كمن يؤمن ؛ لأنه وجد آباءه مؤمنين، يريد ربنا ـ عز وجل ـ أن يكون إيماننا نوراً هادياً نعرف به ربنا عن طريق آياته ومخلوقاته ، ونعبد به ربنا على صراط مستقيم ، يريدنا أن نتدبر آيات قدرته ، ونتفكر فى دلائل ، عظمته ، وننظر إلى ملكوت سماواته وأرضه ، فإذا تملينا تلك الآيات الباهرة ، وأشربنا تلك القدرة القاهرة ، هنالك نرى قلوبنا وقد فاض فيها شعور المهابة والإجلال ، وإحساس الرغبة والرهبة ، وعواطف الرجاء والخوف والطمع ، ووجدنا ألسنتنا وقلوبنا تشهد أنه لا إله إلا هو ، وتخاطبه بلسان الحال الذى هو

أبلغ من لسان المقال : سبحانك أنت الله .

ثانياً : هذه الآيات الكريمات عرضت عدداً هائلاً من آيات ربنا ومخلوقاته ، وختمت كل مجموعة فى تلك الآيات الحكيمة والمخلوقات العظيمة، بخاتمة فى قمه البلاغة والملاءمة المعنوية ، فبعد خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان يقول جل جلاله : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ للعالمِين**﴾ فبعد ذكر خلق الإنسان وخلق زوجته منه ، كما خلق آدم وخلق منه حواء ، وذكر ذلك الحب والرحمه اللذين يملآن قلوب الأزواج ، والسكينة التى يحس بها الزوج حين يأوى إلى كنف بيته وزوجته ، يختم الله ــ جل جلاله ــ بقوله : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يتفكَّرُون** ﴾ . وبعد ذكره تبارك وتعالى لسكون الليل وصمته وهجعته، ثم ما يكون فى النهار من ضجيج وسعى فى رزق الله ، ختم الله ــ عز وجل ــ بقوله : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يسمعون** ﴾ . وبعد ذكر البرق وما يثيره فى النفوس من خوف الصواعق ورجاء الغيث ، ثم ما يكون بعد ذلك من مطر يحيى الأرض ويسقى الخلائق ختم بقوله : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يعقلون** ﴾ وواضح جداً مدى التناسب والانسجام بين الآيات والخواتيم التى تلائمها.

ثالثاً : ولما فى الآيات من سطوع فإنى لن أشرح مفرداتها لكننى سأعرض منها تأملات وإشارات جديرة بالوقوف عندها :

أ ــ فى قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون**﴾ استعمل القرآن كلمة ﴿ **إذا** ﴾ وتسمى الفجائية ؛ لأن من المفاجئ جداً للعقل الإنسانى أن يرى التراب الذى لاحياة فيه وقد تحول إلى مخ وأوعية وخلايا حية، ومراكز عصبية للسمع والبصر والشم والذوق

واللمس . أى إعجاز هذا حين تحول صلصال آدم الذى هو أصل خلقة الإنسان ، ويتحول الصلصال الفخارى أو الحمأ المسنون شحماً ولحماً وعضلاً وعصباً وعروقاً وعقلاً يقود الإنسانية لتنتشر فى الأرض وتعمرها؟! وتظهر فى الآية الكريمة علاقة الأرض بالإنسان ، فالإنسان من الأرض مادته وإليها رجعته ، وفيها عودته ، وعلى الإنسان أن يدرك أن الأرض أمه تخدمه فى حياته وتستر جثمانه بعد موته ، ومن ثم فإن أصلح بنى الإنسان هم الذين يتركون فى الأرض آثاراً خالدة من الإصلاح .

ب ـ كثير من الناس ينظرون إلى المرأة نظرة تنطلق من الشهوة العارمة يلهبها الجمال والرشاقة والجاذبية ، لكن الآية الكريمة ترسم من المرأة ملاك حب ورحمة وهناء وسكينة ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا** ـ أى من نطفكم أو من طينة أبيكم آدم ـ **لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا** ـ أى لتأنسوا وترتاحوا وتهنؤوا ـ **وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾ ـ أى ملأ قلبى الزوجين بالحب والإشفاق والودّ الصافى . إن الفتاة تظل تعتز ببيت أهلها وبوالديها وإخوتها وأخواتها وذكريات طفولتها وصباها حتى إذا تزوجت رأيتها فى أيام قليلة وقد ملئت مشاعر الحبّ منها بالزوج ، ذلك الحبيب الجديد الذى تراه أغلى من جميع سكان الأرض، وترى بيته ألصق بنفسها من بيت الحنو الأبوى ، فسبحان من جعل بين الزوجين كل هذا القدر العارم من المودة والرحمة والسكينة .

ج ـ السموات والأرض وبخاصة مافى السموات من نجوم وكواكب وسُدم ومجرات لاتكاد أرضنا تساوى ذرة تراب إذا قيست إليها ، ثم ما فى السموات من عوالم وألوان من المواد ، كلُّ هذه لم يستطع الإنسان بعلمه أن يكتشف قطرة من بحر ملكوتها ، هذا فى السماء ، أما ما فى الأرض من بشر تختلف بيئاتهم فتختلف تبعاً لها ألسنتهم وألوانهم ، فمعجزة إلهية عظيمة الخلق ، إذ لايمكن أن يتشابه إنسانان شبهاً تاماً فى لونيهما

ولا فى صوتيهما ، وإذاكان فى العالم الآن آلاف الملايين من البشر ، فإن هنالك تبعاً لذلك آلاف الملايين من الألوان ومن الأصوات والألسنة، ومثل هذا الإعجاز لايدركه إلا أولو علم عظيم ، ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ** ﴾ .

د ـ وحين يقبل الليل بظلمته الساجية وحلكته الداجية يحمل معه أمراً من الله للخلائق أن تسبت وتنام ، وإذا صمت عجيب ، ثم إذا شقشق النور مع الطير فى الصباح حمل أمر ربنا إلى الأحياء أن تستيقظ لتبتغى من فضل الله وتسعى فى طلب رزقه ، هنا يجول السمع بين الصمت المسيطر والضجيج العامل. لو اجتمع كل حكام الأرض ما فرضوا على الأحياء فى النهار صمتاً ، لكن الليل بأمر الله يفرض عليهم هذا الصمت ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾.

هـ ـ ثم هنا آية الأمطار ومقدماتها من رعد وبرق وتلاقح بين السحاب وما يعقبها من حياة الأرض الميتة ، وما أجمل الاستعارة فى قوله تعالى : ﴿**فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ إنه لأمر يحتاج إلى عقل واع يتدبره ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ .

و ـ على أن مسك ختام الآيات هو هذه الطاعة العظيمة المطلقة التى تخضع بها السموات والأرض لأمر الله .

فمن اللحظة الأولى التى خلق الله ـ جل جلاله ـ السموات والأرض ﴿**قالتا آتينا طائعين**﴾ ومن ذلك الحين لم تحيدا عن النظام الحكيم العظيم الذى رسمه لهما ثانية واحدة . إن الذى تدين له السموات والأرض سوف يدعوكم فى ساعة معينة دعوة إلهية عظمى وإذا أنتم تخرجون إليه ملبين.

اللهم ارزقنا علماً يرسخ به إيماننا .

الإسلام دين الفطرة

هذه ثلاث آيات كريمات من سورة الروم يقف عندها علماء التوحيد وقفة طويلة لأهمية موضوعها فى توجهات الإنسانية ، وسلوكها وعلاقتها بخالقها المبدع الحكيم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم : ٣٠ ـ ٣٢] .

أولاً : هذه الآيات الكريمات جاءت بعد طائفة من البراهين العظيمة التى تعرض على الواجدان النقى بدائع الخلق ، ودلائل القدرة ، وشواهد التوحيد، وقد بدأت الآيات بقوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم : ١٧]، ومضت تعرض آيات وحدانية الله : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم : ١٩] إلى أن ختم تلك الآيات الباهرات بقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢٥]. فلما وضح الحقٌ وتجلى لكل ذى بصيرة خاطب ربنا ـ جل جلاله ـ نبينا محمداً ﷺ بقوله : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾.

ثانياً : إن هذا الأمر الإلهى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ يهز المشاعر هزا عنيفاً ، والتعبير على إيجازه زاخر بالمعانى السامية ، وما أجمل أن يكتب الإنسان هذه العبارة ويجعلها نصب عينيه ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾

إن معناها الحرفى : وجّه وجهك مستقيماً نحو الدين ونحو الدين فقط ، وإذ انطلقت عن يمينك أو شمالك صرخات إلحاد أو كفر أو معاصٍ أو رذائل ، فليظل وجهك ثابتاً على استقامته لايلوى على شىء مما يغريه .

أقم وجهك للدين حنيفاً ، أى تاركاً لكل انحراف أو كفر أو إلحاد . إن أغلى ما يحرص عليه العقل هو دينه ؛ ليلقى ربه يوم القيامة على التوحيد والإيمان ، وكل مصيبة تلم بالمؤمن تهون إذا تخطت الدين ؛ لأنها تنتهى بالموت ، أما مصيبة الدين فيبدأ عنفوانها بعد الموت ؛ ولهذا فإياك أن تغير وجهتك عن هذا الدين وأقم وجهك للدين حنيفاً .

إذا اصطرعت من حولك المبادئ واختلط فى صراعها هرجُ الشياطين ، فأقم وجهك للدين حنيفاً ، وإذا تألب من حولك جيش الباطل يزين للناس دروب المهالك ، ويعرض عليهم مغريات الشهوات ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ وإذا أنستك الأعمال الدنيوية بعض الواجب ؛ وشغلتك عن نداء الضمير ، وخفت فى قلبك هتاف الذكر فى غمار التجارة والزراعة والصناعة وحرف الرزق فاستيقظ حالاً ، وأقم وجهك للدين حنيفاً .

إن قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ لا تطلب من العبد أن يوجه أى توجهٍ إلى دينه الكريم الغالى ، بل تأمره أن يجعل التوجه مستقيماً لاينحرف أبداً صوب ما على الجانبين من بنيات الطرق .

إنها تكملة لأمر الله ـ جل جلاله ـ لأمتنا المسلمة ، ذلك الأمر السماوى الذى لو أخذت به الأمة لقادها الصراط المستقيم إلى حياة عزيزة فاضلة يجملها النصر والتمكين ، والحق والهدى والعدل والمساواة ، نعم ما أجملَ أن ينقش كلٍ مؤمن فى شغاف ضميره هذه الكلمات الروائع ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أربعة مقاطع فى وصف دين الإسلام ، أسأل الله أن يثبتنا على صراطه ويرزقنا العلم بأحكامه والعمل بأوامره .

أولها : إنه دين الفطرة ، فكل ما تستحسنه الفطرة النقية والعقل المتبصر فهو فى الإسلام حسن ، وكل ما تستهجنه الفطرة والعقل فهو فى الإسلام قبيح، وكلُّ ما يراه العقلاء حسناً فهو عند الله حسن ، وفى حديث الإسراء أن جبريل عليه السلام أحضر لرسول الله ﷺ ثلاث كؤوس أحدها من الخمر والثانى من اللبن والثالث من العسل فأختار اللبن . فقال له جبريل : «اخترت الفطرة » مشيراً بذلك إلى أن الإسلام هو دين الفطرة ، وأن من اتبع دين الإسلام ، فهو لم يتكلف جديداً، وكل ما صنعه أنه استقام على فطرته فى حين أن من يتبع غير الإسلام فقد كلف نفسه غير فطرتها ، وجشمها غير طبعها. إن النظافة مثلاً هى من مطالب الفطرة ، والتيسير مثلاً هو مما تميل إليه الفطرة ، والمساواة بين أفراد الإنسانية هى مما تعشقه الفطرة ، وهذه كلها هى من مقاصد الإسلام ، فى حين أن بعض الأديان ومنها المسيحية كان أتباعها يفاخرون أن الماء لايلامس أجسادهم، وهى بهذا تقر القذارة . وبعض الأديان فى الهند تدعو إلى تعذيب الجسد ونبذ اليسر ، وقد كان من المناظر المألوفة أن تمر على كاهن فى الهند وهو يكوى نفسه بالنار ، أو يعلق نفسه منكوساً على رأسه فى الرمضاء ، وكل هذا يمقته الإسلام ؛ لأنه ينافى طبيعة اليسر فى الإسلام . وأما عن المساواة فاليهود مثلاً يدينون بالعنصرية ويرون أنفسهم أبناء الله وأحباءه ، ويرون غيرهم من بنى آدم نطف بهائم ! نعم إن دين الإسلام هو دين الفطرة التى فطر الناس عليها . والثانى قوله تعالى : ﴿ لاتبديل لخلق الله ﴾ يشير إلى أن من اختار غير دين الإسلام دين الفطرة فكأنما بدل خلق الله ؛ لأن الإسلام هو صنعة الله ،

وفطرة الله ، فمن غير دين الإسلام فكأنما بدل خلق الله البديع المتناسق . المعجزة إلى خلق آخر .

أما قولـه تعالى : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ فهو إشـارة إلى أن دين الإسـلام هـو شريعـة الاستقامة يدعـو إليها ويمـقت الاعوجـاج بشتى أنواعه ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ ينادى كل مؤمن بهذا الأمـر الكريم فى سورة هـود ﴿ **فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولاتطغوا** ﴾ [هـود : ١١٢] وفى سـورة يونس : ﴿ **وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولاتكونن من المشركين** ﴾ [يونس : ١٠٥] وفى سورة الـروم نفسها يكـرر بقولـه ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القيم ﴾ . ثم ختم الآيـة الكريمة بالمقطع الرابـع ﴿ **ولكن أكثر الناس لايعلمون** ﴾ وهو إشـارة واضـحـة إلى أن الكفـر لايصدر إلا عن جاهل.

رابعاً : قـوله تعـالى : ﴿ مُنِيـبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِيـنَ فَرَّقُوا دِيـنَهُم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ آيتان فيهما أمر لأفراد المجتمع الإسلامى بالإنابة إلى الله ، وتقواه ـ جلّ جلاله ـ وإقام الصلاة ، ووحدة الكلمة ، والحق أن هذه الأوامر الأربعة الحكيمـة كفيلة بضمـان القـوة والعزة والنصر ، وضمـان الأمن والسعـادة والتـوفيق . أمّا الذين فرقـوا دينهم فرقـاً وأحزاباً ومزقـوا أمتـهم طوائف ومذاهب ، فهؤلاء ليسوا من الإسلام فى شىء ، وإن ملأت كل فرقـة مسـامع الدنيا بإنجازات مكذوبة ، فرحين بما هم عليه من زيف وإرجاف ودعايات كاذبة مضللة .

مراحل وجود الإنسان فى الحياة

بهـذه الآيات الكريمات ختـم ربنا ـ جل عـلاه ـ سـورة الروم ، ومـا أروع مسك الختام فى جميع سور القرآن الكريم .. إنهـا آيات تروى مراحل الوجود البشرى فى هذه الدنيا من طفولة ، فشباب ، فشيخوخة ، فبعث ، وحساب ، فجنة أو نار ، ثم يشد من عزيمة رسول الله ﷺ كى لا تستفزه أو تستخفه أو تزلقه مكائد أهل الكفر والشك والريب .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **اللَّهُ الَّذي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ * فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ * كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ** ﴾ [الروم : ٤٥ ـ ٦٠].

أولاً : الإنسان كما هو مشاهد معروف يخلق من نطفة ، ويكون جنيناً فطفلاً فصبياً صغيراً ، وهذه كلها مرحلة ضعف ثم تأتى الشيبة والعنفوان والكهولة الأولى ، وتلك مرحلة قوة ، ثم يأتى الشيب والهرم وأرذل العمر حيث الضعف والشيب . وربنا فى جميع الأحوال هو خالق الضعف والقوة ، ثم إذا انتهت مراحل الحياة الدنيا جاء الموت حيث الحياة البرزخية ، ثم يكون البعث والنشور إليه جلّ جلاله ، فإذا وضع

الكتاب وكان الحساب انتهت مراحل الوجود بالنعيم أبداً ، أو العذاب أبداً ، ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وهو العليم القدير﴾ نعم هو المتصرف فى الخلق بمشيئته الحكيمة ، وهو ـ جلّ جلاله ـ لايخلق شيئاً إلا وهو ناطق بواسع علمه وجليل قدرته ، وكل فى الوجود من آيات وحدانيته وعجيب مخلوقاته تنطق بأبلغ بيان وتسبح له بغير لسان : سبحانك يا عليم يا قدير.

ثانياً : إن حياة الإنسان على هذه الأرض ليست شيئاً إذا قيست مدتها بملايين السنين قبل خلقه ، وبملايين السنين بعد موته ، ومن ثم فحين يبعث الناس يوم القيامة يسائل بعضهم بعضاً : كم لبثنا فى حياتنا ورقدتنا ؟! فيجيب بعضهم : يبدو أن المدة كانت عشرة أيام ، ويقول آخرون : بل يوماً واحداً ، وتبدو لآخرين كأنها ساعة من نهار ، وإلى هذا تشير الآية الكريمة ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُون ﴾ ، ومعنى الآية الكريمة : إذا نفخ فى الصور نفخة البعث وقامت القيامة فوجئ المجرمون مفاجأة عظيمة ؛ لأنهم كانوا يكذبون بها ولايتوقعونها يقسمون أن مدة حياتهم ورقدتهم ما كانت غير ساعة من الزمان ، وهو يقيناً قسم كاذب . إنهم يكذبون اليوم كما كانوا يكذبون فى أيام حياتهم هذه . وما أجمل الجناس الجميل غير المتكلف فى هذه الآية الكريمة بين كلمتي الساعة التي معناها القيامة ، وساعة التى معناها ستون دقيقة ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةَ﴾.

ثالثاً : أما المؤمنون الذين رزقهم الله علم دينهم ، فقد كانوا واثقين متأكدين من يوم البعث ، ولهذا فهم لايفاجؤون به ، لأنهم كانوا يتوقعونه ويؤمنون به؛ ولهذا فحين يمرون على الكفار وهم يتجادلون ويتمارون يقولون لهم : إنكم لم تمكثوا ساعة كما تزعمون لكنكم مكثتم مدة الأجل الذى أجّله الله لكم وكتبه عليكم ، وهو من يوم مولدكم إلى يوم بعثكم ،

وهذا هو يوم البعث الذى كنتم تنكرونه وتتمارون به فى الدنيا ، وأنتم الآن تتساءلون عن المدة وتظنونها يوماً أو بعض يوم ؛ لأنكم كنتم جاهلين بالإيمان منكرين للساعة ؛ وهذا هو ما تنطق به الآية الكريمة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ معناه : أن الأعذار يوم القيامة لاتقبل ، والمجرمون فى القيامة لايستعتبون ، أى لا تقبل عتباهم ومعذرتهم ؛ لأنّ القيامة هى يوم الجزاء والموعد الذى ينطق فيه بالحكم العادل ، والله ـ جل جلاله ـ أحكم الحاكمين وأعدل العادلين ، وهو لا يصدر فى أحكامه إلا عن علم لاتخفى عنه خافية .

خامساً : الآيات الثلاث الباقية من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾ إعلان من الله ـ جل جلاله ـ لرسوله ﷺ بأنه ليس أمامه إلا الثبات على دعوته فى وجه دوامة الكفر والعناد والحذر من مؤامرة الكفر العنيدة التى تريد أن تزلزله من دعوته وتستخفه بالرغب والرهب . إن الكفار لا تنفعهم المواعظ والأمثال، وحتى لو جئتهم بمعجزة كما يطلبون فإنهم سوف يتهمونك بالسحر ؛ وذلك لأن الله ـ عز وجل ـ طبع على قلوبهم ، وختم الله عليها بعد إقفالها ، ومن هنا ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾ .

سادساً : إن سورة الروم من أولها إلى آخرها دروس فى الصبر والإيمان والثبات والجهاد ، ولأن هذه الأمور تتطلب رسوخاً فى العقيدة وعمقاً فى فهم الإيمان؛ لهذا فقد امتلأت السورة بالبراهين الساطعة الناطقة بقدرة الله

الشاهدة على وحدانيته . لقد ابتدأت السورة الكريمة بوعد كريم أن ينصر الله الروم على الفرس ، وهو وعد معناه : أن التوحيد سيظل ظاهراً على الشرك ، وختم السورة بأمر لمحمد ﷺ أن يظل صابراً منتظراً لوعد الله بالنصر ، وألا تستخفه دعايات الكفر والإلحاد فتحلحله عن عقيدة التوحيد ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾ .

موعظة لقمان الحكيم لابنه

سورة لقمان من السور المكية ، ماعدا ثلاث آيات تبدأ بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الروم : ٢٧] ومن أبرز ما اشتملت عليه السورة وصية لقمان لابنه ، وهى موعظة ولى حكيم من أولياء الله ، أفرغ فيها تجربة كريمة وألقاها على مسامع ولده أحب الناس إليه . وما أجمل أن يحفظ الأبناء موعظة لقمان لابنه ، ثم يأخذوا أنفسهم بالعمل بما فيها من آداب .

فى مطالع سورة لقمان آيتان كريمتان أذكرهما كثيراً فى ليالى الجمع . إن الذى يسير فى الأسواق ليلة الجمعة يرى الناس يتزاحمون على محلات معينة ، يبذلون فيها مبالغ طائلة ، ولايبخلون حتى ولو طلب التاجر فى بضاعته أضعاف الثمن ، والغريب أن البضاعة التى تباع فى هذه المحلات فى معظم أحوالها مغضبة لله . والأغرب أنه كلما كان إغضابها لله أشد كان ثمنها أكثر . هذه المحلات هى محلات الفيديو ، وبضاعتها هى : الأشرطة ، والآيتان الكريمتان اللتان تصوران شراء الضرر وتنطبقان على شراء الأشرطة هما قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان : ٦ ـ ٧] .

أولاً : فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ ذهب ابن مسعود وابن عباس وجابر ومجاهد ـ رضى الله عنهم ـ أن لهو الحديث هو الغناء، وأقسم ابن مسعود بالله الذى لا إله إلا هو إن المقصود بلهو الحديث الغناء ، ولهذا فإن هاتين الآيتين الكريمتين تتيحان فرصة

التحدث عن الغناء ، وما ذهب إليه أشياخنا من تحليله .

ثانياً : جاء فى مناسبة نزول الآيتين : أن أغنياء قريش كانوا يشترون مغنيات يغنين للناس ليشغلوهم عن الإسلام والقرآن . وقد اشترى النضر بن الحارث كتباً فارسية تحكى قصص البطولات الفارسية ، وأبطال فارس من أمثال رستم وأسفنديار ، كما اشترى جوارى يجدن الغناء ، فكان يقرأ على قريش أساطير الفرس ، ويقول : هذه أحاديث أمتع مما يجيئكم به محمد ، وكان إذا رأى رجلاً ذا هيئة يسأل عن محمد ليسلم ، أخذه إلى بيته وقال لجاريته المغنية: اسقيه وأطربيه . فكان بهذا ينفق الأموال الطائلة ليصد عن سبيل الله ويهزأ بآيات الله .

ثالثاً : للمسلم فى هذه الحياة رسالة تسمو على اللهو والعبث والغناء ، فهو منذ رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً قد بايع ربه على الجهاد وباع نفسه لربه بالجنة ، وحمل رسالة محمد ﷺ ليبلغها الدنيا وسكانها ، واللهو والغناء كما هو معروف لهما ثمن باهظ يدفعه المرء من ماله ، ومن وقته الثمين ومن صحته ، ومن ثم فقد ذكرنا ما شاع فى أيامنا من أشرطة الفيديو الخليعة ؛ لأن الآيتين الكريمتين تنطبقان على وضعها ، فالأشرطة المذكورة تصد عن سبيل الله ؛ لأنها تملأ القلوب بأحلام الفواحش ، ومناظر الفتنة ، وتقفل أبواب القلوب عن أنوار الذكر فيرين عليها سواد الشهوات . ثم إن المرء إذا مرد عليها عزف عن القرآن وعن تدبر آيات الله ، ثم تكون الخطوة الثالثة الموبقة المردية : أن يستهزئ عشاق الأشرطة الخليعة بآيات القرآن وأحكام الدين ، وتلك قاصمة الظهر وجريمة الكفر .

رابعاً : نتحدث عن أحكام الغناء كما ناقشها الأشياخ ـ رحمهم الله ـ فنقول

وبالله التوفيق والعون والثبات على الحق : الغناء منه ما هو مباح ، ومنه ما هو مكروه ، ومنه ماهو حرام ، وإن كان الغناء فى معظمه لايأتى بخير . فالغناء إذا شغل عن ذكر الله ، أو كان فاحشاً ماجناً يهيج الشهوات الشيطانية ، أو تغنت به امرأة متكشفة للرجال ، أو كان فى مجلسه رفث ولهو وخمر وقمار ، أو كان فى ألفاظه ميوعة وفى أنغامه تأنث فهو حرام بالإجماع ، ويكاد يكون كل الغناء فى أيامنا هذه من هذا القبيل ؛ لأن الغالبية العظمى ممن يمارسونه ويحترفونه إما متأنث من الرجال أو منحرفة من النساء .

أما النسيب العفيف فإنه إذا لم يشغل عن ذكر الله ، وكان بالقدر المعقول فإنه يجوز فى مناسبات كالعرس مثلاً ، إذ يجوز أن تغنى النساء للعروس يسلينها ويضربن لها الدف ، والدف طبل يحمل بيد ويضرب بالأخرى ، وقد تعلق فيه هنات تحدث معه خشخشة ، أما الطبل فهو الكبير الذى يدق بعيدان خشبية للحرب ولإعلان العرس وفى الأعياد وهو مباح . ومن الغناء المباح الحداء للإبل، ولعل مزمار الراعى أو يراعته التى يطرب بها غنمه مباحة إن شاء الله إذا لم تشغل الراعى عن ذكر ربه . وقد جاء فى السير أن فتيات ضربن الدف بين يدى رسول الله ﷺ حين مقدمه المدينة ، فهم أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ بالزجر فقال رسول الله ﷺ : « دعهن يا أبا بكر حتى تعلم يهود أن ديننا فسيح » . أما الأناشيد الوطنية والقصائد الزهدية والابتهالات والمدائح النبوية التى لاشرك فيها وأشعار الحكمة ، فتلك تتراوح بين مباح ومكروه ، وذلك أنها إذا جاءت لمماً ، ولكى تنشط السائق فى سفر مثلاً وتزيل نعاسه وحين لاتلهى عن ذكر الله وواجبات الأعمال ، فتلك إن شاء الله لا بأس فيها ، ولكن حين تزيد عن حدها وتردد بأصوات غزله كما يحدث فى بعض الاحتفالات فهى عندئذ مكروهة ، وأما إذا شغلت عن طاعة الله ، أو كانت ابتداعاً فى الدين كما

يحدث في حضرات المتصوفين فتلك حينئذ حرام . ومن احترف الغناء الماجن فهو فاسق ترد شهادته ، وكذلك من عقد فى بيته مجالس غناء تغنى فيه امرأة ويستمع إليها رجال ، فهو فاسق ، وقد وصفه الشافعي ـ رحمه الله ـ بأنه ديوث. وعند مالك أن من اشترى جارية فعلم أنها مدربة على العزف والغناء فله أن يردها بالعيب . وعلى الجملة فإن مما يؤلم النفس فى أيامنا هذه أن أصبحت حياتنا كلها طرباً ملهياً ، ففى السيارة طرب ، وفى المذياع طرب ، وفى المساء مع الرائى طرب ، ومشاهدة لمناظر حرام ، حتى كأن الجهاد على غيرنا قد كتب ، وكأن ذكر الله على غيرنا قد وجب ، وكأن تبليغ دعوة الإسلام لغيرنا قد شرع ! ولست أغالى إذا قلت إن بعض شبابنا قد أصبح الغناء شغله الشاغل، وأن هذا الغناء المعاصر قد عبث بأمزجة الكثيرين من الشباب المسلم فانحرفوا إلى الموسيقى الصاخبة الغربية والأغانى الخليعة الأفرنجية ، ويخشى إذا استبد بهم هذا الداء أن يعصف بإسلامهم وعروبتهم .

نصائح غالية لكل مسلم

لعل أعظم وصية أوصى بها أب حكيم ابنه هى موعظة لقمان ـ رحمه الله ـ لابنه ، وحسبها شرفاً أن الله ـ جل جلاله ـ أوردها بكاملها فى محكم كتابه ، وهى مكونة من سبع آيات كريمات اشتملت على عشر وصايا جليلة ، وقد ابتدأها ربنا ـ جل جلاله ـ بقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] وختمها بقوله : ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٩] وما أجمل أن يتجمل أبناؤنا من الشباب والصبيان بل والكهول بهذه الآداب الربانية التى صدر بها لقمان عن حكمة علمه ربه إياها :

أولاً : لقمان كما يصفه القرآن الكريم ولى من أولياء الله آتاه الله الحكمة ، وعلمه شكر ربه ، وشكر الله ـ جل جلاله ـ لا ينفع إلا صاحبه ، أما الرب ـ جل وعلا ـ فهو أهل الغنى وأهل الحمد والكرم يطعم ولا يطعم ولأنه المستغنى عن عباده فشكرهم لا يزيد فى ملكه وكفرهم لا ينقص من ملكه . سبحانه هو الغنى الحميد الذى يسبح كل شىء بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم . ولقمان عليه السلام قيل إنه كان نبياً ، وقيل : بل كان عبداً صالحاً حكيما ، وجاء من خبره أنه كان نوبياً أسود من أهل مصر ، وأنه عاش ألف عام من لدن أيوب إلى داود عليهم السلام ، وأن داود تتلمذ عليه وأياً ما كان الأمر فالذى أثبته القرآن من أمره، أنه كان ولياً من أولياء الله آتاه الله الحكمة ، والقرآن الكريم لا يورد التفصيلات ؛ لأن المهم هو كلام لقمان الحكيم وليس حياته الخاصة ونسبه .

ثانياً : وصية لقمان لا يأتيها الباطل ، ولا يمكن أن تتهم بأى غرض ؛ لأن الإنسان أحرص ما يكون على مصلحة ابنه الذى هو أعظم أمله من دنياه، ومن هنا فإن أى ابن من الأبناء ، وأى أب من الآباء يجب أن يتخذها منهجاً تربوياً نظراً لشرف مقصدها ونبل أوامرها وأحكامها . وقد بدأها لقمان رحمه الله بقوله : ﴿ **يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم** ﴾ وأراد بهذه البداية أن يرسى فى ابنه أولاً قواعد الإيمان ، إذ بالتوحيد تقبل الأعمال وتغفر الذنوب ، وبغيره لا يقبل صرف ولا عدل ، وما أروع ما وصف به الشرك من أنه ظلم عظيم ، وأى ظلم أفظع من أن يخلقك الله وتعبد غيره ، ويرزقك وتشكر غيره ، ويسوق إليك النعم فتعكف على صنم . وما أجمل بداية الوصية وهو يقول له : ﴿ **يا بنى** ﴾ مذكراً إياه برحم البنوة وحنان الأبوة وقداسة الصلة .

ثالثاً : بعد التوحيد والإيمان وأداء حق الله بالتعبد ذكر لقمان حق الوالدين وبخاصة حق الوالدة التى لقيت الأمرين فى حمله وهناً على وهن ثم من رضاعه وفطامه فى عامين ، وما أجمل ختام الآية إذ يعود القول فى التفات بليغ إلى ربنا ـ جل جلاله ـ : ﴿ **أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِير** ﴾ أى رحمة من الله تبارك وتعالى إذ يقرن شكره بشكر الوالدين ، فالله الخالق أولاً ، والوالدان فى الشكر والبر والإحسان ثانياً ؛ ذلك لأن الله ـ جل جلاله ـ هو الخالق والوالدان هما السبب المباشر وهما وعاء الخلقة وطريقة تنفيذها . أما إذا أرادك الوالدان أن تشرك بالله أو تعصيه ، فإذ ذاك لا تطعهما ، ولكن لا تقطع برهما والإحسان إليهما فى الدنيا . وكن دائماً مع الحق متبعاً طريق المؤمنين الصالحين حتى ولو كان فى طريق الغواية والشرك أبواك . نعم إذا تعارضت العقيدة والقرابة فلتسقط القرابة حتى ولو كانت قرابة الأب والأم . إن العقيدة عند المؤمن أغلى

من ماله وولده ووالديه والناس أجمعين ؛ وذلك لأن العقيدة مرتبطة بحب الله ورسوله وهو حب يهون عنده كل حب ، وفى الحديث الصحيح : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» .

رابعاً : الوصية الثالثة من الوالد الحكيم لابنه هى : أن يستشعر دوماً جلال الله ومهابته وعظمة علمه وقدرته ؛ لأن المؤمن حين يستشعر عظمة علم الله وقدرته يدرك أنه لا تخفى على ربه منه خافية ، وأنه قادر عليه أينما حلّ أو رحل، وما منه لا إله إلا هو مفرٌ إلا إليه .

وإذ ذاك لا يصدر عن معصية لهذا الخالق العليم القدير : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ ما رأيت مثلاً أروع من هذا المثل فى تصوير علم الله وقدرته ، فحبة الخردل التى هى أصغر بذرة فى الدنيا مما يقع تحت أبصارنا حين تكون فى وسط صخرة ضخمة تحيط بها صلابة الجلمود من كل جانب ، أو حتى حين تكون فى السماء العظيمة التى تبدو بعض نجومها الهائلة لا عيننا كأنها حبة خردل ، أو فى ظلمات الأرض فى أطباق الثرى هذه الحبة يأتى بها الله لحظة استدعائها ، وما أبلغ خاتمة الآية باسمين من أسمائه الحسنى هما أيضاً صفتان من صفاته العلا ، وهما ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ واللطيف : هو الذى ينفد بعلمه إلى داخل كل الحواجز والموانع من صلب وسائل وغاز ، والخبير : هو الواسع الخبرة بكل مخلوق من مخلوقاته .

خامساً : وقد اشتملت بقية الموعظة على طائفة من الآداب الإسلامية ، أصبح فتياننا فى هذه الأيام يغفلون عن الكثير منها ، وما أجمل أن يذكرهم بها الآباء فى كل حين ، وهذه الآداب هى :

أ ـ إقام الصلاة بكل ما يشتمل عليه التعبير من آداب الصلاة من أدائها في جماعة بالمسجد والسعي إليها بأدب ، وتسوية الصفوف والخشوع اللائق بالمقام العظيم ، وإتمام أركانها وعدم تأخيرها عن وقتها .

ب ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمعروف هو الخير ، والمنكر هو الشر بأنواعه ، وهذا الأدب هو من خصائص الأمة الإسلامية به يزكو مجتمعها وتكتمل سعادتها ، وتظل به رائدة في ميادين الإصلاح والدعوة إلى الله .

حـ ـ الصبر على ما يصيب المرء من تقلبات الزمن ؛ لأن كل شيء بقضاء من الحبيب الأعظم ، سواء أكان خيراً أو غير ذلك ، وكل شيء من الحبيب حبيب ، والرضا والتسليم سعادة للمرء إذ من رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط .

د ـ ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ وهذه الهيئة المرسومة كناية عن الكبرياء ، وكذلك هي مرسومة في قوله تعالى : ﴿ ولا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا ﴾ إن الكبرياء شرك ولؤم ﴿ إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُور ﴾ .

هـ ـ ومن الآداب التي يعتز بها ذو المروءة : القصد في المشية ، وغض الصوت، والحق أن هاتين الصفتين من تمام المروءة يتحلى بهما ذوو السمت والكرامة ، ويغفل عنهما السوقة والساقطون ، وعندي أن السير بالسيارة مما ينطبق عليه القصد في المشي ؛ لأن قيادة السيارة ذوق وأدب ، وكل من ينحرف عن هذا الأدب ينطبق عليه وعلى سيارته ذلك المثل المنزل فتمام الآية ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ .

علم الله لا يحده حد

هاتان آيتان من سورة لقمان تقربان إلى عقولنا المحدودة بالطريقة التعبيرية التى نستطيع فهمها مدى علم الله الذى لا يحد ، وغناه الذى لا ينفد ، وقدرته القادرة على الخلق والإيجاد ، وقدره الحكيم الذى يدبر الأمر ويسير الكون ، ويصرف شؤون الخلق .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان : ٢٧ ـ ٢٨].

أولاً : هاتان الآيتان مدنيتان من بين آيات سورة لقمان التى هى من السور المكيه، وجاء فى سبب نزولهما : أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ : كيف يقال فينا ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ونحن قد أوتينا التوراة ، والتوراة كما فى كتابك فيها حكم الله وتبيان كل شيء ؟! فقال لهم رسول الله ﷺ : « التوراة قليل من كثير » ونزلت الآية الكريمة ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلام..﴾ الآية.

ثانياً : قوله تعالي : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ معناه : أن جميع أشجار الدنيا لو تحولت أقلاماً وجميع المحيطات والبحار تضاعفت ثمانية أضعاف ثم تحولت إلى مداد ، أى حبر ، وشرع الكتاب يكتبون كلمات الله لجفت البحار ، وكلت الأقلام وتآكلت ، قبل أن تنتهى كلمات الله، علماً بأن تلك الكلمات العظيمة كلها قد صدرت من منطلق عزة الله القادرة ، وحكمته الباهرة البالغة.

ثالثاً : والمقصود بكلمات الله : كلماته التى سجلت علمه وسجلت ما كان وما هو كائن ، والتى تسجل فى كل حين شؤونه العظيمة ، إذ هو ـ جل جلاله ـ كل يوم فى شأن وهو تبارك وتعالى يصدر أوامره إلى الملائكة فى السماء ، فإذا جاء أمره لم يكن له راد ، وقد يتكلم بالأمر من أمره فتصعق الملائكة لهول خوفها ؛ وتضرب بأجنحتها خوفاً حتى إذا فزع عن قلوبهم واطمأنوا من خوفهم سألوا جبريل فى لهفة ماذا قال ربنا يا جبريل ؟! فيقول جبريل : ﴿الحق﴾ ولا غرو فقوله الحق وعلمه الحق ، وهو الملك الحق المبين .

رابعاً : ولتقريب معنى كلماته نقول : إن كل عالم إذا أراد أن ينشر علمه سجله فى كتب فيتحول من علم فى الصدور إلى علم منشور مكتوب ، وقد احتاج بعض الأعلام من علماء السلف أن يسجلوا ما وعوه من العلم فى مئات من المجلدات كالسيوطى ـ رحمه الله ـ هذا من علم فرد من البشر، فكيف حين يكتب ربك علمه الذى أحاط بكل شىء فى السموات والأرض وما بينهما ، سبحانه لا إله إلا هو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ويعلم السر فى السموات والأرض ، ويعلم مفاتح الغيب ، ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ! ولا يقتصر علمه ـ جل جلاله ـ على ما يعلنه الناس فهو يعلم السر وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها .

خامساً : فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ بعض أمور من الإعراب يجدر أن نشير إليها ، فكلمة ﴿ لو ﴾ حرف امتناع الامتناع وفعل الشرط وراءها محذوف؛ لأنه مفهوم ، والتقدير : لو فرض أو حصل

أن ما فى الأرض من شجرة أقلام، وجواب الشرط ﴿ **ما نفدت كلمات الله** ﴾ ، وفى الآية إيجاز حذف بليغ تقديره : وكتب بالحبر والأقلام كلام الله ، وفى قوله تعالى : ﴿ **إن الله عزيز حكيم** ﴾ فى ختام الآية إطناب تذييل فيه تعليق على ما ذكر فى الآية من سعة علم الله وعظمة قدرته .

سادساً : قوله تعالى : ﴿ **مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ جاء فى سبب نزوله : أن جماعة من المشركين منهم أبى بن خلف سألوا رسول الله ﷺ : إن الله يخلق الناس أطواراً بين نطفة وعلقة ومضغة وعظام ولحم، فكيف يخرج كل الناس من الأرض فى لحظة واحدة ، وكل منهم خلق مكتملا من جميع الأطوار ؟ فنزلت هذه الآية الكريمة ﴿ **مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾ .

سابعاً : إن معنى الآية والله أعلم : أن ربنا ـ جل جلاله ـ ليس عليه فى الخلق سهل وصعب ؛ لأنه إذا أراد شيئاً كائناً ما كان قال له : كن فيكون مهما ضخم خلقه وتعقدت أجزاؤه ، ومن ثم ، فإن إعادة خلق الخلائق يوم القيامة وبعثهم إليه كلهم لا يحتاج إلا إلى كلمة كن ، كما لو أراد أن يخلق نفساً واحدة أو يبعث ميتاً واحداً ، وختام الآية الكريمة بأن جميع مخلوقات الله سواء فى باطن الأرض أو على ظهرها هى تحت سمعه وبصره لا يخفى عليه منها شىء ، مما يجعل عملية جمعها جميعاً كعملية إحضار واحد منها . ومن أشياخنا من فسر قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾ بأن الله ـ عز وجل ـ يسمع جدال المشركين وهم يجادلون رسول الله ﷺ ويبصر ما هم عليه من معاندة وإيذاء لرسوله الكريم.

ثامناً : إن أسلوب الآية الأولى مع أنها عملية حسابية عجيبة يناسبها الأسلوب

العلمى الصرف جاء فى قمة السلاسة والعذوبة ، فقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلام ﴾ هو ثمانى كلمات وكان يمكن أن يعبر عن هذه بست كلمات ولو أن كل شجر الأرض أقلام لكن العبارة الثانية فيها تتابع إضافات فكلمة شجر مضاف إليه ، والأرض مضاف إليه آخر ثم إن العبارة الثانية ينقصها التوكيد الرائع الموجود فى الآية فعبارة ﴿**ما فى الأرض من شجرة**﴾ أشد توكيداً من عبارة كل شجر الأرض إذ كلمة ﴿ **من** ﴾ فى قوله ﴿ مِن شَجَرَةٍ ﴾ تؤكد التمييز وكأن ثمة إحصاءاً دقيقاً لكل ما فى الأرض من الأشجار يحصيها شجرة شجرة ، وقد تمت الصورة الرائعة بكمية الحبر الهائلة ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ كأنما بعد البحر سبعة أبحر كلما نفد واحد أمده الذى يليه وذلك أبلغ من قولنا : وصار البحر ثمانية أبحر فما فى عبارة القرآن من تصور المدد المتلاحق بحيث إذا نفد البحر عن آخر قطرة انبرى البحر الذى يليه لإمداده .

اللهم إنا نسألك فقهاً لكتابك ، واستجابة لأحكامك وتدبراً لآياتك .

خمسة أشياء
لا يعلمها إلا الله

هاتان هما الآيتان الكريمتان اللتان ختم الله بهما سورة لقمان تجعلان العبد فى مراقبة دائمة للعليم الخبير .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ * إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

أولاً : فى الآية الأولى إشارة معنوية دقيقة تشير إلى أن أكثر ما يجر الإنسان إلى الحرص والظلم والبخل واقتحام السحت هو حرص الإنسان على ولده . والقرآن فى هذه الآية الكريمة يذكر المؤمنين أنه فى الآخرة لا تجدى القرابات ولا تنفع الأنساب ، هناك لا تزر وازرة وزر أخرى ، ولا يجزى والد عن ولده ولا ولد عن والده ، هنالك تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتعطل العشار التى هى أغلى المال . وإذا قيل : إن الوالد الصالح قد يشفع فى أهله والولد الصالح قد يشفع فى والديه ، فذلك لا إنكار فيه ، ولكن حين يكون كل من الوالد والولد محتاجاً إلى حسناته فإذ ذاك لا يجزى أحدهما عن الآخر ، وهناك يكون الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدواً إلا المتقين.

ثانياً : في الآية الكريمة ألوان من البلاغة ؛ ففى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم ﴾ نداء لجميع الناس أن يخافوا ربهم ، وفى هذا إشارة إلى أن

دين الإسلام هو دين الإنسانية ينظر إليها نظرة شمولية راحمة تقودها سبل السعادة والسلام ، وفى قوله تعالى ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُم ﴾ إيجاز رائع ؛ لأن تقوى الله ـ جل جلاله ـ معناها : خشيته على جميع الأحوال ، وهذه وحدها جماع مكارم الأخلاق ، وخلاصة صالح الأعمال . ثم انظر إلى حلاوة جرس الألفاظ في تلك المطابقة الجميلة ﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ .

ثالثاً : وزيادة فى تأثير الموعظة وبلاغتها ذيلها تذييلين هما ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَق ﴾ والثانى : ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُور ﴾ والمقصود بالوعد الحق فى هذا المقام قيام الناس لربهم فى القيامة،وفى الإطناب الثانى بين ـ جل جلاله ـ أن أكثر ما يردى الإنسان غروره بالأمانى تلهيه عن صالح الأعمال ، وتنسيه الموت والجزاء ، وهذا الغرور يأتى من مصدرين : أولهما : متاع الدنيا وزينتها من مال وجاه ومنصب ، أما المصدر الثانى للغرور : فهو الشيطان الغرور يزين للمرء كل فاحشة ، ويجمل فى عينه سبل الغواية والمعصية .

رابعاً : الآية الخاتمة لسورة لقمان من أعظم آيات القرآن ، فقد ذكر النبى ﷺ أن هذه الآية الكريمة اشتملت على مفاتح الغيب التى لا يعلمها إلا الله ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ . قرأنا أن أحد علماء التابعين رأى فيما يرى النائم عزرائيل عليه السلام فقال له أيها الملك الكريم أنت ملك الموت ، فمتى أمرت أن تقبض روحى ؟ فأشار إليه عزرائيل بأصابعه الخمس ، وفى الصباح غدا على ابن سيرين رحمه الله ـ وكان ذكياً فى تفسير المنام ـ فسأله : هل أفهم من الخمس خمسة : أيام أم خمسة أشهر أم خمس سنين ؟ فقال

له ابن سيرين رحمه الله لا هذه ولا تلك ولكن الملك يشير إليك بأصابعة الخمس يقول لك : إن سؤالك هذا فى الأمور الخمسة التى لا يعلمها إلا الله ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ وجاء فى مناسبة هذه الآية : أن رجلاً من البادية اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إن امرأتى حبلى فأخبرنى ماذا تلد ؟ وبلادنا جدبة فأخبرنى متى ينزل الغيث ؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرنى متى أموت؟ وقد علمت ما عملت اليوم فأخبرنى ماذا أعمل غداً ؟ وأخبرنى متى تقوم الساعة؟؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية . وفى الحديث الذى رواه ابن ماجة رحمه الله : إذا أراد الله تعالى قبض روح عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم ينته حتى يقدمها» ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ إلى قوله : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ وقد يقول قائل : إن كثيراً من الناس قد يعرف شيئا من هذه الأمور بالتجربة ، فهنالك من أهل الزراعة والفلاحة من يعرفون الأنواء الممطرة ومواعيد إمطارها . ومن القوابل والأطباء من يعرف بطول التجربة إن كان الحمل ذكراً أو أنثى ، ومن الناس من يرتب لنفسه جدولاً بما يعمله غداً ، لكن هذا لا ينقض شيئاً من الآية الكريمة؛ لأن جميع ما ذكرناه من التجارب ليس علماً يقيناً ، وكل علم لا يكون مؤكداً مائة فى المائة لا يسمى يقينياً ، والحق أن ما يقال عن توصل الأطباء إلى معرفة الجنين إن كان ذكراً أو أنثى لا يقدح فى مدلول الآية ؛ لأن الطبيب حين يعلم أن فى الرحم جنينا ذكراً أو أن فيه أنثى فهو لم يعلم ما فى الرحم ؛ لأنه عرف شيئا : واحداً وغابت عنه أشياء ما طبيعة هذا الولد وما استعداداته الفطرية وما شكله ولونه ، وما مزاجه وعقليته ، وإلى أى شيء هو مهيأ وميسر ؟! إنك قد تقابل آلافاً مؤلفة من بنى الإنسان وتعرف من النظرة الأولى الذكر من الأنثى ، ولكنك حين تسأل عنهم

تقول : لا أعرف أى واحد منهم ، وهذا يعنى أن مجرد معرفة الجنس لا تشكل أية معرفة ، وإذن فحين يتمكن الطب أن يعرف جنس الجنين حتى ولو معرفة يقينية فإن هذا لا يعنى معرفة ما فى الأرحام .

خامساً : ختم الله ـ جل جلاله ـ هذه الآية الكريمة بقوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ وهو ما يسمى فى البلاغة فى علم المعانى إطناب تذييل ، أى تعليق على معان سابقة ، والحق أنه إطناب فى غاية الملائمة ؛ لأن الآية الكريمة كلها تتحدث عن علم الله جلت قدرته للغيب وخبرته بكل دقائق هذا الكون ، فسبحانه من عليم خبير ، هذا وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ** ﴾ توضح عجز الإنسان عن الإفلات من قضاء الله ، وليس أدل على ذلك من أن المرء قد يسافر برغبته وتخطيطه آلاف الأميال لكى يصل إلى الأرض التى كتب عليه أن يموت فيها !

بين يدى سورة السجدة

إن سورة السجدة ﴿ الٓمٓ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هى من السور المكية ، وقيل : إن ثلاث آيات منها أو خمساً نزلن بالمدينة ، وقد جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الفجر من يوم الجمعة سورة السجدة فى الركعة الأولى ، وسورة الإنسان ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان : ١] فى الركعة الثانية. ويبدو ـ والله أعلم ـ أن رسول الله ﷺ كان فى ليلة الجمعة المباركة ـ والجمعة عيد المصلين ـ كان يحب أن يذكر المؤمنين بقصة حياتهم وموتهم وبعثهم ومصيرهم بين الثواب والعقاب ؛ لأن كلاً من سورة السجدة وسورة الإنسان تعرض قصة الإنسان ، ففى سورة السجدة ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة : ٧ ـ ٩] ثم يذكر الموت ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة : ١١] ، ويذكر بعد ذلك البعث والجزاء ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ [السجدة : ١٩ ـ ٢٠]ومثل هذا فى سورة الإنسان إذ بدأها تبارك وتعالى بقوله يذكر بدء خلق الإنسان : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان : ١ ـ ٢] ثم يسير فى السورة المباركة فيذكر ما أعدة للكافرين من سلاسل وأغلال ونار ، وما أعده للمؤمنين الذين يوفون بالنذر ويخافون اليوم الآخر من جنة وحرير ونعيم مقيم . وإذن فقراءة النبى ﷺ للسورتين الكريمتين ليلة عيد المصلين هو ذكرى أسبوعية للمؤمنين تذكرهم

بالحياة الإنسانية بدئها ونهايتها وجزائها ، ومن السنة أن يقرأ الأئمة هاتين السورتين الكريمتين فى صلاة فجر الجمعة ؛ على ألا يلتزموا بهذا كالتزام الفرائض المكتوبة .

وفى فضل سورة السجدة وردت أحاديث وآثار ، فقد روى الدارمى فى مسنده حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ سورة السجدة وسورة تبارك . وبالمناسبة فإن سورة تبارك أيضاً تروى قصة الحياة الإنسانية ، وكيف أنه ـ جل جلاله ـ خلق الموت والحياة ليبلو العباد أيهم أحسن عملاً ، ثم إنه سيبعث الإنسانية لنيل جزاء الأعمال وإذ ذاك يكون للذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ، ويكون للذين آمنوا وعملوا الصالحات مغفرة وأجر كبير .

وفى الأثر : « اقرؤوا المنجية ﴿ **ألم * تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين**﴾ فإن رجلاً كان يقرؤها ما يقرأ شيئاً غيرها ، وكان كثير الخطايا فنشرت جناحها عليه وقالت : رب اغفر له فإنه كان يكثر قراءتى فشفعها الرب فيه » .

وإنى مورد هنا آيتين من سورة السجدة أولاهما سؤال ، والثانية جوابه الشافى: ﴿ **وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**﴾ [السجدة : ١٠ ـ ١١] .

أولاً : كان المشركون ينكرون البعث ويرونه صعباً ويتساءلون فى إنكار واستبعاد متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟! وأحضر أحد المشركين عظماً بالياً لرسول الله ﷺ وطفق يحطمه بيديه ويسأل : من يحيى العظام وهى رميم؟! وهنا فى آية سورة السجدة يتساءل المشركون ﴿ **أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ ومعنى هذه العبارة : أبعد أن تذوب أجسادنا فى الأرض وتتلاشى فى أعماقها ونصبح تراباً يمتزج بترابها فيضل كما

يضل اللبن فى الماء حين يمذق به .. أبعد هذا نخلق خلقاً جديداً ونبعث من مراقدنا ؟! وهنا يعلق ربنا ـ جل جلاله ـ على هذا التساؤل البليد فيقول ﴿ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ ومعناه : إن تساؤلهم هذا ناجم عن كفرهم بلقاء الله وإنكارهم لليوم الآخر .

ثانياً : وفى الآية الثانية يأمر ربنا رسوله ﷺ أن يرد على سؤالهم الإنكارى التعجبى الاستبعادى ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ نعم إن عزرائيل الذى وكله الله بأمره أن يقبض الأرواح سوف يتوفاكم ، أى يستوفى أعماركم ويقبض أرواحكم وسترجعون بعد هذا إلى ربكم للبعث والحساب والجزاء من ثواب عقاب ، واسم ملك الموت عزرائيل ومعناه بالعربية : عبد الله ، وقد تساءل العلماء : هل عزرائيل يتوفى البشر والحيوان والدواب والحشرات ؟ فقال بعضهم : إنه يقبض أرواح البشر تكريماً لبنى آدم موكلاً من الله ـ جل جلاله ـ بهذه المأمورية ، أما سائر الحيوانات فيكتفى بإزهاق أرواحها دون إن يرسل لكل منها ملك الموت . وقال آخرون بل إن ملك الموت يقبض أرواح الخلائق كلها مستدلين بما روى عن رسول الله ﷺ أنه نظر إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له : « ارفق بصاحبى فإنه مؤمن » فقال ملك الموت عليه السلام : يامحمد طب نفساً ، وقر عيناً ، فإنى بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما من أهل بيت مدر ولا شعر فى بر ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم فى كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بكبيرهم وصغيرهم منهم بأنفسهم ، والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ـ وهذا هو الشاهد ـ ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها . وقرأنا أن ملك الموت لما وكله الله تعالى بقبض أرواح الناس قال: « جعلتنى أذكر بسوء ويشتمنى بنو آدم » فقال الله تعالى : « إنى

أجعل للموت عللاً وأسباباً من الأمراض والأسقام ينسبون الموت إليها فلا يذكرك أحد إلا بخير» .

ثالثاً : ختم الله الآية الكريمة بقوله : ﴿ **ثم إلى ربكم ترجعون * قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُون** ﴾ لتكون تماماً لقصة الوجود الإنسانى ، إذ الرجوع إلى الله هو المرحلة الحاسمة التى ليس بعدها إلا الجنة أو النار . إن إيمان المرء برجوعه إلى الله هو من أهم أركان الإيمان ، بل لقد ذكره الله مقرونا بالإيمان بالله ، فتردد فى القرآن الكريم الإيمان بالله واليوم الآخر قرابة ثلاثين مرة ؛ لأن إيمان العبد باليوم الآخر يجعله فى خشية من الحساب فتستقيم على الحق والهدى أفعاله وأقواله .

علامات الإيمان بآيات الرحمن

هذه ثلاث آيات من سورة السجدة ترسم طريق النجاح والسعادة لمن أراد أن يحظى بنجاح الأعمال والمقاصد ، وبسعادة الدنيا والآخرة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٥ ـ ١٧] .

أولاً : لقد كان النبى ﷺ وسلفنا الصالحون رضوان الله عليهم لا يكادون يمسكون دموعهم إذا ذكروا بآيات الله ، واستمعوا إلى كلامه الجليل ، كانوا إذا تلوا آيات البشائر اطمأنت بالرجاء قلوبهم وأفعمت بالأمل نفوسهم ، وإذا مرت عليهم آيات الوعيد ، ذرفت منهم العيون ، وناءت بزفراتهم الضلوع ، سمع عمر رضى الله عنه قارئاً يقرأ قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور : ١ ـ ٨] فمرض رضى الله عنه وعاده الصحابة فى مرضه ذاك وسمع رضى الله عنه قوله تعالى ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم : ٨٥ ـ ٨٦] فطفق يبكى ويقول : ويح نفسى .. ما يدرينى أننى من المتقين ؟! أولئك قوم كان القرآن عندهم روحاً من أمر الله تحيا به القلوب ، وتتألق به الضمائر ، وتشرق به أنوار الإيمان سعادة وطمأنينة وشفاء.

ثانياً : الآية الكريمة تضع مقياساً صادقاً دقيقاً للإيمان هو مقدار الأثر الذى

تتركه آيات القرآن فى النفوس ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ إذا رأيت نفسك تخشع لله عند سماع آياته ، فاحمد الله وأبشر واستزد من هذا الخشوع بمضاعفة التأمل والتفهم والتدبر ، أما إذا رأيت فى القلب جموداً عند تلاوة القرآن فاستعن على نفسك بمضاعفة الحسنات والإقلال من اللغو والسيئات ، وتقرب إليه ـ جل جلاله ـ بصالح العمل وإذ ذاك يزول ران القلب ، وينجلى صدأ الغفلات ، فيتألق جوهر الفطرة وتتلالأ صبغة الله، وقد جاء في الآية أسلوب بلاغي هو اسلوب الحصر فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ وكلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ من أدوات القصر وكأن المؤمنين بالله هم هذا الصنف فقط ، وهذا أمر مخيف حقاً ؛ لأنه يعنى أن غير هؤلاء ممن لا تلين قلوبهم للقرآن يخشى على إيمانهم ؛ لأن المقياس الذى ذكره ربنا للإيمان وجعله بأسلوب الحصر أو القصر هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ . إن المؤمنين الصادقين هم الذين إذا تليت عليهم آيات الله ملكت عليهم نفوسهم فخروا ساجدين مسبحين بحمد ربهم ، وقد خلت قلوبهم من أى أثر للكبرياء بين يدى ذى العزة والكبرياء والخلق والأمر والجبروت .

ثالثاً : وصلاة الليل هى من أعظم الأعمال مثوبة عند الله ، ذلك أن العبد يؤديها بينه وبين خالقه ، وإذ ذاك تخلو من أية نية للنفاق أو الرياء أو السمعة ، وحين يأوى المؤمن إلى فراش دفىء فى برد الشتاء وتتبرج له النومة الدفيئة تعربه فى أحلامه ، ثم ما هى إلا أن يتذكر ذنوبه وخطاياه ويتذكر تقصيره فى جنب الله ، ويتذكر نعم الله ظاهرة وباطنة ، وكيف قابلها هو بالمعاصى والعبودية للهوى والشيطان والنفس الإمارة بالسوء،

يتذكر كل هذا فيحس أن الفراش الدفيء هو شوك القتاد ، وأن النوم الهنيء عواقبه الهم والسهاد ، هنالك يتجافى جنبه عن مضجعه ويراه ربه في جوف الليل حين يقوم يسبح الله جنح الليل وإدبار النجوم يسبغ الوضوء البارد الصرد على أعضائه ، ثم يمثل فى محراب العبودية المخلصة يتهجد بالقرآن نعمة ونافلة ، ويبتغى بعبادة ربه سعادة العاجلة والآجلة، لا غرو إذا تجلى ربه عليه فغمره بالنور ، وبشر به الحور ، وكشف عنه الحجب وحاطه بسنا من نور وجهه الكريم يشق من حوله الظلام ، ويهديه سبل السلام .

رئى أحد الصالحين بعد موته فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال: والله ما نفعنى من عمرى إلا ركعتان كنت أركعهما لربى فى جنح الظلام أناجيه فيهما حيث لا يرانى إنس ولا جان ، أما سائر أعمالنا فى النهار فيبدو أن نظر الناس إليها قد كدر من صفاء النوايا والأعمال عند ربنا بالنيات . ما أسعد عباد الله ، وما أحظاهم بقربه ، أولئك الذين مدحهم جل جلاله بقوله :﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

رابعاً : قد يتصور بعض عشاق الطعام والشراب والزواج أن الجنة فاكهة ولحم، ورطب ، وعنب ، وعسل ، وخمر ، ولبن وماء عذب نمير ، ونساء بارعات الجمال ، مما هو متوفر فى الدنيا ، وقد حاول أبو العلاء المعرى فى كتابه «رسالة الغفران » أن يتصور نعيم الجنة فتخيل أن أحد السعداء من أهل الجنة كان يسير فى خمائلها الروائع ، وإذا بعض الأوز من حوله، كان أوزاً فى غاية الروعة والسمن وطيب المنظر فما هى إلا أن اشتهته نفسه حتى رآه بين يديه على أطباق من ذهب خالص ، وقد شوى أحسن شواء ، وطهى أجمل طهى ، فيتناول منه حتى يشبع حتى إذا

حمد الله قام الأوز يمشى مصفقاً بجناحيه فرحاً بأن الله قد أكرمه بإدخال السرور على قلب مؤمن . لاإنكار أن الجنة فيها سرر وأكواب ونمارق وزرابى وأزواج مطهرة ، وفيها نخيل وأعناب وكأس من معين وأنهار من ماء ، ولبن وعسل وخمر ، وحدائق تجرى من تحتها الأنهار ، ولكن الثابت أن كل شىء فى الجنة هو غير ما تعرفه العين فى الدنيا . إن ما فى الجنة هو شىء فوق تصور البشر ، إن أعناب الجنة اسمها أعناب أما حقيقتها فتلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولا يعلم أى مخلوق ما خبأ ربنا ـ جل جلاله ـ لعباده الصالحين من نعم تشتهيها العيون جزاءً على أعمالهم الصالحة.

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة ، ونعوذ بك من سخطك والنار .

بالصبر واليقين
تُنال الإمامة فى الدين

هاتان آيتان من سورة السجدة فى أولاهما : أكثر من وجه من وجوه التأويل، وفى الثانية : سنة ربانية من سننه الثابتة أنزلها فى قرآنه لتظل أمة محمد على ذكر منها وبصيرة ، وليحافظوا على الإمامة التى كتب الله لهم ولا يضيعوها .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٣ ـ ٢٤].

أولاً : التوراة كتاب الله الذى أنزله على موسى عليه السلام ، وعلى المسلم أن يؤمن بالتوراة ، وسائر الكتب السماوية ، ويؤمن بموسى وسائر أنبياء الله ؛ وذلك لأن القرآن الكريم أنزله ربنا ـ جل جلاله ـ مصدقاً لكل كتاب قبله ومهيمناً عليه ، ومحمد ﷺ بعثه الله مصدقاً لكل نبى قبله ومقتدياً به ، ومن ثم فما يجوز لمسلم إذا مقت اليهود ودولتهم وعدوانهم وفسادهم أن يشنأ التوراة ، أو نبى التوراة ؛ لأن ما جاء به موسى وما اشتلمت عليه التوراة ، ليس من التوراة ولا من موسى فى شىء ؛ إذ التحريف جعل التوراة وموسى فى واد والكتاب المقدس المتداول فى واد آخر !

ثانياً : العبارة التى اختلف فى تفسيرها الأشياخ هى قوله تعالى : ﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ علام يعود الضمير فى كلمة ﴿ لقائه ﴾ ؟ وما معنى قوله تعالى ﴿فلا تكن فى مرية من لقائه ﴾ أهو لقاء موسى أم لقاء ما لقى موسى ـ من عناد قومه وإيذائهم؟ وأين يكون لقاء محمد ﷺ بموسى ؟ ويبدو ـ

والله أعلم ـ أن الآية هذه كانت من نبوآت القرآن ، وأن معنى العبارة القرآنية : لقد آتينا موسى التوراة فلا تكن في شك أو جدل أن تجتمع بموسى وتلقاه ، وقد لقي محمد ﷺ موسى عليه السلام في القدس في إسرائه كما لقيه في السماء في معراجه ، وكان موسى من بين الأنبياء ـ أكثرهم حرصاً على إمداد محمد ﷺ بالمشورة في أمر الصلاة وفرضيتها ، والتقى النبيان الكريمان وأفرغ موسى عليه السلام تجربته مع بني إسرائيل حتى خفضت الصلوات من خمسين إلى خمس ، واستحى رسول الله ﷺ من ربه أن يسأله التخفيف من الخمس وربك ـ جل جلاله ـ حكيم عليم.

وإذا تذكرنا أن سورة السجدة ليست بعيدة في وقت نزولها عن سورة الإسراء، وتذكرنا أن الآية كانت تنزل على رسول الله ﷺ فيقول : «اثبتوها في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، البقرة ، أو آل عمران ، أو الأحزاب » ، كان للتفسير الذي ذكرناه وجاهته على أن من ذهب من الأشياخ إلى رأي آخر في التأويل ، فإن اللغة العربية فيها من أساليب الحذف البلاغي ما لا يمنع الآراء الأخرى ، ويكون التأويل : ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في شك أو مماراة في لقاء ما لقي من الإيذاء ، والعرب قد تحذف المضاف ، كقوله تعالى : ﴿**واسأل القرية**﴾ ومعناه : وأسأل أهل القرية .

ثالثاً : التوراة هدى لبني إسرائيل ، والقرآن الكريم مستوعب للتوراة ومصدق لها وهو هدى للدنيا بأسرها ، كما أن محمداً ﷺ نبي ورسول للناس كافة وقد استعمل القرآن أسلوب التوكيد : باللام وقد في قوله تعالى : ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**﴾ ليكون إيمان المسلم بموسى وكتابه إيماناً مؤكداً راسخاً .

رابعاً : الآية الكريمة : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُون ﴾ هى كما أسلفنا درس لأمة محمد يذكرهم بسنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل ، بأن أى أمة تريد الشرف وتطمح إلى الإمامة ، عليها أن تتحلى بصفتين هما الإيمان بالله ، والصبر على تكاليف الإيمان ، وما تطلّبه من جهاد وما يعترض سبيل المؤمن من عراقيل وعقبات ، وهذا ما تنطق به الآية الكريمة التى تتحدث عن بنى إسرائيل ، الذين آتاهم ربهم الكتاب وجعلهم أئمة لما صبروا على حمل رسالة الله ، وأيقنوا من قلوبهم بوحدانية الله، وفى هذا تحذير لأمة محمد بألا يفرطوا فى صبرهم ويقينهم ، حتى لا يصيبهم ما أصاب اليهود حين عملوا بمساخط الله فسلط عليها كفار المجوس، وجعل منهم القردة والخنازير .

إن أمة محمد ـ ﷺ ـ عليها أن تنقش فى ضمائرها قوله تعالى : ﴿ لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُون ﴾ ليتخذوا من الصبر واليقين شعارين يحققون بهما نعمة النصر والتمكين والإمامة . ولقد كان غريباً جداً أن يصل حال أمة محمد ﷺ إلى ما هى عليه الآن ، فقد دخلت فى معركة اليقين والمصابرة مع القردة والخنازير والمغضوب عليهم وأحلاس الذلة والمسكنة واللعنة والغضب ، وكان شيئا محزناً حقاً أن يبدو المسلمون وكأنهم أقل من أعدائهم صبراً ، وأضعف يقيناً وثقة بنصر الله ! والأعجب أن يظل المسلمون فى حمأة هذا الضياع ذاهلين عن إمامتهم وحقارة عدوهم ، ويظل اليهود فى تحديهم . وإنى لأتساءل وأنا أرى هذا الوضع المخزى المحزن : أحقاً أن المعركة هى بين اليهود الأذلة الملعونين المغضوب عليهم وبين خير أمة أخرجت للناس ؟!! اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله .

أوامر ربانية لرسول الإنسانية

سورة الأحزاب من السور المدنية المترامية الآفاق ، المتنوعة الموضوعات موضوعها الرئيسى تآمر المشركين والمنافقين على دين الإسلام وعلى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، وقد فضحت مكائد أهل الكفر والنفاق وعرت نواياهم الخبيثة ، ثم حثت على طائفة كريمة من الآداب الإسلامية اللائقة بالمؤمنين والمؤمنات ، وقد ابتدأت بداية قوية تدعو الرسول ﷺ إلى الثبات فى وجه الكفر، وانتهت بتذكير الإنسان بتلك الأمانة العظمى أمانة العقل المكلف باتباع شريعة الحق ، والتى عليها يتوقف الثواب والعقاب ، وقد جاء فى سبب نزول سورة الأحزاب : أن اليهود والمنافقين والمشركين نظموا حملة للنيل من تصرفات رسول الله ﷺ فى زواجه ، وبخاصة من ابنة عمته أم المؤمنين زينب رضى الله عنها وكانت تحت زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، وصفيه وكان الناس فى الجاهلية يسمونه زيدا بن محمد . وقد روى عن عائشة رضى الله عنها أن سورة الأحزاب كانت مائتى آية ، وروى عن أبى بن كعب رضى الله عنه أنه قال : إن كانت سورة الأحزاب لتعدل سورة البقرة أو أطول ، ولقد قرأنا منها آية الرجم: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم ، ولكن الله نسخ منها ما شاء ولله حكمة حين ينسخ ويحكم وحين ينسى ويذكر ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٦] وفى سورة الأحزاب غرائب آداب ، ولطائف أحداث ، وفيها آية هى من أعظم آيات التشريف لرسولنا ﷺ اشتملت على أمر عظيم بدأ فيه بنفسه ، وثنى بملائكته ، وأمر به كل المؤمنين ألا وهى قوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] وقد اخترت مطلع هذه السورة الجليلة لأبين مناسبة نزوله ،

ولطائف تفسيره .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب : ١ ـ ٣] .

أولاً : هذه الآيات الكريمة نزلت وقد هبت على المسلمين رياح النصر والعزة، والتمكين والقوة ، نزلت بعد أن ارتد الكفار وأعوانهم عن المدينة خاسئين مهزومين ، ولشد ما كان انهيار معنوياتهم حين رأوا بأم أعينهم كيف أرسل الله عليهم ريحاً اقتلعت كيانهم ودمرت متاعهم ؛ وخربت طعامهم وشرابهم ، وكيف ردهم بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً .

هنالك غيَّر المشركون من خططهم الهجومية حين رأوا أن الله ـ جل جلاله ـ يحمى محمداً والمؤمنين ، وأن الأحزاب الذين كانوا عشرة آلاف مقاتل لم يستطيعوا اقتحام المدينة ، فولوا الأدبار وهم يسمعون هتاف المسلمين يصك مسامعهم : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده . وذكر أصحاب السير أن قريشاً شكلت وفداً برئاسة أبى سفيان ، وكان من رجال الوفد : عكرمة بن أبى جهل ، وأبو الأعور السلمى ، وقد قدم الوفد إلى المدينة ليفاوضوا محمداً ﷺ سلمياً بعد أن عجزوا عن حربه ، ويعرضوا عليه عروضاً مغرية فى مقابل أن يتركهم وآلهتهم ، ويذكر آلهتهم بخير ، وذكر أن قبيلة ثقيف شكلت وفداً آخر يعرض على محمد أن يشيد بالعزى فى مقابل أن تسلم ثقيف بعد وقت ، والمهم أن وفد قريش حين وصل إلى المدينة نزل على زعيم المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول فأكرمهم ، وراقته خطة

الإغراء طمعاً فى زعزعة العزيمة الراسخة التى تحلى بها محمد ﷺ ، والتى تحدث فيما مضى كل ترغيب وترهيب . وقد عززت عصابة المنافقين وفد قريش، فذهب مع الوفد بعض رؤوس النفاق منهم عبد الله بن أبى ، ومعتب بن قشير ، والجد بن قيس، وطعمة بن أبيرق ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وكان رسول الله ﷺ قد أعطى وفد قريش أماناً أن يقدموا عليه ويفاوضوا طمعاً فى إيمانهم وحقن الدماء ، وقد توجه الوفد الكبير المختلط إلى رسول الله ﷺ وهنالك عرضوا عليه أن يترك آلهتهم ويذكر أن لها شفاعة ومنعة وفى مقابل ذلك يتركون هم بدورهم إيذاء المسلمين بمكة ، ويسوقون إليه شطر أموالهم ويزوجونه إحدى جميلات قريش : بنت شيبة بن ربيعة وتكلم المنافقون فى الجلسة، فخوفوا محمداً ﷺ من عداء قريش وأن قريشاً لن ترجع عن نصر آلهتها ، وأنها قد تدبر مكراً بمحمد لقتله مهما كلفهم الأمر وكان عليه الصلاة والسلام حريصاً على إسلامهم فطفق يقنعهم أن ما عند الله خير وأبقى، وأن متاع الدنيا فانٍ وأن توحيد الله هو سبيل النجاة ، ولكنهم لم يقتنعوا فاستأذن عمر رضى الله عنه أن يقتلهم فقال له رسول الله ﷺ : « لقد أعطيناهم الأمان والمؤمنون ، لا ينقضون العهد » وعاد الوفد دون نتيجة ، ومنذ ذلك الحين وقع الرعب فى قلوب قريش فلم تقم لهم بعد غزوة الأحزاب قائمة ، ولا رأوا خيراً ، أما المنافقون فكشفوا عن وجوههم القبيحة ، وضاعفوا من حقدهم وتآمرهم على المؤمنين أما اليهود من بنى قريظة، فقد كان رسول الله ﷺ يحب لو يسلمون ؛ ولهذا فقد كان يحترمهم ويغضى عن قبائحهم ويوقر كبارهم ويشاورهم ويلين لهم ، وإزاء هذه المواقف من رسول الله ﷺ نزلت هذه الآيات الثلاث التى هى مطلع الأحزاب وأحسب أنها أصبحت الآن واضحة ساطعة المقصد بعد أن بسطنا المناسبة والظروف ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّه ﴾ أى لا تخش إلا ربك ﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ أى من قريش ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أى من أهل المدينة

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ أى بأفعالهم ونواياهم ﴿حَكِيمًا ﴾ أى فى توجيهك إلى عدم مهادنتهم ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أى غير عابىء بعروضهم التى يقصدون بها أن يضلوك ويضعفوا يقينك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ أى مطلعاً على حسن مقصدك من مهادنتهم حباً منك فى إسلامهم : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ ؛ أى اجعل توكلك واعتمادك على الله وسوف يكفيك مكائدهم ؛ لأنه نعم الوكيل. إنها ثلاث آيات تثبت قلب الرسول الكريم وتهون فى عينه كل قوى الشر من المشركين والمنافقين واليهود ، هذا ولا يفوتنى أن أذكر محبى اللغة بإعراب جملتين : أولاهما ﴿ يا أيها النبى ﴾ أى منادى مبنى على الضم والنبى بدل من أى تابع فى حركته للفظها ، والجملة والله أعلم ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ بالله الباء حرف جر زائد ولفظ الجلاله فاعل مجرور لفظاً مرفوع تقديراً ووكيلاً حال .

آية تنفى بعض اعتقادات الجاهليين

هذه آية كريمة من سورة الأحزاب سوف تتيح لى فرصة الحديث عن صحابى جليل من خيرة أصحاب رسول الله ﷺ ، وهو الصحابى الوحيد الذى ذكر فى القرآن الكريم باسمه ، وأى شرف أن يصبح اسم الإنسان كلمة من كلمات القرآن الكريم ؟!

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ .

أولاً : قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ إشارة إلى حال المنافق الذى قسم قلبه بين ظاهر من قوله وباطن من نواياه . إنه فى الظاهر من كلامه يعطى ولاءه لله ، وفى الباطن من خفاياه يضمر الولاء للطاغوت ، ومثل هذا كافر بل أشد خطورة من الكافر ؛ لأن الله تعالى ما جعل لإنسان قلبين ، أى عقلين يعطى ولاء أحدهما لربه ، ويعطى ولاء الآخر للكفر، ويظهر من الآية الكريمة أنها نفى لبعض معتقدات الجاهليين ، فقد روى أن أهل الجاهلية كانوا يسمون رجلاً من قبيلة فهر ذا القلبين ، وقالوا عندما بعث رسول الله ﷺ: إن فلانا الفهرى أفضل من محمد ؛ لأن له قلبين .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ فيه نفى لمعتقد آخر وهو المظاهرة بأن يقول رجل لامرأته : أنت علىّ كظهر أمى، وكان أهل الجاهلية يعتبرونه طلاقا أبدياً ، فجاء الإسلام واعتبره يمينا له كفارته ، وهنا فى الآية الكريمة يقول للناس : إن زوجتك شىء،

وأمك شيء آخر ، وهذا الكلام الذى يتفوهون به زعم باطل لا يجعل زوجتك أمّاً لك . وبذلك أبطل معتقداً ضاراً من معتقدات الجاهلية ألا وهو الظهار . وذكر فى سورة المجادلة كفارته وسمح للمظاهر أن يعود إلى زوجته بعد أداء الكفارة .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُم ﴾ نفى آخر لبعض مزاعم الجاهلية ومعتقداتها ، فقد كانوا يقرون التبنى ، وهو أن يتخذ الرجل ابناً له من غير صلبه فينسبه إليه ويورثه ، وكان رسول الله ﷺ قد تبنى زيداً ابن حارثة رضى الله عنه ، فما عرف فى الناس إلا باسم زيد بن محمد وأوصى له بميراث ، فلما تزوج النبى ﷺ زينب بنت عمته مطلقة زيد ، قال المنافقون : تزوج محمد زوجة ابنه فنزل قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيل ﴾ وبذلك أبطل الإسلام التبنى وجعل أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، فالإنسان يرثه أولو رحمه ، ولا يرثه من آخاه فى الله ، ولا من اتخذه ابناً وهو ليس من ولده. لقد وصف القرآن المظاهرة والتبنى بأنهما قول بالفم لا يستند إلى دليل معقول ، والله ـ جل جلاله ـ هو الحق ، وقوله الحق ، وهو الذى يرشد الناس إلى سبل السعادة والسلام .

رابعاً : ولأن زيداً رضى الله عنه كان من ألصق الصحابة برسول الله ﷺ ؛ ولأنه الصحابى الذى شرفه القرآن فذكره باسمه فى الكتاب العزيز ؛ لهذا رأيت أن أعرف الإخوة بسيرة هذا الصحابى الجليل .

قبيلة كلب من أشهر قبائل قحطان ، كانت تقيم على حدود الشام ، وتوالى ملوك الروم . وفى بعض السنين أغارت عليها قبيلة من قبائل تهامة

فنهبت وسبت وكان من السبى صبى صغير هو زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى ، وكان من فضل الله عليه أن بيع لحكيم بن حزام بن خويلد ، فوهبه حكيم لعمته خديجة ثم وهبته هى بدورها إلى رسول الله فأعتقه رسول الله ﷺ واتخذه ولداً ، وأعلن فى الناس أنه تبنى زيداً وورثه . وفى أثناء ذلك كان أبو زيد يبحث عنه فى لوعة ، يبحث عن فلذة كبده، وإذا وقف على قوم يسألهم أنشد شعراً يقطع نياط القلوب ذكره كتاب السير ، وفى بعض المواسم ذهب أبو زيد واسمه حارثة بن شراحيل الكلبى إلى مكة المكرمة مصطحباً معه أحد إخوته ، وهناك فى الموسم ظل يسأل حتى دله بعض الناس على ابنه زيد ، فذهب هو وأخوه إلى بيت النبى ﷺ وذلك قبل بعثته وطلبا منه أن يرد عليهما زيداً ، فقال لهما رسول الله ﷺ : «خيراه فإن اختار والده فخذوه وإن اختارنى فاتركوه لى» فلما خيرا زيداً اختار محمداً ﷺ ، فلامه أبوه لكنه تشبث بذلك الإنسان الكريم، وحسبك بهذا دليلاً على أخلاق محمد قبل بعثته ، وعندئذ أذعن حارثة وأخوه ورجعا وظل زيدا عند النبى الكريم يدعوه الناس زيدٌ ابن محمد ، وظل على ذلك الاسم حتى نزل قوله تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ [الأحزاب : ٥] فدعى زيد باسم والده فحزن لفقدان ذلك الشرف شرف الانتماء إلى محمد ، لكن الله تبارك وتعالى جبر كسر قلبه حين ذكر اسمه فى القرآن الكريم ، وهو الصحابى الوحيد الذى ذكر فى القرآن باسمه ، وحسب المرء شرفاً أن يتلى اسمه من بين ألفاظ القرآن الكريم فى محاريب العبادة ، ولما اشتد عود زيد رضى الله عنه أراد مولاه أن يزوجه فخطب له ابنة عمته زينب ، وهى من شريفات قريش فرفضت؛ لأن زيداً مولى، ولكن القرآن الكريم أيد رغبة الرسول الكريم فأذعنت للأمر على غير رغبة منها ، وتم الزواج بعد أن نزل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ

أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ولكن المشكلات بدأت من أول يوم فقد امتنعت على زيد ، وشكاها إلى رسول الله ﷺ مراراً ، والرسول يقول له ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] لكن زيداً لم يستطع تحمل سلوكها المتعالى، وكلامها الجاف ، وإذ ذاك طلقها فشعر النبى ﷺ أنه كان السبب فيما حدث لزينب من مشكلات ، وهنالك أمره ربه أن يتزوجها تشريعاً ﴿ لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ [الأحزاب : ٣٧] أما ما يروجه بعض الملاحدة والكفار من أن محمداً تزوجها؛ لأنه أعجب بها فجوابه : لماذا لم يتزوجها ابتداء وهى ابنة عمته؟ والمهم أنه لما انقضت عدة زينب خطبها زيد نفسه لرسول الله، فوافقت وسعدت وكانت تفاخر أن ربها هو الذى زوجها من فوق سبع سموات ، وقد أولم عليه الصلاة والسلام لعرسها وليمة حسنة جبراً لخاطرها وكانت تقول لرسول الله ﷺ: أدل عليك بثلاث : جدى وجدك واحد ـ تعنى جدها لأمها ـ وأن الله أنكح إياى من السماء ـ وأن سفير زواجى هو جبريل . أما زيد فقد ظل فى خدمة الإسلام حتى شرفه الله بالشهادة فى معركة مؤتة فبكاه النبى وبكى جعفرا وقال: «أخواى ومؤنساى ومحدثاى » .

أولوا الأرحام أولى ببعضهم من المؤمنين والمهاجرين

هاتان الآيتان من سورة الأحزاب فيهما من الأحكام والآداب ما يستحق أن يوقف عنده .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا * وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب : ٦ ـ ٧].

أولاً : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ هذا القول الكريم شرحه رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفى وعليه دين فعلى قضاؤه ومن ترك مالاً فلورثته » . والحق أن النبى ﷺ هو أولى بكل مؤمن من نفسه ؛ لأن النفس قد تجر الإنسان إلى المهالك فى دروب الشهوات ، أما رسول الله ﷺ فلا يدل إلا على خير . وعندى أن هذه الآية بشرى من بشائر القرآن الكريم ؛ لأن كل مؤمن حسب منطوق الآية الكريمة وليه رسول الله ﷺ والخلفاء المهديون من بعده ، وفى هذا الكلام ما فيه من أنوار الرجاء بأن يكون الرسول ﷺ ولياً لعصاة المؤمنين فى الآخرة، والكريم لا يفرط فيمن هم تحت ولايته . وإذن فعندى أن هذا المقطع من الآية بشرى بالشفاعة العظمى لكل مؤمن مات وهو على الإيمان بمحمد ﷺ .

ثانياً: ﴿**وأزواجه أمهاتهم**﴾ إن زوجات رسول الله ﷺ لهن من حقوق الاحترام والبر والدعاء وحرمة نكاحهن مثل ما للأم ، وإذا ذكرت أى زوجة من زوجات الرسول الكريم فعلى كل مؤمن أن يشعر بأمومتهن من حيث التعظيم والإجلال ، وأنهن محرمات عليه ويترضى عنهن. أما الأمومة المذكورة فى الآية فهى ليست الأمومة المعروفة ؛ لأنه كان يجوز للمؤمنين أن يتزوجوا بناتهن ، ولأنه لم يترتب على تلك الأمومة ميراث ، وقد كن رضوان الله عليهن يحتجبن عن المؤمنين ولو كانوا أبناءهن حقيقة ما احتجبن .

ثالثاً : ﴿**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا**﴾ نسخت هذه الآية ما كان من قبل، ومن توريث الابن المتبنى ، وتوريث أخيك الذى آخيته فى الله ، وأصبح الميراث لأولى الأرحام فقط ، فالرجل يرثه أبواه وأبناؤه وزوجته أو زوجاته ، ثم إخوته وأخواته ، ثم سائر العصبات ، ولكن لا مانع أن يفعل المؤمن معروفاً إلى أخيه فى الله أو من له عنده ولاء فيوصى له ، أو يعطيه من ماله .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴾ يشير إلى أن هذا الأمر هو شريعة مسطورة فى الكتب السماوية . والحق أنه لو بقى التوريث كما كان للابن المتبنى وللمؤاخى فى الله ، لحدث فى الأرض فتنة وعداء ؛ لأن صاحب المال يمكنه أن يوزعه على غير أرحامه حين يكثر من حوله من يغرونه بإخائهم وموالاتهم ، وإذ ذاك تشيع روح الحقد والبغضاء بين أولى رحم المتوفى، وبين من يعقد بينهم وبينه إخاء كذلك الذى عقده رسول الله ﷺ بين أفراد من المهاجرين وآخرين من الأنصار .

خامساً : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً** ﴾ . هذه الآية الكريمة جاءت بعد بعض التشريعات الكريمة ، لتدل على أن الشريعة التى جاء بها رسل الله واحدة، إنها شريعة الإسلام ، رسالة الله الخالدة ، وفى الآية إطناب ذكر الله فيها الخاص بعد العام ، فقد ذكر ربنا ـ جل جلاله ـ رسوله محمداً ﷺ ، ونوحاً ، وإبراهيم، وموسى ، وعيسى ابن مريم ، مع أنهم داخلون فى عموم النبيين فى قوله تعالى: ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم** ﴾ ، والحق أن هؤلاء الخمسة الكرام من الأنبياء، وأعنى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً ﷺ هم : أولو العزم من الرسل ، وهم الذين طال بلاؤهم فى دعوة الحق ، ولقوا من صنوف العناد والكفر ما لا يطيق الصبر عليه إلا عظماء الرجال .

سادساً : وهذه بعض أحكام ذكرها الأشياخ رحمهم الله مستنبطة من الآيتين:

أ ـ يجب على الإمام المسلم أن يقضى عن المدين دينه ما لم يكن استدانة فى معاصى ربه ؛ لأن الحاكم المسلم استمرار للخلافة الراشدة ، والنبى ﷺ تكفل بدين كل مدين .

ب ـ يدفع الدين من الزكاة من باب الغارمين ، ويمكن أن يدفع من صدقات يشرف على جمعها الحاكم المسلم من المسلمين ، وفى هذا تعاون يثبت دعائم القوة فى المجتمع الإسلامى .

جـ ـ أمومة أمهات المؤمنين هى تشريف لهن ، وصيانة لحرمات رسول الله ﷺ ، وهى أمومة لا تبيح مخالطتهن والنظر إليهن والانتساب ، فعائشة رضى الله عنها أم المؤمنين لكننا لا نسمى أختها أسماء خالة المؤمنين ، ولهذا تزوجها الزبير رضى الله عنه ، وخديجة رضى الله عنها أم المؤمنين

لكن ذلك لم يحرم بناتها على عثمان ، وعلى ، والعاص بن هشام رضى الله عنهم .

د ـ مهما اتخذ المرء من أحباء وإخوان فى الله ، فما يجوز له أن يفضلهم على ذوى رحمه ما دام أرحامه مؤمنين ، وعلى المسلم أن يتقى الله فى أرحامه ويحرص على هدايتهم مقتدياً فى هذا برسول الله ﷺ ، فالرحم مشتقة من اسم الله ، وقد أعطاها ربنا عهداً أن يصل من وصلها ويقطع من قطعها .

صراع الحق مع الباطل دائم

قصة الأحزاب : هى قصة الإيمان يتحداه الكفر ، قصة الحق يصمد له الباطل ، وقد أوردها ربنا تبارك وتعالى فى تسع عشرة آية بدأت بقوله تعالى : ﴿يأَيُّهَا الَّذين آمنُوا اذْكُرُوا نعْمَةَ اللَّه عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب : ٩] وختمها بقوله يذكر مصير اليهود الخونة : ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب : ٢٧].

ولأن قصة الأحزاب طويلة فإنى موجز ما فيها من طرائف وعبر تفيد المسلمين فى هذه المرحلة التى يعيشون فيها الضياع والشتات والهزائم :

أولاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نعْمَةَ اللَّه عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ الجنود الذى جاؤوا المدينة هم الأحزاب أغراهم وفد من اليهود بالقضاء على محمد ، ووعدوهم أن يساعدوهم فيفتحوا لهم حصون بنى قريظة ، وكان على رأس الوفد حيى بن أخطب من سادات بنى النضير وفصحائهم ، فهشت قريش للأمر واستسهلت النصر ودعت أحلافها والقبائل ، فسار الجيش الكافر نحو المدينة فى أكثر من عشرة آلاف مقاتل ، فى حين كان المقاتلون فى المدينة لا يزيدون على ثلاثة آلاف . وقد كان من مخجلات السلوك اليهودى أن قريشاً قالت للوفد اليهودى المحرض : لا نخرج معكم حتى تجيبونا أدين محمد خير أم أصنامنا ؟ فقال لهم اليهود فى وقاحة وافتراء : بل أصنامكم خير من إله محمد ، وخانوا بذلك دينهم وكتابهم وضمائرهم ، وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾ . والمهم أن الأحزاب توجهوا إلى المدينة فى أربعة جيوش : واحد من قريش بقيادة أبى سفيان ، وثلاثة من قبائل غطفان وبعض أعراب تهامة ، وكان عليها عيينة بن حصن على رأس قبيلة فزارى، والحارث بن عوف على رأس مرة ، وطليحة الأسدى على رأس بنى أسد ، ومسعر بن خيلة على رأس قبيلة أشجع ، وكان مسيرهم فى وسط شوال من السنة الخامسة للهجرة .

ثانياً : وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ فجمع الصحابة واستشارهم وكانت الشورى دأبه وشعاره فقال سلمان الفارسى رضى الله عنه : كنا فى ديار فارس إذا هاجمنا جيش عظيم العدد خندقنا حول أنفسنا خندقاً عميقاً ، وقمنا على جانبه ننضح المهاجمين بالنبال ، فاستحسن الجميع رأى سلمان ، ونهضوا ليعملوا ، واختلفوا فى سلمان هل يعمل مع المهاجرين أم مع الأنصار ؟! فقال رسول الله ﷺ قولته التى أسعدت سلمان وعلمت الدنيا معنى المساواة والعدل : «سلمان منا آل البيت » ، وشرع الصحابة الكرام يحفرون والرسول ﷺ يحمل التراب على كتفه ، وينشد معهم ليرفع من معنوياتهم :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الطغاة قد بغوا علينا ... وإن أرادوا ذلنا أبينا

ويردد النبى الكريم كلمة : أبينا ، ويرددها بعده الصحابة ؛ لأن من شعار المؤمنين إباء الذلّ . وجد المؤمنون ، فكان من ينهى حصته يتحول

لمساعدة غيره ، أما المنافقون فكانوا يتسللون لواذاً دون استئذان ، وجاء بعضهم يعتذر عن الحفر ؛ يقولون إن بيوتنا مكشوفة للأعداء **﴿ يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾** وفى أثناء ذلك ذهب رسول الله ﷺ إلى بنى قريظة ، وذكرهم أن المدينة وطن الجميع وأن عليهم الدفاع عن حصونهم وإغلاق أبوابهم فعاهدوه أن يقفوا مع المؤمنين وألا يفتحوا حصونهم لأى كافر يريد بالمدينة وأهلها شراً ، فقرت بذلك عين النبى ﷺ واطمأن إلى قوة التحصينات إذ لم تبق ثغرة واحدة حول المدينة إلا مسدودة بحصن ، أو جبل وعر ، أو جزء من الخندق العميق ، وأوقف النبى ﷺ الرماة على عدوة الخندق فأعذر المسلمون فى الاستعداد ، واجتمع لديهم الأخذ بالأسباب والتوكل على رب الأرباب .

ثالثاً : حين وصلت الجيوش الخمسة نزلوا من أسفل المدينة لعلمهم أن حصون اليهود من فوقها ، وأن أسفلها هو المكشوف ، ولشدما فوجئوا حين رأوا الخندق ، وهو أمر غير مألوف عند العرب . فلما اقتربوا واجههم المسلمون بوابل من النبال فارتدوا ينظرون إلى المسلمين من وراء الخندق، ولا يستطيعون الوصول إليهم وأخذ الحماس أربعة من صناديد قريش منهم عمرو بن عبد ود ، وعكرمة بن أبى جهل ، وضرار بن الخطاب بن مرداس ، فلبسوا سابغات تقيهم النبال ، وانطلقوا بخيلهم فقفزت من فوق الخندق ، وحاست فى السبخة التى بين جبل سلع والخندق ، فانطلق بعض الصحابة من ورائهم يسدون على خيولهم الرجعة ، وصاح عمرو ابن ود : هل من مبارز ؟! فانبرى له على رضى الله عنه وقال له: أدعوك قبل المبارزة إلى الإسلام فذلك خير لك فأظهر الغضب والاستكبار ، فانقض عليه على رضى الله عنه وثار بينهما غبار هائل حجبهما عن الأنظار ساعة ثم تكشف عن على واقفاً على صدر عمرو ، وقد نصره الله

عليه فولى عكرمة وصحبه الأدبار ، وقد انهارت معنوياتهم وعزائم من وراءهم.

رابعاً : ظهرت للمسلمين أثناء حفر الخندق معجزات ، ولم يخل حفر الخندق من طرف وفكاهة ، فمن معجزات النبى الكريم تلك الصخرة التى لم تأخذ فيها المعاول ، فحطمها رسول الله ﷺ بثلاث ضربات كانت تبرق مع كل منها برقة يقول معها رسول الله ﷺ : بسم الله ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ ولما سأله الصحابة عن ذلك أجابهم إجابة رفعت معنوياتهم إلى السماء : « لقد رفعت لى وأنا أضرب الصخرة مدن فارس والشام ، واليمن ، وهى بشرى أن يفتحها الله عليكم » . ومن المعجزات الأخرى شاة جابر الصغيرة التى ذبحها وهو يظن أن تكفى رسول الله ﷺ ، ونفرين أو ثلاثة ، فلما وضعها رسول الله ﷺ ومعها بعض خبز الشعير ، أكل منها هو وجميع الصحابة الذين كانوا يحفرون الخندق وفضل من بعدهم . ومن المعجزات أن بنتاً لبشير بن سعد أحضرت لأبيها تمرات فى ثوبها مقدار حفنة فتسلمها رسول الله ﷺ ، فبارك الله فيها حتى أشبعتهم كلهم .

ومن الطرائف التى حصلت أثناء الحفر أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يحفر فى جد وجلد فقال : « له ما اسمك » ؟ : فقال : جعيل . فقال له : «أنت من الآن عمرو » وغيرّ ذلك الاسم المعيب ، فتفكه الصحابة لذلك وارتجزوا ينشدون :

سماه من بعد جعيلاً عمرا وكان للبائس يوماً ظهرا

وشاع جو من الابتهاج خفف عن الصحابة .

خامساً : مكث المشركون محاصرين المدينة أكثر من ثلاثة أسابيع تعب فى

أثنائها المسلمون تعباً شديداً حتى لقد فكر رسول الله ﷺ أن يخذّل غطفان عن قريش فى مقابل أن يعطيهم نصف تمر المدينة لكن زعماء الأنصار رفضوا أن يعطوهم ولو تمرة واحدة بالقوة وقالوا : لقد كان هؤلاء لا يصلون إلى تمرة واحدة من تمرنا إلا أن تكون قرى أو بيعاً أو هبة ، وكان ذلك ونحن مشركون أفبعد أن أعزنا الله بالإسلام يأخذون تمرنا عنوة ؟! ولما طال الأمد على الأحزاب استنجزوا اليهود الذين ألبوهم ، ووعدوهم بفتح حصون بنى قريظة للغزاة فذهب حيى بن أخطب إلى زميله زعيم قريظة ، ولم يزل به يغريه ويسول له حتى أقنعه بالخيانة ، فوافق على الغدر ونقض العهد واثقاً بأن الله قد تخلى عن نبيه والمؤمنين ، وأن الهزيمة ستدمر محمداً وصحبه لا محالة ، وبلغ الخبر رسول الله ﷺ فاشتد الكرب على المؤمنين ، وذهب منهم وفد فيه سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فلاموا اليهود فسبوا رسول الله ﷺ وأصحابه ، وأعلنوا خيانتهم ﴿ **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً** ﴾ [الأحزاب : ١١] حين رأوا الأعداء من فوقهم فى حصون بنى قريظة ومن أسفل منهم مما يلى جبل سلع ، وانكشف نفاق المنافقين فقالوا: ﴿ **ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا** ﴾ يعدنا محمد مدائن كسرى وقيصر ونحن لا نستطيع الخروج لقضاء حاجتنا وقالت طائفة من زعماء الأعراب . يا أهل يثرب لم يعد فى دفاعكم فائدة فانسحبوا إلى بيوتكم فارين ، زاعمين أن بيوتهم عورة وقد نصحهم ربهم حين كذبهم فى زعمهم فقال : ﴿ **وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا** ﴾ [الأحزاب : ١٣ ـ ١٤] لكن المؤمنين اقتدوا برسولهم فى الصبر ، فما شعروا إلا وريح تثور فى معسكر المشركين وصراخ ينبعث من حناجرهم ، فأرسل النبى ﷺ حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ليستطلع الخبر فوجد الأحزاب فى كرب

شديد ، فلقد أوقع أحد الصحابة واسمه نعيم بن مسعود الأشجعى بين المشركين وقريظة ، فتسابوا ، وفى أثناء ذلك عصفت الريح بمعسكر الأحزاب وأرسل الله ملائكته فأوقعوا الرعب فى قلوب المشركين وسمع حذيفة أبا سفيان يأمر بالرحيل ، فعاد مسرعاً مستبشراً يخبر النبى ﷺ بالبشرى فكبر المسلمون وهللوا : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وفى اليوم نفسه توجه النبى والصحابة إلى بنى قريظة فأنزل الله فى قلوبهم الرعب وحكم عليهم سعد بن معاذ رضى الله عنهم بالإعدام لخيانتهم ، وبذلك انقلب الغم نعمة وترك الكفرة يجرون أذيال الخيبة فلم تقم لهم بعد الأحزاب قائمة .

مجموعة آداب إسلامية
تحفظ للمسلمة كرامتها وشرفها

الآيات الثلاث التى سوف نتفيأ ظلالها الآن نوجهها إلى كل مسلمة تحب الله ورسوله وتقتدى بأمهاتها من نساء النبى ﷺ . إنها مجموعة آداب إسلامية إذا أخذت بها المرأة المسلمة حفظ الله عليها كرامتها وصان لها شرفها، ونالت بإذن الله فى هذه الدنيا سعادة واحتراماً ، وفى الآخرة ثواباً وإكراما.

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٢ ـ ٣٤].

أولاً : تزوج رسول الله ﷺ إحدى عشرة زوجة ، وقيل : اثنتى عشرة إذا اعتبرت ريحانة بنت زيد زوجة وليست ملك يمين . وزوجات النبى ﷺ هن كالآتى مرتبات حسب أقدمية الزواج : خديجة بنت خويلد ، وسودة بنت زمعة ، وعائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم سلمة هند بنت أمية المخزومية ، وأم حبيبة واسمها رملة بنت أبى سفيان ، وزينب بنت جحش وهى ابنة عمته وزينب بنت خزيمة الهلالية وكانت تدعى فى الجاهلية أم المساكين ، وجويرية بنت الحارث الخزاعية من بنى المصطلق، وصفيه بنت حيى بن أخطب من بنى النضير ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وهى آخر من تزوجها رسول الله ﷺ .

ثانياً : وقد وجد المنافقون والكافرون والمستشرقون فرصة لبث الأراجيف حول تعدد زوجات الرسول الكريم ، ويكفى أن ترد مزاعمهم بأن النبى ﷺ قضى شبابه مع خديجة رضى الله عنها التى تزوجها وهو فى الخامسة والعشرين وبقيت خمساً وعشرين سنة حتى بلغت الخمسين وهو لم يتزوج عليها ، ثم لما ماتت تزوج امرأة صالحة مسنة هى سودة بنت زمعة وقد وهبت ليلتها فيما بعد لعائشة لكبر سنها ، وما تزوجها إلا لأنها رجعت من هجرتها إلى الحبشة وقد مات زوجها . وفى الرابعة والخمسين من عمره ، تزوج عائشة ـ رضى الله عنها ـ ثم من بعدها حفصة وهما ابنتا الصديق والفاروق ، وفى زواجه منهما ما لا يخفى من الحكمة ، ثم تزوج رملة بنت أبى سفيان بعد أن تنصر زوجها بالحبشة ، وكان يرجو عليه الصلاة والسلام أن يهدى بتلك المصاهرة أباها ، وتزوج زينب بنت خزيمة لما عرف من فضلها فى الجاهلية حتى لقد دعوها أم المساكين لكرمها ومروءتها ، وهكذا كان شأنه ﷺ فى كل زوجاته .

ثالثاً : نزلت هذه الآيات الأربع واللاتى قبلها حين طلبت من النبى ﷺ بعض نسائه أن يشترى لهن من الحلى مثل ما لنساء الصحابة ، وحين وجدن عيشه خشناً إذا قيس بعيش نساء الموسرين ، وعندئذ نزلت آية التخيير ﴿يـأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾ [الأحزاب : ٢٨] والآيات التى تليها، وقد خير النبى أزواجه رضوان الله عليهن ما بين الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله واليوم الآخر ، فاخترن بالإجماع الله ورسوله .

رابعاً : فى الآيات الكريمات اللاتى أثبتناها طائفة من مكارم الأخلاق يجدر بكل مسلمة أن تتبعها ، وبخاصة نساء ذوى المراكز الاجتماعية الذين يترد الناس كثيراً على أزواجهن ، ويكثرون السؤال عنهم ، وهنا يقول الله

تعالى مخاطباً نساء النبي ومشرعاً لجميع المسلمات ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ . ومعنى الآية الكريمة : أن أمهات المؤمنين لهن وضع خاص ومهم ؛ لأنهن قدوة المؤمنات ، ولأنهن فى بيت النبوة ومنازل الوحى ، ولأن كثيراً من الرجال يأتون بيوتهن ليسألوا عن رسول الله ﷺ ؛ ولذا فعليهن إذا خاطبن الرجال ألا يكثرن معهم الحديث ، وألا يرققن الحديث مع الرجال ، فيطمع أهل القلوب المريضة ، وعليهن ألا يزدن عن القول المعروف المختصر على قدر السؤال . إن كثيراً من النساء إذا جاء من يسأل عن زوجها فربما تطيل معه الكلام فيظن هو بها الظنون وهى منها براء ، ولهذا فما يجوز للحرة أن تطيل الكلام مع السائل الأجنبى ، بل تكون إجابتها مختصرة وفى لهجة لا رقة فيها ولا تأنث .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ هذه الآية من ألزم ما يلزم المؤمنات فى أيامنا هذه ، فقد كثر خروج النساء من البيوت فى غير احتشام ولا تستر ، وكثر التبرج وإظهار الزينات ، وكشف العورات ، وهذا ما ذكره رسول الله ﷺ «من نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت لا يرحن ريح الجنة » . إن المرأة الصالحة والفتاة الصالحة هى التى تقر فى بيتها ، ولا تخرج متبرجة إلى أسواق المسلمين، ثم هى تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتطيع الله ورسوله ، ومن شاء أن يعرف مدى التزام المسلمات بهذه الأوامر الربانية التى تذهب الرجس وتطهر

النفس ، فليخرج إلى سوق المسلمين ليرى هناك من معاصى الله ما يخيف المؤمنين ، ويملأ القلوب أسى وحسرة على أحوال المسلمين . إن أية امرأة تخرج من بيتها متبرجة ليشم الناس عطرها أو ليروا زينتها تلعنها الملائكة حتى ترجع إلى منزلها .

سادساً : ومسك ختام الآيات قوله تعالى : ﴿ **وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا** ﴾ إن هذا الأمر ينطبق على كل المسلمات ؛ لأن المفروض فى كل بيت من بيوت المسلمين أن يقرأ فيه القرآن وتتدبر فيها الآيات الكريمات ، وفى هذا الذكر والتدبر ما يحجب شباب المسلمين وفتياتهم عن الفاحشة ، والمعصية ويبعث فيهم مخافة الله وروح الفضائل ومكارم الأخلاق ، وإذا كانت أمهات المؤمنين مأمورات أن يذكرن نزول الوحى فى بيوتهن ، فإن نساء المؤمنين مأمورات أن يذكرن تلاوة القرآن فى بيوتهن . والحق أنه لا يليق بمنتسب إلى الإسلام، أو قارئ للقرآن أن يخالف قوله فعله ، فيكون لسانه طيباً وقلبه ومقاصده وأعماله كلها خبيثة ، وقد ختم الله جل جلاله ـ الآية بقوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا** ﴾ مشيراً إلى أن الله ـ جل جلاله ـ لطيف ينفذ بعلمه من كل حاجز ، وخبير بأفعال العباد ، سواء أكانوا فى بيوتهم وقد أقفلوها على أنفسهم ، أو كانوا فى الأسواق والشوارع ومجتمعات المسلمين ، فالله ـ جل جلاله ـ أحاط بكل شيء رحمة وعلما وخبرة .

ولقد أوجز الله جل جلاله المقاصد العظيمة للشرع الشريف حين حرم على المرأة التبرج فى الطرقات فقال جل من قائل : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾ إن الذين يدعون

المرأة إلى النعيق فى المجتمعات والتسكع فى الطرقات والتبرج فى الاحتفالات إنما ينصبون لها حبائل شيطانية ليصطادوا شرفها وعفتها ودينها باسم الحرية والحقوق ومساواة الجنسين ، وتلك شعارات الشيطان ، نعم هؤلاء يريدون لها الرجس والدنس والعار، أما ربنا ـ جل جلاله ـ فيريد لكل آل بيت من المؤمنين أن تصان حرماتهم وتطهر أعراضهم ، ما أجمل وأجل وأنبل مقاصد الشرع الحكيم حين نهى المرأة عن كل ما ينال من دينها وأخلاقها وعفافها ، يريد الإسلام أن يصون المرأة المسلمة كما يصان اللؤلؤ وتصان الجواهر فى الأحراز ، أما المنافقون والهدامون فيريدون أن تبتذل المسلمات كما يبتذل سقط المتاع.

درس فى الذوق الاجتماعى
وآداب الضيافة

هذا آية كريمة من سورة الأحزاب لها مناسبة طريفة ، وهى من أعظم دروس الذوق وآداب الضيافة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

أولاً : هذه الآية الكريمة درس فى الذوق موجه للثقلاء الذين يسوقون ثقلهم وخصوصاً فى الولائم وفى دخول بيوت معارفهم ، فترى أحدهم كأنه الكابوس، وينتهز خجل أهل البيت وحياءهم من الزائر فيطيل المكث حتى يضايقهم ، والحق أن مجالسة الثقلاء تقصر العمر .

وقد جاء فى مناسبة نزول هذه الآية : أن كثيراً من الأعراب كانوا إذا سمعوا بوليمة فى بيت رسول الله ﷺ تقاطروا إلى بيته ويحضر كثير منهم قبل نضوج الطعام بوقت طويل ، فإذا طرقوا الباب خرجت إليهم جارية أو خادم يخبرهم أن الطعام لم ينضج ، وأنه يحتاج إلى وقت طويل ، فيقول بعضهم : نجلس فى بيت رسول الله حتى ينضج كانوا يقولون بلغتهم : ننظر إناه وكلمة ننظر معناها ننتظر . قال الله تعالى على لسان المنافقين والمنافقات فى سورة الحديد ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾

[الحديد : ١٣] ومعناه انتظرونا ، ويقول جل من قائل : ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر : ١٨] ومعناه لتنتظر كل نفس ما عملته لليوم الآخر ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ غير منتظرين نضوجه ، وإناه مأخوذة من أنى يأنى بمعنى نضح ينضح . والمهم أن الثقلاء كانوا يدخلون بيوت النبى ﷺ قبل نضوج الطعام، وكانت غرف زوجاته كما هو مشاهد الآن فى المسجد النبوى ضيقة .

وقد روى أن بعض الثقلاء دخلوا غرفة زينب بنت جحش رضى الله عنها يحدثون رسول الله ﷺ فمكثوا جالسين مدة طويلة ، وهى جالسة توليهم ظهرها ووجهها إلى الجدار ، وكان ﷺ معروفاً بالحياء ، فكان لا يواجههم بما يلقاه من مضايقة ورهق بسبب طول جلوسهم . لقد كان بعضهم يجلس حتى ينضج اللحم وربما كان لحم جمل فلا ينضج إلا فى وقت طويل . ومما كان يزيد الأمر حرجاً أن بعضهم كان إذا أكل لا يخرج بل يظل جالساً مستأنساً لحديث رسول الله ﷺ فلا يخرج إلا بعد أن يسبب لآل البيت غاية المضايقة والإحراج . وإزاء هذا نزلت هذه الآية الكريمة تشرح آداب الضيافة ، وموعد الحضور إلى الطعام ومقدار الجلوس بعد الأكل ﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ .

ثانياً : اشتملت الآية على طائفة من الآداب الإسلامية الكريمة وهى آداب يجدر بكل مؤمن أن يراعيها إذا دعاه صديقه إلى طعامه وتتلخص فيما يلى :

أ- إذا دعيت إلى طعام فلا تذهب إلى بيت الداعى إلا حين تتأكد أن

الطعام قد نضج وأزف إعداده ، ولا تبكر فى الحضور ؛ لأن الداعى إلى وليمة يكون هو وأهله مشغولين من صباحهم ، ولأن حضور الضيف مبكرا يضايق النساء ، وهن إذ ذاك فى أمس الحاجة إلى الحركة جيئة وذهاباً للمعاونة فى الطبخ والنظافة .

ب ـ أنسب وقت للحضور حينما يدعوك أخوك مباشرة ، إما بالحضور بنفسه أو بإرسال ولده أو خادمه لقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ﴾ .

حـ ـ إذا أكلت وانتهيت أنت والمدعوون من الطعام فاستأذن حالاً من الداعى ، وادع له بحسن الخلف وحلال الرزق ، وادع له أن يأكل طعامه الصالحون ، وأن تصلى عليه الملائكة ، وهو الدعاء المأثور : أكل طعامكم الأبرار ، وأفطر عندكم الصائمون ، وصلت عليكم الملائكة ، وذكركم الله فيمن عنده . ويقصد بهذا الدعاء أن يرزق الله الداعى رزقاً حسناً يجود منه ويدعو أهل التقوى، والصلاح ، فيتقبله الله ويذكره فى ملئه الأعلى وتصلى عليه ملائكة الله الأخيار .

د ـ لا تجلس بعد الطعام مهما كان حديث المضيف أو الداعى مؤنساً ؛ لأن الداعى وأهله يشتغلون بعد الطعام فى تنظيف الآنية وتدبير الطعام الزائد والإبطاء عندهم يحرجهم . وفي إطالة الجلسة بعد الطعام يقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ ، والعبارة وصف صادق لشعور المضيف حين يبتلى بضيف ثقيل لا ذوق عنده يطيل الثواء عنده ، ويلهيه عن واجبه ، وحسب الثقيل حقارة أن الله ـ جل جلاله ـ ذكر فى القرآن ثقله .

ثالثاً : إذا قدمت إلى بيت صديقك فلا تحاول أن تمد عينيك لترى من زوجته

ما لا يجوز رؤيته ، واحرص إذا طلبت منها متاعاً أى ماعوناً ، أو وعاء للطبخ ، أو كتاباً أوصاها زوجها بتسليمه لك أن يكون السؤال من وراء حجاب . قال الله تعالى يذكر نساء النبى ﷺ : ﴿ **وإذا سألتموهن متاعاً فسألوهن من وراء حجاب** ﴾ ومن قال : إن الحجاب خاص بزوجات الرسول فقد غاب عنه أنهن قدوة المؤمنات وأسوة الصالحات ، وأن ما يجملهن من الأخلاق يجمل غيرهن من المسلمات .

وجاء فى كتب التفسير : أن عمر رضى الله عنه هو الذى اقترح على رسول الله ﷺ أن تتحجب أمهات المؤمنين ؛ لكثرة من يطرق بيوتهن سائلاً عن رسول الله ﷺ ، وأن الله ـ جل جلاله ـ قد أيد رأيه ، كما أيده فى مسائل أخرى منها مسألة أسرى بدر، ومسألة مقام إبراهيم ، والصلاة على المنافقين ، وتلك من فضائل عمر رضى الله عنه .

علاقة المسلم برسول الله ﷺ

هذه آية واحدة من سورة الأحزاب ؛ سوف تتيح لنا الفرصة للحديث فى مسألة فقهية وتوحيدية معاً هى من أهم مسائل العقيدة ، ألا وهى : علاقة كل مسلم برسول الله ﷺ ، والآية التى نحن بصددها هى أمر عظيم ، بدأ فيه ربنا ـ جل جلاله ـ بنفسه ، وثنى بملائكته ، ثم عمم الأمر على كل من يؤمن بالله ورسوله .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦].

أولاً : لولا أن الله ـ جل جلاله ـ أكرمنا بمحمد ﷺ لظللنا على شرك آبائنا ، وعلى جاهليتهم وعاداتهم ونعراتهم ، ولكنه تبارك وتعالى بعث فينا رسولاً منا يتلو علينا آيات الله ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة ، ولولا ذلك لظللنا فى ظلمات وفوضى كتلك التى وصفها شوقى رحمه الله إذ يخاطب رسول الله ﷺ فيقول:

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم ... إلا على صنم قد هام فى صنم

ومن ثم ، فإن أعظم ما يجب أن يتحلى به المؤمن هو حب الله ورسوله بحيث يكون الله ورسوله أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين ؛ لأن الحب والشكر يكونان على قدر النعمة ، وأعظم نعمة أنعمها ربنا علينا هى نعمة الإيمان ، وهى نعمة أوصلها إلينا رسول الله ﷺ ، ومن أجل هذا كانت الصلاة على رسول الله ﷺ دليلاً على الوفاء له والشكر لجميله ، وكلما زاد العبد فى الصلاة على رسول الله ﷺ كان ذلك دليلاً على سمو أخلاقه وحبه لربه ، وحرصه على سنة رسوله . قال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١].

ثانياً : إذا صلى المؤمن على رسول الله ﷺ فكأنما ذكر الله ووحده ؛ لأن الصلاة على رسول الله ﷺ هى دعاء لله أن يغفر لمحمد ويرضى عنه ويرحمه ، وهذا يعنى أن محمداً هو عبد لله فى حاجة إلى رضوان الله ، وما دام محمد وهو أشرف خلق الله عبد الله - جل جلاله - فكل ما فى الوجود عبيد للواحد القهار .

ثالثاً : حكم الصلاة على النبى ﷺ أنها من أشرف الذكر ، وهى سنة مؤكدة، ويزداد تأكيدها إلى درجة الوجوب ، إذا ذكر عندك رسول الله ﷺ فقد قال عليه الصلاة والسلام : « من ذكرت عنده فلم يصل على فأبعده الله »

عاءك فصل

أول الدعاء

عاءك ، أوله

ليا والشرف

إلى الإنس

يتحمله إلا

لأنه أمر فى

علاقه بذلك

سا

لى محمد

فى العالمين

سابعاً : إذا أردت أن يصلى عليك الله ، ويشكرك رسول الله ، **فأكثر من الصلاة** على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً » ، واختم صلاتك بالتسليم عليه استجابة لأمر الله تعالى ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يسلم عليَّ إذا مت إلا جاءنى سلامه مع جبريل يقول : يا محمد هذ فلان بن فلان يسلم عليكم فأقول : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته» .

ثامناً : لقد طلب النبى ﷺ من المؤمنين أن يصلوا عليه لكى يبعثه مقاماً محموداً وهى درجة لن يعطيها ربنا إلا لعبد واحد من عباده ومعه الوسيلة ، وواضح من اسم الوسيلة أنها الشفاعة العظمى ، بحيث إذا توسل رسول الله ﷺ إلى ربه استجاب توسله بقبول شفاعته ، وإذن فإن من يصل على رسول الله ﷺ فإنه يكرم بهذه الصلاة نفسه ؛ لأن محمداً عليه الصلاة والسلام كلما ارتفعت عند الله منزلته اتسع نطاق شفاعته ، وستكون شفاعته عليه الصلاة والسلام لأمته ، وبخاصة لمن كان يكثر من الصلاة عليه ، من قبيل المكافأة على العمل الطيب بمثله .

تاسعاً : إذا كتبت كتاباً أو عقداً فاختمه بالصلاة على النبى ﷺ ، **فلعل ذلك** إن شاء الله يجعل فى الكتاب أو العقد أو الوصية بركة ، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من صلى عليَّ فى كتاب لم تزل الملائكة يصلون عليه مادام اسمى فى ذلك الكتاب » . وقد جربت الصلاة على النبى ﷺ فى الشدائد والأمراض والحاجات ، فكانت بإذن الله ومشيئته فرجاً فى الشدائد ، وشفاء للأمراض ، وقضاء للحاجات وخصوصاً حين تصدر عن موطن الحب لرسول الله ﷺ ، والإيمان به وطاعته فيما أمر ،

وتصديقه فى كل ما أخبر واجتناب ما نهى عنه من معاصى الله .

اللهم صل على محمد عبدك ورسولك النبى الأمى وعلى آله وصحبه وعشيرته الطيبين الطاهرين . اللهم وكما أكرمتنا باتباعه فى الدنيا فأكرمنا بشفاعته فى الآخرة .

آية تطهر المؤمنات من كل دنس
وتذهب عنهم كل رجس

قلت أكثر من مرة : إن الإسلام ينظر إلى المرأة على أنها كنز نفيس ، ومعدن غالٍ ؛ ولهذا شرع أن تصان عن عبث يرخصها ، أو خداع يمس كرامتها . إن أجمل ما تكون المرأة إذا كانت ذات دين وأخلاق ، حتى ولو كان نصيبها من الجمال متواضعاً ، وإن أقبح ما تكون المرأة حين تبتذل وترخص ، وحينما يشاع عنها فى مجتمعها ما يخدش الشرف ، هنالك تشمئز منها النفوس ، ولو كانت ملكة جمال العالم . وهذه آية كريمة من سورة الأحزاب آمل أن تعيها المسلمات عسى ربنا أن يطهرهن من كل دنس ويذهب عنهن كل رجس .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٩] .

أولاً : كان للإماء فى الجاهلية لباس خاص يتناسب مع أعمالهن الكثيرة ، فقد كانت الظروف تحتم عليهن أن يقمن بواجبات كثيرة منها إحضار الماء وشراء اللوازم ، فكانت الجارية ربما تتمنطق أى تتخذ حزاماً ليظل ثوبها مرتفعاً عن الأرض أثناء أداء الأعمال ، وكانت ربما يبدو بعض ساقها أو ذراعها أو نحرها ؛ ولأنها لا تملك نفسها ، فقد جعل الإسلام عورتها ما بين السرة والركبة إذ ربما لا تملك من الثياب ما يغطى أكثر من ذلك .

أما الحرائر فكان لهن جلابيب ساترة لجميع الجسم ، ولهذا كان الناس يعرفون بمجرد نظرة الحرة من الأمة ، وكان من فى قلبه مرض من

الرجال يخاف أن يتعرض للحرائر ، فى حين كان بعض السفهاء قد يؤذون الإماء بتعريض أو تلميح أو تصريح من القول المريب .

ثانياً : الجلابيب : جمع جلباب كسراديب جمع سرداب ، وللجلباب معنيان إما ثوب واسع تلبسه المرأة فوق جميع ثيابها ، وإما الخمار الكبير الذى تغطى به المرأة وجهها وتسدل فضلته على جسدها .

وقد رأيت فى هذه الأيام بحمد الله عدداً من المسلمات الصالحات يلبسن جلابيب تغطى كل الثياب والجسد ولا تبرز تفاصيل الجسم والأعضاء ، وقد اتضح لهن أنه لباس صحى لا تقاس به تلك الثياب الضيقة التى كانت تبرز مفاتن المرأة ، فتبدو وكأنها كاسية عارية ، ثم إن هذا اللباس يجعلهن بإذن الله فى مأمن من إيذاء السفهاء .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ أمر لرسول الله ﷺ أن يعظ زوجاته وبناته وجميع المسلمات بأن تلم على جسدها جلبابها بحيث لا يظهر مقدم الرقبة ، أو النحر ، أو ينحسر من ناحية الأذرع . وبدأ بنسائه ؛ لأنهن أمهات المؤمنين، وثنى ببناته كدرس للمؤمنين أن يهتموا بتربية بناتهم ، وأخيراً ذكر جميع نساء المؤمنين فأمر الجميع أن يحتشمن وأن يراعين الثياب الخارجية بحيث لا تنشمر عن الثياب الداخلية وذلك لتظل ساترة لجميع الجسد .

إن كثيراً من النساء اليوم تذهب وهى لابسة ثوباً فضفاضاً ، أو خماراً ساتراً، أو عباءة ساترة ، ثم ما هى إلا أن تصل إلى السوق حتى ترفع يديها إلى أعلى فيبدو ذراعاها إلى الكتف ثم تنسف العباءة إلى فوق وإذا هى قريبة من كتفيها ، فيبدو الثوب الضيق مشخصا تحت ثوبها الضيق

كل مفاتنها ، وإذ ذاك تلفت أنظار الغواة فيغريهم تبرجها بإيذائها ، وتوجيه الكلام البذىء إليها .

رابعاً : إن الشاب الماشى فى الطريق يعرف بالنظرة العابرة المرأة الشريفة التى تحافظ على نفسها ، كما يعرف المرأة المريبة التى تغرى الشباب بمطاردتها وملاحقتها ، كل ذلك من شكل ثيابها صبغاً وعطراً وضيقاً وسعة ؛ ولذا كان على كل مسلمة إذا خرجت لحاجتها أن تسبل ثيابها على كل جسدها ، وألا تسمح عن غفلة أو عن قصد أن ينكشف ثوبها عن مفتنة من مفاتنها .

لقد لاحظت فى شوارع المسلمين ، أن الشباب المتسكع يخافون جداً أن يتعرضوا للمرأة الكاملة المظهر الساترة الثياب المؤدبة السير ، أما التى تبدى زينتها أو تكشف عورتها ، أو تكثر الحركات والتلفت المريب فى مشيها، فتلك حينئذ تكون شيطاناً يغرى بالفاحشة ويثير غرائز الشر .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ **يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ** ﴾ المعنى الحرفى للعبارة الكريمة يقربن الثياب الخارجية والخمر من أجسادهن حتى لا ينحسر الجلباب أو الخمار ، فتبدو من تحتهما الزينة كبعض مواضع الجسد ، أو الثياب المصبوغة أو الحلى ، وعن طريق التحجب والستر يعرفن فلا يؤذين وكلمة ﴿ **يعرفن** ﴾ كان معناها : يميزن من الإماء ، ويعرف الناس أنهن من الحرائر المستورات ومعناها فى هذه الأيام : يعرفن بالجلباب الساتر أنهن من نساء الطيبين الأتقياء وبذلك يبتعد عن طريقهن كل فاسد .

إن المرأة المتكشفة المتبرجة فى الشارع يحكم الناس من الوهلة الأولى أن زوجها إنسان ديوث عديم الإحساس بالشرف ؛ لأن أغلى ما يدخره المرء

من الذخر هو الحفاظ على عرضه ؛ ولهذا كان تركه لزوجته والسماح لها بالتكشف والتبرج ، دليلا عن فقدانه للرجولة والكرامة والغيرة ، أما المؤمن فيحرص أول ما يحرص على سمعة زوجه وبناته ، فتراه يحد كثيراً من خروجهن إلا للضرورة الملحة ، وإذ ذاك يخرجن كاملات الستر، والسفهاء فى الشوارع أشبه ما يكونون بالكلاب التى إذا لوحت لها بقطعة من اللحم لحقتك ، ولهذا تلحق كلاب السفاهة كل امرأة تلوح لهم بلحمها ، أما تلك المتعففة المستقيمة فيرتد عنها بصر السفيه خاسئاً وهو حسير ، لعلمه أن وراءها أبا أو زوجاً يثور لأى مساس بشرفه .

سادساً : قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ فتح لباب الرجاء والأمل لكل المتبرجات وذوات الألبسة الضيقة والقصيرة ، بأنها بمجرد أن تعود عن عاداتها الخطرة وتتشبه بالمؤمنات المتعففات ، فإن الله ـ جل جلاله ـ يقبلها فى ظلال مغفرته ورحمته ويعفو عنها ما سلف من الغفلات والتقصير.

ولهذا فإنى انتهز فرصة هذه الآية الكريمة فأهيب بأعلى صوتى بالمؤمنات أن يجتنبن عادات الكافرات ويقتدين بالصحابيات ويستكثرن من الباقيات الصالحات.

الأمانة عظيمة ولا يقدر على حملها
إلا أولوا العزم من الرجال

إن خواتيم السور الكريمة هى أروع ما يطالعك من نماذج مسك الختام . إنها خلاصات عظيمة التركيز كأنها خلاصة أزاهير الورد تفوح ألفاظها القليلة بشذا كل ما فى السورة من حكم بالغة ، ثم تعطر النقطة الواحدة من العطر الخالص مجلساً واسعاً . وقد ختم ربنا جلت عظمته سورة الأحزاب ختاماً يناسب ما اشتملت عليه السورة من الأحكام والتكاليف ، وبما أن أحكام الشريعة وتكاليفها أمانات فقد جاء ختام السورة فى عظمة الأمانة قولا كانت أو فعلاً .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢ ـ ٧٣].

أولاً : سورة الأحزاب معرض أحكام وآداب وتكاليف . والأحكام والآداب والتكاليف الشرعية أمانات ، وقد لوحظ فى سورة الأحزاب أن النساء نلن قسطاً كبيراً من الاهتمام فيما يتعلق بالآداب حتى إن إحدى الآيات الكريمات منها طمأنت النساء بأن المرأة كالرجل فى التكاليف والثواب ، فالمؤمن والمؤمنة والصائم والصائمة فى مثوبة الله ورحمته سواء : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ

وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : ٣٥] وذلك لأن كلا من الرجل والمرأة إذا أدى كل منهما الواجبات الشرعية ، فقد حفظ أمانة الله وأداها كاملة ، ومن ثم فقد استحق مغفرة من الله وأجراً عظيماً ، لا فرق فى تلك المغفرة والأجر العظيم بين الرجل والمرأة.

ثانياً : التكاليف الشرعية أقوال وأفعال ، ولهذا فقد بدأ الله جل جلاله الآيات بالأقوال : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب ٧٠ ـ ٧١] إن الأوامر الشرعية ينفذها اللسان بأقواله ، والعقل بإرادته ونواياه وأعماله ، ومن ثم فإن الإنسان قلب ولسان ، أى عقل ونطق ، وكل الباقى من جسده صورة ، وإلى هذا أشار رسول الله ﷺ إذ يقول : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » والقلب فى لغة العرب هو العقل .

ثالثا : لقد اختلف الأشياخ ـ رحمهم الله ـ فى معنى الأمانة التى عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال وأشفقن منها إلى أقوال كثيرة وأصح الأقوال والله أعلم :

أن الأمانة التى حملها الإنسان ولم يطق حملها غيره هى : أمانة التكاليف الشرعية أو قل إن شئت : هى إمانة العقل المفكر المميز الذى تترتب عليه الواجبات الشرعية ، فمن أحل الحلال وحرم الحرام وعبد الله موحداً إياه وبما شرع رسوله فذلك هو الذى أدى الأمانة ، ومن استعمل عقله فى الشر واستحل المحارم وتعدى الحدود وعمل بالمعاصى ، فذلك

هو الخائن للأمانة . ولأن التكاليف الشرعية لا تطلب من الإنسان ، إلا فى حال اختياره وكمال عقله لهذا قلنا : إن الأمانة هى أمانة العقل المفكر المختار الذى به فرض الله على بنى آدم فروض العبادة .

إن الإنسان إذا فعل المعصية فى حالة فقدان عقله ، أو فقدان اختياره ، فإنه لا يؤاخذ عليها لقول رسول الله ﷺ : « رفع القلم عن ثلاث : الصغير حتى يكبر، والمجنون حتى يعقل ، والنائم حتى يفيق » . وإذن فالإنسان بحمله الأمانة أصبح أعظم مسؤولية من جميع مخلوقات الله .

إن سلسلة جبال السروات من حدود الشام إلى الساحل الجنوبى إلى اليمن لا تحمل من الهموم مثل ما يحمله إنسان واحد ؛ لأن الإنسان مكلف وهى غير مكلفة ، ومن ثم فقد جاء فى الحديث الشريف : «لزوال السموات والأرض أهون عند الله من قتل مؤمن».

رابعاً : من هنا أصبح الإنسان بحمله لأمانة الله العظمى ، أشرف مخلوقات الله وأكرمها على الله ، وسخر الله له ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، وجعله خليفة فى الأرض ومن قبل ذلك أسجد له ملائكته حين علمه من العلم ما لم يعلموا . والحقيقة أن الإنسان الذى يقدر رسالة خلقه ويؤدى واجب خالقه ويقوم على الخلافة التى أرادها له ربه باجتهاد ودأب وإنتاج وأمانة، هذا الإنسان عند الله يكون أفضل من الملائكة .

إن الله ـ جل جلاله ـ يباهى ملائكته بعباده الصالحين من المصلحين والمجاهدين والصائمين ، لقد كان جبريل عليه السلام وهو أفضل ملائكته فى خدمة محمد ﷺ ليلة المعراج ، مما يدل على أن الإنسان الكامل فى نظر الله ـ جل جلاله ـ أعظم من الملائكة الكرام .

خامساً : على أن الإنسان الذى يخون أمانة الله تعالى وينسى رسالة الحق والخير

التى خلقه الله من أجلها ، ويستسلم لدروب الشيطان جرياً وراء الشهوات، مثل هذا الإنسان ، ينحدر إذ ذاك عن مستوى البشر ، بل وعن درك الحيوان ؛ لأنه طمس عقله بران المعاصى ودنّس روحه برجس الخبائث فأصبحت الحيوانات بهذا أشرف منه . إن الحيوان قد قام بما خلقه الله من أجله ، وبما سخره له وبما يسره لعمله ، أما هذا فقد سفه نفسه ، ومسخ فطرته ؛ ولهذا فإذا كان يوم القيامة وخسف الله بالحيوانات، فنفقت وتحولت ترابا يتمنى مثل هذا الغافل لو يكون تراباً كتلك الحيوانات وفى هذا يقول الله تعالي في سورة الأعراف : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ .

سادساً : لقد ختم الله ـ جل جلاله ـ الآيات بقوله : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ومعنى الآيات : أن الله ـ جل جلاله ـ إنما حمل بنى آدم أمانة التكليف الشرعى محوطة بأنوار العقل لعلمه أن الناس سوف ينقسمون من حول هذه الأمانة الغالية بين خائن للأمانة مضيع لها ، وبين محافظ عليها ومؤديها ، أما خائن الأمانة فهو المنافق ؛ لأنه يخون أمانة الله عن تصميم وإصرار ولؤم ، وأما مضيع الأمانة فهو الكافر ، إذ بجهله وبلادته وضيق أفقه يضيع أمانة الله ، ولا يذكر منها شيئاً ؛ لأنه مطموس البصيرة والفكرة . وأما الذى حفظ الأمانة فهو المؤمن ، قدرها حق قدرها فحفظها حق حفظها ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

علم الله لا يعزب عن شيء

هذه ثلاث آيات كريمات ، افتتح بها ربنا ـ جل جلاله ـ سورة سبأ وتكاد سورة سبأ كلها تدور حول محور هذه الآيات .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[سبأ: ١ ـ ٣]

أولاً : سورة سبأ من السور المكية وتكاد كلها تدور حول البعث وإنكار الكفار له وإيراد براهين متنوعة المصادر على أنه حق لا ريب فيه . في بداية السورة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ﴾ وفي ختام السورة تأكيد للبعث ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [سبأ : ٥٠] والإسلام كما أسلفنا يهتم أشد الاهتمام بالإيمان باليوم الآخر ، وما فيه من حساب وجزاء وثواب وعقاب ؛ وذلك لأن ذلك هو الذى يتحكم فى السلوك ويضبط ميزان الأخلاق حين يؤمن المرء أنه محاسب على كل صغيرة وكبيرة ، وأن المرجع إلى الله ليجزى كل نفس بما كسبت .

ثانياً : وقد استعمل القرآن كل أنواع البراهين ليغرس فى الناس الإيمان بالبعث ويبرهن على البعث؛ تارة بتذكير الناس بعظيم قدرة الله الذى بدأ الخلق وأنشأه من العدم ، وبواسع علمه الذى لا تعزب عنه ذرة فى السموات

والأرض ولا أصغر منها ولا أكبر ، وتارة يذكرهم بأن الله ـ جل جلاله ـ ما خلق الخلق إلا لأمر عظيم، وحاشا أن يكون قد خلقه عبثاً ، وتارة يدعو الكفار المنكرين للبعث باستعمال عقولهم ، وهى وحدها ستقودهم إلى الحقيقة بأن محمداً عليه الصلاة والسلام ليس مجنوناً إذ يخبرهم بالبعث .

ثالثاً : الآية الكريمة الأولى نموذج رائع لما يسمونه فى البلاغة : براعة الاستهلال ، فقد بدأت بحمد الله أهل الحمد والثناء ، ووصفته بثلاثة أوصاف لم تترك وراءها أى شيء من الخلق أو الأمر للشركاء . الوصف الأول : ﴿ **الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ وهذا يعنى الوجود كله فلا يملك الشركاء بعد هذا فتيلاً ولا قطميراً . والوصف الثانى : ﴿**وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ** ﴾ ومعناه : أنه مالك يوم الجزاء حيث لا ملك إلا الله الواحد القهار ، وحيث يجزى كل نفس بما كسبت وينادى والحياة البشرية مصعوقه : ﴿ **لمن الملك اليوم** ﴾ [غافر : ١٦] وحين لا يجيب مجيب يجيب ـ جل جلاله ـ سؤاله فيقول : ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾ ثم إذا قضى بين الخلائق بالحق دوى موقف الحساب بحمده : ﴿ **وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الزمر : ٧٥] . نعم إن الآية الأولى من سورة سبأ هى ذكر من أعظم أنواع الذكر، وما أجمل أن يرددها العبد من بين أنواع الذكر ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ** ﴾ . والاسمان الأعظمان اللذان ختمت بهما الآية الكريمة هما الوصف الثالث لرب العزة ، وهو أنسب وصف بعد ما ذكر من ملك السموات والأرض ، ومن ملك يوم الدين ، إذ هذان الأمران العظيمان يتطلبان حكمة عظيمة فى تدبير السموات والأرض ، وخبرة عظمى بأحوال العباد وأعمالهم؛

حتى يكون حسابهم من منطلق البصيرة والعدالة .

رابعاً : وتمضى الآيات الكريمات فى إثبات ما ينكره الكفار من قدرة الله على إحياء الموتى ، وبعثهم إليه وحسابهم على أعمالهم ، فيذكر منكرى البعث بعظيم علمه، وذلك العلم الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، ومن كان هذا علمه فلابد أن تكون أحكامه قمة العدل، وأبعد ما تكون عن الظلم : ﴿ **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ** ﴾ الله أكبر ! ما أعظم هذا الوصف لعلم الله إذ كم يلج فى الأرض مما نعلم ومما لا نعلم من ماء وحبوب وجذور ومن حشرات، وهوام وسوابح ، ومن غازات وأشعة ومركبات هوائية وشحنات كهربية، وكم يلج فى الأرض من جثث الموتى عبر الأجيال ، ومن جن وأرواح خفية يحيط بها الكبير المتعال . ما أعظم الأرض نعمة من الله وهى توارى سوءات الناس وتختزن فضلاتهم ، فتحميهم بإذن الله من الأوبئة ، ثم كم يخرج من الأرض زروع وشجر، ومن كنوز ومعادن ، ومن براكين وحمم ومياه جوفية من ، ومن كنوز وثروات معدنية ، ثم كم ينزل من السماء من ملائكة وشهب ، ومن ماء وثلج وبرد ، ومن أوامر حكيمة تدبر هذا الكون الهائل المعقد ، وكم يصعد إليها من ملائكة كرام ومن غازات وإشعاعات وضوئيات ، ثم كم يصعد إليها من الكلم الطيب والعمل الصالح . إن أسلوب القرآن فى وصف علم الله يدل على أنه من عند الله ، إذ لا يمكن لبشر أن يتصور علم الله على هذه الطريقة العميقة العجيبة ، وقد لفت نظرى أن الله ـ جل جلاله ـ ختم آية العلم هذه بقوله : ﴿ **وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ** ﴾ ، وفى هذا إشارة دقيقة هى أن هذا العليم الخبير الذى لا تخفى عليه خافية من

أفعال العباد ، لابد أنه يراهم وهم متلبسون بالمعاصى وهم يمارسون المغضبات ؛ لكنه لا ينتقم منهم حتى وهم يعصونه فى ملكه وأمام عينيه، وعفوه هذا هو قمة الرحمة والمغفرة أشهد أنه هو الرحيم الغفور .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين** ﴾ يصور المشركين والكفار فى صورة بليدة غبية تسوق الكلام دون برهان ولا منطق . إنهم يقولون : ﴿ **لا تأتينا الساعة** ﴾ فيرد عليهم القرآن على لسان رسول الله ﷺ رداً مدعما بالمنطق والحجة ﴿ **بلى وربى لتأتينكم** ﴾ ، لأن الذى يأتى بها هو عالم الغيب ، الذى لا تخفى عليه ذرة تائهة فى ملكوت السموات والأرض ، ثم إن فى الآية إعجازا علميا ؛ إذ لم يكن العرب يتصورون أن هنالك شيئاً فى الدنيا أصغر من الذرة ، وكانوا حين يقرؤون هذه الآية يتساءلون : ماذا يعنى قوله تعالى : ﴿ **ولا أصغر من ذلك** ﴾ ؟ وهو يذكر الذرة ، ثم جاء العلم ، يكشف أن الذرة التى لا تكاد ترى إذا انشطرت أو فجرت قذفت من داخلها بجسيمات متحركة بإذن الله لا تنهض لطاقتها قدرة البشر . نعم ! إن هذا الإله العليم الخبير قادر أن يأتى بالساعة وهى آتية لا ريب فيها عالم ذرات الكون وكل ذرة مما عملوا من خير أو شر.

اللهم زدنا بصيرة بصفاتك العلا ، وأن نعبدك كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم علمك وسلطانك .

قصة سبأ .. والتبطر على النعمة

هذه الآيات الكريمات من سورة سبأ تحكى فى إيجاز جميل قصة سبأ وهى قصة الابتلاء بالنعمة ، وامتحان النعمة عبر التاريخ أصعب ألف مرة من امتحان الفقر ؛ إذ الفقر يكوّن الرجال والأذرع القوية ، أما النعمة فتكون البطون المترفة والعقول الجامدة والبطر الظالم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ : ١٥ ـ ٢٠] .

أولاً : قبيلة سبأ قبيلة عظيمة العدد تحدر منها عدة بطون من اليمانية ، وروى أن أباهم سبأ ولد له عشرة أولاد ، تناسلوا وتكاثروا فكان منهم عدة قبائل، وكانت قبيلة سبأ الأولى تقيم فى منطقة « مأرب » وقد بنوا بين جبليهم سداً عظيماً ، كان يمتلىء بمياه الأمطار فلا يزال يسقى زروعهم طول العام مما جعل مساكنهم آية من آيات الله ، ومعجزة من معجزات المناظر الطبيعية ، حتى لقد كانت ديارهم على هيئة جنتين عظيمتين ، إحداهما عن يمين السد ، والأخرى عن شماله ، وكانوا يأكلون من رزق ربهم ويحمدونه على ما آتاهم من بلدة طيبة يشملها ربها ـ جل

جلاله ـ بعفوه ومغفرته . نعم لقد كانوا مزارعين ممتازين يخدمون الأرض فتجود لهم بأمر الله ، ومضوا على ذلك ردحاً من الزمان، امتدت فى أثنائه نعمتهم فكانوا يصدرون منتجاتهم إلى الشام ، وبارك لهم ربنا ـ جل جلاله ـ فى طريقهم فجعل فيها قرى ظاهرة للمسافرين يستريحون فيها ، وهم ذاهبون إلى الشام ، وكانت تلك القرى قد قدرت أبعاد بعضها عن بعض بحيث لا يكاد المسافر يشعر بالتعب حتى يصل إلى محطة يستريح منها ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ يعنى قرى الأردن ، والشام ، وفلسطين ، ولبنان قرى ظاهرة أى محطات واضحة وقدرنا فيها السير أى جعلنا مراحل تحدد مقدار السير والراحة ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ .

لقد كانوا فعلاً فى نعمة عظيمة نعمة الرزق ونعمة الأمن ونعمة المواصلات المسعفة ، والنعم كما هو معروف لها ثمن معروف يطلبه ربنا الغنى الحميد . إن ثمنها هو الشكر ؛ فمن شكر نعم الله نال زيادتها ، ومن كفرها فلينتظر زوالها.

ويبدو أن النعمة قد أبطرت القوم ، فأترفتهم وأنستهم مبادئ سلفهم ، وجرّ عليهم الترف ما يجره على أهله من معصية الله ، وفساد الأخلاق ، وشيوع الكسل والتراخي ، وهنا انطبقت عليهم سنة الله التى لا تبديل لها ولا تحويل ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٦].

لقد لخص الله المفاسد التى انقسموا فيها بكلمة واحدة ، وهذا من إسرار الإعجاز اللفظى للقرآن ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ وكلمة ﴿ أَعْرَضُوا ﴾ معناها : الحرفى ولوا ظهورهم ، وتعنى هنا ولوا ظهورهم عما كان عليه أسلافهم من طيبة وطاعة لربهم ، ومن ولى ظهره عن شيء يكون بالضرورة قد ولى وجهه شطر شيء آخر ، وهم فعلاً ولوا ظهورهم عن الشكر والطاعة

والأخلاق لينصرفوا إلى المعصية والكفران والرذائل ، وإذا ذاك كان انتقام الله منهم مناسباً لأعمالهم ، لقد تبدلوا هم بشكر الله كفراً وبطاعته فساداً ومعصية، فكان من الطبيعى أن توليهم نعمة الله ظهرها ؛ ليتبدلوا بالخصب قحطاً وبالماء جفافاً ، وبالأمن خوفاً وبالاجتماع شتاتاً ، وهذا ما ذكره ربنا ـ جل جلاله ـ في الآية الكريمة : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ لقد كان مسكنهم فى نضارته آية أى معجزة كأن كله حدائق تشكل جنتين عن يمين السد وعن شماله ، فلما أعرضوا أرسل الله عليهم جنداً من جنوده الضعاف ألا وهى : الفئران قرضت صخور السد ، ويبدو أنه كان ملآن ، فاندفع كالمحيط الزاخر يدمر كل ما يعترضه، وفى الحال جف السد وقطع الله عنهم الغيث ، فلم تبق لهم إلا بيوت مقفرة مصوحة ، وجف الشجر الذى يحتاج إلى سقيا وعناية ، فلم يبق فى ديارهم إلا شجرات من النباتات الصحراوية كالخمط وهو شجر شوكى مرن كالأراك، والأثل وهو شجر يعيش فى الصحراء تسيج به البساتين ليحميها من زحف الرمل، والسدر نبات شوكى له ثمر حلو هو الدوم أو النبق ، أو العبرى فى عامية القبائل ، وكان يستعمل ورق السدر بمثابة الصابون.

وهناك لم يستطيعوا البقاء فى ديارهم فتفرقوا مهاجرين شمالا حيث استقر منهم فى المدينة الأوس والخزرج ، وفى جبلى حائل قبيلة طيئ وفى الشام قضاعة وتنوخ وكلب ولخم وجذام والغساسنة ، وفى شمال الجزيرة المناذرة وكندة ، وكان منهم الأزد وعاملة والأشعريون ومذحج ، وخثعم وبجيلة ، وبعد أن كانت طريق السفر ميسرة باعد الله بين أسفارهم فلقوا فى طرقهم عناء شديداً ومزقوا كل ممزق ، وصاروا أحاديث للناس حتى ضربوا مثلا للشتات والتفرق ، فذهب منهم المثل المشهور : تفرق القوم أيدى سبأ . وما أجمل التذييل البليغ الذى ختم الله به الآية الأولى : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ

نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُور ﴾ ؟! وما أجمل هذا الاستفهام البلاغى الذى غرضه النفى ومعناه . إننا لا نعاقب إلا الكفور . وما أجمل ختام الآية الكريمة بعد ذكر عقوبتهم : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور** ﴾ ومعناها : أن فرقتهم موعظة حيث يتعظ بها الإنسان ليكون صباراً على بلاء الله شاكراً لأنعم الله .

الشركاء والشفعاء

هاتان آيتان كريمتان من سورة سبأ هما من أهم الآيات المتعلقة بالتوحيد ، وهما تدوران حول موضوعين كبيرين يعالجهما القرآن الكريم فى غاية المنطق والموضوعية والموضوعان هما : الشركاء والشفعاء .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** ﴾ [سبأ : ٢٢ ـ ٢٣].

أولاً : كل الجرائم يمكن أن يغفرها ربنا ويتوب على صاحبها فيقبل عمله ، وترى عندئذ فى صحيفته حسنات إلى جانب جرائم وسيئات ، لكن جريمة واحدة إذا مات المرء عليها لا يمكن أن تعايشها فى كتاب الأعمال أية حسنة ، ولا يمكن أن يقبل معها أى عمل ، ألا وهى جريمة الشرك : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ** ﴾ تحد سافر لكل شريك يعبده الكافرون من دون الله ، وتحقير لجميع الطواغيت التى تعبد من دون الله ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ هذا أسلوب أمر يفيد التعجيز؛ لأن الشركاء جميعاً لا يملكون أن يستجيبوا لعابديهم ولو دعوة واحدة ، ثم إن هؤلاء الشركاء لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض؛ لأن الملك كله للذى

خلقه ، وإذا كان بعض الطواغيت يملك بعض حطام الدنيا فذلك ملك غير ثابت؛ لأن المال والأهلين ما هى إلا ودائع ، والله ـ جل جلاله ـ هو الذى يرث الأرض ومن عليها .

وقوله تعالى عن الشركاء : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ معناه : أن هؤلاء الشركاء ليست لهم مع الله أية شركة فى خلقه، وما فى الدنيا من كائن من الشركاء اتخذه الله ظهيراً له أى معاوناً فى تدبير هذا الكون، وشبيه بهذا المعنى قوله تعالى فى سورة الكهف يذكر الشركاء : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف : ٥١] ومعناه : حينما خلقت السموات والأرض لم أطلع الشركاء على كيفية خلقهما ، ولا اتخذت منهم عضداً يشد أزرى على عملية الخلق .

وبعد فإن تحقير الشركاء هو تحقير لعابديهم ، والحق أن من يتخذ من دون الله شريكاً فقد سفه نفسه وطمس عقله وغفل عن رسالة خلقه ، وإن أشرف الشرف أن يخلص المرء عبوديته وصلاته ونسكه وتوحيده لله الواحد الأحد؛ لأن العبودية لله شرف ، وهى لأى مخلوق منقصة وسقوط وإذلال مهين . إن الله ـ جل جلاله ـ هو ملك الملوك ، والملوك والملائكة والرسل كلهم عباده ، ومن ثم فالعبودية له انتماء مشرف وكرامة عظمى.

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية ، هذه الآية تخاطب صنفاً من أنواع المشركين ، وهم الذين يعبدون الملائكة . والآية الكريمة توضح لهؤلاء أن الملائكة أنفسهم يخافون من الله خوفاً شديداً حتى إنهم ليغمى عليهم حين يسمعون

الكلمة من أمر الله ثم لا يفزع عن قلوبهم وتزول روعتهم إلا بعد مدة ، فإذا أفاقوا كان أكبر همهم أن يعرفوا ماذا قال ربنا ، فإذا سألوا جبريل أمين سر السماء : ماذا قال ربنا ياجبريل ؟ فيكون جوابه : الحق . نعم إن قوله الحق ، وإن وعده الحق ، وهو الحق لا إله إلا هو .

وزيادة فى إثبات الوحدانية لله الواحد الصمد ، توضح الآية أن الملائكة لا تنفع لدى الله شفاعتهم ، إلا لمن أذن له ربه بشرط أن يقول فى شفاعته الحق ، وألا يتكلم إلا حين يؤذن له ، وإنه لمشهد فى غاية الرهبة والإجلال والعظمة حين يجىء ربك مجيئاً يليق بجلاله ، والملائكة صفاً فى مقدمتهم روح الله جبريل ، وهم صامتون صمتاً مطبقاً لا يتكلم منهم إلا من أذن له الرحمن ، وقال قولاً صواباً لا يتعدى سنن الحق فى أمر الشفاعة ، ذلك اليوم الحق الذى يتخذ العقلاء فيه إلى ربهم من الأعمال الصالحة ، ما يجمل مآبهم ويهدّئ روعهم .

وقوله تعالى يصف الملائكة : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ معناه : أزيل فزعهم ، وقد وضح الحديث النبوى الشريف الذى رواه النواس بن سمعان ـ رضى الله عنه ـ المقصود بهذه الآية التى تذكر فزع الملائكة من أمر الله ، قال النبى ﷺ: «إن الله تعالى إذا أراد أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى فأخذت السموات منه رجفة أو رعدة شديدة خوفاً من الله تعالى ، فإذا سمع أهل السموات ذلك صعقوا وخروا لله تعالى سجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله تعالى ويقول له من وحيه ما أراد ، ثم يمر جبريل بالملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟! فيقول جبريل : قال الحق وهو العلى الكبير . فتردد الملائكة: قال الحق وهو العلى الكبير ».

رابعاً : على المؤمن أن يؤمن أن الشفاعة لله جميعاً ، وهو ما تنطق به الآية الكريمة من سورة الزمر : ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ ، وحتى الشفاعة العظمى التى اختص بها ربنا ـ جل جلاله ـ محمداً ﷺ لا تكون يوم القيامة إلا بإذنه ، والرسول ﷺ لا ينبغى له فى الموقف أن يشفع إلا لمن ارتضى الله ، وإلا لشفع لعمه أبى طالب . إنه ﷺ يكون يوم القيامة فى غاية الهيبة والإشفاق من جلال الله . يقول الله تعالى فيمن يعطون كرامة الشفاعة : ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾.

فإذا شددت الرحال إلى مسجد رسول الله ﷺ وسعدت بالصلاة فيه ثم زرت قبر رسول الله ﷺ فإياك أن تطلب الشفاعة منه ﷺ ، ولكن سلم عليه وصل عليه ، واطلب له عليا الدرجات والمقام المحمود ، ثم اسأل ربك ـ عز وجل ـ أن يكتب لك شفاعة رسوله .

اللهم اعصمنا من كل ضروب الشرك ، وأخلص إيماننا من الشك والمماراة ، اللهم وكما أكرمتنا بدين محمد ﷺ فى الدنيا فأكرمنا بشفاعته يوم الدين .

مقياس الكرامة عند الله :
الإيمان والعمل الصالح

هذه أربع آيات فيها عبرة للأغنياء ؛ لأنها توضح لهم أن المال قد يخرب النفوس ويجمد العقول ويقود إلى الترف المردى ، والكفر الموبق ، كما تعلن أن المال والبنين لا يدلان على قرب العبد من الله ، ولا على رضاء الله عن العبد، لكن مقياس الكرامة عند الله إنما هو الإيمان والعمل الصالح .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٣٤ ـ ٣٧].

أولاً : الآية الأولى من الآيات الكريمة تقرر حقيقة أثبتها الواقع المشاهد ، وهى أن المترفين فى كل أمة هم أعداء كل حركة إصلاحية فى المجتمع ، وأنهم يقفون فى وجه كل دعوة خيرة نيرة ، تدعو إلى الحق والهدى والعدل والإحسان ، وأنهم أشبه فى قومهم بالمستنقع الراكد الذى لا تنبعث منه إلا الأوبئة ، ولا يجر إلا الأمراض . ومن الطبيعى أن يكره المترفون أى تحرك نحو النور وأى تقدم نحو الحقائق ؛ ذلك لأنهم سرقوا أموال أمتهم فى الظلام ، وأنفقوها فى الظلام ؛ ولهذا فهم يخشون أن يفضحهم النور فيكشف للناس وسائلهم القذرة ، وطرقهم اللئيمة فى اختلاس الحقوق ، وأكل الحرام .

إنهم يرون فى رسالات الرسل ودعوات المصلحين أنواراً كاشفة تنور من حولهم المجتمع بالوعى السليم والفهم الصحيح ، وهذا الأمر خطر على مصالحهم التى لا يمكن أن يحرزوها إلا بالسلب ، والنهب ، والغلول ، ولا غرو ، فالمترفون لصوص واللصوص عدوهم النور وحبيبهم من يطفئ من حولهم الأنوار . هذه الحقيقة المخيفة المخجلة لكل فاسق مترف هى التى تنطق بها الآية الكريمة الأولى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ .

ثانياً : وفى الآية الثانية يوضح الحق تبارك وتعالى حجم الغفلة الناجمة عن كثرة الأموال والفتنة التى يجرها الترف . إنهما أحياناً يجران إلى الكفر وإنكار لقاء الله، والتبجح الذى ينسى المرء حياته ومآله : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ لقد أمنوا مكر الله وتحوُّل الأحوال ، وانخدعوا بالأموال والأولاد ، فصور لهم ضلالهم أنها باقية ، مهما علموا أن الحياة الدنيا متاع باطل وظل زائل ، وأن قصة الحياة إذا أسدل ستارها تلاشت فلم يبق منها إلا الباقيات الصالحات . إن قولتهم الواردة فى الآية الكريمة تدل على منتهى الحماقة : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ قالها المترفون من قبلهم ﴿ **فما أغنت عنهم أموالهم ولا أولادهم لما جاء أمر الله** ﴾ قال صاحب الجنة المترف يحاور جاره الفقير فى سورة الكهف ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف : ٣٤ ـ ٣٦] إن هذه الآية الكريمة تقرر أن المال كثيراً ما يعمى صاحبه على الحقيقة الملموسة المشاهدة فيوهمه أن الحياة الدنيا هى الباقية ، وهو يرى فى كل حين كيف تتساقط الأجيال على عدوتى درب الحياة فلا يبقى

إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون ﴾ رد على أولئك المغرورين الذين ظنوا أن كثرة أموالهم وأولادهم سوف تحميهم من العذاب ، والآية الكريمة تعلن أن الله - جل جلاله - يبسط الرزق لمن يشاء لحكمة بالغة ، ويقبض الرزق لمن يشاء ، وما بسط الرزق دليلاً على رضا الله ، ولا قبضه دليلاً على غضب الله. إنه - جل جلاله - قد يبسط الرزق للفاسق ، ويقبضه عن المؤمن ، وهو فى كلتا الحالتين يفعل خيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فى كلتا الحالتين يختبر كلا منهما . والناجح فى الاختبار هو الفائز برضوان الله سواء كان الامتحان بالفقر أو الغنى، هنا لابد لى أن أشير إلى أن موقف الإسلام من المال موقف فى غاية من الحيطة والقصد والاعتدال والتشجيع . إن الإسلام يحث المسلمين على أن يحصلوا المال من جميع دروبه الحلال ، لكنه فى الوقت نفسه يحمى المجتمع من كل محتكر وغاش ومدلس . يقول النبى ﷺ يمدح الغنى : «اليد العليا خير من اليد السفلى » ولقد كان العشرة المبشرون بالجنة وهم مؤسسو الإسلام معظمهم من أهل الغنى ، وبذلك خدموا الإسلام بأموالهم حتى لقد كان أحدهم وهو عثمان - رضى الله عنه - ربما جهز الغزوة بأكملها على حسابه ، إن المال الصالح فى يد الرجل الصالح نعمة عظيمة هائلة ؛ لأن كل درهم فى يد المؤمن يمكن أن يتحول إلى حسنات تقرب إلى الله ، كما أن كل درهم عند الفاسق يمكن أن يتحول إلى نار إذا أنفق هذا الدرهم فى معاصى الله ، وإذن فالمال فى حد ذاته ليس فى الإسلام هو الغاية ، إنما الغاية أن يجمع المال من طرق الحلال؛ لينفقه فى طرق الخير بحيث يسعد بإنفاقه المجتمع والأفراد .

رابعاً : الآية الكريمة الأخيرة فيها مقياس القربى إلى الله ، والكرامة عنده ، والمثوبة العظيمة التي توصل إلى الدرجات العلا ﴿ **وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ** ﴾ تعلن الآية الكريمة مقياس الكرامة عند الله ، والقربى إليه وأن هذه المنازل الكريمة لا تتحقق إلا بالإيمان والعمل الصالح ، أما الأموال والأولاد فيأتى المرء عارياً منها يوم القيامة كما خلقه الله أول مرة ، فإذا كان الغنى ممن أسعدهم الله فألهمهم فى غناهم الإيمان والعمل الصالح إذ ذاك ينالون جزاءهم أضعافاً مضاعفة بصبرهم على طاعة الله وصبرهم عن معاصى الله ، واستعمال أموالهم فى العمل الصالح ، وتلك هى الخصائص التى يرفع الله بها المنازل ، ولعل من أعلى المنازل فى الجنة الغرفات ، فتلك التى يتراءى أهل الجنة أهلها كما يتراءى الناس القمر فى سمائه .

اللهم اجعلنا منهم .

دروس فى أدب النقاش والجدال

هاتان آيتان كريمتان من سورة سبأ تمثلان أعلى نماذج الذوق والمنطق والموضوعية عند المناقشة ، نعم إن فى الآيتين دروساً فى أدب النقاش على كل مؤمن أن يلتزم بها مهما كان الطرف الآخر غوغائياً .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سبأ : ٤٦ ـ ٤٧].

أولاً : حينما انقطعت حجة قريش وبهتوا أمام منطق القرآن وبلاغة القرآن ، لجؤوا فى مناقشة محمد إلى الغوغائية والأهواء وصيحات اللغو قال بعضهم لبعض : أغلقوا آذانكم إذا سمعتم القرآن ، وحتى لا يصل إلى أسماع الناس عليكم بالضجيج واللغو والصراخ من حوله لكى تغطى صيحاتكم على تلاوته ، أما محمد هذا الذى جاءكم بهذا الكلام فهو ليس أكثر من شاعر له رئي من الجن يعلمه الشعر ، وقال بعضهم : بل هو مجنون صور له جنونه أنه يكلم من السماء ، ثم تشعبت بهم التخرصات حول محمد ﷺ فقالوا : بل هو كاهن يأتينا بسجع الكهان ، واستقر رأى بعضهم كالوليد بن المغيرة ، على أن محمداً لم يعرف بشعر ولا كهانة ، ولا جنون ، ولكنه أقرب شىء إلى أن يكون ساحراً.

ومن الواضح أن هذا الاختلاف حول محمد ، وتلك المجادلة فى شأنه لم يكن للعقل تدخل فيها ، إنما هى اضطراب فى الفكر ، وتخبط فى الرأى ، ونوبة من الهوى .

ثانياً : إزاء هذه الفوضى فى الآراء والتهم ، رد عليهم القرآن الكريم بأمر موجه إلى رسول الله ﷺ بأن يدعوهم وينصحهم بأمر واحد فقط ، إذا فعلوه وصلوا إلى الحقيقة واكتشفوا الصدق والصواب ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** ﴾ ، الله أكبر أى دين أعظم منطقاً ، وأسمى موضوعية وأجل مقصداً من دين لا يريد فى الأمور حكماً إلا العقل ، وحين تعربد الفوضى الفكرية والأهواء الغوغائية فى آراء قريش ومرائها يطلب منهم واحدة فقط ، وهى أن يخلو كل منهم لنفسه أو يخلو بصديق واحد من أصدقائه مثنى وفرادى ، ثم يطلق كل منهم لفكره وعقله العنان ليرى أن الفكر المستبصر وحده سيوصل قريشاً إلى الحقيقة ، والحقيقة شىء واحد هو أن محمداً ليس بمجنون وكيف يأتى المجنون بمثل هذا القرآن الذى يدعو إلى توحيد الله ونبذ كل معبود سواه، والأخذ بكل الفضائل والبعد عن كل الرذائل ؟! إن عقولهم وحدها ستخبرهم أن محمداً ما هو إلا نذير من الله فى مقدمة عذاب شديد ينتظر دنياهم ، إذا هى استمرت فى الظلم والأحقاد والطغيان وهو برسالته يأخذ بحجزه هذه الدنيا فيبعدها عن العذاب كما يبعد صاحب النار فراشاً يريد أن يهوى فيها .

ثالثاً : إذا أردت أن تعرف مقياس الشرف والسمو فى أى دعوة من الدعوات، فانظر فيها إلى أمرين :

أحدهما : هل هى دعوة يساندها منطق العقل الساطع المتألق الهادى ؟ أم هى تخفى نفسها وراء رموز وطلاسم وغموض وتعمية وتضليل كالماسونية المجرمة مثلاً ؟

والثانى : هل أصحابها والقائمون عليها أهل عفة عن حطام الدنيا والمال الحرام، والتماس الغنى عن طريق دعوتهم ؟

إن ودعوة الإسلام بفضل الله تعالى منذ بزغ حاجب شمسها ، هتف بالجنس البشرى : اقرأ وتعلم وفكر كيف خلقك ربك من علق ، ثم إذا هذا العلق يسمو بكرم الله وإذا هو يتعلم بالقلم ، ويعلمه ربه ما لم يعلم .
دعوة الإسلام لم تترك فرصة فى كتاب الله إلا خاطبت أهل العقول أن يتفكروا فى ملكوت الله وأن يبنوا إيمانهم على عقولهم وتفكيرهم .

ثم تجىء الآية الكريمة الثانية التى نحن بصددها الآن لتتحدث عن نزاهة رسول الله ﷺ وأنه لا يطلب من وراء دعوته هذه أجراً أو مرتباً أو ضريبة ، وما أروع الأداء القرآنى فى الآية الكريمة ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُم ﴾ تعبير كثيرا ما يدرج فى لغتنا الدارجة ، حين يقول أب مثلاً لابن له : تزوج وقاطع البيت الكبير ، الذى أحضرته إلينا خذه ، ومعنى الآية الحرفى : قل يا محمد لقريش الأجر الذى طلبناه منكم وتقاضيناه من أموالكم خذوه فهو لكم.

ثم تمضى الآية الكريمة ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد﴾ وفى هذا الجزء تقرر بأن الداعية الأول رسول الله ﷺ وكل داعية مسلم له فى رسول أسوة حسنة إلى أن تقوم الساعة ، لا يجوز أن يجعل من دعوته إلى الإسلام وانتمائه إلى الدين مصيدة يصطاد بها مصالح الدنيا ، وما أجمل قولة للقاضى عياض رحمه الله إذ يقول : لأن آكل الدنيا بالدف والمزمار خير من أكلها بدينى ، وهو يعنى بوضوح أن من ينصب من علمه وانتماءه إلى الدين شراكاً يصيد بها الغنى ومنافع الدنيا ، وعطايا ذوى السلطان فإن الرقّاص المغني وملاعب القرد أشرف منه ؛ لأن أولئك جماعة معروفون مكشوفون يطبلون ويزمرون ويرقصون ، فلا يتبعهم إلا فريق ضئيل من الغواة ، أما هذا فيستهوى

بمظهره وسمته الكثيرين فينخدعون بظاهره من الانتماء إلى الدين ، ثم حين تتكشف مطامعه وأهدافه الرخيصة يسىء إلى الدين نفسه ، ويكون سبباً فى فتنة كثير ممن انخدعوا بظاهره وخدعوا عن نواياه .

وما أروع ختام الآية وهى تنبه أن الله ـ جل جلاله ـ يعلم كل شىء من نوايا الناس ، وما يضمرونه فى صدورهم ، وشهد على أفعالهم مهما أوغلوا فى التظاهر والتصنع ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد ﴾ . ألا ما أجل دعوة الإسلام فى تجردها من كل المصالح الفانية ، وانتمائها الخالص لرب السموات والأرض الذى هو على كل شىء شهيد .

مآل أهل الكفر
المنكرين لليوم الآخر

سورة سبأ كما أسلفنا تدور في فلك واحد ، هو غرس الاعتقاد الراسخ باليوم الآخر لكى يوقن المرء دواماً بمرده إلى ربه ، وسؤاله عن ذنبه ، وبذلك يعيش حى الضمير ، طيب الأعمال ، مخلص المقاصد . وقد بدأها ربنا ـ جل جلاله ـ بذكر اليوم الآخر ، وأنهاها بهذه الآيات الكريمات يذكر مآل أهل الكفر ممن كانوا ينكرون اليوم الآخر .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ * وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ [سبأ : ٥١ ـ ٥٤].

أولاً : هذه الآيات الكريمات تعرض صورة مضحكة مبكية لمنكرى البعث حينما يفاجؤون بالبعث فعلاً ، حين تقع الواقعة ليس لوقعتها كاذبة ، حين يرون البعث عياناً ويرون العقاب الشديد الذى أعده الله لكل كافر منكر للجزاء ، مكذب بيوم الدين . والصورة المرسومة فى الآيات الكريمات تصورهم حين يفزعون بنفخة الصور فيبعثون إلى ربهم ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا ﴾ أى هزتهم نفخة الصور فقاموا من أجداثهم ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ أى لا مجال للهرب ، أو النجاة، أو التسلل ، أو الاختباء ، وما أجمل كمال الصورة فى قوله تعالى : ﴿ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أى فوجئوا بإلقاء القبض عليهم من أقرب مكان منهم كمجرم يتوقع أن يأتيه جنود يلقون القبض عليه ، فهو يفكر فى طرق الهرب لكنه يفاجأ بيد تقبض عليه من جواره تماماً . إن ملائكة الله الموكلين بحفظ كل إنسان كانوا أقرب إليه

من نفسه وهم الذين يوكلون بإحضاره حالاً ، ألا ما أجمل الصورة الرهيبة ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قاموا من قبورهم فزعين حيث لا إفلات من الحساب ﴿ وَأُخِذُوا ﴾ أى استولى عليهم الملائكة من مكان قريب ، أى حالاً ومن جوارهم ودون أن يتلبثوا حتى يروا قادماً يقبض عليهم . هنالك يصرخون فى ذهول ومفاجأة ﴿آمَنَّا بِهِ ﴾ ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ لقد آمنا بالبعث وآمنا بالدين ، وتبنا ورجعنا !.

ثانياً : وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ هذا هو الجزء الثانى من الصورة محاولتهم الإفلات من الفزع الأكبر بإعلان إيمانهم وتوبتهم ، وهنا يشبههم ربهم بغرقى من فوقهم حبل لا تصل إليه أيديهم فهم يمدون أيديهم فى لهفة ، لكن الحبل بعيد فترتد أيديهم خائبة تحاول وتحاول دون جدوى ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾، وكيف يتأتى لهم أن يتناولوا سبب النجاة ، وهو بعيد عنهم . إن القرآن الكريم يشبه حالة الكفار وهم يحاولون النجاة فى فزع القيامة بمن يحاول أن يتناول شيئاً من مكان بعيد، والتناوش معناه التناول .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ هذا ذنبهم وهذا عملهم ، والجزاء اليوم من جنس العمل ، لقد كفروا باليوم الآخر وولوا الأدبار عن الداعية العظيم ﷺ الذى كان ينذرهم اليوم الآخر واتهموه بالجنون ، وأثناء بعدهم عن الإيمان كانوا يرجمون الظنون والتخرصات والباطل من مكان بعيد ، حين بعد ما بينهم وبين الإيمان باليوم الآخر ملؤوا الهوة التى بينهم وبينه برجم الظنون ، وقذف الأراجيف عن بعد ، واليوم يجزون جزاء من جنس عملهم بأن يبعدوا عن حبال النجاة كلما حاولوا تناوشها وجدوها بعيدة ولو أنهم فى الدنيا اقتربوا من الإيمان لوجدوا النجاة قريبة منهم ، أما وقد قذفوا بالغيب من

مكان بعيد فهم الآن يحاولون التناوش من مكان بعيد . إنه فعلاً جزاء من جنس عملهم ، بعدوا عن الإيمان فبعدوا عن السلامة .

رابعاً : ثم تأتي الآية الكريمة الخاتمة ، وهى آية مروعة فعلاً نسأل الله السلامة من الموقف الذى تصوره : ﴿ **وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ** ﴾ إن الكفار الذين أنكروا الرجوع إلى الله إذا رأوا يوم الحساب بأم أعينهم انخلعت قلوبهم هلعاً ، وهنا يتلمسون وسائل النجاة يظنون أن مجال العمل والتوبة مايزال مفتوحاً فيصرخون: آمنا باليوم الآخر ، لقد كانوا فى الحياة الدنيا إذا تمنوا شيئاً وجدوه ، وإذا اشتهوا شهوة وفرت لهم ؛ لأن الله جل كرمه يعطى الدنيا للبر والفاجر ، فعاشوا فى الدنيا ، إذا اشتهوا حققوا شهواتهم ، أما فى ذلك الموقف العظيم فيحال بينهم وبين كل الشهوات والأمانى ، وحتى تلك الأمنية التى صرخوا بها حين صاحوا ﴿ **آمنا** ﴾ متمنين النجاة لا يكون لها أثر . هنالك لن تحقق لهم رغبة ولن تستجاب لهم أمنية ، شأنهم فى ذلك شأن كل أمثالهم وأنصارهم من مواكب الكفر . إن كل أمثالهم ممن تركوا الإيمان والعمل وتمنوا الأمانى ، وعاش فى دوامة شك من لقاء الله ، وهو شك والعياذ بالله مريب ينبئ عن كفرهم ، كل هؤلاء سيرزؤون فى كل أمانيهم ، وبينما يحقق الله فى الآخرة كل أمنيات المؤمنين فى الجنان حيث ينعمون فى كل قرة عين لهم فى جنة الله بكل ما تشتهى أنفسهم ، ترى الفريق الكافر وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون كما هجروا ربهم لشهواتهم ، ولا غرو ، فالمؤمنون قد تجردوا فى الدنيا عن شهواتهم فأنالهم الله فى الآخرة ما يشتهون . وأما الكافرون فكان عقابهم أن حيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل ، إنهم لفى شك مريب .

بين يدى سورة العلم والإيمان والإعجاز الإلهى

سورة فاطر من السور المكية الكريمة ، ما قرأتها إلا أحسست لها نكهة خاصة وتفيأت من ظلالها جواً يفوح بشذى لا يوصف لحلاوته. إن نكهة سورة فاطر هى نكهة العلم ، وشذاها هو شذى المنطق العلمى . تجد فى منتصفها تقريباً عبارة علوية كريمة تقرر حقيقة مضيئة منورة ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وفى جميع آيات السورة تلمس المنهج العلمى فى غرس الإيمان ، وكأن العلم والإيمان غصنا دوحة واحدة يزيد كل منهما الآخر ، زكاء ونماء وقوة ورسوخاً . لقد بدأها ربنا ـ جل جلاله ـ بذكر جنده ، الذين ينفذون أوامره الحكيمة فى تدبير شؤون السموات والأرض وأن أولئك الملائكة ذوو خلق متفاوت ، كل يكون خلقه على قدر مسؤوليته وتكون قوته متناسبة مع عدد أجنحته .

وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح ، وروى أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ : يا محمد لو رأيت إسرافيل ! إن له لاثنى عشر ألف جناح منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب ، وأن العرش لعلى كاهله وإنه فى الأحايين ليتضاءل لعظمة الله حتى يعود مثل الوضع ، والوضع ـ عصفور صغير ـ حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته .

ويظل منهج السورة علمياً حتى يختمها فيذكر قبيل الآية الخاتمة كيف يمسك السموات والأرض أن تزولا ، والأمر علمي عظيم إلى أن يختمها ـ جل جلاله ـ بهذه الخاتمة الرائعة :﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ

بعِبَادِهِ بَصِيراً ﴾ [فاطر : ٤٥].

وهذه آية واحدة من هذه السورة المباركة تستحق أن يقف عندها المسلمون وقفة متأنية ، عسى أن يقبسوا من سناها ما ينير لهم طريق النصر والسعادة والمجد.

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر : ١٠].

أولاً : العزة : لفظ شامل لكل ما يتمناه المرء من دنياه ، وهى وإن كانت عكس الذلة ، إلا أن مدلولها أكثر امتداداً . إذا منَّ الله عليك بقبس من العزة فأنت حينئذ فى خير عميم ؛ لأنه عندئذ يعيذك من كل أسباب الذل ، كالفقر الذى يحوجك للأغنياء ، والظلم الذى يعوزك لإنصاف الأقوياء ، والجشع الذى يزيل ماء وجهك بين يدى أهل النفوذ والمال ، والنفاق الذى يسقط مروءتك ويحطمها على صخرة مصالح الدنيا ، وإذن فالعزة لفظ جامع لكل أمانى العقلاء أفراداً وأمماً ، إنها كل ما تتمنى الأمم ، وكل ما يتمناه الأفراد ، نسأل الله أن يعزنا بعزته ويكرمنا بكرامته .

ثانياً : العزة نوعان : نوع حقيقى ، ونوع زائف .

فالأول : ما كان عزة واعتزازاً بالإيمان والعمل الصالح والقربى من الله ـ جل جلاله ـ والرضاء بقدره والقناعة برزقه ، وهذه هى العزة التى ذكرها ربنا ـ جل جلاله ـ فى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] إنها العزة التى لا يذل صاحبها لمخلوق ولا يطأطئ رأسه أو يمرغ وجهه إلا حين يكون بين يدى رب العزة ساجداً يحذر الآخرة أو يرجو رحمة ربه .

أما النوع الزائف من العزة فهو الاعتزاز بالمتاع الزائل والعرض الأدنى وبهرج المناصب ومظاهر الحياة وخداع المناصب والألقاب ، وعلى الجملة فكل عزة بغير الله ، وبغير الإيمان إنما هى برق خلب ، وسراب خادع ، ومتاع غرور .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ فى العبارة إيجاز حذف تقديره : فليطلبها من الله وحده ؛ لأنه هو الذى يملكها جميعاً ، ثم يعيطها بعدئذ بقدره الحكيم لمن يستحقها : لرسوله وللمؤمنين .

وهنا لابد من إشارة واقعية نعانى نحن وأمتنا فى هذه الأيام منها ، وهى أن كثيراً من العرب ومن المنتسبين إلى أمة محمد ، فقدوا ثقتهم فى نصر ربهم وفى تمكين دينهم ، وأصبحوا يعتقدون أن دول الكفر هى التى تملك القوة ، وتحتكر الثروة وتثبت المناصب ، ومن ثم فقد توجهوا نحو الأعداء الكافرين يبتغون عندهم العزة ؛ ولهذا لم تزدد أمتنا بهذا إلا ذلاً .

إن الذين يتخذون الكافرين أنصاراً وأولياء ويطلبون منهم العزة ، هم معاول هدم للمعنويات ، وما أجمل قولة عمر رضى الله عنه وهو يخوض فى مخاضة ماء حافياً رافعا ثوابه فوق ساقيه : إن الله تعالى قد أعزنا بهذا الدين فإذا ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله.

رابعاً : فى قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ إشارة إلى طريق الرفعة الحقيقية ، إن العزة الصادقة طريقها هو الكلم الطيب والعمل الصالح ، الكلمة الطيبة هى المفيدة للفرد والجماعة وهى كشجرة طيبة ثابتة الأصل سامقة الفرع دائمة الثمار . إن الكلمة أمانة ، فيا لهول الموقف لأرباب الكلمة من أهل الصحافة والإذاعة والأدب ويا ويلهم إذا خانوا أمانة الكلمة ، ويا ويل من أوتى خيراً فى الدنيا ، فلم يتزود منه

بالعمل الصالح من بذل وجهاد، وتضحيات ، وصنائع معروف .

إن الكلمة الطيبة لا تكاد تصدر من الفم حتى تصعد إلى رب العزة ؛ لأنها بطبيعتها ذات شرف وسمو ، والعمل الصالح يرفعه الله إليه ليجزى عليه وليعز صاحبه ، أما تلك الفئة التى ظنت العزة فى المكر ، والخبث ، وصناعة السيئات، وصياغة الخداع الخبيث ، تلك الفئة التى أمضت حياتها تحترف المكر السيئ ، والتزييف الخبيث ، تلك الفئة التى تطلب العزة بالظلم الغشوم ، والخيانة الماكرة ، سوف يرون فى الدنيا والآخرة ما وعدهم ربهم في قوله : ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ إن التعبير الرائع فى قوله تعالى : ﴿ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ فضيحة لشرذمة الوصوليين .

تربية إيمانية وتربية جمالية

هاتان آيتان كريمتان من سورة فاطر ، فيهما إلى جانب التربية الإيمانية ، تربية جمالية توقظ فى النفس حس الجمال ، وتوقف الإنسان وهو يتدبرها أمام مشهد رائع الألوان والأصباغ يبهرك بجماله كما يروعك بجلاله ، وإذ ذاك يتجلى لك الخالق المبدع جميلاً وجليلاً .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٧ ـ ٢٨].

أولاً : تعرض الآيتان الكريمتان لقطات مركزة رائعة ، أولاها : من علم النبات ، والثانية : من علم طبقات الأرض ، والثالثة : من علم الأحياء ، وتلقى ضوءاً ساطعاً على الأصباغ والألوان فى النبات ، والصخر ، والأحياء والآيات الكريمتان تشتملان على ثلاثة مشاهد ، وتعليقين عظيمين عجيبين فيهما درس للإنسانية .

ثانياً : المشهد الأول : فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ وعنوان هذا المشهد : أصباغ النباتات، وخصوصاً فى الربيع بعد المطر حين تونع الأزهار ، وفى الصيف حين تينع الثمار ، ولا تتمثل الأصباغ النباتية فى اختلاف لون الورد الأحمر عن لون الأبيض ، ولا فى اختلاف زرقة الخزامى عن بياض الأقحوان ، وصفرة الياسمين، فالأمر أكبر من ذلك ، إذ ليس فى كل الأزهار والثمار زهرتان تتشابهان فى الصبغ مائة فى المائة ، ولا ثمرتان تتشابهان فى اللون مائة بالمائة كل زهرة فى ملايين الملايين من الأزهار،

لها لون مستقل لا يمكن أن يشبهه لون زهرة أخرى مشابهة تامة ، وإذا كان فى حدائق الأرض ملايين الملايين من الأزهار ، فمعنى هذا أن فيها ملايين الملايين من الأصباع ، فسبحان من هذه بدائع صبغه .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ** ﴾ هذا الجزء من الآية الكريمة يجلو المشهد الثانى من الأصباغ وهى أصباغ الصخور ، وأكثر ما تتجلى لك أصباغ الصخور إذا وقفت بإزاء سلسلة جبال تشقها طرائق من جريان الأمطار ، وحرارة الشمس ، وتدفق الجداول والسيول، وانهيارات الجوانب ، إنك سترى نفسك بإزاء صخور ذات أصباغ تراها فى الجدد ، أو الطرائق مرتباً بعضها ببعض بين بيض وحمر وسود غرابيب، أى شديدة السواد ، ثم إنك سترى الأبيض مختلف الألوان ، بين ناصع ومختلط وداكن ، وترى الأحمر بين قرمزى، وأرجوانى وبنى ، وترى الأسود ـ: أيضاً ـ مختلف نوعية السواد ، وفى جميع ذلك ترى عظمة الصبغ الإلهى .

إن الصبغ الذى تراه يقص قصة الصخور منذ بردت إلى أن سارت فى مراحل التحول المختلفة بإذن الله ، حتى إن الأصباغ لتدل على عصور التكوين ، وهذا يشكل بحوثاً دقيقة يخوض فيها علماء طبقات الأرض أو الجيولوجيا .

رابعاً : ثم يأتى أروع المشاهد الثلاثة وهو أصباغ الأحياء : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ** ﴾ آلاف الملايين من البشر ، وآلاف الملايين من دواب البر والبحر ، وآلاف الملايين من الإبل ، والبقر والضأن ، والماعز ، كل هذه تشكل أعظم معرض للأصباغ . قد تظن أن سكان أفريقيا مثلاً من صبغ واحد ، صحيح أنهم سود ولكن ما من رجل

فى أفريقيا يشبه فى لونه رجلاً آخر شبهاً تاماً ، قد تظن أن كل امرأة وجهها أبيض تشبه كل بيضاء من النساء أو كل سمراء تشبه مثيلاتها من السمر ، لكن ما فى كل الدنيا امرأتان تتشابهان فى البياض أو السمرة ، أو سواد الشعر ، أو حمرته مائة فى المائة. الحقيقة أن كل رجل فى الكون له لون مخصص له ، ولشعره وليديه ولعينيه ، وكل امرأة فى هذه الدنيا لها لونها الخاص بها فى الوجه واليدين والشعر ، ومثل ذلك الطير ، والأسماك ، والحشرات ، والأنعام ؛ فما من بقرة ، ولا ناقة ، ولا نعجة ، ولا عنز ، إلا ولها لون خاص ، وهذا يعنى أن ملايين الملايين من مخلوقات الله لها ملايين الملايين من الأصباغ المختلفة ، أى تربية جمالية هذه تعلم المسلم أن يتملى جمالاً بالأصباغ ليعرف جمال خالقها .

خامساً : فى ختام الآيتين تعليقان بلاغيان من أنواع الإطناب الرفيع ذى الهدف السامى التعليق الأول قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ والثانى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ وفى العبارة أسلوب قصر ، أو حصر، ويكون المعنى حينئذ : أن الصنف الوحيد من البشر الذى يخشى الله حق خشيته ، ويقدره حق قدره هم العلماء ، ولا يقصد بالعلماء هنا علماء العلوم الدينية فقط، بل إن علماء العلوم الكونية ، كالفيزياء ، والكيمياء ، والأحياء ، والجيولوجيا ، كل هؤلاء إذا وفقهم الله وفتح بصائرهم للتدبر ، فإنهم حينئذ الفريق الوحيد الذى يخشى الله عن طريق التفكر فى ملكوته العظيم .

وقد سبق أن قلت : إن الله ـ جل جلاله ـ حين أرى إبراهيم مشاهد من ملكوت السموات والأرض ، وحين أرى عبده ليلة الإسراء كثيراً من آياته فى الآفاق وفى ملكوت السماء والأرض ، إنما كان يربى يقينهما ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾

أى درس سماوى هذا للمؤمنين يعلمهم طلب لعلم ليصلوا عن طريقه إلى معرفة ربهم ، وأى رفعة للعلماء أسمى من منزلة معرفة الله وخشيته ، أما التعليق الثانى ، وهو قوله تعالى ﴿ **إن الله عزيز غفور** ﴾ فهو درس للإنسان عامة أن يعلم بأن خالق هذه الأصباغ التى لا تحصى لابد أنه يبدعها من منطلق العزة والعظمة والقدرة ، وأن هذا العزيز القادر كان يمكن أن يستعمل عزته وقدرته فى الانتقام من العصاة ، لكنه بكرمه ومنه يمهلهم بالمغفرة والعفو ، فما أعظم التوحيد بعفو المنتقم حين يغفر وبالجبار حين يرحم وبالقهار حين يلطف .

الناس أنواع ثلاثة

هاتان آيتان كريمان من سورة فاطر ، عدهما بعض أشياخنا أعظم آيات البشرى فى القرآن الكريم ، حتى لقد قال بعضهم : إنهما أعظم فى باب البشرى من قوله تعالى فى سورة الزمر : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر : ٥٣] .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر : ٣٢ ـ ٣٣] .

أولاً : الكتب السماوية كلها ختمت بأعظمها وهو القرآن ، فجاء بفضل الله مهيمناً عليها ومصدقاً لكل أخبارها ، وداعياً لجميع ما اشتملت عليه من فضائل وآداب ، فلم يبق بعد القرآن حاجة لكتاب سماوى آخر إذ بهذا القرآن أكمل الله الدين وأتم النعمة ، وارتضى لهذه الدنيا الإسلام ديناً .

والأنبياء الكرام ختموا بأعظمهم ، وهو محمد ﷺ فجاء نموذجاً للكمال الإنسانى خلاصة للفضائل الإلهية ؛ لأنه صدَّق بجميع الرسل فاقتدى بهم امتثالاً لأمر ربه الذى عدد له الرسل فى القرآن ثم أمره قائلاً : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ . وبعد أن أتم الكتب السماوية بالقرآن ، وأتم الرسالة الخالدة بالإسلام ، وختم الرسل المصطفين بمحمد ﷺ ، أورث هذه التركة العظيمة أمة محمد ﷺ ، فحظيت بذلك بأعظم شرف إنسانى ، وورثت عظمة القرآن وإعجازه ، وورثت أخلاق محمد وفضائله ، وورثت شريعة الإسلام بكل ما فيها من العدل والإحسان ،

والكرم والرحمة ، والهدى والحق ، وهذا الميراث يعده المؤمنون أغلى ما كسبوه من حياتهم ، إذ به عظم شأن أمة محمد فكانت الأمة الوسط الشاهدة على الناس ، وكانت خير أمة أخرجت للناس .

ثانياً : إن أعظم فخر لأمة محمد ﷺ يكمن فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ . إن معنى هذه الكلمات النورانية هو أن أمة محمد اصطفاها الله من بين الأمم فأورثها أجل ميراث واستحفظها أعظم كنز، وائتمنها على أغلى أمانة ألا وهى أمانة النبوة والكتاب يؤدونها، وينشرونها ، ويبلغونها للعالمين إلى يوم القيامة . أى مجد لأمة محمد أسمى وأجل من وصف ربهم لهم بقوله : ﴿ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ؟! إنى لأستروح فى الآية شذى يخبرنى أن أمة محمد إذا جملوا حياتهم بالعلم والإيمان والعمل الصالح فإنهم حينئذ مع المصطفين الأخيار ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ ﴾ واصطفى أنبياءه الكرام ، وفى هذه الآية ، اصطفى أمة محمد ، وكأن من انتمى إلى أمة محمد قولاً وعملاً واعتقادا ، فهو من عباد الله الذين اصطفاهم وأورثهم الكتاب والحكم والنبوة ، ألا ما أسعد من صان هذا الانتماء وافتداه بنفسه وماله وولده وجعله محياه ومماته ، ويالتعس أولئك الذين ضلوا على علم فانتموا إلى غير هذا الشرف ، وخدعوا بما زين لهم الشيطان من الصلف ، فنبذوا من سلك المصطفين ، وتاهوا فى شراذم المغضوب عليهم والضالين .

ثالثاً : فى الآية إشارة معنوية رائعة حقاً تجعل العاقل يحرص على انتمائه الإيمانى مهما عربدت من حوله الشهوات ، وتبرجت له المغريات ، هذه الإشارة هى أن كل منتم إلى شرف الأمة المحمدية فإن له الجنة بإذن الله ، حتى ولو ظلم نفسه ببعض المعاصى ؛ لأن أمة محمد نالت من ربها

شرف الانتماء والاصطفاء، حتى ولو انقسمت حول تراث النبوة والكتاب إلى ثلاثة أصناف : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ، إذ كل هؤلاء الأصناف داخلون فيمن اصطفاهم الله من عباده ، وأورثهم الكتاب، ومن هنا كان العاقل من أمة محمد لا يعدل بانتمائه الإسلامى شرفاً ، ولا يرتضى به بدلاً ، ولا يبتغى عنه حولا حتى ولو عرض عليه ملك الأرض ؛ ذلك لأن ملك الأرض إلى فناء ، وأما اصطفاء الله فشرف لا يزول ، ولو زالت السموات والأرض . الله أكبر ما أعظم البشرى ، والقرآن يعلن أن المسرفين على أنفسهم من أمة محمد ، والظالمين لها بالمعاصى ، لا يخرجهم هذا عن كونهم صفوة من عباد الله ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ وأى ترتيب رائع مبشر هذا الترتيب الذى يملأ القلوب أملاً ورجاء ؟! يذكر ربنا المصطفين من عباده ، ثم يذكر الظالمين أنفسهم فى طليعة المصطفين ؛ ليرفع من معنوياتهم ويمحو شكوكهم .

وذكر أشياخنا أن الترتيب هذا على حسب الكثرة فالظالمون لأنفسهم هم الذين معاصيهم أكثر من سيئاتهم وهؤلاء أكثر من المقتصدين الذين تساوت سيئاتهم وحسناتهم ، ثم إن المقتصدين هم أكثر من السابقين بالخيرات ، الذين سبقوا الناس بحسناتهم وفعلهم للخيرات . وما أجمل ما ختمت به الآية الكريمة : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ، الله أكبر ! كل أصناف أمة محمد لهم جنات وذهب ولؤلؤ وحرير سواء أكان أحدهم ظالماً لنفسه أو مقتصداً أو سابقاً بالخيرات ؛ وذلك لأن الله ـ جل جلاله ـ قد أكرمهم بما يكفر به الخطايا ويمحو الذنوب ، ألا

وهو توحيد الله جل جلاله .

رابعاً : العاصى من أمة محمد الذى يظلم بالمعصية نفسه ، يرجى له مغفرة سهلة هينة بإذن الله ؛ لأن ظلمه لنفسه جعل الأمر بينه وبين ربه ، والله ـ جل جلاله ـ واسع المغفرة رحيم حليم ، والظالم لنفسه هو الذى اقتصرت معاصيه على نفسه، وابتعدت عن الإضرار بالناس وظلمهم،كمن شرب خمراً ، أو تكاسل فى عبادة ، أو ضيع وقته فى لهو ولعب ، أو أضر بصحته بكثرة التدخين ، أما الظالم لغيره فمقترف الكبائر ، كالقاتل ، والزانى ، والسارق ، والساحر المحترف للضرر، وعاق الوالدين ، وقاطع الرحم ، وآكل مال اليتيم ، أو أموال الناس ، ومثل هؤلاء لابد أن يبيحهم المظلوم لأنه هو صاحب الحق .

اللهم اجعلنا من المصطفين الأخيار وأدخلنا جنتك مع الأبرار : ﴿ **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** ﴾ .

لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله

بهذه الآيات الثلاث ختم ربنا ـ عز وجل ـ سورة فاطر ، وهى آيات كما أسلفنا تحمل النكهة العامة للسورة ، وأعنى نكهة الطابع العلمى .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ [فاطر : ٤١ ـ ٤٣].

أولاً : فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا** ﴾ يقول علماء الطبيعة : إن بين كل جسمين قوة جذب لها مقدارها وتناسبها ، وأن هذه القوة تكبر وتزداد كلما ثقلت الكتلتان كما تكبر وتزداد كلما تقاربتا ، لكن قوة الجذب هذه تتضاءل كلما خف الجسمان أو بعدت بينهما المسافة ، ويسجلون قوة الجذب على شكل قانون اكتشفوه ومنطوقه : قوة الجذب تتناسب طردياً مع الكتلة وعكسياً مع مربع المسافة. ومعنى هذا أن كل ما فى السموات من كوكب ، ونجم ، وسديم ، ومذنب ، ومجرة : تربطها قوة جذب متوازنة بحيث لا تهوى ، ولا تتساقط ، ولا تزول عن أماكنها . إن فى السماء ملايين من الإجرام السماوية لكل منها وزنه وحجمه وبعده ، وقد قدرت هذه الأجرام ثقلا ومسافة بحيث لا يزول جرم منها عن فلكه ، ولا يصطدم بغيره ولا ينحرف عن مسيرته . ويقف العلماء عند هذا الحد مطمئنين لما توصلوا

إليه من نظرية الجذب ، لكنهم لا يسألون أنفسهم سؤالاً يفرض نفسه ، ويوصلهم إلى الحقيقة والإيمان ، وهو : من الذى أوجد قانون الجاذبية الدقيق العظيم ؟ ومن الذى نظم بهذا القانون مواقع النجوم ، والمجرات والأفلاك والنظم السماوية ؟ لقد أراحتنا الآية من رجم الظنون ، وأعلنت الحقيقة فى وضوح وسطوع ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا ﴾ ، الله ـ جل جلاله ـ هو الذى يحفظ السموات والأرض أن تتحركا من أماكنهما ولو فعلتا ذلك كما سيحدث يوم القيامة ، فلن يستطيع أحد من شركائكم المزعومين أن يفعل شيئاً أو يمسك شيئاً ﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ ، ولهواة الإعراب فإن عبارة ﴿ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ﴾ تعرب فيها كلمة ﴿ إن ﴾ نافية بمعنى ما وكلمة ﴿أحد﴾ فاعل مجرور لفظاً مرفوع تقديراً ، و﴿ مِنْ﴾ التى قبلها حرف جر زائد ويصبح التقدير : ولو زالتا ما أمسكهما أحد من بعده .

ثانياً: ختم الله ـ جل جلاله ـ هذه الآية بقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ لأن مظهر القدرة الهائلة الذى يتجلى فى هذه الآية لا يتصورة العقل ، آلاف الملايين من النجوم التى نبصر القليل منها ولا نبصر أكثرها ، ومعظم هذه النجوم أكبر من الشمس ، وقليل منها فى حجم الأرض . أى قوة جبارة هائلة تمسكها أن تصطدم وتنظم مسيرها فى تقدير حكيم ينظم جريها بالثانية ؟! إن الإله القادر الجبار ، القاهر ، المهيمن ، الذى يمسكها بيمينه كأنها حبة خردل ، هذا الإله هو الذى يحاده الإنسان المشرك الضعيف ، ومع ذلك فالإله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ، لا ينتقم من إنسان ضعيف يقف فى وقاحة ، ليشرك بربه ويجعل له أنداداً، نعم ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا ﴾ إذ يمهل المشركين به ﴿غَفُورا ﴾ إذ لا

يبالى بذنوب العصاة .

ليت هذا الإنسان الضئيل الضعيف حين يحاد ربه يتذكر نسبته إلى الله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا . ما أشد بلادة الإنسان ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ [عبس : ١٧ ـ ١٩] يضرب الإنسان لربه أمثالاً فينكر قدرة الله ، وينسى كيف خلقه ربه من نطفة ، ويتساءل فى غباء : من يحيى العظام وهى رميم ؟! أى حلم ، وأى صفح ، وأى عفو يصدر عنها القوى القاهر الجبار حين يتحداه الإنسان النطفة فيقابله بالحلم والمغفرة ؟!

ثالثاً : فى الآيتين الخاتمتين يذكّر الله العرب بأعظم نعمة كانوا يتمنونها فحققها لهم ، وأنعم بها عليهم ،كان العرب فى الجاهلية يسمعون من بعض اليهود والنصارى كيف بعث الله فيهم رسلاً يهدونهم فكذبوا رسلهم ، وقتلوا كثيراً منهم ، وكفروا بما جاء معهم من كتب ، فكان العرب إزاء ذلك يتمنون لو يبعث فيهم رسول ينذرهم العقاب ، وينير لهم طريق الإيمان : وكانوا يقولون: لئن جاءنا رسول فسوف نثبت أننا أهدى من اليهود والنصارى . فلما جاءهم رسول الله ﷺ أثبتت قريش أنهم لا يقلون فى كفرهم ، وعنادهم ، ونفورهم ، واستكبارهم ومكرهم السيئ عن اليهود والنصارى ، وإزاء هذا ، فالمنطق أن ينتظروا العقاب الذى حل بمن قبلهم من الأمم الكافرة . إن لله ـ جل جلاله ـ سنة لا يبدلها ، وهى أنه يبتلى الحق بالباطل ، ويبتلى المؤمنين بالكافرين، فتقوم عندئذ بإذنه معركة الحق والباطل ، وفى أثناء ذلك يبدو الباطل فى ثوب المنتصر، وتطول المعركة حتى يخشى الرسل على أنفسهم من اليأس ، ويناجوا ربهم: متى نصر الله ؟ حتى إذا محص الله العناصر المؤمنة وصفاها بالشدائد من أخلاط الشكوك والضعف كما يصهر الذهب فى البوتقة

فيصفو ، هنالك تكون سنة الله، ويصدر أمر الله بنصر المؤمنين ، وإذن فسنة الله ـ التى لا تبديل لها ولا تحويل ـ هى انتصار الحق بأمر الله ، مهما طالت معركته مع الباطل .

وإلى هذه الحقيقة أشارت الآيتان اللتان جاءتا مسك ختام لسورة فاطر : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ .

اللهم اجعلنا جنوداً للحق فى معركته مع الباطل ، وارزقنا اللهم الصبر فى مواجهة الكفر ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

بين يدى قلب القرآن

إن سورة يس من السور المكية الكريمة ، وهى سورة مجَّربة البركات أدركنا كثيراً من آبائنا يتخذونها ورداً ليلياً يلتمسون به البركة ، ويستطردون به الشياطين، وروى الترمذى عن بعض السلف قوله : من وجد فى قلبه قساوة فليكتب يس فى جام بزعفران ثم يشربه . ومن أسماء هذه السورة ، المعمة ؛ لأن الله يعم بها الخير ، و العزيزة ؛ لعظم منزلتها عند الله ، وتسمى قلب القرآن لأن للقلب أهمية عظيمة فى الجسد ، وسورة يس ذات موضوعات عظيمة فهى تشتمل فى مقدمتها على إثبات لنبوة محمد ، ثم تقص على قريش قصة قوم هلكوا حين عصوا رسلهم ، ثم تورد من براهين القدرة ما يثبت وحدانية الله، ونعمه الغامرة وتتحدث بعدئذ عن سعادة أصحاب الجنة ، وشقاوة أهل النار، وتعود فى النهاية لتتحدث كما بدأت عن نبوة محمد ثم تختم بإثبات اليوم الآخر ، رداً على إنسان طفق يضرب لله الأمثال ، وينسى أصل خلقته من طين ثم من نطفة ، وما أجمل الآيتين الخاتمتين : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : ٨٢ _ ٨٣] .

وقد ورد فى فضل سورة يس أنها تخفف على الميت والمحتضر إذا قرئت عندهما قال رسول الله ﷺ : « اقرؤوا يس على موتاكم » ، وروى أن رسول الله ﷺ قال: « ما من ميت يقرأ عليه يس إلا هون الله عليه » وفى الحديث الذى خرَّجه أبو نعيم أن رسول الله ﷺ قال : « من قرأ سورة يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر له فى تلك الليلة » ، وروى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : « إن لكل شىء قلباً وقلب القرآن يس » ، وروى الحكيم الترمذى فى كتابه (نوادر

الأصول) عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « إن فى القران لسورة تشفع لقارئها ويغفر لمستمعها ألا وهى سورة يس ، تدعى فى التوراة المعمة تعم صاحبها بخير الدنيا وتدفع عنه أهاويل الآخرة ، وتدعى الدافعة والقاضية تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضى له بإذن الله كل حاجة » .

ومما روى من الآثار فى فضلها ما رواه الدارمى عن شهر بن حوشب أن رسول الله ﷺ قال : « من قرأ يس فى ليلة أعطى يسر تلك الليلة ، ومن قرأ فى يوم أعطى يسر ذلك اليوم ، وإن أهل الجنة يرفع عنهم القرآن فلا يقرؤون شيئاً إلا طه ويس » . وسورة يس جربها من اتخذها ورداً بأن من داوم على قراءتها لم يزل مسروراً مفرجاً كربه بإذن الله . وجاء فى الأثر فى فضلها قول رسول الله ﷺ : « إن فى كتاب الله لسورة تدعى العزيزة ويدعى صاحبها الشريف يوم القيامة تشفع لصاحبها فى أكثر من ربيعة ومضر هى سورة يس ، من قرأ سورة يس ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له » .

ومن حديث أنس رضى الله عنه : من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف الله عنهم يومئذ وكان له بعدد من فيها حسنات .

وإنى مورد هنا الآيات الكريمات التى افتتح الله عز وجل بها السورة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يسٓ * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس : ١ ـ ٦] .

أولاً : ﴿ يس ﴾ والله أعلم اسم من سبعة أسماء سماها الله ـ جل جلاله ـ لرسوله ﷺ ففى حديث رواه الماوردى عن على ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ ، قال : إن الله تعالى أسمانى فى القرآن سبعة أسماء : محمدا ، وأحمد ، وطه ، ويس ، والمزمل ، والمدثر ، وعبد الله ، وقيل : إن يس قسم ، وقيل معناها : يا أيها السيد ، وقيل معناها : يا إنسان ،

ويجوز أنهما حرفان من الحروف التى تبدأ بها السور ، مما لا يعلم تأويله إلا الله .

ثانياً : ﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ قسم من الرب ـ جل جلاله ـ بكلامه العظيم ، والقرآن الكريم وصفه ربنا بصفات متعددة ، تدور كلها حول الجلال والجمال، وصفه بأنه نور وذكر وشفاء وعلم وهدى ، ووصفه بأنه عزيز وحكيم ؛ ومبارك ومجيد ، ووصفه بأن مبين عظيم وبيان وبلاغ ، وهنا فى مطلع هذه السورة ـ سورة يس ـ وصفه بأنه حكيم ؛ لأن هذه السورة الكريمة أبرز موضوعاتها ، إثبات البعث عن طريق منطق العلم ، والحكيم من الحكمة ، وهى والله أعلم : العلم الذى يسانده المنطق والذكاء والانتفاع بالتجارب ، والحكمة من أعظم نعم الله ، فمن أوتى القرآن الحكيم فقد أعطى الجزيل من الفضل والنعمة . قال الله تعالى : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرا ﴾ .

ثالثاً : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ آية فيها مؤكدان ، واستعمال الأسلوب المؤكد هنا لتثبيت الرسول ﷺ فى وجه دوامات المصائب الجارفة . إن سورة يس من السور المكية ، وقد نزلت فى غمار الإيذاء والعناد والغطرسة الكافرة ، فكان رسول الله ﷺ فى حاجة إلى مثل هذه الجملة المؤكدة العظيمة ﴿إنك لمن المرسلين ﴾ وهذه اللام المؤكدة يسميها النحويون : المزحلقة ؛ لأنها تكون فى المبتدأ فإذا دخلت على الجملة (إن) أو (أن) المؤكدتان ، انتقلت من المبتدأ إلى خبر إن كأن أصل الجملة لأنت من المرسلين فلما دخلت إن زحلقتها إلى الخير ، وصارت الجملة ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

رابعاً : ﴿ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ إنه صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى

الأرض وهو صـراط ألزم به رسله من لدن آدم إلى مـحـمـد ، إنه طريق الإيمان المضىء بالهدى ، والحق والعدل والإحسان ، إنه الصراط الذى لا عوج له، يدعو إليه الكتاب الذى لا عوج فيه قيماً ، إنه الصراط الذى ندعو الله ـ جل جلاله ـ فى كل ركعة من الصلوات أن يهدينا إياه، إنه صـراط الذين أنعم الله عليـهم من النبـيين والصـديقين والشـهـداء والصـالحين، أمـا المغـضـوب عليـهم ، وأمـا أهل الاعـوجـاج والضـلال ، فأولئك يعتسفون بنيات الطريق فتضل بهم عن الصراط المستقيم .

ما أجمل أن يدعو المسلم فى كل سبع عشرة مرة فى فروض صلاته ، وعشـرات أخـرى فى رواتبه ونفله قـائلاً : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٥] إنك حين تتعامل مع أهل الاستقامة تجد شرف المعاملة وأمانة النفس والتزام الحق ، أما الاعوجاج فهو الذى يعربد من حوله الحرام ، وتحتدم على جوانبه الخصومات، ويسكت من حوله صوت الحق والعـدل، ألا مـا أجـمل هذا الإيجـاز لرسالة مـحـمـد ﷺ ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

خامساً : ﴿ **تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون**﴾

﴿**تنزيل**﴾ بالنصب منصوب على المصدرية مفعولاً مطلقاً ، لقد أنـزل الله ـ جل جلاله ـ القرآن تنزيلاً ليعز به المؤمنين ويرحمهم ، وأنزله لأن أمة العرب التى منها محمد ﷺ مضت عليها أحقاب طوال لم يبعث أثناءها رسول ، من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لم يبعث فى العرب رسول غير مـحـمـد ﷺ ، وكـانت النبوة فى بنى إسرائيل ؛ ولهـذا فإن مسؤوليتك يا محمد مسؤولية عظيمة؛ لأن قومك أهل وثنية لا خلفية عندهم أو أثارة من علم الكتـاب ؛ لأن آباءهـم لـم ينذروا كـمـا أنذر أهل الكتاب فظلوا على بقايا ممزقة من ملة إبراهيم صلاتهم مكاء وتصدية ،

وحجهم مفاخرة ومنافرة ، وكرمهم رياء وسمعة ، وتوحيدهم متناقض بين آلهة منحوتة ، وملائكة ورسل ونجوم وشمس وصخور ، ومن ثم فأنت لا تنذر أهل كتاب ، إنما تنذر قوماً لم ينذر آباؤهم ولا لهم بالرسالة حداثة عهد ، وستصلك فى ثنايا الوحى الشريف أنباء من أنباء الغيب ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل نزولها . نعم إن فى الآية إشارة تكريم إلى المسؤولية العظمى التى ألقاها ربنا على رسول الله ﷺ حين أرسله إلى قوم ليس عندهم علم من الكتاب .

لا يستجيب لهدى القرآن
إلا من خشى الرحمن

هذه أربع آيات من سورة يس ترسم صورة حسية لضرب من الناس لا ينفعهم الذكر ولا الوعظ ولا الإرشاد ، أقفلت قلوبهم عن أنوار الهداية ، وران عليها سواد الغفلات فما تغنى عنها الآيات والنذر ، لقد كان هؤلاء وأمثالهم يسببون للنبى ﷺ أسى وأسفاً ، حين يرى أن وعظه لهم نفخ فى رماد ، وصرخة فى واد ، فلام الله ـ جل جلاله ـ نبيه ﷺ على حزنه عليهم حزناً يكاد يقتله .

بسم الله الرحمن والرحيم : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس : ٨ ـ ١١] .

أولاً : ما بعث رسول فى أمة إلا كانت دعوته هدى وشفاء لطائفة من قومه، وعمى وصمماً لطائفه أخرى ، فإذا أقبلت أنوار الدعوة فى قلوب الأولين وجدت أمامها قلوباً متفتحة ، وأعيناً مبصرة ، وآذاناً مصغية واعية ، هنالك يدخل النور المبارك ليضىء البصيرة والبصر ، وتجد الكلمات وقعاً فى الأسماع ، فتنفذ من الأسماع الواعية الناضرة إلى القلوب الهادية الطاهرة ، ويكتب ربنا لهذه العصبة أن تكون ربانية تهدى بأمر ربها إلى صراطه الحميد . أما الفئة الثانية والعياذ بالله فإذا أقبلت عليها أنوار الإيمان زادتها عمى كما يقبل النور الساطع على الأعين المريضة فيعشيها، أو كما يخفق البرق لحيارى سائرين متخبطين فيخطف أبصارهم ويزيد تخبطهم وحيرتهم ، والأنبياء مهما أوتوا من الحكمة

وسحر البلاغة ، ومعجز الآيات لا يستطيعون أن يهدوا من أضَل الله ، وإنما ينذرون من فى قلبه استعداد لاستقبال النور ، وفى ضميره يقظه تجعله يخاف الرحمن ويخشاه مع أنه لم يره ليقدر من كان حياً وتحق كلمة العذاب على الكافرين ، وفى كثير من آية الذكر الحكيم ، ينبه الله ـ جل جلاله ـ أنبياءه بأن الفئة الكافرة صم وبكم فى الظلمات، وأنهم موتى كسكان القبور والرسل بإمكانياتهم البشرية ، لا يستطيعون أن يهدوا العمى ، ولا أن يسمعوا الصم ، ولا أن يحيوا الموتى ، فما يكون إذن للأنبياء أن يبخعوا أنفسهم أسى ويذهبوا نفوسهم حسرات فى إثر قوم ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم .

ثانياً : فى سورة يس صورة حسنة للكفار الذين لم يرفعوا رأساً بالعلم والإيمان: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** ﴾ الغل هو حبل أو سلسلة تربط به الأيدى مغلولة إلى الأعناق ، وذلك بأن تجمع اليدان إلى الرقبة ثم يربط عليهما وعلى الرقبة الغل ، وفى الآية الكريمة صورة مضحكة مبكية لأغلال الكافرين ، إذ بعد أن تجمع أيديهم على أعناقهم يستمر الغل فى التفاف حول أعناقهم ، ثم يرتفع حول الرقبة كلما لف حولها حتى يصبح إلى الذقن ، أو فى مستواها وهى مرفوعة إلى أعلى ، وعلى هذه الصورة يظل الرأس شاخصاً مقمحاً أى مرفوعاً إلى أعلى ، والذقن فى القمة فلا يستطيع الكافر المغلول أن ينظر إلى ما تحت قدميه ؛ إذ لا يقوى أن يثنى رقبته إلى الأمام ، ولإكمال الصورة المرعبة يحرم الله الكافر من الحركة المنشطة المروضة المنعشة ، فيجعل من أمام الكافرين سداً يعميهم عما أمامهم ،ويجعل من خلفهم سداً عما وراءهم فلا يبصرون ما خلفهم ، وتتم الصورة حين يبدو الكافر شاخصاً ببصره ،

أعمى عما حوله ، قد اجتمع له غلٌّ ملتف حول عنقه على مستوى ارتفاع ذقنه وسدين من ظلام دامس من قدامه وخلفه ، فيا لخزى الكافر المحاد لربه حين يرى فى ساحات القيامه على ذلك الشكل المضحك المبكى .

ثالثا : فى قوله تعالى : **﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾** فى هذه الآية الكريمة إشارة فى الإعراب تهم عشاق هذا الفن ، فتقدير الجملة سواء على الكفار إنذارهم وعدم إنذارهم ، إن الاستفهام الواقع بعد كلمة **﴿سواء﴾** ، يمكن أن يؤول بمصدر ، ويكون إعراب هذه الجملة القرآنية على النحو التالى : سواء : خبر مقدم مرفوع ، **﴿عليهم﴾** جار ومجرور متعلقان بسواء ، والهمزة : حرف استفهام ، والخبر هو : المصدر المؤول، وتقديره : إنذارهم وعدم إنذارهم .

وفى الآية الكريمة : أن الله ـ جل جلاله ـ علم بعلمه الأبدى أن الكافرين سيكون على قلوبهم من الأسداد ما يمنع وصول النور إليها ، ومن ثم فإن إنذارهم وعدم إنذارهم سواء ، وهذا لا يعنى أن الكافر يعمل السيئات مجبراً على فعلها تعالى الله عن ذلك ، لكن هذا يعنى أن الكافر يفعل الشر مختاراً بعد أن يطمس بالشهوات نور قلبه وعقله ، فيصبح قلبه وقد ران عليه سواد الفواحش ولفه ران الغفلات ، والله ـ جل جلاله ـ يعلم ما سيؤول إليه عمل الكافرين ، وعلمه جل جلاله لا يمكن أن ينفذ إليه الخطأ ؛ لأنه يتخطى حواجز الزمان والمكان ويحيط بما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة ، على أن العلم شىء والإجبار شىء آخر ، والله عز وجل وإن كتب فى علمه الأزلى أن الكفار مصيرهم إلى النار فهو لا يجبر إنساناً على فعل السوء ؛ لأنه لا يريد لعباده السوء ولا الكفر ، ولا يرضاه لهم . وفى هذا يقول جل من قائل : **﴿ إن تكفروا فإن**

الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ﴾[1] والرسل فيما بين الإنذار والتبشير يجب أن يعلموا أنهم ما عليهم إلا البلاغ ، أما الهداية فهى بيد الله ، وحده ومهما أوتوا من بلاغة فى الدعوة لا يستطيعون أن يهدوا إلا ذوى القلوب المتفتحة للذكر ، والمضيئة بخشية الله .

---

(١) لو أن أحد المعلمين قال لطلابه : إن زميلكم فلانا لا يمكن أن ينجح وسوف ترون نتيجته ، وذلك لأنه قضى سنته غائبا مهملا ، ثم جاءت نتيجة الطالب كما قال الأستاذ . فهل تأثرت نتيجة الطالب بما قال الأستاذ أم أن سقوط الطالب كان أمرا معلوما بنى على مقدمات مدروسة صحيحة ؟!

الله يحيى الموتى
ويكتب أعمالهم وآثارهم

إنى شارح هنا آية واحدة من سورة يس أحسب أن متدبرها إن شاء الله ستقوده بركاتها إلى العمل بها ، وإذ ذاك يترك بإذن الله آثاراً وذكراً ، وأعمالاً متقبلة تأخذ بيده إلى رضوان الله وجناته .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : ١٢].

أولاً : من الناس من إذا مات ترك وراءه حياة فاضلة ، وذكرى عطرة ، وعلماً نافعاً ، وقدوات من الخلق الرفيع يذكرها أهله وأصحابه ومعارفه ، فهم إذا واروه التراب لم يفقدوا منه إلا جثمانه ، أما روحه وعذوبتها ، وأما فضائله وأسوتها ، وأما علومه ونفعها فتلك كلها تظل عمراً ثانياً ، وعلى سبيل المثال ما الذى فقده الناس من محمد ﷺ بعد موته ، مادام دينه حياً وشريعته باقية وفضائله وأخلاقه أسوة لكل مؤمن بالله واليوم الآخر ! وماذا فقد الناس من أبى بكر ومازال وسوف يظل قدوة الأبطال فى الثبات والشجاعة وعظمة القدرة على البناء والتأسيس ! وماذا فقد الناس من عمر ومازال ـ رضى الله عنه ـ رمز العدالة وينبوع الفضائل لكل من أراد أن ينهل معين الأخلاق ! وماذا فقد الناس من عثمان وبين أيدينا المصحف الذى جمعه والشمال الأفريقى الذى اهتدى على يديه ! وماذا فقد الناس من على وهو الذى علم الدنيا كلها كيف يفتدى الإسلام ورسول الإسلام بكل غال ونفيس ! ومثل ذلك يقال فى كل أولئك الغر الميامن من السلف الصالح الذين ساروا تحت لواء الإيمان يخفق فوق هاماتهم

بالجود والمروءات ، وبالبطولة والتضحيات ، وبالهدى والحق والعدل والإحسان . وإذن فالموت لا يعنى قضاء تاماً على أعمار الأبرار بل تعيش وراءهم المآثر والآثار ، وإلى هذه الحقيقة تشير الآية الكريمة العظيمة : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ اللهم اكتب لنا ولإخواننا فى الله آثاراً صالحة ، وسننا حسنة وأعمالاً مخلصة مستقبلة تقربنا إليك ، وتجعل لنا ذكراً فى الصالحين من عبادك .

ثانياً : وعلى النقيض من ذلك فإن من الناس من تراه ميتاً وهو حى ، بل لعل الميت أفضل منه وأنفع ، يعيش ويموت وهو صفر على شمال الحياة ، ليس له فى الفضائل ذكر ، ولا فى القدوات أثر ، فلا هو من أهل العلم النافع، ولا هو من ذوى العمل الصالح ، ولا هو ذو مأثرة واحدة كريمة تستدعى أن يترحم عليه .

والأدهى والأمر أن من هذا الصنف فئة يتركون وراءهم آثاراً وبيلة ، وسنناً سيئة من الرذيلة تلعنهم كلما ذكرت وتحرقهم كلما نشرت ! نعم ، إن من الناس من إذا مات لعنته آثاره ؛ لأنها آثار قذرة فيها ظلم العباد ، أو روائح الفساد، أو دعوات الهدم ، أو الكلم الخبيث ، أو التآليف الفاجرة ، والأشعار الداعرة. لقد مات بعض أحلاس الأدب وأدعيائه ، وعاش من ورائهم أدب خبيث جر عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ومات بعض المفكرين من أهل أوروبا فتركوا وراءهم كتباً تضل ولا تهدى ، وتضر ولا تنفع ، هؤلاء تعيش وراءهم آثارهم السيئة وتخلد كما يخلد إبليس فى مستنقعات الضلال وطحالب الوباء .

قال رسول الله ﷺ : « من سنَّ فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سنَّ فى الإسلام سنة سيئة فعليه

وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » . أسوق الحديث الشريف إلى فئة ضالة مضلة من المؤلفين والشعراء ، فتحت لهم بعض دور النشر أذرعها الخبيثة فشجعتهم على أن ينشروا الفساد فى الأرض ، ويدسُّوا السم فى الثقافة وقد سمعوا ربهم من علياء ملكوته يقول :﴿ **إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكلّ شيء أحصيناه فى إمام مبين** ﴾ .

ثالثاً : كلُّ إنسان عندما يموت يترك وراءَه آثاراً ، أما ختام الآية الكريمة فجملة تقف العقول عن تصورها حسيرة ﴿ **وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين** ﴾ هذا الإمام المبين هو الكتاب الرئيس الذى كل الكتب تابعة له مستقية من علمه ، ما فرط ربنا فيه من شيء ، وأحصى به كل شيء فيه مفاتح الغيب ، وكل ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة شجر ولا تختبئ فى ظلمات الأرض حبة ولا رطب ولا يابس إلا قد كتب فيه ، فسبحان الذى أمر الأقلام فكتبت فى هذا الإمام المبين كل ما كان وما هو كائن من الأقوال والأفعال والخطوات التى يخطوها على الأرض .

ولعلّ معدل ما يخطوه المرء من خطوات فى حياته يترواح ما بين ٦٠٠ مليون إلى ١٠٠٠ مليون . هذه الخطوات كلها آثار مسجلة مكتوبة، ومن هنا كان المشى إلى المساجد وفى إصلاح ذات البين ، وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفى مساعدة الملهوف وقضاء حاجة المسلم، كلُّ هذه آثار تكتب خطواتها حسنات ، والخطوة إلى المسجد تكتب بها حسنة ، وتمحى بها سيئة ، ومثلها الخطوة لعيادة مريض فى الله ، أو لزيارة صديق فى الله ، هذه حقيقة ، على كلِّ مؤمن أن يستحضرها دواماً فى فكره حتى لايخطو خطوة واحدة إلا وهو يدرى أين تكتب فى الآثار . إن الله ـ جلّ جلاله ـ لا يكتفى أن تكتب الحسنات ، بل إنه يكتب

الآثار لتظل لصاحبها مصادر حسنات وبركات بعد موته ، إن كان خطوات خير ومصادر سيئات وهلكه إن كانت خطوات سوء .

رابعاً : جاء فى مناسبة نزول هذه الآية : أن قوماً من بنى سلمة بكسر اللام رأوا بيوتهم بعيدة عن مسجد رسول الله ﷺ وكانت بينهم وبين المسجد مساحات من الأرض العراء ، فاستأذنوا رسول الله ﷺ أن ينقلوا بيوتهم إلى جوار المسجد ، فأبى عليهم ذلك رسول الله ﷺ وذكَّرهم أن بعد البيوت عن المسجد نعمة لأنها تكثر الخطوات ، والله ـ جلّ جلاله ـ يكتب ما قدموا وآثارهم وعندئذ عدلوا عن ذلك .

ففى صحيح مسلم أن بنى سلمة أرادوا أن يتحولوا إلى قرب المسجد فقال لهم رسول الله ﷺ : « يا بنى سلمة دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم» . وتعرب كلمة «دياركم» المنصوبة بفعل الإغراء المحذوف وتقديره الزموا.

خامساً : ولأشياخنا ـ رحمهم الله ـ آراء فى موضوع القرب من المسجد ، فبعضهم يرى أن بعد الدار عن المسجد أفضل ولكن حين يكون بيتك بجوار المسجد ، فهل تترك مسجد قومك القريب وتقصد إلى البعيد أم تصلى فى المسجد الجامع ؟ فالأئمة ـ رحمهم الله ـ يختلفون فى هذا الأمر ، فبعضهم يرى أن تصلى فى المسجد القريب من بيتك لكى يعمر بك وبالمصلين ، وهو قول مالك ـ رحمه الله ـ وبعضهم يرى البعيد أفضل، وآخرون يرون أن المسجد الجامع أفضل ، ويروون حديث ابن ماجة أن رسول الله ﷺ قال : «صلاة الرجل فى جماعة تفضل على صلاة الرجل وحده بسبع وعشرين درجة » ، والأفضل عدم التكلف والله أعلم..

قدرة الله لا يعجزها شيء
ولا يحدها حد

هذه هى الآيات الكريمات التى ختم الله ـ عز وجل ـ بها سورة يس ، وهى مسك ختام يبهج البلاغة ، ويستهيم البيان .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [يس : ٧٧ ـ ٨٣].

أولاً : سورة يس كسائر السور المكية التى تدور حول العقيدة وأركانها ، ومن أهم أركان العقيدة ركن عظيم هو الذى يوجه الأخلاق ، ويتحكم فى الضمائر، ويوقف العبد عند حدود الله، إنه الإيمان بالبعث والجزاء على كل صغيرة وكبيرة ، والحق أنه كلما عظم الإيمان بهذا الركن ، سما المؤمن به خلقاً وعبادة وأمانة ومعاملة وضميراً ، وذلك حين يؤمن حق اليقين أن كل إنسان موقوف بين يدى ربه ومسؤول .

إن الذى يؤمن باليوم الآخر يحترم بهذا الإيمان نفسه ، كما يحترم بهذا الإيمان خالقه وبارئه ؛ وذلك لأنه بهذا الإيمان ينزه ربه عن اللعب والباطل ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلا بالحق** ﴾، ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا**

ترجعون ﴾ [الأنبياء : ١١٥].

إن الله ـ جل جلاله ـ أعظم حكمة ، وأجل قدراً أن يخلق الناس متفاوتين فى الصلاح فيهم القائم بالعدل النافع للخلق الملتزم للحق ، وفيهم الظالم للناس الضار لعباد الله المحترف للإجرام ، ثم تكون النتيجة أن يتساوى مصير المحسن والمجرم !! وقد أنكر الحق ـ جل جلاله ـ هذا المنطق المعوج فقال ـ جل جلاله ـ : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون﴾ [ن : ٣٥ ـ ٣٦] وفى سورة ص : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] إن هذا التصرف غير المعقول لا يمكن أن يصدر عن خالق الحكمة والعلم والعدل والحق لا إله إلا هو.

وأما أن المؤمن باليوم الآخر يحترم بهذا الإيمان نفسه ؛ فذلك لأنه يعتقد أن الله ـ جل جلاله ـ قد خلقه ليبقى لا ليندثر ويفنى كما تفنى الحيوانات ، إن الملحد الذى يعتقد أنه يصير إلى التراب ويظل جيفة فيه إلى ما لا نهاية ، هذا الملحد يهين فى الدرجة الأولى نفسه ؛ لأنه حصر كل حياته فى سنوات الحياة الفانية؛ ولم يتطلع فى طموح مؤمن إلى حياة الخلود الأبدى التى يقررها بإذن الله عمل العبد ، وموقفه من ربه ومن الناس .

ثانياً : خلق الإنسان فى مبدئه مدهش وعجيب ، فقد خلق الله الإنسان من نطفة بين ملايين من الحيوانات الدقيقة لا ترى بالعين المجردة ، واحد منها هو الذى يعانق البويضة ويتحد معها ليشكل بأمر الله إنساناً ، بعد أن يمر بأطوار مدهشة ، والبيئة التى يتم فيها التقليح بيئة لا شك قذرة يمتزج فيها المنى بالبول العالق فى مجراه بإفرازات عنق الرحم ، هذا

الإنسان الذى خلق نطفة مذرة يتحول إلى مجادل عنيد المجادلة لدود الخصام .

كما روى فى سبب نزول هذه الآية الكريمة : أن العاص بن وائل السهمى والد عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ قدم إلى رسول الله ﷺ، وفى يده عظم رميم قد رم وتغير وتآكل وفرك العظم بين يديه ، وهو يقول للنبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه : من يحيى هذا العظم وهو رميم ؟! يسأل العاص هذا السؤال وقد تجاهل أصله ، ونسى كيف خلقه الله أساساً من نطفة مهينة ، وإلى هذا يشير قوله تعالى وهو يذكر العاص : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً ﴾ أى جاءنا يضرب لنا الأمثال والتشبيهات ، ويفرك العظم ويتساءل فى جدل عقيم ، وقد نسى كيف خلقناه ابتداء ، جاءنا يمارى ويجادل ويقول : ﴿ من يحيى العظام وهى رميم ﴾ ؟!اولو عقل لاستمع الجواب الطبيعى من منطلق عقله لكنه وقد طمس عقله يحتاج إلى إجابة فأجبه يامحمد وقل له : ﴿ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أنشأها على غير نموذج وفطرها فطرة على غير مثال ، ولا شك أن إعادتها وهى معروفة النموذج أهون من إنشائها ، إنشاء مبتكراً على غير تصميم مرسوم ، وقد ختمت الآية بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيم﴾ لتدل هذه العبارة أن الله يعلم كل خلق صوره وكل نموذج أبدعه وكل حى خلقه وصوره .

ثالثاً : وإذا أنكر العبد أن تخرج الحياة الغضة من العظام الجافة فليعلم أن الله قادر على جمع النقائض ، فهو يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، وهو يولد النار من الماء ، ويشير هنا إلى نوعين من الشجر هما المرخ والعفار ، كان العرب فى الجاهلية يحضرون من كل واحد منهما قضيباً فإذا احتك العودان انقدحت من بين نضرتهما شرارة ،

فيرون بأم أعينهم كيف ينقدح الشرر من الماء ، ومن هذا المنظر العادى يريهم ربهم قدرته علي جمع الضدين ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾ الاستفهام غرضه التقرير ؛ لأن جوابه البديهى هو كلمة ﴿ بَلَى﴾ . والحق أن عظمة خلق السموات والأرض أمر مشاهد بالعيون ، التى تبصر بعضه ولا تبصر معظمه ، وفى هذا يقول ربنا ـ جل جلاله ـ فى سورة غافر : ﴿ **لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ [غافر : ٥٧] .

خامساً : الآيتان الخاتمتان جاءتا حكماً فاصلاً بعد حيثيات فى غاية الإقناع وإجابات عن سؤال الخصيم في غاية الموضوعية ، سؤال الخصيم المبين الذى خلق من نطفة هو ﴿ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ وجوابه : ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ إن الذى يخرج النار من الماء قادر على أن يخرج الحياة من الموت . إن الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يعيد خلق الناس، وإذن فعلى كل عبد فى هذه البرية أن يشهد بملء اعتقاده وبملء فيه مرددا ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون**﴾ ، والملكوت هو الملك العظيم ، والواو والتاء تزادان فى نهاية الكلمة للتعظيم ، وبذلك ختمت سورة يس بما بدئت به ، وهو إثبات البعث الذى نبأهم به محمد ﷺ .

سادساً : لابد لى من وقفة بالإخوة عند قوله تعالى : ﴿ **ونسى خلقه** ﴾ هاتان الكلمتان درس عظيم للإنسان وهو أن يذكر دائماً أصل خلقته ، إن

ذلك ينفعه جداً فى جميع المواطن قد يدعوه شطط عقله أن يكفر بالله، وهنا عليه أن يذكر مم خلق ليعود إليه الإيمان ، وقد تدعوه نفسه الأمارة إلى الكبرياء ، وهنا عليه أن يذكر خلقه من نطفة قذرة ويذكر مصيره إلى جيفة قذرة . وقد يدعوه الشيطان أن يجبن عن بذل نفسه ، وهنا عليه أن يذكر خلقه ليردها إلى الذى خلقها من نطفة ، والذى هو آخذ بناصيتها، فيا أخى : اذكر أصل خلقك فى كل موطن لتسهل عليك الحسنات والتضحيات ولتتجنب الكبر والغفلات ، ولتؤمن بالذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك .

الله واحد .. وهو رب كل شىء ومليكه

سورة الصافات من السور المكية ؛ ذات الأسلوب المدوى ، فآياتها مائة واثنتان وثمانون آية ، مع أنها فى الطول تقارب سورة فاطر التى آياتها خمس وأربعون آية، والآيات القصار تجد أسلوبها فخماً جزلاً مجلجل اللفظ يكثر من الوعيد ، ويمر على الأحداث فى شكل خاطف ملقياً أكبر الضوء على مصائر الكفرة والظالمين. إن آيات سورة الصافات أكثر عدداً آيات سورة النساء التى هى ثالث سورة فى القرآن من حيث طولها ؛ وذلك لأن سورة النساء من القرآن المدنى الذى يعالج التشريعات الإلهية فى أسلوب تعليمى دقيق ، أما سورة الصافات فتعالج موضوع العقيدة والوحدانية والبعث والحساب ، ومن ثم فإن قارئ القرآن يشعر وهو يقرأ الصافات ، أنه بإزاء وعد وعيد ونذر بين يدى عذاب شديد، وأسلوب مرعب تقشعر منه قلوب الذين يخشون ربهم .. وإنى مورد هنا خمس آيات من هذه السورة المباركة ، وهى الآيات التى استهل بها ربنا عز وجل هذه السورة الكريمة والآيات وإن كانت فى عددها خمساً ، إلا أنها لا تحتل سوى سطرين نظراً لقصرها وقوة وقعها .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ** ﴾ [الصافات : ١ــ ٥].

أولاً : اشتملت هذه الآيات الكريمات على أهم موضوع يهيمن على السور المكية جميعها ألا وهو موضوع التوحيد، والتوحيد هو الذى من أجله خلق الله الجن والإنس ، وهو أعظم ما جاءت به الرسل ، به يغفر الله

جميع الذنوب، وبدونه لا يتقبل أعمال المشركين ؛ ولهذا استهل ربنا جلت قدرته هذه السورة العظيمة مقسماً بملائكته التى لاتفتر عن تسبيحه ، والتقديس له وتوحيده، يقسم بملائكته على هذا الأمر العظيم الجليل ألا وهو التوحيد الذى من أجله خلق السموات والأرض وعامرهما، فلله ما أعظم المقسِم ، وما أعظم القسَم ، وما أعظم المقْسَم عليه .

ثانياً : الله ـ جل جلاله ـ يقسم بنفسه كما يقسم بعظيم آياته ومخلوقاته ؛ وذلك لأنه حين يقسم بالمخلوقات العظيمة إنما يقسم بعظمته ـ جل جلاله ـ إذ هو موجدها وفاطرها ومبدعها أما العبد فما يجوز له أن يقسم إلا بالله ، أو باسم من أسمائه الحسنى ، أو صفة من صفاته العلا والقسم بغير الله شرك، وإن من يقسم بالله كاذبا أقل إثماً ممن يقسم بغيره صادقاً؛ لأن عمل الأول معصية ، وعمل الثانى شرك ، وقد تعود الناس على بعض إيمان كلها شرك كقولهم : بشرفى ، وحياة والدى ، وغير ذلك .

ثالثاً : في قوله تعالى : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا* إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ حين أراد ربنا جلت عظمته أن يقسم على وحدانيته اختار أن يقسم بالملائكة الكرام الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، إنه يقسم على وحدانيته بأعظم عباد الله توحيداً له ، ولقد لاحظ الأشياخ وهم يدرسون القسم الإلهى مقدار التناسب العظيم بين القسم والمقسم عليه ، ومن ثم فهو هنا ـ جل جلاله ـ يقسم بالملائكة الصافين الزاجرين التالين للقرآن ، يقسم بهم : ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ .

رابعاً : وقد جاءت الصفات التى وصف بها الملائكة أيضاً مناسبة لموضوع التوحيد ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ معناها : أقسم بالملائكة صافات صفوفاً

منتظمة لعبادة الله وتوحيده أو صافات بأجنحتهم منفذين لأوامره وتدبيره، والوصف فى كلتا الحالتين يفيد الطاعة والعبادة والقيام بأمر الإله الواحد، وقوله تعالى: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ معناها والله أعلم: قسم بالملائكة الذين يزجرون الكفار عن كفرهم بما يحملون من كلام الله وآيات كتبه ، وبما يوقعونه بالكفار من العقوبات العاجلة بأمر الله جزاء للكافرين على كفرهم . إنهم بذلك يقاومون الشرك وينشرون التوحيد ويثبتون فى الكائنات أعظم حقيقة أزلية ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ، وأما الصفة الثالثة التى وصف بها الملائكة المقسم بهم فهى قوله تعالى: ﴿ **فالتاليات ذكراً** ﴾ ومعناها : قسم بالملائكة الذين لا يفتؤون يتلون القرآن ، يذكرون به الخلائق بوحدانية الله . إنهم يذكرون العباد بوحدانية ربهم عن طريق تلاوة القرآن على أسماعهم ، والقرآن هو الذكر الحكيم الذى يدور كله حول توحيد الله وإفراده بالعباده ، ونبذ كل الشركاء .

خامساً : والمصادر المذكورة بعد الصفات كلها مفاعيل مطلقة تفيد التوكيد ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ ﴿ صَفًّا ﴾ ، ﴿زَجْرًا﴾ يعرب كل منهما مفعولاً مطلقاً غرضه التوكيد ، أما كلمة ﴿ذِكْرًا﴾ فيجوز أن تكون مفعولاً به ، ويجوز أن تكون مفعولاً مطلقاً مبيناً لنوع التلاوة ، وقد أكد ربنا ـ جل جلاله ـ القسم لأنه قسم عظيم جليل ، ولأن الحقيقة التى يقررها جديرة أن تؤكد ، وتغرس فى القلوب، فقد جاء قوله تعالى :﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ مؤكداً بمؤكدين هما إن ولام التوكيد .

سادساً : قوله تعالى : ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق**﴾ وصف للرب ـ جل جلاله ـ يثبت الوحدانية بالمنطق ؛ لأن الذى خلق

السموات والأرض ، ونظم مطالع الشمس بل ومشارق جميع الكواكب والنجوم في نظام موحد متكامل عظيم ، هذا الإله القادر القاهر العزيز العليم لا يمكن أن يكون له شريك ، وكيف يكون له شريك وهو خالق السموات والأرض وما بينهما ، وخالق كل جرم سماوى ، وناظمه في فلك يسبح فيه ، وما يدرينا أن كل نجم وكوكب ، وجرم سماوى له مطلع خاص كل يوم يطلع منه ثم لا يعود ليطلع منه إلى يوم القيامة .

حوار الندامة بين
الكافرين يوم القيامة

هذه آيات كريمات من سورة الصافات ، فيها حوار يدور يوم القيامة بين طائفتين من الكافرين : إحداهما كفرت بالله بطراً للنعمة وغمطاً للحق ، وغروراً بمتاع الحياة واستعراضاً زائفاً للقوة ، والأخرى كفرت بالله اتباعاً للفئة الأولى ، وإمعية وراءها ، ورغبة فى العرض الأدنى بين أيديها ، وهو حوار يدين كل إمعة ، ويلعن كل مطيع للمضلين ، ويعطى المؤمنين درساً أن يتبعوا الحق لأنه حق ولو لم يتبعه إلا المستضعفون ، ويتجنبوا الباطل لأنه باطل ولو ناصره جميع الغواة من الأقوياء .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات : ٢٧ ـ ٣٥].

أولاً : تذكر الآيات الكريمات حديثاً أو حواراً يدور بين فئتين من أهل الكفر يحاول فيه كلٌّ من الطرفين أن يحمل الآخر مسؤولية الإغواء والضلال . ينشب بين أهل الكفر جدل فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون تساؤلاً فيها مشادة وتوبيخ يقول الضعفاء للأقوياء : ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ ومعناه: لقد كنتم تستعملون معنا القوة ، وأسلوب العنف ، وتكرهوننا على الكفر إكراهاً . وقال بعض الأشياخ : ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا

عَنِ الْيَمِينِ ﴾ معناه : كنتم تأتوننا من جهة اليمين ، أى من جهة الحسنات والخير ، فتسدون علينا دروب الحسنات وتمنعوننا من فعل الخيرات ، وتحولون بيننا وبين الإيمان لنظل معكم فى شؤم الكفر والمعاصى ، فيجيبهم المستكبرون قائلين : نحن لم نقنعكم بدليل مقنع ، ولا كان لنا عليكم سلطة أو ظهر ، لكنكم أنتم لم يكن لديكم استعداد للإسلام ، وكانت نفوسكم ذات ميل واستعداد للكفر وما كنتم فى وقت من الأوقات مؤمنين فنقلناكم إلى الكفر .

لقد كان فى طبيعة نفوسكم طغيان وتجاوز للحق وميل للكفر ، فلما غوينا استهوتكم غوايتنا فغويتم مثلنا وبذلك حق علينا وعليكم قول الله تعالى : ﴿**لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين**﴾ ، وبذلك تركب المستضعفين من أهل الكفر حسرة شديدة ، حين يرون أن الأقوياء الذين أغووهم ، لم يكتفوا بالتخلى عنهم ، بل حملوهم جريرة الكفر كاملة ، واتهموهم أنهم كانوا ذوى نفسيات كافرة ملعونة تستهويها الغواية ، ويلعب بها الضلال ، وتعبث بها الشهوات .

ثانياً : إن كثيراً من الناس قد تفرض عليه ظروف المعيشة ، أو ضيق ذات اليد أن يصادق بعض أهل الغواية من الموسرين ، فيضطر أن يجاريه فى لهوه وعبثه، وفى فسوقه ومعصيته ، وإذ ذاك يوبق نفسه ، وتبور تجارته حين يشترى الضلالة، ويضل سبيل الأخيار .

إن فى الآيات الكريمات لدرساً لمن يجارى أهل المعصية من أهل اليسار والنفوذ ، وإن استفاد منهم بعض الحطام الفانى فإنه يخسر أغلى ما يذخره المرء ويعتز به ، ألا هو دينه وإيمانه وعمله الصالح ، وإذا جاء يوم القيامة يحتج أنه قد اتبع سبيل الغواة ؛ لأنهم فرضوا الغواية عليه ، فسيجد حجته

داحضة وسيجدهم يوم القيامة يكذبونه ويفندونه ويتخلون عنه ، بل ويتهمونه بأنه كان فى أصل خلقته خبيث الطوية ، هنالك يأسف على صحبة لم تعقبه إلا ندماً وحسرة وخسرانا ، إلا أن أفضل الأصفياء من يعينك على دينك ، ولو كان يعيش على أقل الكفاف ، وشر الصحاب من يغويك عن الحق وينسيك ربك الحق ولو أغرقك فى المتع الفانية من رأسك إلى القدم . لقد خلق الإنسان عاقلاً مستقل الإرادة تهديه إلى الخير فطرته ، فإذا حول نفسه إلى إمعة ، وحولته شهواته إلى تابع ذليل مسلوب الإرادة ،فلا يلومن عندئذ إلا نفسه الأمارة، ونزواته الفاجرة ؛ لأنه هو الذى أتبع نفسه هواها ، ورمى بها فى مستنقع الرجس فأرداها ، والنفس هى النفس ترى أمامها فجورها وتقواها، ثم يكون صاحبها هو الذى يسمو بها إلى الفلاح إذا هو زكاها بطاعة الله والإيمان به ، أو يطيح بها إلى الخيبة إذا دنسها ودساها ، وشتان بين من يأتى يوم القيامة وقد أعتق نفسه من العذاب واشتراها بالعمل الصالح والكلم الطيب ، وبين من يأتى وقد أوبقها بالكفر والفسوق والعصيان .

فلينظر المرء إذن من يصادق وليختر من يخالل ، وليعلم أن خير الأخلاء هم المتقون . إن هذا الصنف من الأصدقاء يكونون فى ساحات القيامة أصدقاء ، أما أهل صداقات السوء فينقلبون فى الموقف أعداء ألداء ؛ لأن كلا منهم قد خان الآخر وأغواه ، وساهم فى هلكته فأرداه ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾ .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ **فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ معنى الآيات الكريمات : أن المضلِّل والمضلَّل كليهما يشتركان فى العذاب ،

ولا عذر للمضلل بأنه خدع ، وضغط عليه ؛ لأن هذه ليست أعذاراً تبرر الكفر والضلال. وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِين ﴾ يعنى أن الله جل وعلا إذا حشر المجرمين لم يفرق فى العذاب بين المضلِّل والمضلَّل ، فالكل شركاء فى العذاب لأنهم كانوا شركاء فى جريمة الكفر ، وجريمة الشرك ، والاستكبار عن كلمة التوحيد التى ترجح بالسموات والأرض وعامرهن ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُون ﴾ كما عربدوا حول أبى طالب وهو يحتضر فصدوه عن كلمة التوحيد ، وكما رفضوا قولها فى وثيقة صلح الحديبية ، فلم يصل منهم مع الشرك عمل ولا صرف ولا عدل ؛ لأن الله ـ جل جلاله ـ لا يغفر أن يشرك به.

حوار بين فائز فى الجنة
وهالك فى النار

وكما أوردنا مجلس حوار بين أهل النار من المضلَّلين والمضلِّلين ، تورد هذه الآيات الكريمات مجلس حوار طريف بطله مؤمن من أهل الجنة وكافر من أهل النار ، كان معرفة له وقريناً أيام الحياة الفانية .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ** ﴾ [الصافات : ٥٠ ـ ٦١].

أولاً : ثبت فى الحديث : أن أهل الجنة كثيراً ما يجلس بعضهم إلى بعض ، فيذكرون جلسات ومواقف واجتماعات وأحداثا حدثت لهم فى الدار الفانية ، ولعلهم بهذا يريدون أن يتسلوا بطرائف من الأحداث ، ويتسموا لمواقف من الفكاهة ، ويتلذذوا بموازنة ما كانوا فيه من مكابدة بما صاروا إليه من نعيم مقيم ، لقد كانت الدنيا سجناً للمؤمن ثم رأى فى الآخرة جنة عرضها كعرض السماء والأرض ، وكم يلذ للسجين الذى خرج من سجنه أن يحدثك عن أيام سجنه ليلتذ بجميل حريته ، ومن هنا تروى الآيات الكريمات مجلساً من مجالس أهل الجنة: ﴿ **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ** ﴾ أى يتحدثون ، ويكون معظم حديثهم على شكل تساؤلات عما حدث لبعض معارفهم فى الدار الفانية.

ثانياً : يقول أحد السعداء من أهل الجنة لأصحابه ، وجلسائه في النعيم : **﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾**.

لقد كان له من جيرانه وخلطائه ومعارفه صاحب من أهل الكفر والضلال، كان يحاول دواماً صده عن الإيمان باليوم الآخر ، فلا يفتأ يسأله أسئلة لها أغراض **﴿ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾** وهو سؤال بأسلوب التوكيد ، ومعناه : أحقاً أن عقلك يصدق **﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾** ومعناه : هل يتصور عقلك أن ندان ، أى نحاسب ونجازى بعد أن تذوب أجسادنا وتكون تراباً وعظاماً ، والسؤال الأول غرضه الاستنكار والتعجب ، أما الثانى فغرضه الاستبعاد والجحود.

ثالثاً : ورد فى الآثار : أن فى الجنة كُوًى يطل منها أهل الجنة على أهل النار لتكبر نعمة الله فى أعينهم ، بعد أن يشاهدوا عذاب الكافرين فى جهنم . وجاء فى القرآن الكريم أن أهل النار يخاطبون أهل الجنة ، وأن أهل الجنة أيضاً يخاطبونهم ، وهنا فى الآية الكريمة يلقى المؤمن الذى يحدث أصحابه نظرة على النار ، فيهتف بإخوانه ألا تشاهدون ؟؟ هل أنتم مطلعون ؟ ويطلع هو وصحبه من أهل النعيم ، وإذا صاحبه الذى كان يحاول إغواءه فى سواء الجحيم ، أى فى وسط جهنم ، وهنا يناديه ويلقى عليه كلاماً يحسره ويؤلمه ، يقول له : **﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾** ومعنى الآية الكريمة : والله إنك قد كدت تهلكنى وتصيرنى إلى عذاب جهنم ، وكلمة **﴿إن﴾** فى الآية مخففة من الثقيلة ومعناها : إنك كدت تردينى ، أى تهلكنى **﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾** أى ولولا أن الله ثبتنى بفضله على الإيمان لكنت الآن معك محضراً فى العذاب ؛ لأنك

كنت تجـهـد فى حـملى على طريقـتك ، وتشكيكى فى يوم الدين والجزاء.

رابعاً : ولكى يزيده حسرة يسأله : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ ومعناه : أحق ما كنت تقوله لى من أن الموت معناه : الفناء الذى ليس بعده رجعة ولا حساب ؟ أحق أن الموت لا نشور بعده؟ إن الواقع الذى نحن فيه ، والنعيم الذى نحن فيه فاكهون ، والعذاب الذى أنتم فيه مبلسون ، كل هذا يكذب ما كنت تضللنى به . إن الذى صرنا إليه بإيماننا وعملنا الصالح الذى ادخرناه ليوم البعث هو الفوز العظيم ، والنعيم المقيم ، وهو فوز يستحق أن يجهد المؤمن فى الوصول إليه والحصول عليه ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُون ﴾ .

خامسا: وبعد هذا الخطاب المحسر الذى يلقيه المؤمن على مسمع قرينه الكافر يقفل الكوة التى بينهما ليعود هذا إلى ما هو فاكه فيه من شغل لذيذ ، ويعود الآخر إلى ما هو مبلس فيه من عذاب مهين ، وينتهى الحوار بدرس لا ينسى ، فيه عبرة لكل مؤمن .

سادساً : إن فى هذا الحوار لدرساً يجدر بكل عاقل أن يحرص عليه ، وهو : أن يحرص على اختيار قرنائه ، ويجوِّد فى انتقاء أصدقائه ، فالمرء يعرف بأقرانه ويستدل على سلوكه بأعوانه ، وتقرأ سيرته وأخلاقه فى سيرة جلسائه ، وشتان ما بين من جلساؤه شياطين ، لقد وصف ربنا ـ جل جلاله ـ فى سورة فصلت أهل الشقاوة أنهم وقعوا ضحايا لقرنائهم الذين أغووهم فأهلكوهم وهلكوا معهم، وما أجمل أن ينقش المؤمن هذه الآية العظيمة فى شغاف ضميره ليظل دواماً على حذر من قرناء السوء

﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القــول فى أمم قــد خلت من قــبلهم من الجن والإنس إنهم كــانوا خاسرين ﴾ .

اللهم ارزقنا وذرياتنا وإخــواننا جلســاء صــالحين يزينون لنا الحــسنات ، وينبهوننا من الغفلات ، ويعينوننا على الباقيات الصالحات .

قصة إبراهيم عليه السلام
ونموذج للصبر الجميل على الابتلاء الشديد

في سورة الصافات قص ربنا ـ جل جلاله ـ في أسلوب موجز مركز سير ثمانية من الأنبياء وهم : نوح ، وإبراهيم ، وإسحاق ، وموسى ، وهارون ، وإلياس ، ولوط، ويونس عليهم السلام . وقد احتلت سورة إبراهيم قرابة ثلاثين آية من السورة الكريمة نصفها عن مطلع نبوته وعدائه للأصنام ، إلى أن ألقاه قومه في النار فلم تحرقه ، بل كانت بأمر الله عليه برداً وسلاماً ، أما النصف الثاني من الآيات فهو بعد هجرته من وطنه ، وابتلائه بذبح ولده . وهذا هو الذى سنقف عند إشاراته المهمة الممتعة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [الصافات : ٩٩ ـ ١١٣].

أولاً : إبراهيم عليه السلام أول نبى هاجر من وطنه فى سبيل دعوته ، فبعد أن أجمع قومه كيدهم على قتله ، وبعد أن ألقاه قومه فى النار ، وبعد أن أحبط الله كيدهم وجعلهم الأسفلين ، صمم إبراهيم عليه السلام على

الهجرة من العراق، وقال : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ . وتوجه إلى الشام يصحبه ابن أخيه لوط عليهما جميعاً السلام ، ولما رأى نفسه وحيداً من الولد توجه إلى ربه أن يرزقه غلاماً صالحاً يعينه على وعثاء الحياة، ويسعى معه فى الدعوة إلى الله ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، وفى الحال استجاب ربه دعاءه ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾ ، وفى قوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ بشريان أولاهما : أنه سيرزق بولد ، والثانية : أنه سيعيش وسيكون ذا حلم وعقل راجح .

ثانياً : كان ذلك الولد المبارك هو إسحاق عليه السلام ، وقد ولدته سارة وقد تجاوزت التسعين ، وكان إبراهيم عليه السلام فى المائة من عمره . تصور شعور إبراهيم عليه السلام شيخاً يرزق هو وعجوزه غلاماً ، وهما فى المائة من العمر ، كم يكون الطفل غالياً عليهما ، وكم يصبح غلاؤه حين يبلغ سن الرشد فيسعى مع أبيه فى الدعوة وطلب الرزق ، ويزيد غلاؤه لأنه كان براً مباركاً .

إن أجمل وأحلى وأغلى ما فى الأرض على الإنسان هو الولد البار . وقديماً سئل الأعرابى عن أجمل شذى يمتع الأنف فقال : إنه ريح الولد الصالح البر ، إنه والله لريح الجنة ، كان هذا حال إبراهيم مع إسحاق عليهما السلام حين جاءه امتحان من ربه جل جلاله كان بلاء مبيناً حقاً ، كان أعظم اختبار لصدق المحبة وإخلاص الحب للحبيب الأعظم .

ثالثاً : لقد رأى ربنا جلت عظمته مقدار تعلق إبراهيم بإسحاق ، ومدى حبه لبره وصلاحه وتقواه ، وهنا أراد أن يختبر صدق ولائه لحبيبه الأعظم ، فأراه فى منامه أنه بذبح فلذة كبده ، ورؤيا الأنبياء أحيانا تكون وحياً وأمراً ، وذلك هو الذى فهمه إبراهيم من الرؤيا ، لقد فهمها على أنها أمر من

ربه ـ جـل جـلاله ـ بذبح صفيه ابتغاء مرضاة حبيبه ، وجاء فى الأثر أنه رأى الرؤيا ثلاث مرات فى ثلاث ليال متتاليات هنالك دعا ولده عليه السلام وأبلغه أمر ربه ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ الله أكبر ما أجل الآمر المبتلى ، وما أصدق المأمور المبتلى ، وما أبر الولد الصالح الغالى . لقد أجمع إبراهيم أن يصدق الرؤيا ويضحى بولده لربه العظيم واستجاب الولد لأمر الله ، ألا ما أجملها من عبارة تكاد تميد لها السموات : ﴿ **يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين**﴾ الله أكبر ما أعظم صدق إبراهيم ، وهو يتلُّ أغلى غال يلقى به على جبينه لكى لا يرى قسمات وجهه الحبيب فيرق لذلك الوجه الكريم التقى البر ، الله أكبر ما أصدق حب إبراهيم لربه ، وهو يشحذ سكينه يهوى بها على رقبة اسحاق وهو يقول : اللهم تقبله منى فى مرضاتك ! كان الشيخ عليه الصلاة والسلام قد نيف على مائة وعشرين سنة ، وكان إسحاق هو أمله فى حياته ، بعد رضاء ربه . لقد أثبت إبراهيم أن حبه للولد لم يشغله عن ولائه وحبه للحبيب الأجل ، هنالك نجح فى الابتلاء ، وفى لحظة إذا أمر الله ـ جل جلاله ـ يصدر بالفرج والإنعام ، وإذا نداء حبيب من السماء ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، وينظر إبراهيم حوله وإذا كبش من كباش الجنة كأعظم ما تكون الذبائح ، كان ذلك الكبش فداء من الله ـ جل جلاله ـ عن إسحق النبى الصالح البر ، كم كانت الفرحة غامرة لبيت النبوة ، وقد اجتمع الناس يأكلون من طعام الجنة فدية عن إسحاق.

وقد يسأل سائل: كيف يكون الذبيح إسحاق وقد كانت قصة الذبح فى مكة المكرمة ؟ والجواب والله أعلم: أن إبراهيم عليه السلام كان يتردد

على مكان البيت الحرام عادة ، وأنه كان يصحب معه إسحاق ، على أن من قالوا : إن الذبيح كان إسماعيل عليه السلام يقدمون أيضاً بين يدى كلامهم براهين قوية .

رابعاً : الآيات الكريمات التى جاءت تعقيباً على القصة فيها تشريف لخليل الله إبراهيم عليه السلام ، فقوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴾ معناه : لقد خلدنا له ذكراً عطراً وسيرة صالحة ، وقدوة حسنة في الأجيال التى تتابعت بعدها ، وأى شرف أجل من قوله تعالى : ﴿ سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيم ﴾ إنها أعظم تحية من أكرم كريم ، وقد ذكر لفظ السلام منكراً ؛ ليدل على الشمول ، ويمضى ربنا ـ جل جلاله ـ فى تشريف خليله فيقول : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ شهادة من الله جل جلاله على إيمان إبراهيم عليه السلام وأنه نال مرتبة الإحسان التى هى أعلى مراتب السلوك فى الدين . وأخيراً: يذكر الله ـ جل جلاله ـ أنه أتم نعمته على إبراهيم ، بأن شرف إسحاق بالنبوة بعد أن أنعم عليه بالنجاة من الذبح وبارك على إبراهيم ، وإسحاق فكتبهما من المباركين السعداء فى الدنيا والآخرة .

النهاية الحتمية لمعركة التوحيد والكفر

هذه الآيات الكريمات هى الختام الجميل العطر الذى ختم الله به سورة الصافات ، وهى تحكى النهاية الحتمية لمعركة التوحيد والكفر ، وتتوج السورة بثناء على رب العزة الذى ينصر رسله ، ويعز جنده ، وهو أهل الحمد على كل قضاء يقضيه .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ * وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٧١ ـ ١٨٢] .

أولاً : بدأ الله سورة الصافات بقسم عظيم على إثبات وحدانيته ، وختمها بقسم عظيم على نصرة جنود التوحيد ، وفى أثناء السورة ذكر الأنبياء الذين بلّغوا عن الله ـ جل جلاله ـ التوحيد والرسالة ، فاستحقوا أن يكتب الله لهم الأمن وعليهم السلام ، وبذلك فسورة الصافات ينتظمها من أولها إلى آخرها موضوع التوحيد.

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ وعد من الله ـ جل جلاله ـ كتبه على نفسه بأن يختم معركة الإيمان التى يخوضها الرسل والمؤمنون ضد الكفر ، أن يختمها بالنصر للرسل والمؤمنين ، وقد تكرر هذا الوعد

في غير موضع من القرآن الكريم ، ففي سورة الروم: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وفي سورة غافر : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ وفي سورة المجادلة : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : ٢١] وهنا في سورة الصافات جاءت الآيات الكريمات بأسلوب التوكيد المضاعف : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ، ففي قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴾ ثلاثة مؤكدات هي : إن ، وضمير الفصل هم ، ولام التوكيد المتصلة بها ﴿ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴾ ، وفي الآية التي يتحدث فيها عن أتباع الرسل نفس المؤكدات الثلاثة : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ وفي هذه التأكيدات تثبيت لقلوب الرسل والمؤمنين بأن الغلبة لهم مهما بدأ الكفر في خيلاء الغرور ، ومهما تألب حزب الشيطان الغرور .

ثالثاً : يتساءل الكثيرون من العرب حين يقرؤون هذه الآية الكريمة : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ لماذا هزم العرب في كثير من معاركهم مع أعدائهم، مع أن أعداءهم هم أشد الناس كفراً وإجراماً وعداء للمؤمنين؟ والجواب عن هذا السؤال كامن في الآية الكريمة نفسها ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ، إنه كامن في كلمة ﴿ جندنا ﴾ مشيراً إلى أن النصر والغلبة والتمكين مكتوبة لجند الله وجند الله هم الذين يقاتلون لتكون كلمته العليا ، ويضحون حباً في الشهادة والجنة ، ويجاهدون في الله على نية إحدى الحسنيين ، وعلى شعار واحد هو التوحيد الخالص ، ولاشك أن وعد الله ـ جل جلاله مفعول وحق ، وأن الجيوش العربية لا يمكن أن تهزم حين يكونون كلهم جنداً لله ، أما حين ينطلقون إلى المعارك وقد تقسمتهم الخلافات ، وتوزعتهم الشعارات وهتفوا لشياطين الشرق

والغرب، فهم إذ ذاك لا يستحقون أن يلقبوا جند الله ولا أن يحظوا بنصر الله .

رابعاً : وفي أسلوب مروع حقاً يموج بالتهديد ، يقول الله تعالى لرسوله ﷺ : **﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ * وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾** لقد كرر ربنا جل جلاله ، قوله : **﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾** ، فقال بعدها : **﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾** وكرر قوله : **﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾** فقال بعدها : **﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾** وكلها أساليب أمر غرضه التهديد ، كقولك لمجرم : انتظر وسوف ترى مصيرك . وقد توسط بين الآيات الكريمات أسلوب استفهام بليغ ، وهو قوله تعالى : **﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾** وأسلوب ذم هو قوله تعالى : **﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴾** ؛ لأن كلمة ساء معناها : بئس ، وكلا الأسلوبين للتهديد ، وقد نزل النكال فعلاً بساحة المشركين يوم بدر فبكت كل بيوت مكة على فقد صناديدها ، وأبصروا الحقيقة بعد طول عماهم عنها ، وتحقق تهديد الله ـ جل جلاله ـ لهم في قوله : **﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾** . ومعنى الآية الكريمة : انتظر وتمهل فسوف تبصرهم قريباً ، وقد انكشف عماهم وبدت لأعينهم الحقيقة ، إذ ذاك يصبح بصرهم حديداً في وسط العذاب.

خامساً : بعد أن استعرض ربنا في سورة الصافات عظمة التوحيد وجهاد الرسل الكرام في نشره وتعليمه ، ختم سورة الصافات بثلاث آيات ورد في فضلها أحاديث صحيحة **﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ* وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾** ومعنى الآيات الكريمات :

تعالى ربنا وتنزه عن قول الزور الذى ينسبونه إليه ، وهم يدعون له ولداً وصاحبة وشركاء ، وسلام على الرسل الذين علموا الناس التوحيد .

ولله الحمد والثناء على كل قضاء يقضيه وعلى كل قدر يمضيه ، وقد روى الثعلبى من حديث أبى سعيد أن رسول الله ﷺ كان يقول قبل أن يسلم : **﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين* والحمد لله رب العالمين﴾** وجاء فى الحديث الشريف : من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: **﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ* وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾** . ومن حديث أنس رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « إذا سلمتم علىّ فسلموا على المرسلين إنما أنا رسول من المرسلين » .

الرسول يبتلى من قبل قومه
بالصد والعناد

سورة ص من السور المكية ذوات الإيقاع المطرب المعجب المرهب ، وقد بدأت بذكر القرآن ذى الشرف والإعجاز ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ [ص : ١] وانتهت أيضاً بذكر القرآن وعظم شأنه ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : ٨٧ ـ ٨٨] ، وفى سورة ص موضوع ضخم هو ما يتعرض له أنبياء الله من فتنة . بعض أنبياء الله يفتنون بإيذاء قومهم وعنادهم واستكبارهم كمحمد ﷺ ، وبعضهم ، يفتنون بالنعمة كداود وسليمان عليهما السلام وبعضهم فتنوا أى امتحنوا بالمرض ، كأيوب عليه السلام . وبعضهم فتنوا بتحدى الشيطان لهم وإجلابه عليهم وعلى ذريتهم كآدم عليه السلام وهنا لابد أن نحذر كل من يقرأ سورة ص من الخوض فى هذه الفتن . إن ما يذكره القرآن الكريم عن داود وسليمان وأيوب هو قول شريف منزه لا يمس عصمة النبوة ، وعلى المؤمن أن يؤمن بكل كلمة وكل حرف من كلام الله حول هذه الفتن .

أما أقوال بعض المفسرين وما حشيت به من الإسرائيليات حول داود وسليمان وأيوب عليهم السلام ، فيجب أن تؤخذ بحذر وينبذ منها ما يتنافى وعصمة الأنبياء ، خصوصاً وأن معظم الأخبار التى أوردها المفسرون حول أحداث سورة ص ، وما كان من أمر داود وسليمان ، لا يسنده دليل صحيح من سنة رسول الله ﷺ . وسوف نقف إن شاء الله عند قصة داود والملكين وقصة سليمان والجسد الذى ألقى على كرسيه .

وسنبدأ بعون الله بالآيات الكريمات التى تشكل مطلع سورة ص وهى التى

تتحدث عما ابتلى به رسول الله ﷺ من إيذاء قريش وعدوانها .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ * وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ * أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ * جُندٌ مَّا هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ [ص : ١ ـ ١١] .

أولاً : ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ هاتان الآيتان الكريمتان ترسمان جو الغطرسة ، والعناد ، والشقاق ، الذى استقبلت به قريش رسالة محمد ﷺ ، والقرآن الكريم الذى أنزل معه . والعزة هنا معناها : الاعتزاز بالكفر والتكبر على دعاة الإيمان ، والشقاق معناه : الخصومة والعداء ، والخلاف . وقد بدأ الله ـ جل شأنه ـ بحرف من حروف الهجاء ، ذكر فى مطالع السور فى أكثر من موقع وهو حرف الصاد ، ففى مطلع الأعراف ﴿ آلمٓصٓ ﴾ وفى مطلع سورة مريم ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ وهنا فى مطلع السورة ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ ، وحرف الصاد يدخل فى أسماء الله وصفاته العلا ، ففى بعض أسماء الله الحسنى، كالصمد ، المصور ، والصبور كما يدخل فى كلمات الصدق والصبر، والصوم ، والصلاة ، وكثير غيرها من الكلمات العظيمة (وصاد) هنا والله أعلم اسم السورة ، وقد أقسم ـ جل جلاله ـ بعد هذا الحرف بالقرآن ذى الشرف والمنزلة العالية إذ الذكر معناه : الشرف ، والقرآن

شرف أعز الله به العرب وجميع المؤمنين .

أما الآيات التي تصور جو العناد والغطرسة ، والتعاون على العدوان ، وفتنة المؤمنين بالإيذاء ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ * أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾ [ص : ٤ ـ ٨] .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ معناها : لقد أهلكنا من قبل قريش أجيالاً كثيرة ، فلما رأوا العذاب صرخوا ونادوا يطلبون النجدة ، ولكن ليس الوقت وقت إفلات أو مفر .

وفي هذه الآية طرائف لعشاق الإعراب ، فكم الخبرية هنا مفعول مطلق تدل على كثرة عدد الفعل ، و﴿ من قرن ﴾ من حرف جر زائد و ﴿قرن﴾ مفعول به ، والتقدير : كم أهلكنا من قبلهم قرناً ، وفي قوله تعالى : ﴿فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ لات مشبهة بليس واسمها محذوف وتقديره : الوقت أو الحين .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ تصوير لموقف المشركين وهم يتألبون ضد الحق ، وينطلقون جادين في نشاط ، كلما دعاهم محمد إلى التوحيد فروا عن التذكرة معرضين كالحمر المستنفرة ، يقول بعضهم لبعض : امشوا وانشروا دينكم واصبروا على أصنامكم فإن دعوة محمد إلى التوحيد وهجر الآلهة هو أمر مخطط يقصد به محمد أن ينال السيادة عليكم ، ويميز إلهه على أصنامكم .

رابعاً : يلاحظ الأسلوب الغوغائي الذى يبذأ ولا يستند إلى برهان ولا دليل كقول الكفار : ﴿ **هَذَا سَاحِرٌ كَذَّاب** ﴾ وهو قول ليس به دليل ، وكقولهم : ﴿**أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَاب**﴾ ، ومحمد عليه الصلاة والسلام لم يجعل الآلهة إلها واحداً وإنما نبذ الآلهة كلها ليعبد الإله الواحد خالق كل شيء ، ومن المضحك فعلا قولهم : ﴿ **إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَاب** ﴾ وقولهم : ﴿ **مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ** ﴾ معناه : ما سمعنا بمثل دعوة محمد من اليهود والنصارى ، وتلك إشارة إلى أن اليهود والنصارى لم يكونوا فى ذلك الحين دعاة حق وتوحيد ، وكان كل همهم مجاملة الوثنية لابتزاز الأموال ، وأخيراً تستمر غوغائية قريش فى قولهم ﴿ **أألقى الذكر عليه من بيننا** ﴾ وهو سؤال لا مبرر له ؛ لأن الله ـ جل جلاله ـ يختص برحمته من يشاء ، وهنا يعلق الله جل جلاله على غوغائيتهم فيتهددهم بالعذاب الذى لم يذقوه بعد ، ويذكرهم بضعفهم ، أما قدرة الله التى يتحدونها فيسألهم عنها أسئلة كلها بغرض النفى هل عند قريش خزائن رحمة الله ، فيحكموا كيف يوزعها على غير محمد ، وهل تملك قريش شيئاً من ملك السموات والأرض ؟ وإذن فليصعدوا إلى السماء بحبال ليطلعوا على الملكوت ، ثم يختم الآيات بآية رهيبة هى قوله تعالى : ﴿**جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب** ﴾ وهى آية تعد نبوءة عظيمة ؛ فقد رأت قريش فيما بعد أمراً ما وشيئاً ما وخبراً ما وجنداً ما . وتعرب (ما) نكرة تامة صفة لكلمة (جند) .

فتنة داود عليه السلام

ما رأيت أدباً رفيعاً كأدب القرآن حين يتناول سير الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه ، فما من نبى فى القرآن الكريم إلا وله مقامه المعلوم ، وأسوته العظمى، ولا غرو فهم نماذج البشرية الطاهرة المعصومة المنزهة ، وأوعية الرسالة الإلهية المقدسة ، إذا قرأت القرآن ومررت على سيرة أى نبى أحببته ؛ لأنك تجد لسيرته فى قلبك روحاً وريحاناً ، أما إذا قرأت سيرة الأنبياء الكرام فى الكتب السماوية المحرفة ، وفى الإسرائيليات المشوهة ، فإنك فى كثير من الأحوال تكره الأنبياء ؛ لما ترى من صور مشوهة لسيرهم العطرة وتحريف للكلم الطيب عن مواضعه .

فى سورة ص ذكر لسيرة داود عليه السلام ، وهو نبى ابتلى بالنعمة فكان نموذج الشكر وفتن باختبار ، فكان أسرع شىء إلى التوبة ، ومن أجل هذا خاطب ربنا جل وعلا نبيه محمداً ﷺ بعد أن ذكر عناد قريش وإيذاءهم وغطرستهم فقال له : ﴿ **اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد** ـ أى القوة والتأييد من الله ـ **إنه أواب** ﴾ . ومعنى هذا أن ربك من عليا سمواته يأمر نبيه محمداً ﷺ أن يذكر داود فى شدائده ويقتدى بأخلاقه وصبره . وحسبك بهذا شرفاً لداود . وإنى مورد هنا آيات من كتاب الله جل وعلا فى سيرة داود ، ثم محذر بعدها إن شاء الله مما افتراه بنو إسرائيل على هذا النبى الكريم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**

إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ * يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص : ٢١ ـ ٢٦].

أولاً : هذه الآيات الكريمات هى كل ما ورد فى القرآن الكريم من فتنة داود عليه السلام ، وهى آيات ترسم لنا ذلك النبى الكريم فى صورة عبد طاهر منيب إلى ربه وقع منه فى القضاء سهو بحسن نية ، فاستغفر ربه من الذنب وخر راكعاً للرب ، وأناب راجعاً إلى ربه بالتوب ؛ من أجل ذلك فالمؤمن مطالب أن يؤمن بكل حرف من هذه الآيات ومن غيرها ؛ لأنها لا تنال من عصمة الأنبياء شيئاً ، والنبى كما هو معلوم معصوم من الكبائر ومن الذنوب التى تسقط المروءة، أما ما يحدث من الصغائر ، ومن الغفلة العابرة ، فيمكن أن تقع من الأنبياء دون أن ينال هذا من عصمتهم .

ثانياً : القصة الإسرائيلية الواردة حول الخصمين والتسع والتسعين نعجة لم يسندها دليل من السنة المطهرة ولا استندت إلى حديث صحيح ، وكل رواياتها جاءت من طرق ضعيفة ، ولم يرد فى القرآن الكريم المطهر من قريب ولا بعيد فى سيرة داود عليه السلام ، بل ولا فى سيرة أى نبى من أنبياء الله أنه تعلق بحب امرأة ، ولكن القصة الإسرائيلية الكذب تتجرأ على داود الذى رسمه الله قدوة لمحمد ، والذى شد الله ملكه وآتاه أعظم خير الحكمة وفصل الخطاب . أقول : تتجرأ القصة الإسرائيلية على هذا العبد الصالح الذى مدحه الله بأسلوب المدح ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ فتختلق من حوله ﷺ قصة يعشق فيها النبى الكريم امرأة جميلة ! ثم لا

تقف عند هذا الحد حتى تزعم أن ذلك الحب قد دفع داود عليه السلام إلى التآمر على زوجها ، وكان مجاهداً ، بأن يعرضه للموت لكى يخلو الجو لداود فيتزوج زوجة المجاهد وتنجب له سليمان ! حاش لله وتنزه النبى الأواب عن مثل هذا الهراء ، لكن هذا الكلام لا يستغرب على بنى إسرائيل، فإنك لو قرأت كتابهم المحرف لوجدت قصصاً رخيصة من هذا النوع قد حامت حول يعقوب ، وسليمان ! ولوط ، وغيرهم من أنبياء الله، وكلها تسىء إلى الأنبياء وتذكرهم وتخرق لهم قصصاً تسقط مروءة الرجل العادى ، فكيف بكرامة النبى الكريم ؟!

ثالثاً : القصة الواردة فى القرآن الكريم خلاصتها ما يلى : كان داود عليه السلام إذا فرغ من القضاء بين الناس خلا إلى محرابه يتعبد ويتلو الزبور، وكان يأمر الحرس ألا يسمحوا لأحد بإزعاجه عن عبادته ، ولكن حدث يوماً أن خلا بنفسه فى محرابه ، وإذا رجلان يدخلان عليه فجأة متسورين المحراب ، ففزع عليه السلام منهم كيف وصلا إليه على كثرة الحرس ! وعندئذ هدّءا روعه وقالوا: لا تخف . وتستعمل واو الجماعة أحياناً بدلاً من ألف المثنى ، قال تعالى ﴿**هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ**﴾ أقول : هدّءا من روعه وقالوا : لا تخف نحن خصمان ظلم أحدنا الآخر وقد جئناك لتحكم بيننا بالعدل ولا تغالى وتهدينا إلى الطريق القويم فى قضيتنا ، ومضى أحدهما وهو المدعى يقول : ﴿ **إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ** ﴾ فطمع فى نعجتى الوحيدة على كثرة غنمه وطفق يحرجنى بطلبه وسؤاله حتى غلبنى أخيراً عليها . وفى الحال ودون أن يستمع من الخصم الآخر كما يقتضى القضاء العادل أجابه داود : ﴿ **لَقَدْ ظَلَمَكَ** ﴾ خصمك حين سألك نعجتك ليضمها إلى نعاجه، وإن كثيراً من الشركاء والمتعاملين يظلم بعضهم بعضاً إلا المؤمنين

الصالحين وهم قلة . وفى الحال تذكر داود عليه السلام خطأه فاستغفر وسجد لله ، وأناب بتوبة نصوح ولم يكن له والله أعلم من ذنب إلا أنه قضى قبل أن يدلى المدعى عليه بأقواله ، ومما يؤيد أن الاختبار كان درساً فى القضاء فقط ولم يكن في الأمر نساء : أن الله ـ جل جلاله ـ يختم الآيات الكريمات بقوله : ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ اللهم صل على محمد الذى علمنا الأدب القرآنى وعلى جميع أنبيائك الكرام المعصومين من كل ما يسقط المروءة .

فتنة سليمان عليه السلام

الإسرائيليات كما أسلفنا كثيراً ما تسيء إلى الأنبياء ، وقد ذكرنا ما أورده القرآن الكريم عن فتنة داود عليه السلام ، وما افترته الإسرائيليات حول داود عليه السلام ، وحذرنا من أمثال تلك الروايات التى لا تستند إلى دليل من صحيح السنة المطهرة ، وهنا نورد الآيات الكريمة التى ذكرت فتنة سليمان عليه السلام وننبه إلى افتراء الإسرائيليات على سليمان كما افترت على أبيه من قبل.

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ * وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص : ٣٠ ـ ٣٤] .

أولاً : إذا ذكر اسم سليمان عليه السلام ، فلا يتبادر إلى ذهنك أنه كان ملكاً مترفاً غارقاً فى أبهة الملك الذى لم ينبغ لأحد من بعده ، لقد كان سليمان عليه السلام مجاهداً فى سبيل الله طول حياته يشيد دولة التوحيد، ويتعقب الشرك أينما كان ، وحين نقل إليه الهدهد أن ملكة سبأ تعبد الشمس هى وقومها ، لم يقر له قرار حتى جاءت مسلمة واهتدى بهداها قومها ، وقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ولقد لقب نبى الله سليمان عليه السلام بالحكيم ، وقد سبق أن ذكر القرآن الكريم له موقفاً فى القضاء حين قضى فى قضية الحرث الذى نفشت فيه غنم القوم ، ففهمه ربه الحكم الصحيح ، فكان قاضياً عادلاً متحدراً من بيت قضاء عادل . هكذا يجب أن ترسم صورة هذا النبى الكريم فى ذهنك مهما كرهت اليهود ؛ فما

يجوز أن يجرمك شنآنهم أن تذكر سليمان عليه السلام بكلمة واحدة مريبة؛ لأنه نبى معصوم ، وهو نفسه كان ينكر على قومه أى معصية لله .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ وراء هذه الآيات الكريمات قصة تجلى جانباً مهماً من شخصية هذا النبى الكريم ألا وهى حرصه العظيم على طاعة ربه ، واعتبار أمتع ما فى الحياة رخيصاً بالقياس إلى متعة العبادة ، فقد كانت لسليمان عليه السلام صلاة يحافظ عليها بعد العصر لا يكاد يتركها يوماً من حياته ، وكان أيضاً مولعاً بالخيل كأداة حرب فعالة فى قتال الشرك ورفع لواء التوحيد ، وفى يوم عرضت على سليمان خيل رائعة المنظر والمخبر من كل جواد متحفز يقف على ثلاث لما يتدفق به من حيوية وتحفز ، وكانت كثيرة فلم يزل يستعرضها ويظهر ابتهاجه بها حتى حانت منه نظرة إلى الغرب وإذا الشمس قد احتجبت وراء الأفق ، وإذ ذاك نسى عليه السلام جمال الصافنات الجياد . والصافن كما أسلفنا: الجواد الأصيل القوى تلقى أكثر وقوفه على ثلاث لقوته واستعداده ، ولم يعد للجياد فى نظره أهمية بعد أن أنساه حبه لها ورده من الصلاة ، وحينئذ صاح : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ وأمر فى الحال أن تذبح ويوزع لحمها على الفقراء تكفيراً لتلك الشهوة التى أنسته صلاته حتى توارت الشمس بالحجاب . ولحم الخيل كان ومازال حلالا ، وكان العرب فى الجاهلية ربما ينحر كريمهم فرسه لضيوفه إذا عدم الأنعام كما جاء فى قصة حاتم ؛ ولهذا فإن ذبحه للخيل لم يكن عقوبة لها ، وإنما كان كفارة لما بدر منه من تضييع الصلاة انشغالاً بتلك الخيل الجياد العتاق الجميلات القويات .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾

هذه الآية الكريمة هى كل ما أورده القرآن الكريم فى فتنة سليمان ، وهذا هو ما أشرنا إليه من المستوى الرفيع فى الأسلوب وخصوصاً حين يذكر أنبياء الله ، أما القصة الإسرائيلية فحاكت حول هذه الآية الكريمة قصة لا تطمئن إليها النفوس ، وهى قصة لا سند لها من صحيح السنة ، وعلى كل مسلم أن يبرأ منها ويعتقد أنها من افتراءات اليهود على ملك سليمان ، وقد حبكها الواضعون حتى صارت تعجب محبى القصص وخلاصتها : أن أحد الشياطين الذين كانوا فى خدمة سليمان اختلس خاتم ملكه وأنه غير شكله فتمثل على صورة سليمان ، وأنه احتل قصر سليمان، ودخل على نسائه وقال رواة القصة شلت ألسنتهم ، إن ذلك الشيطان كان يجتمع بنساء سليمان كما يجتمع الرجل بزوجته ، وأن تلك الحال استمرت أربعين يوماً ، ثم إن سليمان اشترى سمكة فوجد خاتم ملكه فى جوفها وعاد إليه ملكه ، وطرد الله الجسد الذى ألقى على كرسيه وهو فى زعمهم جسد الشيطان الذى سرق الخاتم .

إن التفسير الوحيد الذى أطمئن إليه هو إشارة من الحديث الشريف وردت فى صحيحى البخارى ومسلم وهى ما جاء فى حديث أبى هريرة قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان : لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله فقال له : صاحبه قل : إن شاء الله فلم يقل : إن شاء الله ، فطاف عليهن جميعاً فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ـ أى بنصف رجل ـ وأيم الذى نفس محمد بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون » . وعلى هذا يكون الجسد الذى ألقى على كرسى سليمان هو ذلك المولود المشوه الوحيد الذى أنجبه سليمان فى تلك الليلة ، وحين رأى سليمان ذلك المنظر المفزع تذكر ذنبه ، وهو أنه لم يقل : إن شاء الله ، ولم

يربط الأمر بالمشيئة الإلهية إما غفلة أو سهواً أو ثقة بإنفاذ الإله لعزيمته مادام فى الأمر جهاد فى سبيل الله ، وهذا هو التفسير الذى لا يمس عصمة الأنبياء ، ويجنب سيرهم العطرة ذلك الافتراء ، ويبرئ أزواجهم المؤمنات المطهرات من إرجاف الأدعياء .

القرآن ذكر للعالمين

بهذه الآيات الكريمات الثلاث ختم ربنا ـ جل جلاله ـ سورة « ص » ، وهى سورة كما أسفلنا بدأها ربنا ـ جل جلاله ـ بذكر القرآن ذى الذكر ، وأنهاها بذكر القرآن ذى الذكر .

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ* إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : ٨٦ ـ ٨٨] .

أولاً : سنقف إن شاء الله وقفة طويلة متأنية عند موضوع التكلف ، وهو ما تشير إليه الآية الكريمة ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ التكلف : هو عكس الأصالة والطبع ، والمتكلف : هو الذى يأبى أن يظهر لك على سجيته وطبعه وطبيعته فهو أبداً يكره الفطرة النقية ، والصبغة الإلهية ، ويحوط شؤونه كلها بسخف من التصنع يحجب رواء الأصاله وجمال السليقة لتعرض عليكم الأشياء مشوهة ممجوجة ، كما تعدو المرأة على وجهها وحواجبها وعينيها فلا تزال تصبغها وتطليها وتحرف فطرتها حتى تبتعد بخلقتها عن صبغة الله النبيلة الجميلة . والتكلف قد شاع فى أيامنا هذه حتى لقد كظ حياتنا بالمتناقضات والمفارقات ، ففى الشعراء متكلفون ، وفى طلاب العلم متكلفون وفى الموظفين متكلفون ، وفى النساء متكلفات ، وفى المتحدثين متكلفون ، وفى أهل الفن متكلفون ومتكلفات ، وعلى جميع الأحوال لا يكون التكلف إلا تزييفاً ممقوتاً، وتعملاً مرهقا وتشويها لفطرة الله التى فطر الناس عليها . ومن خصائص الفطرة: أنها يسيرة ، ولا تكلفك ثمناً ، ولا ترهقك عسراً ، فالمرأة مثلاً إذا أرادت أن تنطلق مع فطرتها الصافية لم

تتكلف لتجميل نفسها إلا الماء والصابون، أما إذا أرادت أن تتبع أهل التكلف ، فقد تصفف شعرها بالآلاف ، وقد تطلى وجهها بالمئات وقد تضيع وقتها بين المقصات والملاقط ، أو المقاريض والمناقيش والمساحيق ساعات كثيرة ، ثم إذا نظرت فى المرآة ؛ رأت لها شكلاً يمجه أهل الأذواق السليمة ، ولا يعجب به إلا قلة من مراض الأمزجة ، قليلى العقول ، فاسدى الأذواق ؛ ولهذا كان التكلف دواماً مصحوباً بخسارة مادية ، وخسارة معنوية معاً ؛ من أجل ذلك رأينا الآية الكريمة وهى تنفى التكلف عن رسول الله ﷺ وتذكر الخسارة المادية والمعنوية .

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ومعناها : قل يا محمد لقريش : ما أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلاً أو ضريبة أو أجرة ؛ لأننى بفضل الله لا أتكلف ولا أرهقكم بالتكلف ، فدينى هو الفطرة ، ومن السهل جداً أن تتبعوا الفطرة دون أن أكلفكم شيئاً ، وقد ذكر أشياخنا فى تعريف المتكلفين كلاماً جيداً : قال عبد الله بن مسعود من سئل عما لا يعلم فليقل : لا أعلم ولا يتكلف . ومن حديث ابن عمر أورده الدار قطنى : أن رسول الله ﷺ خرج فى بعض أسفاره ، فسار ليلاً فمروا على رجل جالس عند مقراة له (والمقراة الحوض الذى يجتمع فيه الماء) فقال له عمر : ياصاحب المقراة ، أولغت السباع فى مقراتك ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « يا صاحب المقراة ، لا تخبره هذا متكلف . لها ما حملت فى بطونها ولنا ما بقى شراب وطهور » ، وروى مالك رحمه الله : أن عمر - رضى الله عنه - خرج فى ركب فيهم عمرو بن العاص حتى وردوا حوضك فقال عمرو لصاحب الحوض ياصاحب الحوض هل ترد حوضك السباع ؟ فقال عمر ياصاحب الحوض لا تخبرنا إنا نرد على السباع وترد علينا . وفى الأثر : أن رسول الله ﷺ قال : « للمتكلف ثلاث علامات ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال ، ويقول ما لا يعلم » ؛ أى

أنه دائماً يحاول أن يظهر بمظهر الأغنياء وبهرجهم مع أنه فقير ، ثم هو دائماً يكلف نفسه ما لا يستطيع نيله ، وتراه بعدئذ يستحى أن يقول : لا أدرى ، فيتكلم بغير علم ، هذا وثم إشارة بلاغية دقيقة هى أن أدب القرآن الكريم هو أبعد شىء عن التكلف ، فقد جاء ﷺ بالقرآن من عند الله ، واقتدى بالقرآن وكان خلقه القرآن ، ومن ثم فقد نهى عن التكلف ؛ لأن القرآن نفسه غير ذى عوج ولا تكلف .

وأبغض ما يكون التكلف إذ صدر عن الأدباء والشعراء وطلاب العلم . ولعل من الملاحظ فى هذه الأيام أن التكلف قد ضيع الأدب والشعر ، فكثيرون من الشعراء فى أيامنا هذه خرجوا عن أصالة الشعر العربى الجميل ، واستسلموا إلى تكلف ، فأفسدوا علينا أدبنا ، وتذرعوا بما سموه الحداثة والتجديد ، فأسلمونا للعبودية والتقليد ، وبعد أن كنا نسمع من شعرائنا الأصيلين أمثال قول أبى فراس فى الفخر :

إذا مررت بواد جاش غاربه ... فاعقل قلوصك وأنزل فهو وادينا

وإن عبرت بناد لا يطيف به ... أهل السفاهة فاجلس ذاك نادينا

ويبح الضيف أولانا بمنزلنا ... نرضى بذاك ويمضى حكمه فينا

أصبحنا نسمع فى أدب الحداثة الزائفة والتجديد المزعوم أمثال قول أحد الكافرين :

ثدى النملة

يفرز حليبه

والفرس جهات أربع !

نعوذ بالله من الفساد والمفسدين .

أثر القرآن فى المؤمنين

سورة « الزمر » مع أنها من السور المكية ، لكن فى أسلوبها هدوءاً وانسياباً كأنه أسلوب السور المدنية ، ويبدو والله أعلم أنها من أواخر السور المدنية نزولا ، حتي لقد ورد أن قوله تعالى فى سورة الزمر: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ قد نزلت هى والآيات من بعدها بالمدينة المنورة، وقد وردت فى فضل هذه السورة الكريمة آثار صحيحة ، فقد روت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ سورة الزمر ، وسورة بنى إسرائيل ـ أى الإسراء ـ وعن وهب بن منبه : من أحب أن يعرف قضاء الله عز وجل فى خلقه فليقرأ سورة « الغرف » ، وسورة « الغرف » اسم آخر لسورة «الزمر» ؛ لأن إحدى آياتها تكررت فيها كلمة غرف مرتين ، وفى سورة الزمر آية من أعظم بشائر القرآن هى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر : ٥٣] وفى سورة الزمر عدد من الاستفهامات البلاغية تحدث تجاوباً قوياً فى نفس قارئها كقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ [الزمر : ٩] وكقوله عز وجل ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] وقوله ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾ [الزمر : ١٩] وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ﴾ وقوله : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر : ٢٢] وكثير غير هذه الاستفهامات الجميلة ، وقد ابتدأت السورة الكريمة بذكر القرآن والحث على خلوص التوحيد ، وإيراد البراهين العقلية على الوحدانية وتنزيه الله عن الشريك والابن وغير ذلك من ألوان الشرك ، ثم ختمت بعدالة ربنا ـ جل جلاله ـ يوم يقوم الناس بين يديه

للفصل والقضاء ، وحين يختتم مشهد الحساب بقول الملائكة والإنس والجن : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وإنى مورد هنا آية واحدة من هذه السورة المباركة ، ثم متبعها بعض ما تأوله بعض المتصوفة حولها ؛ لأن الغلو فى الدين مهلكة أردت الأمم من قبلنا .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر : ٢٣].

أولاً : هذه الآية الكريمة يحتج بها بعض المتصوفة حين يتظاهرون بالصرع فى حلقات الذكر ، وتراهم وقد غشى على بعضهم ، فإذا سألتهم عن ذلك قالوا : هذا هو الوجد والخوف من الله ، أما قرأت قوله تعالى : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾، وتتم المهزلة حين تمثل هذا الصرع المصطنع امرأة عند الرجال ، وهو أمر ما سمعنا أنه حصل من سلفنا الصالح من الصحابة والصحابيات الذين هم السابقون الأولون رضوان الله عليهم . عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها قالت : كان أصحاب النبى ﷺ إذا قرئ عليهم القرآن كما نعتهم الله تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم فقيل لها : إن أناساً اليوم يعنى - فى عصر بنى أمية - إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشياً عليه ، فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . ومعنى ذلك أنها استعاذت بالله من عملهم ، وخشيت أن يكون الشيطان هو الذى يفعل بهم ذلك . ومر عبد الله بن عمر - رضى الله عنه - برجل من قراء القرآن ساقطاً فقال : ما بال هذا ؟ قالوا : إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط ، فقال ابن عمر : إنا لنخشى الله وما نسقط ، ثم قال : إن الشيطان يدخل فى جوف أحدهم ، ما كان هذا صنيع أصحاب محمد ﷺ .

ثانياً : الخشوع عند سماع القرآن مطلوب ، وإذا سمعت القرآن فخشعت واقشعر بدنك ، فاعلم أنك فى هذه اللحظات المباركة قريب من الله ، فاغتنم الفرصة ، وادع الله ، فإنه وقت ترجى فيه الإجابة إن شاء الله . قرأ أبى بن كعب على النبى ﷺ ومعه أصحابه فرقت قلوبهم للقرآن ، فقال رسول الله ﷺ: « اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة » . وفى الأثر : إذا اقشعر جلد المؤمن من مخافة الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة البالية ورقها . وعنه ﷺ أنه قال : « ما اقشعر جلد عبد من خشية الله إلا حرّمة الله على النار » .

ثالثاً : إن سبب الخشوع عند قراءة القرآن أنه أحسن الحديث وأصدقه ، وأبلغه وأمتعه ، وأن الله ـ جل جلاله ـ يسره للذكر ، فأنت من وعده ووعيده فى ذكر عميق ، وتذكر موقظ نافع ، وقد جاء فى مناسبة الآية أن أصحاب النبى ﷺ كانوا يطلبون منه أن يحدثهم مستزيدين من حديثه ، فأنزل الله ـ جل جلاله ـ:﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ** ﴾ وقالوا له مرة : يارسول الله لو قصصت علينا ، فنزل قوله تعالى : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ** ﴾ . وفى الآيتين لفت نظر للمؤمنين أن يجعلوا من القرآن ورداً ممتعاً شافياً لصدورهم ، يمتعهم بأحسن الحديث ، ويسليهم بأحسن القصص . والحق أن من خصائص القرآن المعروفة : أنك تقرأ القصة فيه ، فتشعر أنك تقرؤها لأول مرة وتستمع بها كأنك ما سمعتها كقصة يوسف ، وقصة موسى وشعيب ، وقصة إبراهيم والأصنام وغيرها .

رابعاً : في قوله تعالي : ﴿ **كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ ثلاث كلمات تحتاج إلى إيضاح ﴿ **كتاباً** ﴾ حال ، ﴿ **مُّتَشَابِهًا** ﴾ معناه : يشبه بعضه بعضاً فى

الإعجاز والبلاغة ، والحسن والحكمة والصدق وحلاوة البيان ، ﴿ مَّثَانِيَ﴾ معناها : أنه يثنى أى يكرر فى التلاوة تبركاً أو تكرر قصصه ومواعظه فلا تمل ، تقشعر الجلود لتلاوته عند ذكر العذاب ، ثم تلين أى تطمئن عند ذكر الرحمة ، وقد نزله ربنا ليهتدى به السعداء ، أما أهل الشقاوة ، فلن تجد لهم هادياً أو مرشداً .
اللهم اجعلنا ممن تخشع قلوبهم لقرآنك ، وأعنا على حسن عبادتك .

رد مفحم على دعوى المشركين

هذه ثلاث آيات من مطالع سورة « الزمر » فيها رد على نوع من المشركين يدعون أنهم يؤمنون بالله ، لكنهم يتخذون من دونه آلهة يعبدونهم ، وإذا سئلوا عن هذا الشرك البواح قالوا : نحن لا نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله ويزلفونا إليه .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر : ٤ ـ ٦] .

أولاً : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ معنى هذه الآية الكريمة : لو أراد الله ـ جل جلاله ـ أن يسمى أحداً من خلقه ولداً ، لما ترك هذا الأمر للكافرين يتلاعبون بالأسماء كما يشاؤون ، ولقام هو عز وجل باختيار من يشاء من روائع الخلق وعظائم المبتدعات، ولم يدع هذا الشأن الهائل للأهواء تسميه تارة هبل واللات والعزى ومناة ووداً وسواعاً ويغوث ويعوق ، أو يسمونه العزير أو عيسى ، لكنه ـ جل وعلا ـ هو الواحد المنزه عن الولد والشريك ، وهو القاهر فوق عباده لا يلزم له ردء أو شريك أو ولد سبحانه هو الله الواحد القهار .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ

وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ معناها : أنه جلت عظمته ما خلق السموات والأرض باطلاً ولا لعبا ولا لهوا ؛ لأنه هو الحق ، وقوله الحق، ووعده الحق ، ومن ثم فقد خلق السموات والأرض لتوصل الناس إلى الحق وهو التوحيد . وحين يتدبر أولو العقول النقية والفطرة الوضيئة خلق السموات والأرض تراهم يرددون فى تأمل خاشع : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ﴾ [آل عمران : ١٩١] وفى قوله تعالى :﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ أى يلف أحدهما على الآخر كما تكور العمامة ، وواضح فى الآية : أن كلا من الليل والنهار يغشى الآخر مكوراً عليه ، والاشتقاق اللغوى يوحى بأن هناك صفة كروية فى عملية إلقاء الليل من فوق النهار، وإلقاء النهار من فوق الليل ، وهو أمر لم يكن العرب يعرفونه، ثم ذكر بعدئذ جل شأنه تسخير الشمس والقمر ، وأنهما يسبحان مسخرين بقدرته إلى وقت محدد حين ينهى الله الحياة الدنيا ، فتكور الشمس ، ويخسف القمر، وتدك الجبال ، ويرجع الخلق كله إلى الله لا إله إلا هو العزيز الغفار ، العزيز الذى هذا خلقه ، وهذه عزته ، والغفار الذى يرى ويسمع شرك العباد وجهلهم على خالقهم ، ثم هو بعد هذا يغفر الذنب ، ويبدل بالانتقام الرحمة ، وبالمؤاخذة الحلم .

ثالثاً : ثم تجىء الآية الثالثة لتذكر الحياة الإنسانية وخلق الإنسانية ، ليدل السياق على أن السموات والأرض والشمس والقمر ، وجميع ما فى السموات والأرض إنما هى مسخرة لهذا الإنسان ، وما عليه فى مقابل هذا التكريم والنعمة إلا أن يعبد الخلاق ويوحده . ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ؛ إنها نفس آدم أبى البشر عليه السلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أى حواء أم البشر رحمها الله . وفى التعبير إشارة إلى أن على المرأة أن

تظل دائمـاً فى كنف الرجل وظلاله ؛ لأنهـا منه خلقت . وحين يخطر ببـال المرأة أن تستعلى على الرجل أو تنافسه فى الهيمنة على شؤون الأسرة، فلتعلم أنها بهذا تخون الفطرة وتستجيب لنزغات شيطان يريد أن يحرمها صفاء الحياة ، وجمال المحبة ، ثم يقول ربنا بعد هذا : ﴿ **وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاج** ﴾ والأنعام تشكل أطيب قوت الإنسان ، مبيناً أنه خلق مع الإنسان قوته وركائبه تكريماً له ، وفى تعبيره جل جلاله بكلمة ﴿ **وَأَنــزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاج**﴾ إشارة إلى أن كل خلق من مخلوقات الله منـزل بأمره ، فكأنما أنزل من عنده ، ومن قبيل هـذا، قولـه تعالى فى الأعـراف : ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنـزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُم** ﴾ وقولـه ـ جل جلاله ـ : ﴿ **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد** ﴾ [الحديد : ٢٥] ولعل فى هذا أيضاً تشريفاً وتعظيماً لخلق هذه الأشياء كالأنعام التى هى عماد القوت والحديد الذى هو أقوى الأسلحة ، ثم ختم الآية الكريمة خاتمة تجلو قمة الإعجاز الخلقى ﴿**يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ الـلَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ**﴾ الظلمـات الثـلاث هى : ظلمـة البطن ، وظلمـة الرحم ، وظلمة الغشاء الذى يحيط بالجنين داخل الرحم . وبسبب ما جهز به الإنسان من بين سائر المخلوقات من العقل والتفكير والانفعالات والعواطف فإن عملية خلقه وتطورها خلقاً من بعد خلق هى أعظم شأنا من تطورات أى مخلوق آخر ﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ** ﴾ مالك الملك ، فإلى متى تنصرفون عن طريق الحق الأبلج المعالم لتضربوا فى متاهات الضلال ؟!

اللهم ارزقنا والإخوة القراء إيماناً ينتظم جوارحنا كلها : عقولنا وأسماعنا وأبصارنا واجعلنا عباداً ربانيين نسمع ونبصر بسمعك وبصرك .

إثبات الوحدانية بالمنطق العقلى

هذه آيات كريمات من سورة الزمر فيها إثبات للوحدانية بالمنطق العقلى وهى من الأمثال ـ أى التشبيهات ـ التى يوردها القرآن الكريم لتقريب الأفكار إلى العقول، ولتجديد الذكرى كلما غفلت القلوب .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ** ﴾ [الزمر : ٢٩ ـ ٣١].

أولاً : فى القرآن الكريم أمثال يضربها الله ـ جل جلاله ـ للعباد ؛ لكى يسهل القرآن للتذكر والذكر ، وأمثال القرآن تأتى فى الغالب على هيئة تشبيهات جميلة واضحة وجه الشبه ، وقد بدأت الأمثال فى المصحف الشريف من أول صفحة من صفحاته حين ضرب الله للمنافقين مثلين فى غاية من روعة التصوير من قوله تعالى ﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً** ﴾ [البقرة: ١٧] إلى قوله : ﴿ **ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير** ﴾ [البقرة : ٢٠].

ثانياً : وقد أوضح الله ـ جل جلاله ـ الهدف من ضرب الأمثال فقال : ﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ وإذن فالهدف من ضرب الأمثال : هو أن يضع الله ـ جل جلاله ـ بين أيدى الناس من نماذج البيان والبلاغة القرآنية ما يذكرهم بربهم كلما تدبروه ، وليروا بين أيديهم كلاماً عربياً

فى قمة الوضوح لا عوج له ولا التواء فتزكو فى قلوبهم جذور التقوى ، وتعمق فى عقولهم أصول الإيمان وهذا ما يشير إليه قوله :﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون** ﴾وقوله فى ختام الآية التالية : ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُون** ﴾ لأن تقوى الله ثمرة لذكره وتذكره والتفكر فى مظاهر عظمته وقدرته .

ثالثاً : وهنا يأتى المثل القرآنى الذى يثبت التوحيد بالمنطق العقلي والفكر المستقيم : ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ . ومعنى الآية الكريمة : لو أن خادماً يملكه ويتصرف فيه ويأمره وينهاه عدة شركاء بينهم مشاكسات ومعاندات ، وخادماً آخر لا يخدم إلا رجلاً واحداً ولا يتصرف فى شأنه إلا آمر واحد ، فكيف ترى يكون حال الأول ؟ وكيف يكون حال الثانى ؟ لا شك أن الأول الذى يخضع لعدة آمرين يعيش حالة من الفوضى والاضطراب حين تنهال عليه الأوامر والنواهى المتناقضات فى وقت واحد هذا يقول له : اذهب ، وذلك يقول له : اجلس ، وثالث يأمره بالتوجه إلى الشرق ، ورابع يأمره بإنجاز حاجة فى الغرب . إن من المستحيل على هذا الرجل أن يستقيم تفكيره أو تنتظم أعماله، أو تتحقق له أية خدمة ، والنتيجة الحتمية : أن يشل فكره وعمله كلية لمفارقات التناقض ، ثم لا يتمكن من عمل أى شيء أبداً . هذه هى حال هذا العالم الهائل والخلق الواسع ؛ لو أن المتصرف فى تدبيره شركاء متشاكسون ، إنه لا شك لن يستقيم له أمر وستعمه الفوضى فلا تنتظم نجوم فى أفلاكها ، ولا تسبح كواكب فى سماواتها ، ولا ينمو نبات على سنة حكيمة ،وستكون النتيجة : أن تفسد السموات والأرض كما جاء هذا المعنى فى سورة الأنبياء : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾ .

أما حين يكون الخادم مختصاً بمستخدم واحد فقط ، فالأمر عندئذ يختلف جداً ؛ لأنه عندئذ لن يستقبل أوامر متناقضة ، ولا نواهى مختلفة، وإذ ذاك ينظم أعماله طبق خطة موضوعة ، ويرتبها على طريقة واضحة لا تضارب فيها ولا تصادم ، وهذا هو حال هذا الكون حين يكون الآمر الناهى فيه واحداً لا شريك له .

وبما أن المعروف والمشاهد هو أن هذا الكون منتظم فى أفلاكه ونجومه وفى دورات الحياة لنباته وحيوانه ، وفى تركيب ذراته وعناصره ، وفى مسيرة رياحه ونزول أمطاره ، وفى تعاقب ليله ونهاره ، وتوقيت أنواره وأسحاره ؛ لهذا لا يمكن أن يكون هذا التقدير الحكيم إلا تدبيراً من إله واحد متفرد بصفات الكمال ، متوحد بالعظمة والجلال ، ومن ثم فقد انتظم على يديه أمر السموات والأرض ، وأنارت بنور وجهه الكريم كل الكائنات ، واستقام على حكمته الباهرة كل خلق ، فسبحان من أحسن كل شىء خلقه ، وسبحان من أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

رابعاً : قوله تعالى بعد هذا ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ تعبير فى غاية الاتساق والانسجام مع موضوع التوحيد، ومعناه : مع أنك يا محمد أشرف الخلق عند الله ، فإنك لا تملك أى شىء يوحى بشرك لك فى السموات ولا فى الأرض ، وسوف تموت كما يموت كل عامرى الكون ، ثم تبعث لتجادل عن نفسك كما تأتى كل نفس فى القيامة تجادل عن نفسها . فى هذه الآية الكريمة نعى الله ــ جل جلاله ــ إلى محمد نفسه وأكد له موته بأسلوب من التوكيد المكرر ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُون ﴾ . ولأشياخنا فى هذا النعى أسباب ذكروها ، فعزاه بعضهم إلى أنه تحذير من الآخرة وحسابها ، أو أنه حث على الأعمال الصالحة المنجية فى موقف الأهوال والخصومات يوم

القيامة، وقال آخرون : بل هو تمهيد الموت يمنع المفاجأة التى قد تعترى الناس عند موت الأنبياء حتى لا يختلفوا فى موته كما اختلف من قبلهم، وقد حصل هذا من عمر - رضى الله عنه - حين قال : من قال إن محمداً قد مات ؟ لأضربن بالسيف من يقول هذا . فكان أن ذكره أبو بكر رضى الله عنه فتلا عليه آيات منها هذه الآية الكريمة وأخيراً : قال بعضهم : ليكون فى هذا تسوية بين محمد وسائر الخلق فى الخضوع للقهر الإلهى الذى هو مظهر التوحيد ، والله أعلم .

النوم آية من أعظم آيات الله

هذه آية كريمة من سورة « الزمر » تتحدث عن آية من آيات الله ـ جل جلاله ـ وهى آية النوم ، والنوم لا شك نعمة عظيمة من نعم الله ؛ إذ هو سبات أى هدوء للجسد وراحة ممتعة يتوقف الجسم فيها عن بذل أى جهد كبير ، ومن ثم يخزن طاقته حين ينهض إلى عمله فى عزيمة متوقدة وهمة متجددة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢] .

أولاً : فى كل يوم يتوفى الإنسان ، فتراه وهو نائم لا يعى شيئاً مما يدور حوله ، ولربما ينقل بعض الناس ممن يثقل نومهم من مراقدهم مسافات بعيدة وهم لا يشعرون ، لا شك إذن أن النوم نوع من الوفاة ، وحسبك دليلاً على ذلك: أن الإنسان إذا نام فقد تلتقى روحه بأرواح الموتى ، وقد يدور حول الأرواح حوار ، إلى هذا يشير قوله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ . ومعنى هذا القول الكريم : أن الله ـ جل جلاله ـ يتوفى الأنفس وفاتين : وفاة إذا حان أجلها وجاء موتها وهذه يمسكها عنده إلى يوم حسابها، ووفاة يومية فى منامها أى حين تنام ، وهذه الأخيرة يرسلها ربنا ولا يمسكها عنده حتى يحين أجلها المسمى ووقتها المؤقت .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ إطناب تذييل من أعظم وأبلغ الإطناب ؛ لأنه ينقلك إلى وقفة من التدبر والتأمل حين تتصور إنساناً قد سجى ميتاً وآخر قد غطى نائماً كلاهما فى النظرة

العابرة متشابهان ، لكن أولهما توفاه ربه لانقضاء أجله ليمكسه عنده إلى يوم القيامة حيث يبعث للحساب والجزاء ، وأما الثانى فقد توفاه ربه لينسيه بالنوم متاعب الحياة ، وليمتعه بساعات من الراحة والهناء ، لقد جعل نومه سباتاً لجسمه ينقطع فيه لا عن العمل فحسب ، ولكن أيضاً عن التفكير فى أى شىء من شؤون الحياة ، فللّه ما أعظم حكمة الخالق حين يتوفى ليمسك الميت ، وحين يتوفى ليرسل الحى ، وفى هذا يقول رسول الله ﷺ : « كما تنامون فكذلك تموتون وكما توقظون فكذلك تبعثون » . وسئل رسول الله ﷺ أينام أهل الجنة ؟ فقال « لا ، النوم أخو الموت والجنة لا موت فيها » والحق أن النائم شبه ميت ؛ ولهذا رفع عنه القلم حتى يفيق ؛ لأن عقله يكون أثناء نومه نائماً معه ، فهو يتصرف بدون وعى ولاعقل ولا شعور .

ثانياً : إن المؤمن إذا مات رأى بشائر عمله فترجع نفسه إلى ربها راضية مرضية، ففى صحيح مسلم : « إذا خرجت رروح المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها » وفى سنن ابن ماجة : « تحضر الملائكة ـ أى عند وفاة الإنسان ـ فإذا كان الإنسان صالحاً قالوا اخرجى أيتها النفس الطيبة ، اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ، ورب راضٍ غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء » . ولعل مما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون**﴾ [فصلت : ٣٠].

ثالثاً : ومن أجل أن النوم وفاة ، وأن هنالك احتمالاً أن يمسك الله ـ جل جلاله ـ نفس النائم المتوفى كما يمسك روح الميت المتوفى ، من أجل هذا كان على النائم أن ينام ، وهو على خير أحواله من الطهارة والدعاء

وقراءة القرآن وشهادة التوحيد ، إنه إذ ذاك إذا توفى كان بإذن الله على الإيمان وخاتمة السعادة ، روى البخارى ومسلم رحمهما الله أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أوى أحدكم إلى فراشه ، فليأخذ داخلة إزاره فلينفض بها فراشه ، وهذا احتياط من وجود حشرة - أو شيء على الفراش كأذى أو غبار ، وليسم الله فإنه لا يعلم ما خلفه بعد على فراشه » . ويشير بهذا عليه الصلاة والسلام إلى أن التسمية تطرد الجن فإذا أراد أن يضطجع فليضطجع على شقه الأيمن ، وليقل : باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ، وإذا استيقظ فليقل: الحمد لله الذى عافانى فى جسدى ورد على روحى وأذن لى بذكره ، وفى حديث البخارى عن حذيفة أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول : « باسمك اللهم أموت وأحيا ، وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » . وفى الصحيحين والسنن أحاديث كريمة فيها أدعية للنوم واليقظة نختار منها هذين الدعاءين : روى الشيخان وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال لأحد أصحابه : « يافلان إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم أسلمت نفسك إليك ، ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ؛ آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت ، تباركت ربنا وتعاليت . يقول النبى -ﷺ- فإنك إن مت فى ليلتك مت على الفطرة ، وإن أصبحت أصبت خيراً » . ولمسلم والترمذى وأبى داود : كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول : « اللهم رب السموات ورب الأرض ، رب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك

شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر » . اللهم صل على هذا النبى الكريم الذى علمنا أدب النبوة على كافة أحوالنا وتقلبنا .

آية من أعظم بشائر القرآن

هذه ثلاث آيات من سورة « الزمر »: الأولى منها بشارة من أعظم البشائر القرآنية ، وهى بشارة تفتح أبواب التوبة أمام العصاة مهما عظمت معاصيهم ، أما الآيتان الثانية والثالثة فهما تحذير وإعذار من الرب ـ جل جلاله ـ للعبد أن ينتهز الفرصة بالأوبة والرجوع وألا يؤجلها فيموت على ما هو عليه من المعاصى، وإذ ذاك تزل القدم ، ثم لا ينفع الندم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر : ٥٣ ـ ٥٥].

أولاً : الآية الكريمة الأولى تعد من معجزات القرآن التربوية ، فالمذنبون فى مفهومها هم قوم جرتهم ظروف معينة إلى الجريمة ، وهؤلاء يمكنهم بالتوبة النصوح أن يمحوا الماضى الأسود ليستبدلوا به حاضراً مضيئا منيراً تجبُّ التوبة فيه ما قبلها ويتحول فيها أصحابها إلى البناء بدلاً من الهدم ، وإلى الإصلاح بدلاً من الإفساد ، وإلى الجنة بدلاً من النار . وقد جاء فى سبب نزولها : أن قوماً ممن أسلموا كانوا يتذكرون ذنوبهم الكبائر فى الجاهلية من قتل ، وسفك للدماء ، وزنى ، وخمر ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يقولون : إن ما تدعو إليه لحسن ولكن هل من توبة بعد الذى صدر منا من كبائر ؟! فنزلت الآية ، وكان وحشى قاتل حمزة من بين الذين كانوا يعتقدون أن مغفرة ذنوبهم مستبعدة نظراً لفظاعتها ، وكان هاشم ابن العاص وعياش بن سلمة قد أسلما ثم فتنتهما قريش بالتعذيب فارتدا،

ثم هاجرا أخيراً ، ولحقا برسول الله ﷺ ، فكان بعض الصحابة يهولون عليهما إثم الارتداد من أجل التعذيب ، فنزلت الآية الكريمة تطمئنهما. وأياً ما كان الأمر فالآية الكريمة بشرى عظيمة تبشر كل عاص بأن باب التوبة أمامه مفتوح ، وأنه إذا صدق مع الله فإنه يغفر ذنوبه مهما عظمت؛ لأن الله ـ جل جلاله ـ لا يتعاظم كرمة شيء ، ثم إنه عز وجل لا يكتفى أن يمحو الذنوب عن العصاة التائبين ، لكنه بفضله ومنه وكرمه ورحمته ، يبدل سيئاتهم حسنات، وهذا منتهى الكرم والرحمة .

ثانياً : هذه الآية الكريمة درس فى الأخلاق فالله العظيم المنتقم الجبار ، القادر القاهر يقابل كنود العبد الضعيف ومبارزته لربه بالمعاصى ، وتحدى أوامره الحكيمة ، يقابل كل هذا بالحلم والكرم وقبول التوبة . ومع أنه قادر على الانتقام من كل عاصٍ ، فإنه يمهله لعله يراجع نفسه ، ويعود إلى رشده ، والحق أن المتدبر لأحوال العباد مع ربهم يرى عجباً حين يرى أن خيره إليهم نازل ، وشرهم إليه صاعد ، ينزل عليهم الرحمة فيردونها بالشرك والمعصية والكنود، يبسط إليهم يده الكريمة بالتوبة فيصدون عنها إلى سبيل الشيطان ، يتحبب إليهم ـ لا إله إلا هو ـ بالنعم ظاهرة وباطنة ويتمقتون إليه بالمعاصى فى وقاحة سافرة، يرزقهم وحده ويشركون معه غيره ! ورغم كل هذا يشملهم الرب الكريم بالصفح الجميل ، والكرم العريض ، ولا يكاد أحدهم يقبل عليه حتى يرى منه ـ جل جلاله ـ إقبالاً عجيباً ، فللّه ما أرحم هذا الإله القاهر حين يتقرب إليه العبد العاجز الضعيف شبراً فيتقرب الإله القاهر فوق عباده ذراعاً ثم يتقرب بالذراع باعاً وبالمشى هرولة .

ثالثاً : ورد فى الحديث الصحيح أن الله جلت عظمته بمنه ورحمته وكرمه يفرح بتوبة عبده فرحة عظيمة كفرحة إنسان فقد ناقته وعليها زاده ،

فبحث عنها حتى أعياه البحث ، فنام ثم لما استيقظ إذا ناقته واقفة عند رأسه وعليها الزاد والمتاع ، فهو عندئذ من شدة فرحه يقول : ياربى لك الحمد أنت عبدى وأنا ربك ! يعنى أنه يخلّط لشدة المفاجأة يخلط ترى ماذا يفيد الله ـ عز وجل ـ من توبة عبده ليفرح بها كل هذا الفرح !! فى الحقيقة أنه لا يستفيد شيئاً ، ولو أصبح الناس كلهم على أتقى قلب رجل ولا ينقص من ملكه أن يصبحوا على أفجر قلب رجل ، لكن هذ درس إلهى يجلى رحمة القاهر وصفح القادر ، ورأفة الجبار ، وغضبة اللطيف .

رابعاً : لقد أتبع الله تعالى آية المغفرة العظيمة بقوله : ﴿ **وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون** ﴾ ، وفى الآية إشارة كريمة وهى ألا يتكل العبد على هذه البشارة فيأمن من مكر الله ، وإذا كانت الآية الكريمة فتحت له أبواب الرجاء والأمل ، فما يكون له أن يركن إلى المعاصى خشية أن يبادره الأجل وهو فى غفلته ، وإذ ذاك يأتيه العذاب ثم لا يجد له ناصراً من دون الله . إن من يستفيد من آية البشارة هو الذى يطرد اليأس من رحمة الله ، ويستبدل باليأس رجاء وأملاً فى الله ، فينيب إلى ربه ويسلم إليه مجدداً بالطاعة ، ويتبع أحسن ما أنزل إليه من الرب الكريم ، وإذ ذاك يظل فى مأمن من العذاب المباغت الذى يفاجئ العاصى عند انقضاء أجله ، فلا تنفعه التوبة ، نعم يوم يأتى أمر ربك ويدنو الموت ﴿ **لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً** ﴾ . وإذن فآية البشارة التى تبشر العباد أن الله يغفر الذنوب جميعاً ، هذه الآية الجليلة لا يستفيد منها إلا من يبادر بالإنابة وإسلام نفسه إلى الله ، واتباع أوامر الله الحكيمة الحسنة ، فإذا جاء أجله وجده الموت على أهبة الاستعداد للقاء الرب الكريم الذى يقبل التوبة عن عباده ويغفر الذنوب جميعاً .

آيات تجدد الإيمان وتصقل القلب

هذه أربع آيات من سورة « الزمر » ما قرأتها أو خلوت إليها أتدبرها إلا أحسست أن إيماني يتجدد ويصقل ويجلى مما علق به من غبار الغفلات . إنها تتحدث عن عظمة سلطانه ـ جل جلاله ـ وهو يطوى السموات والأرض بيمنه، وعن عظمة عدله حين تضيء الأرض يوم القيامة بنور عدله .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ** ﴾ [الزمر : ٦٧ ـ ٧٠].

أولاً : إنما يُقدِّر الملوك بمقدار اتساع سلطانهم ، وبمقدار عدلهم فى ملكهم، فعلى هذا القياس تعامل مع ملك الملوك الذى تكون الأرض كلها فى قبضته، وتطوى السماء على سعتها وعظمتها بيمينه . استحضر إذن هذه العظمة فى قلبك، ثم تصور كل الشركاء كم يساوون إزاء هذه العظمة ! لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عن الشريك والمثيل . نعم إن الخلق لا يقدرون ربهم حق قدره ، ولعل عبداً من الأغنياء أو ذوى السلطان يحظى بتقديرهم واهتمامهم أكثر من إلههم ـ جل جلاله ـ مع أن هذا العبد ، وكل الدنيا المحيطة به لا تساوى عند الله جناح بعوضة . إن هذه الآية الكريمة تملأ قلب المؤمن إجلالاً لربه ؛ فكلما عظم فى عينيه كبير تذكر أن الله أكبر ، وكلما شغلته دنياه بمتاعها وبهرجها وما فيها من

أبهة تجلى له ربه ، والسموات مطويات بيمينه ، وإذا الله فى عينه وقلبه أجل وأكبر ، وكلما مسه طائف من الشيطان ، فعظم فى عينيه طواغيت الدنيا تذكر عظمة الله وكبرياءه فإذا هو مبصر البصيرة ، يقول من حيث يشعر أو لا يشعر « الله أكبر » . وما أجمل قوله ـ عز وجل ـ فى سورة الأعراف وهو يصف يقظة القلوب المؤمنة عندما تذكر عظمة الله فتقدره حق قدره :﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**﴾ .

ثانياً : حين ذكرنا ربنا بعظمة سلطانه وهو يبدؤنا ، أراد أن يذكرنا بعظمة قدره حين يعيدنا ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ** ﴾ .

إذا أراد الله ـ جل جلاله ـ قبض الناس أمر إسرافيل أن ينفخ فى الصور أول مرة، وقيل : إن جبريل يكون معه فى النفخ ، كما جاء فى حديث أصحاب السنن ، فإذا نفخ إسرافيل لم يبق فى العالمين حى إلا ويصعق إلا من شاء الله وفى تفسير أشياخنا لهذا الاستثناء قال بعضهم : إنهم الشهداء الذين عاشوا أحياء، ويظلون أحياء ؛ لأنهم باعوا لله حياتهم فكافأهم بحياة لا تزول أبداً ، وقال بعض المفسرين : إنهم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ، لكن الله بعدئذ يأمر عزرائيل أن يقبض ميكائيل ، وإسرافيل ثم يقول له : مت يا ملك الموت ، فيموت ثم يكون آخر الخلق موتاً جبريل أمين وحى الله ، فإذا صمت العالم كله أمر ربنا ـ جل جلاله ـ فبعث إسرافيل ، وأمره بالنفخة الثانية ، فإذا نفخها لم يبق ميت إلا ويبعث حياً ، وإذا الخلق كلهم قيام ينظرون بارزون لا يخفى على الله منهم شىء فيسأل ربك الأعلى : لمن الملك اليوم ؟ ثم يجيب نفسه حين لا يستطيع مخلوق أن يجيب ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾ .

ثالثاً : إذا بعث الله العباد ، تجلى على الأرض عدله ، وهو عدل لا يحد مداه؛

لأنه تبارك وتعالى هو خالق العدل ، وكل العادلين فى الأرض إنما قبسوا العدل من ومضة نور من عدالة الله ، هنالك حين تتجلى عدالة الله على الأرض تضيء بنور مشرق رائع الجمال ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ ؛ أى بنور عدله فى القضاء ﴿ **ووضع الكتاب** ﴾ أى ونشرت صحف الأعمال ﴿ **وجيء بالنبيين والشهداء** ﴾ أى أحضر ربنا جميع الأنبياء للشهادة على أممهم وأحضر شهداء آخرين كعلماء أمة محمد الذين يشهدون لمن قبل الرسالة وعلى من رفضها ، وقد يكون الشهداء الذين جاهدوا فى الله ، وقتلوا فى سبيل الله من بين الشهود على الناس تشريفاً لقدرهم ولكى يشهدوا على جيوش الشيطان التى قاتلتهم ، ويشهدوا لجنود الله الذين كانوا فى صفوفهم . ﴿ **وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾ .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ **ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون** ﴾ درس من الرب ـ جل جلاله ـ فهو ليس فى حاجة إلى شهود ولا إثبات لكنه مع ذلك ينشر صحف الأعمال حيث لم يفرط فى الكتاب من شيء ، ولم يغادر صغيره ولا كبيرة إلا أحصاها ، ثم هو يحضر شهداء من الرسل والعلماء، وليس هنالك من يسأله عما يفعل ، لكنه العدل المطلق الذى يأبى إلا أن يقيم الحجة ساطعة على الملأ ، فإذا قضى ربنا بين الخلائق جميعها بالعدل لم يسع من قضى له ومن قضى عليه إلا أن يقولوا بلسان واحد: ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ ، إنه ـ جل جلاله ـ أعلم من كل عليم بأفعال عباده ، ومع ذلك يعطى كل نفس فرصة لتجادل عن نفسها ثم هو يقيم الأشهاد ويريها أعمالها فى كتابها الموضوع بين يديها . الله أكبر ، ما أجمل نور عدله وما أعظم نور فضله، الحمد لله رب العالمين غافرا ومنتقماً مثيبا ومعاقباً ، جباراً وحليماً . لا إله إلا هو له الحكم وإليه ترجعون .

بين الرجاء والخوف ، والإجلال والإكبار لله تعالى

سورة « غافر » هى أول الحواميم ، والحواميم سبع سور بدئت كل منها بحرفين ﴿حم﴾ وجميعها من السور المكية ، ويبدو أنها نزلت متتالية على حسب ترتيبها فى القرآن ، فنزلت غافر ، وتلتها فصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، وأخيراً الأحقاف . وقد ورد فى فضل الحواميم آثار طيبة ، فقد سميت ديباج القرآن وسميت العرائس ، ويبدو أنها والله أعلم سميت بهذه الأسماء الغالية الجميلة ؛ لأنها تجمع بين نبل الموضوع ، وهو العقيدة وبين سمو فى الأسلوب يجعل من يقرؤها كأنه من سحر البلاغة فى شذًى من روح التوحيد وريحان الألفاظ والمعانى : وتجمع ﴿ حم ﴾ على غير قياس على حواميم ويقال فى جمعها : آل حم ، وذوات حم ، والحرفان المذكوران جليلان قيل إنهما يشكلان اسماً عظيماً من أسماء الحسنى ، إذا ضمت إليهما « الر » و«ن» . والحق أنهما حرفان من حروف الهجاء كسائر الحروف فى مطالع السور الكريمة ، وقد روى الثعلبى فى فضل الحواميم : أن رسول الله ﷺ قال : « لكل شيء ثمرة وإن ثمرة القرآن ذوات حم هن روضات حسان مخصبات متجاورات فمن أحب أن يرتع فى رياض الجنة ، فليقرأ الحواميم » . وقوله عليه الصلاة والسلام : « مثل الحواميم فى القرآن ، كمثل الحبرات فى الثياب » ، والحبرات ثياب يمانية ناعمة النسج جميلة ، وقد لاحظت أن جميع الأوصاف التى وصفت بها الحواميم تدل على الجمال ، كالديباج ، والعرائس والروضات الحسان ورياض الجنة والحبرات ، والحق أن من يقرأ الحواميم قراءة متدبرة يشعر أنه بإزاء آيات جميلات تملك عليه لبه . وسوف أخصص بقية الصفحات ؛

لأضرب أمثلة من آيات الحواميم الكريمات ، أوردها على سبيل التمثيل لا الحصر وأحسب أنى سأكتفى بأمثلة من سورة غافر ؛ لأن فيها ما يكفى ويزيد .

فمن سورة غافر هذه الآيات التى تستوقف قارئها بين صفات تبعث الرجاء، وأخرى تبعث الخوف ، وثالثة تبعث الإجلال والإكبار : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [غافر : ٣] . ومن السورة نفسها هذه الآيات التى تصورر لك حملة عرش الرحمن وهم يستغفرون لك ويدعون لك ولذريتك وللمؤمنين أدعية يستعذبها كل لسان ، ويستبشر بها كل جنان وهى من أعظم نعم الرحمن ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [غافر : ٧ ـ ٩].

إن الملائكة فى هذا الدعاء الجميل يقدّرون شعور المؤمنين حين يدخلهم الله الجنة فيتفقدون بعض أولادهم ونسائهم ممن بطأ بهم الأعمال فماتوا مسلمين ، ولكن ظالمى أنفسهم تدعو لهم الملائكة أن يجمع الله بهم ذرياهم ليتم أنسهم ، فيستجيب لهم الحق جل جلاله بأن يلحق بهم ذريتهم المؤمنة ويغفر لهم ويبارك أعمالهم وأخيراً تدعو الملائكة للذين آمنوا أن يحميهم ربنا من السيئات، لأن السيئات هى وسائل إبليس التى يبعد بها العباد عن الجنة ، ومن آيات سورة غافر هذه الآيات الأربع ، التي يدر لها الدمع ويخشع لها القلب ويزداد بها الإيمان ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ * يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * الْيَوْمَ تُجْزَىٰ

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر : ١٤ ـ ١٧].

هذه آيات لا تحتاج إلى تعليق ؛ لأن فيها ذكراً لله بأجل صفاته العلا : ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ وفيها ذكر لرسله الكرام المصطفين الأخيار الذين يلقى الروح عليهم لينذروا يوم التلاق ، وفيها ذكر لليوم الآخر وما فيه من عدل مطلق وحساب سريع . هذا وفى سورة غافر خطبة رائعة احتلت صفحة كاملة ونصف صفحة من القرآن الكريم ألقاها رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، تمتد من أول الآية الثامنة والعشرين ، إلى نهاية الآية الخامسة والثلاثين، ثم من الآية الثامنة والثلاثين إلى نهاية الآية الرابعة والأربعين إلى أن ختمها بخاتمة من أروع الخواتيم البليغة : ﴿ **فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد** ﴾ [غافر : ٤٤]وهى خطبة فى قمة من البلاغة ، والرفق ، والإقناع المنطقى، هذا وفى سورة غافر تلك الآية الحبيبة المبشرة وهى قوله تعالى : ﴿**وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ [غافر : ٦٠] وهى تجلى كرم الإله الرحيم ؛ إذ يعد الداعى الطالب لفضله متعبداً ويعد تارك الدعاء مستكبراً ، فسبحانه من كريم يحب السائلين .

وأخيراً : فإن خاتمة سورة غافر هى درس بليغ بالغ الأثر لكل من تغلبه الغفلات وتسيطر عليه الشهوات ، فيؤجل التوبة والإيمان إلى أن يرى نفسه بين يدى العذاب وقد كان لديه وقت كاف أن يطيع الرسول لكنه كان مغروراً بما أوتى من علم محدود ومتاع زائل ، فظل بين المكابرة والتسويف ، حتى صدر أمر الله بالعذاب فصاح رافعاً عقيرته : آمنت بالله وحده ، وكفرت بكل شريك أشركته ! ولكن هيهات فإن لله ـ جل جلاله ـ سنة لا يبدلها ، وهى أن من أجل التوبة والإيمان إلى أن أحس بالموت ، فإن إيمانه لا ينفعه . ﴿ **فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ**

رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر : ٨٣ ـ ٨٥] اللهم زدنا بصيرة بكتابك الكريم ، واجعله شافعاً لنا بين يديك فى القيامة وحجة لنا عند الحساب .

بعض أسماء الله الحسنى وصفاته العلى

إن مطلع سورة غافر مثل أعلى من براعة الاستهلال ، والتأثير البلاغي ؛ إذ هو مجموعة من الأسماء الحسنى ، والصفات العلى ، تجلى ربنا ـ جل جلاله ـ غافراً رحيماً ، ومتفضلاً كريما ، ثم تجليه عزيزاً منتقماً متفرداً بالألوهية والكمال .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ حمٓ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ * مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ﴾ .

أولاً : سورة غافر هى أولى السور السبع المبدوءة بـ ﴿ حم ﴾ وهى أطول من كل زميلاتها وفيها موضوع رئيسى يعتبر ما قبله مقدمة له ، وما بعده تعقيباً عليه ألا وهو موقف ذلك الأمير المؤمن من آل فرعون حين وقف فى وجه الكفر ، وألقى فى الناس خطبة عظيمة جاهر فيها بالحق ، وأيد الرسالة ، وفند غطرسة فرعون واستعلاءه ، فكان أن وقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب .

وسورة غافر تدعوك فى كل آية منها إلى تأمل واستغراق ، فهى لم تقصص من أخبار الرسل إلا عرضاً خاطفاً لما لقيه موسى من عناد فرعون، ثم جاءت سبع صفحات منها عروضاً منطقية للتوحيد ودروساً إلهية فى عبادة الله وإجلاله. والقارئ لهذه السورة يرى ترديداً عذباً ومهيباً لأسماء من أسماء الله الحسنى ، كما رأينا فى مطلع السورة الذى تلوناه وكقوله جل جلاله : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ

مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ * يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر : ١٤ ـ ١٧] وكقوله عز وجل: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر : ١٩ ـ ٢٠] وكقوله: ﴿ ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾ [غافر : ٦٢] وما أروع وقع الآية الكريمة فى قوله تعالى : ﴿ ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ [غافر : ٦٤ ـ ٦٥]وقوله : ﴿ هو الذى يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ [غافر : ٦٨] .

هذا الحشد العظيم من آيات التوحيد توحيد الأسماء والصفات يجعل تلاوة من سورة غافر مناجاة وخلوة تأملية لها هالة من الخوف والرجاء ، ومن الإجلال والدعاء .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ معناه والله أعلم : أقسم لكم بالسر الذى أودعناه هذين الحرفين إن تنزيل القرآن هو من الله الذى يصدر وحيه من منطلق العزة العالية ، والعلم العظيم الواسع، وجائز أن يكون المعنى : إن هذا القرآن الذى أعجز أهل البلاغة فيكم ما هو إلا حروف عربية مما تنطقون لكنه تنزيل من الله العزيز العليم ، ومن هنا جاء إعجازه . وقد لوحظ أن جميع الحواميم بدأت بكلمة ﴿حم﴾ ثم جاء بعدها مباشرة ذكر الوحى والقرآن مما يدل على علاقة بين ذكر الحروف وإعجاز القرآن ففى مطلع غافر ﴿حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ وفى مطلع فصلت ﴿ حم * تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾

وفى مطلع الشورى ﴿ **حم * عسق * كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم** ﴾ وفى مطلعى الزخرف والدخان ﴿ **حم * والكتاب المبين** ﴾ وفى مطلعى الجاثية والأحقاف ﴿ **حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ وفى مطلعى الزخرف والدخان ﴿ **حم * والكتاب المبين** ﴾ .

ثالثاً : من الآيات التى جربت فى الهداية فهدى الله بها قوله تعالى : ﴿**غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير**﴾ ، فقد روى أن عمر ـ رضى الله عنه ـ علم أن أحد المجاهدين من أهل الشام كان كثير النوم لإدمانه الخمر ، فكتب إليه فى رقعة مطلع سورة غافر ودعا له وأمر من حوله من الصحابة أن يستغفروا له ، فلما وصلت الرقعة إلى الرجل وقرأها بكى وكانت سبب توبته . فقال عمر للصحابة قولته الشهيرة : إذا رأيتم أحدكم زل زلة فردوه وادعوا الله أن يتوب عليه ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه . هذه الآية تتوجها كلمة التوحيد وهى آية مبشرة ومنذرة وقد قدم فى الآية الكريمة صفتى المغفرة والتوبة على صفتى الانتقام والقدرة القاهرة ؛ لأن رحمة الله دواماً تسبق عذابه . والحق أن قارئ هذه الآية يشعر وهو يقرؤها أنه بإزاء رب كريم رحيم يعامل أهل الإيمان أكرم معاملة ، فيغفر ذنبهم ويقبل توبتهم ويعامل أهل الشرك بأعمالهم ، فيشتد فى عقوبتهم كما اشتدوا فى كفرهم وعنادهم ، ثم هو إلى جانب ذلك ذو طول أى ذو غنى وتفضل ومنٍّ وإحسان ، وأن مصير العباد إليه وحسابهم عليه ، فإذا اجتمعت فى فكره كل هذه الصورة العظيمة قدر الله حق قدره ، وأجله حق إجلاله ، وعظمت فى قلبه منزلته ، فعظمت بذلك منزلته عند ربه ، ومن ثم فإن قراءة هذه الآية الكريمة بركة يزكو بها الإيمان وتنير بها القلوب .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ **ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد** ﴾ آية من خمس آيات من سورة غافر كلها تدين الجدل الباطل ، الذى لا يبتغى به الوصول إلى الحق ، ولكن يقصد به أصحابه أن يدحضوا الحق ، والحق أن الجدل لا خير فى أكثره ، وفى الحديث الشريف : «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» ، ولا غرو فالجدل مضيعة للوقت الثمين مجلبة للعداء المبين ؛ ولهذا عده ربنا فى هذه الآية مظهراً من مظاهر الكفر أكثر من يحترفونه قوم همهم أن يحقوا الباطل ويدحضوا الحق ، وهؤلاء القوم قد تجدهم ذوى نعمة لكن عاقبتهم أبداً وخيمة ، وحسبك بمصيرهم هذا التهديد الإلهى البليغ ﴿ **فلا يغررك تقلبهم فى البلاد** ﴾ ومعناها: أن هؤلاء المحترفين للجدل الباطل مهما بدا لهم من انتصار ونعمة وتجول فى البلاد فلا يغرك تقلبهم ؛ لأن مصيرهم سوف يكون عقيما .

الملائكة يستغفرون للمؤمنين ويدعون لهم

هذه ثلاث آيات من كتاب الله ـ جل جلاله ـ هى من أحلى وأعذب وأحب الآيات على قلوب المؤمنين ، آيات تشعر المؤمن بكرامته عند الله ، وأى كرامة أعظم من أن يكون المؤمن نائماً على فراشه والملائكة يستغفرون له ويدعون له .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [غافر : ٧ ـ ٩].

أولاً : ملائكة الرحمن هم الصافون وهم المسبحون ، وما منهم إلا له مقام معلوم . وحملة عرش الرحمن ثمانية من أشرف ملائكة الرحمن ، ومن أشدهم خشية للرحمن ، وقد ورد أنهم ربما اشتد بهم الخوف فصار أحدهم كأنه العصفور وإذ ذاك ما يحمل عرش الرحمن إلا أمر الله وقدرته ، ومن أجل قربهم إلي الله وتشرفهم بحمل عرشه خصهم الله بالذكر فقال : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ ، وهو يعنى بذلك جميع الملائكة وبخاصة حملة العرش ، كل هؤلاء المكرمين بعد أن يفرغوا من تسبيح ربهم وتكرار شهادتهم بالإيمان بوحدانيته يشغلون بعدئذ ألسنتهم بالاستغفار للمؤمنين والدعاء لهم ، وهذا شرف للمؤمنين

اختصهم به من بين مخلوقاته ، وأى شرف وأى كرامة وأى كرم ورحمة أجلّ من أن يكون المؤمن نائماً ، أو غافلاً أو فى بعض شأنه والملائكة يستغفرون له ويدعون له ولزوجه وذريته ، دعاء ما قرأت أجمل منه ولا أجمع منه .

اللهم يا ربنا لك الحمد عدد ما وسعت رحمتك وكرمك وكرسيك العظيم.

ثانياً : فى دعاء الملائكة تتجلى آداب الدعاء ، فهم يبدؤون بتسبيح ربنا ـ جل جلاله ـ والثناء عليه بآلائه وأفضاله ، ويذكرون سعة رحمته وكرمه وعلمه ، حتى إذا أتموا الحمد والثناء ، وكرروا شهادتهم بالإيمان بوحدانيته شرعوا فى دعائهم ، وهذا أدب من آداب الدعاء يجمل بكل مؤمن أن يأخذ به ، فيبدأ بحمد الله والثناء عليه ، وشهادة التوحيد حتى إذا أتم تنزيه ربه والرضاء بربوبيته شرع يدعو وقد جدد بذكر الله إيمانه . وانظر كم جاءت العبارة القرآنية رائعة وهى تذكر هذا الأمر : ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** ﴾ .

ما أجمل مقدمة الحمد والثناء وشهادة الوحدانية . لاشك أن ربنا ـ وهو السميع المجيب ـ لن يرد هذا الدعاء الوضيء الطهور الصادر من قلوب امتلأت بالإيمان وحبّ الله ، حتى إنها لتسبح ربها بالليل والنهار ولا تسأم من تسبيحه وتقديسه وتعظيمه وتنزيهه . ويالها من بشارة للمؤمنين يستشف منها أن المؤمن إذا مات على التوبة والإسلام ، فإن الله ـ جل جلاله ـ لن يرد دعاء الملائكة له .

ثالثاً : وقد يركن راكن كسلان ، فيقول : أما والملائكة تدعو لى بكل هذا الإخلاص فإن ربى ـ جل جلاله ـ أكرم من أن يردهم وإذن فالجنة مضمونة بإذن الله ، ولمثل هذا نقول : إن الملائكة .. يستغفرون للذين آمنوا ، والإيمان كلمة لها مدلولها العظيم وشعبها العظيمة إنهم يقولون كما تروى عنهم الآية الكريمة : ﴿ **فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** ﴾ وإذن فلابد إذا أردت أن يشملك الدعاء أن تكون على كل حالاتك تائبا متبعاً سبيل الإسلام وهو الصراط المستقيم .

رابعاً : الدعاء الوارد فى الآيات الكريمات من جوامع الدعاء ، وانظر ما أعذب وقعه وأجمل مضمونه ومدلوله ، وكيف يزكو على التكرار ﴿ **ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم**﴾.

هذه هى الدعوة العظيمة الأولى : وهى أن يغفر الله ذنوب المؤمنين ويحميهم من عذاب جهنم ، ثم تمضى الآيات الكريمات إلى الدعوة الجليلة الثانية ﴿ **رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّات عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم** ﴾ ، هذه هى الدعوة الجليلة الثانية وهى خاصة بأسرهم وعائلاتهم بأن يشملهم الله بمغفرته ويجمعهم بذويهم فى واسع جنته ، ذلك لأن من سعادة المرء أن يرى من حوله آل بيته وأحبابه والملائكة تدعو للمؤمنين أن يتم الله سعادتهم بأن يلحق بهم فى الجنة ذريتهم ، والله ـ جل جلاله ـ قد سبق أن وعد المؤمنين أن يلحق بهم كل مؤمن من ذريتهم فقال تعالى فى سورة الطور: ﴿ **والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين** ﴾ [الطور : ٢١] أما الذرية الكافرة والعياذ بالله ، فلا يشملهم دعاء الملائكة ؛ لأن من صلح

لا يمكن أن يكون كـافـراً ، وصلح والله أعلم مـعناها : آمن بالله ومـات على الإيمان.

خامساً : أما الدعوة الأخيرة ، **فهى** على **قصرها** تشمل خيرى الدنيا والآخرة ، وتبعد بإذن الله شرور الدنيا والآخرة ، إنها كلمتان ﴿ **وقهم السيئات** ﴾ ومعناها : اللهم احمـهـم من كل ما يسـوؤهم فى الدنيـا والآخـرة . وأى أمنية أعظم عند الإنسان من أن يقيه ربه كل الشرور فى معاشه ومعاده . اللهم قنا وإخواننا المسلمين كل السيئـات ، وهيئ لنا سبيل البـاقيـات الصالحات .

مشهد رهيب من مشاهد الموقف العظيم

إذا أردت أن تعيش فى جو من الروحانية فيه مهابة الله وإجلاله ، وفيه مخافة الله ورجاؤه ، وإذا أردت أن تدنو من ربك ، فتقدره حق قدره وتعرفه حق معرفته، فاجلس إلى هذه الآيات الكريمات من سورة غافر لترى نفسك وجهاً لوجه أمام مشهد رائع من مشاهد الموقف العظيم حين تعنو كل الوجوه لوجه الله وتطوى السموات بيمين الله .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ * يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر : ١٤ ـ ١٧].

أولاً : الكافرون يكرهون التوحيد ، ويكرهون حكم الشريعة الإلهية ، وهذا أمر طبيعى ؛ لأن عبادة الأشخاص والأحجار ولأن حكم الطاغوت يهيئ جواً فوضوياً يضعف الضمائر ، ويثير المطامع والشهوات ، ويتيح لسدنة الباطل أن يملؤوا جيوبهم بالحرام ، الكافرون يكرهون التوحيد ؛ لأنه عقيدة العقول المستنيرة، وشريعة المنطق السليم والعقل والمنطق نور ؛ ولهذا فإن لصوص الخرافة والشرك لا يطيقون أن يعايشوا شريعة الإسلام وعقيدة التوحيد . ألم تر إلى ما حصل فى أجزاء من العالم الإسلامى حين اتجهت إرادة الشعوب فيها إلى حكم الشريعة الإسلامية ؟! طار صواب الكفر وطفق سدنة الباطل ولصوص الحريات ينفخون ؛ ليطفئوا نور الله

بأفواههم ! ولا يزال الدعاة إلى حكم الشريعة يواجهون سيلاً جارفاً من مؤامرات الكفر . ومع أن هنالك أكثر من حزب يسمى نفسه الحزب المسيحى ، والحزب القومى ، والحزب الاشتراكى ، فإن أخطر خطر يرهبه أهل الكفر هو أن يسمى حزب من الأحزاب الحزب الإسلامى ! هنا تتناعق البوم والغربان وترفع العقائر ، ويعم الخوف أوساط الكفر متهمة أنصار الله بالرجعية والأحكام القاسية ؛ ولهذا جاء التنبيه الإلهى فى الآية الأولى بأن المشركين لا يقفون مكتوفى الأيدى من عقيدة التوحيد ، وشريعة الإسلام، بل سيقابلونها بالكراهة.

ومن ثم فعلى المسلمين أن يتمسكوا بالعقيدة والشريعة رغم أنف الكفرة ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ومعنى الآية الشريفة : مهما تألب الكفر ليقاوم دينكم ، فإن عليكم معاشر المؤمنين أن تخلصوا التوحيد لله، وتدعوه وحده لا شريك له ، ولو كره الكافرون وعربد من حولكم المجرمون .

ثانياً : ولكى يهون على أهل التوحيد مكائذ أهل الكفر أتبع هذه الآية الأولى بآية تترك كل الآلهة عدماً معدوماً ، ونسياً منسياً إزاء عظمة الإله الواحد الذى تخشع له الأصوات ، وتعنو له الوجوه ، وتفنى الدنيا ليبقى وجهه ذو الجلال والإكرام .

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ ، هذه الآية العظيمة أتبعها ربنا - جل جلاله - دعوة التوحيد ليتلاشى أمام عظمة الخالق كل شريك ، ويخسأ كل طاغوت ، ويهون كل متعاظم . ومعنى الآية الكريمة : أن الإله الذى أمرتم بتوحيده وإفراده بكل العبادات ، هو إله عال عظيم العلو لا تُنال

درجات علوه . ثم هو مالك الملك ورب العرش العظيم الذى وسع كرسيه السموات والأرض. ثم إلى جانب هذه الصورة الهائلة العظيمة تراه الإله الكريم ، الرحيم ، الرؤوف بخلقه ، إذ هو لا يتركهم بدون مرشدين بل يلقى الوحى على صفوة من خلقه يختارهم بحكمته لكى يهدوا الناس صراطه الحميد وينذروهم يوم التلاق ، يوم يلتقى كل ظالم ومظلوم وكل عابد ومعبود ، وكل مضلل ومضلل، وكل تابع ومتبوع .

ثالثاً : ولكى تتكامل صورة القهر الإلهى ، ويقدر ربنا ـ جل جلاله ـ حق قدره مضت الآيات الكريمة تصف يوم التلاق الذى هو يوم الدين ، ويوم القيامة ، ويوم الحساب **﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾** هذا الإطناب فى وصف يوم التلاق ، قد ساهم فى تعظيم ذلك اليوم، ومن ثم ففيه أيضاً تعظيم لمالك يوم التلاق ، مالك يوم الدين . فى ذلك اليوم يكون العباد كلهم بارزين لا تخفى الأرض منهم شيئاً ؛ لأنها قد سويت جبالها فصارت قاعاً صفصفاً ، وبرزت صعيداً لا أثر فيه لشجر ولا جبل . ومن ثم فالعباد بارزون لا يخفى على الله منهم شيء هنالك فى الموقف العظيم حيث يعرض العباد على ربهم صفاً ، كما خلقهم أول مرة ، وكما ولدتهم أمهاتهم يتجلى ذو الملك والملكوت ؛ لينادى : **﴿ لمن الملك اليوم ﴾** ؟؟. يكون هذا النداء ـ والله أعلم ـ إما والخلق مصعوقون وليس منهم مجيب، وإما وهم محشورون إلى الله وقد عنت وجوههم إليه . فما منهم من يستطيع الإجابة ، هنالك حين لا يجيب الملوك ولا الشركاء يجيب الحى القيوم نفسه **﴿ لله الواحد القهار ﴾** ولكن ما أجمل أن يقترن ذلك القهر الهائل المطلق بالعدالة المطلقة التى لا تظلم مثقال ذرة . نعم إن

ربك واحد قهار ، ومقتدر جبار لكنه ذلك الرحيم الذى حرم الظلم على نفسه وجعله محرماً على عباده ، ومن ثم فيا أهل الموقف لا تظنن أن جبروت الإله القهار سينقصكم مثقال ذرة ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

خطبة رائعة تقرع الكفار

كنت أشرت إلى الخطبة الرائعة التى ألقاها ذلك الأمير المؤمن من آل فرعون واقفاً فى وجه الكفر والطاغوت وحده ، وكيف أنها احتلت صفحة ونصف الصفحة ، وأكتفى هنا بإيراد المقطع الأخير من الخطبة العظيمة ، وآيتين جاءتا تعليقاً عليها .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤١ ـ ٤٦].

أولاً : الأسلوب الخطابى الجيد له خصائصه المعروفه ، ولعل أهم خصائصه : الوضوح والقوة والمنطق المقنع ، وكل هذه الخصائص متوفرة فى خطبة الأمير المؤمن . ولعل سبب الوضوح فى الآيات هذه المجموعة من الألفاظ التى انتقيت من السهل الممتنع أما سبب القوة ، فهذا الصدق فى اللهجة وتلك الحماسة للدعوة ، هى حماسة منبعثة من حرارة الإيمان المخلص العميق .

ثانياً : الآية الأولى استفهام بلاغى تمتزج فيه عدة أغراض منها التعجب والإنكار والتحسر والنصح والإرشاد ، وحسبك أن تقرأ الآية ؛ لترى فى نفسك كل هذه المشاعر ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي

إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ ، إنها موازنة تجلى فيها البون الشاسع بين دعوة التوحيد المنجية ، ودعوة الشرك الموبقة ، ففى حين يدعو الأمير المؤمن إلى الإيمان بإله واحد يتصف بالعزة والمغفرة يدعوه جمهور قومه إلى عبادة شركاء لا يسمعون دعاء ، ولا يجيبون نداء . وانظر إلى الصفتين العلويتين من صفات الله - جل جلاله - وهما العزيز والغفار وهما صفتان يبدو فيهما تقابل بديعى جميل ، فالعزة تصدر عن العظمة والملكوت والقهر ، والمغفرة تصدر عن الرأفة والرحمة والتوبة ، وكفى بهذا الإله العظيم أن يصدر عن عزة قاهرة لا تنال وعن مغفرة قريبة المنال.

ثالثاً : فى قوله تعالى : ﴿ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ ﴿ لا جرم﴾ استعملت فى القرآن الكريم بمعنى : حقا ، ويصبح معنى الآية الكريمة : أما والآلهة التى تدعوننى إليها ليس لى علم بحقيقتها وقدرتها، ولا تصرفاتها ، وتحركاتها ، ولا نفعها ، وضررها فهى إذن آلهة مزيفة ليست لها دعوة فى السموات ، ولا فى الأرض ، أى لا قيمة لها ولا منزلة ، ولا يدعوها أو يقصدها أحد من أهل السماء، ولا من أهل الأرض ، ومن هنا فالمرجع الوحيد لا يكون إلا إلى الله ، أما المسرفون وهم الذين زادوا عن الحد فى غلوهم حتى أوردهم الشرك ، فهؤلاء هم أصحاب النار ؛ لأن أهل الشرك قد حرم الله عليهم الجنة .

الآية الخاتمة فى قمة ما خطته البراعة وأبلغ ما صدرت عنه اليراعة ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ، إنها ثلاثة مقاطع كل مقطع منها يكمل الآخر ﴿ **فستذكرون ما أقول**

لكم ﴾ عبارة تحمل معنى الإنذار ، ومعناه : إذا أنتم خالفتم النصح فسوف يأتيكم يوم عصيب تتمنون فيه لو أطعتموه ، وإذا أظهرتم الآن غفلة وتناسياً للإنذار فإن ثمة يوماً ينتظركم ليذكركم ما تغافلتم عنه ونسيتموه . أما قوله : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّه ﴾ فمعناه : أننى بعد أن استنفدت جهدى فى دعوتكم إلى الحق وإرشادكم إلى الخير لم يبق أمامى إلا أن أوكل أمرى إلى الله ـ جل جلاله ـ ؛ لأن العبد يملك أن ينذر ويعظ ويرشد ولكنه لا يملك أن يهدى ؛ لأن الهادى هو الله . وما أشد تناسق الخاتمة ومقدماتها ، وهو يختم الآية الكريمة بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَاد ﴾ نعم إنه بصير بعباده من دعاة الخير والإيمان ، وهو أيضاً بصير بدعاة الكفر والطغيان .

خامساً : فى الآيتين الأخيرتين إشارة إلى عذاب القبر ، وعذاب الآخرة، فعذاب القبر ـ والله أعلم ـ على شكل عرض مرهب يرى فيه المشرك مقعده من النار ، ويتم يومياً مرتين صباحاً ومساء ، حتى إذا بعث من قبره لم يكن الأمر عرضا مرهباً فحسب وإنما دخول أليم فى جهنم ، وقد ورد فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ؛ إن كان من أهل الجنة ، فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار ، فمن أهل النار . فيقال :هذا مقعدك حتما يبعثك الله يوم القيامة إليه » . وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ ، والآيتان رهيبتان حقا تتكرر فيهما الكلمات المخيفة : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةَ ﴾ سوء العذاب ﴿أَشَدَّ الْعَذَاب﴾ . نعم إنهما ترسمان جواً من الرعب ينتقل

بالقارئ من عذاب القبر الذى يكون عرضاً على النار إلى العذاب الآخر الذى يصلى فيه المشركون حر الجحيم ﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ . اللهم اجعل قبورنا روضات من الجنات ، واجعل مآلنا نعيم الغرفات ، اللهم واحفظنا من الشرك والسيئات، ونولنا بعفوك ورحمتك ومغفرتك على الدرجات .

آية بشرى لكل مؤمن

هذه آية واحدة من سورة غافر ،كلما قرأتها تكشف لى جديد من أسرار بلاغتها ، ودلائل إعجاز وعظمة مضمونها . إنها آية من آيات البشرى يفزع إليها المؤمن كلما حزبه أمر من الأمور .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] .

أولاً : كل باب تطرقه غير باب الله قد تراه أحياناً موصداً ، وكل حاجة تلجأ فى قضائها إلى غير الله تشعر إزاءها بذل وإحراج وخجل ، وكل عبد تمد إليه يدك تراه قد يعطى وقد يمنع ، وقد يرضى لمسألتك وقد يغضب ، لكن هنالك وهاباً كريماً سؤاله عز وعبادة وحسنات ، إذا دعوته لم يكتف أن يجيب دعاءك لكنه يعتبر دعاءك هذا عبادة يثيبك عليها الحسنات ، وفى هذا يقول الشاعر :

لا تسألن بنى آدم حاجة ... وسل الذى أبوابه لا تحجب

فالله يغضب إن تركت سؤاله ... وبنى آدم حين يسأل يغضب

ثانياً : قال أكثر المفسرين فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ بأن معناه : الذين يتركون دعائى ولا يسألوننى استكباراً منهم أو استنكافا ، وفى الحديث الصحيح : « الدعاء مخ العبادة » ، وفى الأثر: ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها . ولا غرو فالله ـ جل جلاله ـ يحب أن تعرض حوائجك إليه ، وتجعل رغبتك دواماً إليه . وإنها لعبادة يحبها الله ، ويثيب عليها أن تجلس فى بيت من بيوت الله مستقبلاً القبلة ، ثم تدعو ربك بكل خيرى الدنيا والآخرة . إنك عندئذ تكون بعين الله راضياً عنك

مقدراً لعبادتك بسؤاله ، وعلى عكس ذلك موقف ابن آدم فهو قد يلبى طلبك أول مرة ، لكنه لا يلبث أن يستقبلك بعدها ببرود ، ثم إذا هو فى المرة الثالثة متجهم يتهم السائل بالإلحاف والإلحاح.

ثالثاً : يتجلى فى هذه الآية كرم الله الواسع العريض ، وهو يشترط على نفسه ولا يشترط على من يدعوه . إنه لم يقل : ادعونى بعد أن تؤمنوا بى وتطيعونى ، وإنما قال فقط : ﴿ **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ والجملة طلبية فيها معنى الشرط ، لقد قال فى معرض العبادة والدعوة إلى الحق : ﴿**فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون**﴾ ، وفى معرض الدعاء اكتفى بقوله : ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم** ﴾ لم يطلب من عبده إلا الدعاء واشترط بحلمه ومنه على نفسه الاستجابة .

رابعاً : لقد جاء فى فضائل أمة محمد : أنها أعطيت من الخصائص ما لم تعطه الأمم من قبلها ، فقد جاء فى حديث عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال « أعطيت أمتى ثلاثاً لم تعط إلا للأنبياء . كان الله إذا بعث النبى قال له : ما جعل عليك فى الدين من حرج وقال لأمتى : ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ وكان إذا بعث النبى قال : ادعنى أستجب لك ، وقال لهذه الأمة : ﴿ **ادعونى أستجب لكم** ﴾ وكان إذا بعث النبى جعله شهيداً على قومه، وجعل هذه الأمة شهداء على الناس» .

نعم ، لقد كانت الأمم السابقة إذا أراد أحدهم أن يدعو الله ذهب إلى نبيه ليدعو له ربه ، أما أمة محمد فيكفى أى مؤمن منهم أن يتوجه إلى ربه كفاحاً فيدعوه بما شاء . ولما أرادت بنو إسرائيل أن يعرفوا أوصاف البقرة لم يتوجهوا إلى الله بالدعاء وإنما ذهبوا إلى نبيهم ثلاث مرات يقولون له

كل مرة : ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ﴾ .

خامساً : قـوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِيـــنَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ معنى ﴿داخرين﴾ : صـاغرين ، ويكون معنى الآية الكريمة : أن الذين يتركون دعائى ومسألتى استكباراً ، فسوف يدخلون جهنم وهم أذلة ، وإذلالهم هذا جزاء وفاق لاستكبارهم عن دعاء ربهم . وأى مثل فى الجود والكرم أعظم من أن يعتبر السائل محسناً متعبداً ويعتبر تارك الدعاء مستكبراً مستنكفاً عن عبادة ربه !

سادساً : للدعاء آداب ؛ لأنه مخاطبة لملك الملوك ـ جل وعلا ـ وتوجه إليه ، وعرض للحوائج عليه ، فمن آداب الدعاء أن تتقرب إلى الله بالحسنات ، وأن تجعل مطعمك حلالاً ومشربك حلالاً ، وكل ما تتغذاه حلالاً ؛ لأن من أراد أن يقصد عظيماً فى حوائجه لا يجوز أن يقدم بين يدى قدومه معاصى . وقد أنكر النبى ﷺ على العبد تراه أشعث أغبر يرفع يديه إلى السمـاء : يارب يارب ، ومـأكله حـرام ، ومشربه حـرام ، وغـذى بالحرام، فأنى يستجاب له ؟! هذا ومن آداب الدعاء أن يبدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله ﷺ وأن يكون على طهارة تامة ليكون ظاهره كباطنه فى الوضاءة ، وأن يستقبل القبلة ويخلص قلبه من شوائب الدنيا الفانية ، وأن يكثر قبل الدعاء وبعده الاستغفار لذنبه ، ثم يختم الدعاء بالصلاة على رسول الله ﷺ كما بدأه، والله ـ جل جلاله ـ يقبل كل دعوة بالصلاة على نبيه ، ومن ثم فسوف يقبل أول دعاء المصلى ، ولن يبخل أن يستجيب آخر الدعاء .

آيات الله المبثوثة فى الكون دليل على قدرته وسفه الكافرين

سورة فصلت هى إحدى الحواميم ، وهى من السور المكية الكريمة ، ومن ثم فإن موضوعها الرئيسى يدور حول العقيدة ، وإثبات الوحدانية واليوم الآخر . وفى معالجة هذا الموضوع العظيم تسلك السورة الكريمة أساليب شتى من الترغيب ، والترهيب، والبشارة ، والنذارة . وفى السورة الكريمة ثلاث آيات فيها تقسيم للأيام الستة التى خلق الله ـ جل جلاله ـ فيها السموات والأرض ، وكيف نالت الأرض نصيباً موفوراً من هذه الأيام .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ [فصلت : ٩ ـ ١٢] .

أولاً : الآية الأولى تبين عظمة قدر الأرض عند الله ـ جل جلاله ـ وقد جاءت هذه العظمة ؛ لأن الأرض درجت عليها الحياة الإنسانية منذ استخلف الله فيها آدم عليه السلام، ودرجت عليها النبوات تنير الدنيا بوحى الله . فقد استمدت الأرض عظمتها عند الله من وجود الإنسان عليها ، والإنسان هو ذلك المخلوق العظيم الذى خلقه الله بيديه وسواه وعدله على أجمل تقويم وأحسنه ، ونفخ فيه من روحه ، حتى إذا استوى فى أحسن تقويم علمه الأسماء وحين أصبح عالماً أسجد الملائكة لعلمه ، فلا غرو

إذا استغرق خلق الأرض وتجهيزها للحياة الإنسانية أربعة أيام من أيام الله الستة التى خلق فيها السموات والأرض . إلى هذا تشير الآية الكريمة الأولى التى بدأها الله باستفهام يوبخ فيه الكافرين **﴿قل إئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ﴾** .

ثانياً : من دلائل عظمة الأرض عند الله أنه خلق كتلتها فى يومين . ثم لما مادت ثبتها بالجبال من فوقها لتستقر وتصبح ذلولا ممهدة للإنسان ؛ ثم أودع فيها البركة ، حتى إن الفلاح ليغرس بذرة صغيرة فربما تصبح سرحة سامقة ظليلة . وما أجمل قوله تعالى : **﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾** . ومعنى هذا : أنه قبل أن يخلق الحياة الإنسانية على كوكب الأرض أودع فى باطن الأرض وسطحها وجوها ذخائر وكنوزاً من الطعام والشراب تكفى قوتاً للإنسان إلى قيام الساعة . وكل من يتخوفون على الإنسانية أن تنفد أقواتها واهمون لم يقدروا ربهم حق قدره ؛ إذ كيف يخلق الكريم الجواد مخلوقاً ويضيعه ؟! وإذن فما على الإنسان إلا أن يفتش عن خزائن رزق الله فيغوص لها فى الأعماق ويلتمسها فى الزراعة والتعدين والصيد وتربية الحيوان والطير والحشرات النافعة ، وسيجد بإذن الله أن ربه قد قدر لأهل الأرض أقواتهم قبل أن يخلقهم ، وأن هذه الأرض مباركة بارك فيها ربها منذ خلقها ؛ لأنها مسجد للمؤمنين تستقبل صلاتهم وحسناتهم وعبادتهم وتوحيدهم ، وهم يفعلون هذا لا تسخيراً كالملائكة، ولكن من منطلق الفكر المستنير والعقل المفكر الواعى والتدبر فى الملكوت العظيم ، والعلم المضىء بنور الله .

ألا ما أعظم بركة الأرض سجلا للصالحات ، وآثاراً للصالحين ، وشاهدة يوم القيامة حين تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها ، فأمرها أن تشهد بما حصل عليها من خيرات وحسنات وباقيات صالحات ، ومن معاصى ومبارزات وخطايا. إذا تحدثت أوساط فى هذه الأيام عن حقوق الإنسان وكرامة الإنسان ، فإن هاتين الآيتين من كتاب الله هما أعظم شاهد لمنزلة الإنسان وكرامة الإنسان ، وكيف لا وقد خلق الله ـ جل جلاله ـ آلاف الملايين من نجوم السماء ومجراته الهائلة خلقها الله ـ جل جلاله ـ فى يومين وفى الوقت نفسه ، أو قبل ذلك خلق الأرض فى يومين وقدر فيها أرزاقها فى يومين ، بل لقد أعلن أن جميع النجوم فى السماء من الشمس إلى أصغر نجم لا يرى بالعين المجردة ،كل هذه خلقت مسخرة للإنسان ، يشير إلى هذه الحقيقة قوله تعالى : فى سورة الجاثية : **﴿وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ﴾** .
ألا ما أعظم الإنسان حين يعرف قدر نفسه ويتفهم رسالة خلقه ، فيوحد الذى خلقه وينبذ من قلبه كل معبود غيره . وما أحقر الإنسان إذا سفه نفسه ونسى خلقه وجعل أنداداً للذى سخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه !

ثالثاً : لقد كانت نعمة ربانية جليلة من الله على الإنسان أن يبدأ الرب بخلق الأرض وإعدادها للحياة الإنسانية ، حتى إذا فرغ من كل ذلك استوى إلى السماء، وهى دخان ، **﴿ فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ﴾** فما من ساكن من سكان السماء إلا وهو مجند للقيام بأمر الله ، وما من إنسان على وجه الأرض إلا وعليه حفظة من أهل السماء يحفظونه بأمر الله ، وإلى هذا تشير الآيتان الكريمتان : **﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها**

قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ . الله أكبر ، منذ اللحظة الأولى لخلق السموات والأرض قامتا بتنفيذ أمر الله طوعاً ، فهما لا ينحرفان قيد شعرة عن مدار يسيرهما ربهما فيه ، فى حين ترى إنساناً ضئيلا يأمره ربه بالأمر مما فيه منفعته فيعصى ويجادل !

أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة !

هذه الآيات من سورة « فصلت » وهى من أعظم الزواجر التى تزجر العبد عن معصية الله ، وذلك لأنها تذكر الإنسان بأن عليه شهوداً لا يفارقونه طرفة عين يشهدون عليه يوم القيامة ، وهم شهود لا يستطيع أن يجادل فى صدقهم ؛ لأنهم داخلون فى ذاته التى يتكون منها . إنهم سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، وجلده الذى تكمن فيه حاسة اللمس .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون* حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** ﴾ [فصلت : ١٩ ـ ٢٣] .

أولاً : يستعمل القرآن الكريم شتى أساليب البلاغة ؛ لإغراء العباد بالحسنات والطاعات ، وزجرهم عن المعاصى والسيئات . وهنا فى هذه الآيات الكريمات ذكرى بايغة بالغة وددت لو أن كل إنسان نقشها فى قلبه وجوارحه ، وحفظها فى ذاكرته وضميره ؛ لأنها بحق تؤكد أن معصية العبد لربه تدل على جهله وحماقته ؛ لأن الله جلت عظمته سيحضر له شهوداً يشهدون أنهم رأوه متلبساً بكل جرائمه ، ويلتفت هناك فى موقف الحساب ؛ ليتفحص أولئك الشهود فيرى عجباً مدهشاً . إن الشهود الذين يدينونه ويفضحون إجرامه هم سمعه وبصره ، وجلده إذا ذاك يذهل

العصاة؛ لهول المفاجأة ، ويسألون جلودهم ؛ لأنها هى التى سوف تتلظى بلفح جهنم أكثر شيء يقولون لتلك الجلود ﴿ **لم شهدتم علينا** ﴾ ؟؟ ويلاحظ أنهم استعملوا فى سؤالها ضمير العاقل فلم يقولوا : لم شهدت علينا بل قالوا : ﴿ **لم شهدتم علينا** ﴾ ؛ لأنها رأوها تتكلم كأفصح ما يكون العقلاء ، وهو سؤال يحمل معنى التعجب والإنكار والتوبيخ ، وهناك تجيبهم جلودهم إجابة تزيدهم حسرة وندامة ، واحتقاراً لأنفسهم : ﴿**أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون**﴾ وهو جواب فيه منطق، ولوم ، وتوبيخ، إذ يذكرهم أنهم حين عصوا ربهم جهلوا قدره وقدرته ونسوا أنه هو منطق كل شيء ، وهو الذى بدأ الخلق وهو الذى يقدر على إعادته ، ومن ثم فقد كانت مبارزتهم لربهم بالمعصية ضرباً من الحماقة والضعف حين يحادون ربا هذه صفاته .

ثانياً : إن جواب جلودهم كان خطبة وعظ هو من أبلغ ما يهز النفوس ؛ إذ فى كل مقطع فيها هز عنيف لأعماق النفس ﴿ **قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** ﴾ هى خطبة فى قمة البلاغة تتكون من ستة مقاطع لكل مقطع منها ألق بلاغى ينير قلوب المؤمنين ويعشى أعين الكافرين .

ثالثاً : إذا حشر أعداء الله إلى النار فإنهم يوزعون ، أى يجمعون فى مكان فيزدحمون فتقف لهم الملائكة تزعهم ، كما تزع الشرطة الجمهور المتزاحم لتقفه عند حده . فإذا وصلوا مكان الحساب عرض ربهم عليهم

سيئاتهم لكنهم يجادلون عن أنفسهم على الرغم من إحصاء الكتاب ، وشهادة الكرام الكاتبين، ويقولون : أنت ياربنا أجرتنا من الظلم ، وقلت وقولك الحق : ﴿ **لا ظلم اليوم** ﴾ فيقول قائلهم : أنا لا أجيز على نفسى إلا شاهداً منى ، فيختم على فمه ، وفى الحال تنطق أيديهم وأرجلهم ، وأعينهم ، وآذانهم ، وجلودهم . ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيلوم أعضاءه التى شهدت عليه ويقول لهن : بعداً لكن وسحقاً ، أجادل عنكن وتشهدن علىّ ؟ فيقلن له : ﴿**أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء**﴾ وتضيف قائلة : لقد كنتم تبالغون فى التستر ظناً منكم أن الله لا يعلم كثيراً من جرائمكم ، ولم تتوقعوا أن تشهد عليكم أعضاؤكم ، وظننتم أن الله تخفى عليه أعمالكم . إن ذلك الظن الجاهل الأحمق هو الذى أهلككم وأوقعكم فى هذا الخسران . جاء فى صحيح مسلم من حديث ابن مسعود : « أنه اجتمع عند البيت ثلاثة نفر قرشيان وثقفى أو ثقفيان وقرشى ، قليل فقه قلوبهم كثير شحم بطونهم ، فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما نقول ؟ فقال الآخر : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا . وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا » فنزل قوله تعالى : ﴿ **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا قلوبكم ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيراً مما تعملون** ﴾ .

رابعاً : من الناس ـ وبخاصة ـ ذو المال والنفوذ من لديه قدرة هائلة على التخفى والتستر ، فتراه فى خلوته وسره شيطاناً مريداً لا يتحرج من معصية ، ولا يخاف ذنباً حتى إذا كانت علانيته رأيته يتبتل ويتظاهر ، ويبدو فى ثياب أهل صلاح . ومثل هذ هو أجدر من يذكر بهذه الآيات الكريمات ؛ لأنه إذا استخفى من الناس ، فكيف يستخفى ممن هو أقرب إليه من نفسه التى بين جنبيه ، ومن حبل وريده الذى تتدفق فيه حياته ، وإذا تمكن أن

يستتر عن أعين العبيد فكيف يتقى شهادة يديه ورجليه وعينيه وأذنيه وجلده ؟!

اللهم اجعل سرنا فى طاعتك وتقواك كعلانيتنا ، وجنبنا الرياء المردى والسمعة الزائفة والنفاق الموبق ، اللهم وارزقنا حقائق الإيمان ، ومراتب الإحسان ، ورحمة القاهر الديان .

قرناء السوء طريق الهلاك

هاتان آيتـان من سورة « فـصلت » ، تبـينان مـدى مـا يوقـعه قـرناء السـوء بعضـهم ببعض حين يلتقون تحت شعار الفوضى ، والغوغائية ، والدفاع عن الهوى والشهوات والباطل .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين * وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القران والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾ [فصلت : ٢٥ ـ ٢٦].

أولاً : كـثيـر من الناس إذا انقطعت حـجـة باطلهـم وسطعت براهين الحق فى عيونهم ، وعلموا علماً يقينا أن ما هم عليه هو الضلال ، وأن ما يدعون إليه هو الهدى ، فإنهم لا يفعلون فعل العقلاء ، فيعودون إلى الحق ، ويقلعـون عن التـمـادى فى البـاطل ، لكنهم يخلدون إلى الأهواء ، ويفزعون إلى الغوغائية . وقد يستخدمون الصخب ورفع الصوت، وينفخ إبليس فى مناخرهم ، فيستكبرون على العَوْد الحميد إلى منطق العقل . ويعربدون من حول الحق ينفخون أنواره التى أعشت أبصارهم ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . وهكذا يكون أثر جلساء السوء وقرناء الشر، فـهم يطمسون فى أقرانهم كل عقل ومنطق وتفكير .

ثانياً : ولكى يقـووا جبـهـة الفوضى : يجـمـعـون من حـولهم حزباً من عـشـاق الباطل، فلا يفتأ بعضـهم يحمس الآخرين ، ويزين لهم طرق الضلال ، بلا منطق ولا سلطان ولا دليل ولا برهان ، ويتظاهر كل من الشـيـاطين

بالإخلاص مقتدين بإمام أهل النار (فرعون) حين كان يبدى تخوفه من الحق الذى جاء به موسى ، ويقول لقومه : ﴿ **إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد** ﴾ [غافر : ٢٦]. ثم هو يظهر لهم تبتله وإخلاصه ، فيتظاهر أنه لا يريد لهم إلا طريق الصلاح ﴿ **وما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد** ﴾ [غافر : ٢٩].

ثالثاً : بمثل هذه التجمعات الفوضوية ، ووجه سيدنا رسول الله ﷺ حين تصدى لدعوته عدد من سدنة الكفر نصبوا من أنفسهم مستهزئين يحترفون السخرية بالحق ، ويساند بعضهم بعضاً فى متاهات الضلال ﴿**وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ والمعنى: أتحنا لهم أصحاباً من شياطين الإنس والجن ، فزينوا لهم معاصى الله وحسنوا لهم سوء أعمالهم وجملوا فى أعينهم ما أوتوه من متاع اكتسبوه بالحرام، وما ينتظرهم فى زعمهم من مستقبل غارق فى حمآت الغواية والهوى.

﴿ **وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين** ﴾ ، والمعنى : أنهم حين ساروا فى ركب الشياطين حقت عليهم كلمة الله فسجلوا فى مواكب العصاة الغواة من أمم الإنس والجن ، ومضت فيهم سنة الله أنهم الخاسرون الذين خسروا دنياهم وآخرتهم .

إن فى الآية الكريمة لصورة فنية رائعة البيان ترسم لنا صفا من أهل الغواية والفوضى والغوغائية يغرى بعضهم بعضا بالمضى قدماً فى دروب الهلاك، فيندفعون فى حماسة نحو هوة الهلاك السحيقة ، ثم لا ترى منهم رجلاً رشيداً يطالبهم ببرهان واحد على صلاح طريقتهم

ومنهاجهم. إنها صورة تشبه تلك التى رسمها ربنا تبارك وتعالى فى سورة « ص » حين انطلقت قريش بلا برهان تدافع عن حجارتها بالغوغائية الصرفة ﴿**وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشىء عجاب* وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد * ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق**﴾ [ص : ٤ ـ ٧].

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾ يبين مدى الأثر العظيم الذى كانت آيات القرآن تتركه فى قلوب سامعيها . لقد كان كل من يسمع القرآن يحس بأثر عجيب للقرآن فى قلبه ؛ من أجل ذلك كانت قريش تقول لصبيانها : إياكم أن تستمعوا إلى الكلام الذى جاء به محمد ، والذى يدعوه قرآنا ؛ لأنكم إذا استمعتم إليه سحركم . وحتى أكبر أقطاب الشرك ، وهو الوليد بن المغيرة حين نفذت إلى سمعه بعض آيات من كتاب الله خالط الإيمان قلبه ، وجاء يقول لزملائه من أساطين الشرك : لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو بالشعر ولا هو بالكهانة ، ومضى يصفه أنه مغدق مشرق ، وأنه يعلو ولا يعلى عليه . لقد كان على قريش ـ لو عقلت ـ أن تقف عند هذا الكلام الربانى موقف المتأمل لترى سر سحره ولتفكر فى نفعه ، أو ضره لكنها بدلاً من أن تأخذ بمنطق الفكر المستنير ابتكرت طريقة شيطانية تواصت بها فيما بينها وهى : أن تلجأ إلى الصخب والفوضى، واللغط وتسد آذانها إذا قرئ عليها القرآن . وبذلك لا يتاح لعقولهم أن تستوعب أو تفكر ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾ وقد كانت كيفية لغوهم فى القرآن أن استورد لهم مالك بن النضر قصصاً وملاحم لأبطال الفرس ، اسفنديار ، ورستم ، ويلغون بترداد

أراجيز وأسجاع ويلغون بصراخ وهرج ومرج لكن مصير المهاترة معروف فقد تبخر كل اللغو وتلاشى وثبت القرآن ؛ لأن القرآن يحمل فى ألفاظه ومعانيه ومقاصده عوامل الثبات والثبوت .

قال ابن عباس : كان أبو جهل يقول : إذا قرأ محمد قرآنا فصيحوا بأعلى أصواتكم فى وجهه حتى لا يدرى ما يقول ، فعلوا ذلك حينما أعجزهم القرآن الكريم ودحض حجتهم بالمنطق السليم .

ولشدة خوف المشركين من آثار البلاغة القرآنية قرأنا أنه حين قدم رسول الله ﷺ بجيشه إلى مكة المكرمة ؛ ليؤدى عمرة القضاء فى السنة التى تلت الحديبية أخلى المشركون مكة للمسلمين المعتمرين ثلاثة أيام حتى لا يختلط المشركون بقراء المسلمين ، وكانوا كلما سمعوا تكبير المسلمين وتلبيتهم وتهليلهم سدوا آذانهم وأمروا أبناءهم أن يسدوا آذانهم ، يفعلون كل هذا ليقيموا سداً بين القرآن الكريم وبين أسماعهم ، حتى لا تنساب إلى قلوبهم عذوبة القرآن وبلاغته وإعجازه فتسحرهم ، فسبحان منزل هذا السحر الحلال الذى وصفه منزله بقوله: **﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾**.

اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا ، ونور أبصارنا ، وبصائرنا ، واجعله اللهم شافعنا بين يديك .

الإيمان والاستقامة طريق الفوز والنجاة

هذه الآيات الكريمات من سورة فصلت تكاد تكون خلاصة للإسلام بكل ما فيه من المقاصد النبيلة والأعمال الجليلة ، ولقد جاء فى الحديث الصحيح أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل فيه أحداً بعدك ؟ ومعنى قول الأعرابى أنه يريد قولاً جامعاً إن عمل به لم يحتج إلى غيره ، فقال له رسول الله ﷺ « قل آمنت بالله ثم استقم » بهاتين الكلمتين لخص رسول الله ﷺ للرجل كل فضائل الإسلام .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم * ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين * ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم** ﴾ [فصلت : ٣٠ ـ ٣٦].

أولاً : بعد أن ذكر الله المشركين وقرناءهم ولجوءهم إلى المهاترة واللغو عند سماع القرآن ، يرسم هنا صورة متألقة وضاءة للمؤمنين عامة ، وللدعاة إلى الله خاصة ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ ، أعلنوا بملء أفواههم وبكل الجرأة والصراحة توحيدهم الخالص لله ، ثم أدوا حق التوحيد بالاستقامة ، والاستقامة ضد الاعوجاج وهى وإن كانت كلمة واحدة ، إلا أن كل كلمات الفضائل مطوية فيها ؛ ذلك لأن المستقيم

يسلك صراط الله المستقيم بكل ما فيه من أوامر جليلة وفضائل نبيلة ، وهو بهذا السلوك لا يمكن أن يعوج ليتحيز إلى أهل العوج والانحراف، هؤلاء الأفاضل أكرمهم ربهم بأصدقاء وأولياء ، وأنصاراً ، ألا وهم الملائكة ، هؤلاء الملائكة ينزلون فى قلوبهم السكينة ، ويثبتونهم ويبشرونهم بحسن العواقب ﴿ **تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا**﴾ ويكون هذا فى الدنيا حين تداهمهم الشدائد ، والإيذاء والاستهزاء وسفاهات أهل الشرك وقرنائهم ، ثم يكون هذا الولاء من الملائكة عند موت المؤمنين المستقيمين ، ويكون أيضاً عندما يبعثون فى الفزع الأكبر . نعم فى كل موقف مخيف مرعب تتلقاهم الملائكة ، بل إنها فى يوم الفزغ الأكبر ، لتطيل معهم الحديث ، فتحدثهم عما أعد الله لهم من جنات رضوانه ، حيث يعطون ما تشتهى أنفسهم ، ويكرمون فوق ذلك بضيافة خاصة من الله ﴿ **نزلا من غفور رحيم** ﴾ يكشف لهم ربهم فيه حجب وجهه الكريم ، فلا والله ما رأوا نعيما أغلى ولا أحلى ، ولا أجل، ولا أمتع لنفوسهم وأرواحهم من نظرة واحدة إلى وجه ربهم الكريم .

ثانياً : تقول الملائكة للمؤمنين الذى استقاموا ولم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿**نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ ؛ يعنى لقد كنا قرناءكم فى الحياة الدنيا، فوكلنا ربنا بكم نهديكم ونثبتكم ونحفظكم بأمره وها نحن اليوم أنصاركم ومرافقوكم ، فاطمئنوا فإنا لن نترككم وسنظل نهديكم حتى تدخلوا الجنة بإذن الله ، وسوف نجنبكم ما فى مواقف الآخرة من رهبة ووحشة حتى تصلوا بأمر الله إلى مقاعد الصدق فى جنة الرضوان حيث رضاء الله ، ورحابه ، وضيافته ، والنظر إلى وجهة الكريم .

ثالثاً : ثم شرع الله ـ جل جلاله ـ فى الآيات التالية يبين منهج الداعية ، وأخلاقه وصبره ومعاملته وحسن عمله ﴿ **ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين** ﴾ إنه استفهام بلاغى يفيد النفى ، فما من قول فى الدنيا أحسن من منطق الداعى إلى الله على بصيرة ، فقد دعا إلى أشرف ما يدعى إليه وهو الإيمان بالله ورسم للناس قدوات الخير بأعماله الصالحة ورفع شعاراً هو أجل الشعارات يعلنه مهما ادلهمت من حوله المصاعب ﴿ **إننى من المسلمين** ﴾ يرفعه ويجهر به بصيغة التوكيد ، مؤكداً أنه لا يمكن أن ينحرف عن منهاج الإسلام والإيمان مهما لقى من بلاء فى دعوته .

رابعاً : وهنا يذكّر الله الداعى بأنه لا يجوز له أن يرد السيئة بالسيئة ، فللسيئة وجه كريه أشوه موحش ، وللحسنة طلعة حبيبة وضاءة مؤنسة ، والداعية كطاقة الأزهار الندية لا يرى الناس منه إلا المنظر الجميل ولا يشمون إلا الشذا العاطر أو كالشجرة الطيبة المثمرة ترمى بالحجارة وترمى بالثمار ، ومادامت الحسنة جميلة مثمرة ، فإن على الداعية أن يجعلها طابع أخلاقه ؛ لأنها هى الأحسن ، وعلى الداعية أن يدفع القبيح بالحسن ؛ لأن معانديه جديرون أن يصدروا عن القبيح ، أما هو فمأمور من عند ربه ﴿ **إدفع بالتى هى أحسن** ﴾ وإذ ذاك فإن هذا السلوك الجميل الكريم النبيل ستكون له نتائج باهرة فى تأليف القلوب القاسية ، وجذب النفوس العاتية ، وإبدال الصداقة بالعداوة ﴿ **فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم** ﴾ .

خامساً : لكن هذه المرتبة العالية من مراتب السلوك صعبة شديدة الصعوبة ، فالنفس الإنسانية يشفيها الانتقام ، ويصعب عليها الصبر على الإيذاء ، والآية لا تطالب الداعية أن يصبر على الإيذاء فقط لكنها تزيد فتطالبه أن

يرد السيئة بالإحسان ، وأن يدفع الإساءة دواماً بالتى هى أحسن .

والتى هى أحسن كناية حلوة عن العمل الصالح . إن الله ـ جل جلاله ـ يقرر بما عرف وعلم من غرائز خلقه أن دفع السيئة بالحسنة منزلة عالية من منازل السلوك فهو يقول : ﴿ **وما يلقاها إلا الذين صبروا** ﴾ ويؤكد ذلك فيقول : ﴿**وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾ ذو حظ عظيم من مكارم الأخلاق فى الدنيا ومن جنة الله ورضوانه فى الآخرة .

سادساً : إن أخشى ما يخشى من بوادر الإنسان هو الغضب ، فالغضب يخرج الإنسان عن طوره ويغير مزاجه ويشوه قسمات وجهه وينسيه سلوكه وسمته؛ ولهذا حذر الله الداعية منه فقال جل جلاله : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم** ﴾ ومعنى هذا القول البليغ : إذا دعاك الشيطان إلى الغضب والانتقام ، أو دعاك إلى تغيير طريقتك والانحراف بمنهجك فالجأ إلى الله ـ جل جلاله ـ واطلب منه أن يحميك من الشيطان الرجيم الذى يجلب على الناس بخيله ورجله وقوته ويستعمل معهم أساليبه ، ووسائله ، فيزين لهم ويوسوس ويأيتهم عن أيمانهم وعن شمائلهم ومن أمامهم وخلفهم ، هذا الشيطان إذا رأيته متسلطاً عليك فقل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وأعدها مراراً، وقد جربت فكان لها أثر كبير فى إزاحة كابوس الشيطان فداوم عليها كلما شرعت فى أى عمل صالح كالشروع فى قراءة القرآن أو عند الدخول فى الأماكن المظلمة والدروب الموحشة ، وأتبعها بالتسمية لتتم البركة ، ويولى الشيطان من ساحتك التى عمرتها بذكر الله وقد ختم الله . عز وجل الآية بقولة : ﴿ **إنه هو السميع العليم**﴾ ليبين أنه ما من شىء من أفعال الشيطان ووسوسته ولا من أفعال العباد وأقواله يخفى على سمع الله وعلمه .

القرآن الكريم شرف إلهى رفع للعرب ذكرهم وأطال قاماتهم

هذه ثلاث آيات كريمات من سورة فصلت تدور حول أجل الأمور وأعظمها، تدور حول القرآن الكريم ، وذلك الشرف الإلهى الذى جعل للعرب ذكراً فى الناس ، بعد أن لم يكن لهم ذكر وجعل العرب هداة مهتدين بعد أن كان دأبهم العداوات والثارات والأصنام ، نعم لقد كانوا كما وصفهم ربهم جل جلاله بقوله : ﴿ **وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها** ﴾ فجاء هذا القرآن ونقلهم من أمة مجهولة فى المجاهل ، إلى أمة مجاهدة فى سبيل الله تعلم الدنيا رحمة العبد للعبد ونبذ الكراهية والحقد ، أمة سما بها القرآن فصيرها خير أمة أخرجت للناس .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير * إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز* لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد * ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم * ولو جعلنه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد** ﴾ [فصلت : ٤٠ ـ ٤٤].

أولاً : حين نزل القرآن الكريم انقسم العرب فى تلقيه قسمين : قسم ألحد فيه ، وقسم استقام على طريقته ، والملحد : هو المائل المنحرف عن الحق ، ومن ثم سمى المنكر للألوهية ملحداً ؛ لأنه أنكر كل الحقائق والكائنات من

حوله ، وحاد عن منطق عقله ، فادعى أن هذا الكون العظيم العجيب المحكم ليس له خالق ، ولا مدبر ، ولا رزاق !

لقد كان من مظاهر إلحاد المشركين فى آيات الله أنهم كانو يلغون من حولها ويضجون ويتصايحون ، وأنهم كانوا يرمونها بالسحر والشعر والكهانة ، وأن ذلك القرآن إنما هو من عند محمد ، أو من عند بشر يعلمه إياه ، فكان أن تحول القرآن عليهم خساراً فادحاً ، بعد إذ هو كسب عظيم ، وعمى مظلماً بعد إذ هو نور كريم ، ومرضاً مردياً بعد إذ هو شفاء ورحمة . أما الفريق الثانى الذى استقام على طريقة القرآن ، فقد رفعه الله بالقرآن وأعزه وشفاه بالقرآن من أمراض القلوب ، ونزغ الشيطان ، وحوله القرآن من ضال يخبط فى ظلام الجاهلية ، وإلى هذا يهدى إلى صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض .

ولا شك أن القرآن الكريم كان عزاً لأقوام وذلاً لآخرين وكان جنة ونعيماً لأقوام ، فى حين كان ناراً لآخرين ، ومن هنا يجىء هذا الاستفهام البليغ بعد ذكر القرآن موضحاً أثره ونتائجه على صنفين من النفوس **﴿أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ﴾** .

والمؤسف أننا فى هذه الأيام نرى عدداً ممن يتسمى بالإسلام ، ويدعى أنه من رجال الفكر قد نصب من قريحته وقلمه جندياً من جنود الشيطان ، ترى فى كل كتاباته تشكيكاً فى الإيمان ، وإلحاداً فى القرآن ! والمؤلم أنك ترى له معجبين ومريدين من شباب يسمى نفسه مسلماً ، وأكثر من يقترف هذا الإلحاد جماعة من الشعراء ألحدوا فى مقاصد الدين ، وألحدوا فى لغة الخالدين وطلعوا على الوسط الأدبى بكلام يغرس فى قلوب قرائه أرخص الأغراض ويعديها بأخبث الأمراض **﴿ إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ﴾** .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا بالذكر لم جاءهم وانه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ .

وصف فيه القرآن بأنه ذكر والذكر معناه : الشرف . واختيار هذا الوصف من أوصاف القرآن فيه إشارة إلى ضعف بعض العقول التى ترفض بغبائها شرف الدنيا ، والآخرة ، هذا الكتاب العزيز الذى أعز الله به أتباعه وهو كتاب مرت عليه أحقاب ، فما استطاع كافر ، أو ملحد ، أن يغتمز فيها كلمة واحدة من الباطل وكيف يأتيه وهو تنزيل من حكيم حميد ، نزله أحكم الحاكمين ليكون منبع الحكمة والعدل ، ونزله أكرم الأكرمين أهل الحمد والثناء والإجلال ؛ ليظل لهذه الدنيا بركة وخيراً يحمد الله عليهما إلى يوم القيامة ؟! .

ثم يتبع الله ـ جل جلاله ـ ذكر عظمة القرآن بآية يسلى بها محمداً ﷺ بأن إنكار الحق ، ومقاومة الإصلاح لم تكن قصراً على قومه ﴿ **ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم**﴾ كل الرسل من قبلك يا محمد صادم الباطل ما جاؤوا به من الحق، وسمعوا من كلام الكافرين مثل الذى سمعت ، لكن ثق بأن الله ـ جل جلاله ـ أعد لكل إنسان جزاء عمله ، فلديه مغفرة واسعة تنتظر الأبرار ، ولديه عقاب أليم ينتظر الفجار .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ **ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى** ﴾ ، هذا الكلام رد على فئة من المشركين كانت تملأ نفوسها عقدة الأجنبى ، نزعت ثقتها من العنصر العربى ، وآمنت أن الأمور الكبيرة المهمة لا يمكن أن يقدر عليها إلا الأعاجم ، فكانوا يقولون : لو نزل القرآن على بعض الأعاجم لكان معقولاً أن نؤمن به ،

لأن الأعاجم هم أهل الحضارة والقدرة العقلية ، وهنا يرد عليهم القرآن الكريم بأن القرآن لو نزل بلغة الأعاجم ما فهمه العرب ولا آمنوا به ، ولقالوا ؛ لماذا لم تفصل آياته وتوضح بلغتنا كيف ينزل قرآن أعجمي لينذر به عربي ؟! وبعد هذه الحجة الدامغة يقرر القرآن حقيقة من يلحدون ويجادلون ويطالبون بأن هؤلاء ما هم إلا عميان أغشى عيونهم الحق وأن مثلهم إذ يدعوهم محمد فلا يسمعون ، كمثل من ينادى من مكان بعيد ، وهيهات أن يسمع .

لقد فتح المؤمنون عقولهم وقلوبهم للقران ، فكان القرآن هدى لهم يهديهم سبل الخير والسلام ، وكان شفاء لصدورهم من جميع الأسقام .

اللهم اجعلنا ممن أنار القرآن حياتهم ، وشفى بمقاصده قلوبهم .

كل إنسان مسئول عن عمله أمام الله

هذه ثلاث آيات من سورة فصلت ، إذا تدبرها المتأمل رآها تضع الإنسان عند مسؤوليته ، وتحثه على عمل الخير فى أسلوب مقنع ممتع ، إنها تذكره بأن عمله هو كل زاده ، وأن هذا العمل يعرض على إله عادل حرم الظلم على نفسه وجعله بين خلقه محرماً ، ثم إن هذا الإله إلى جانب عدله عالم لا تخفى عليه خافية ، ومن ثم فعلى العبد أن يبادر بالتوحيد وبالعمل الصالح حتى لا يقع يوم القيامة تحت طائلة المعصية والشرك يوم يتبرأ كل شريك من عابده .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد * إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائى قالوا آذناك ما منا من شهيد * وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا مالهم من محيص** ﴾ [فصلت : ٤٦ ـ ٤٨].

أولاً : الآية الأولى تفتتح أمام العباد مجال العمل على مصراعيه ، فالإنسان حر فى عمله لكن هذه الحرية لابد أن تتذكر العواقب عند الخوض فى الأعمال ﴿**من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد**﴾ هذه الآية الكريمة حكمة بليغة تزينها هذه الحلية اللفظيه وبخاصة هذه المقابلة الرائعة التى تجمع الشيء ، وضده كقوله : ﴿ **عمل صالحاً** ﴾ ومقابلة أساء وكقوله : ﴿**فلنفسه**﴾ ويقابلها قوله تعالى ﴿**فعليها**﴾، ثم يتبعها ربنا جل جلاله بهذا الإطناب الرائع البليغ الذى يجرى مجرى المثل .

وبذلك أصبحت الآية كلها حكمة وفى طياتها أيضاً حكمة أخرى ألا

وهى قوله تعالى ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ وفى الآية الكريمة إيجاز حذف فى غاية الجمال ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها** ﴾، فقد حذفت هنا كلمتان والتقدير : من عمل صالحاً ، فعمله لنفسه ، ومن أساء ، فإساءته عليها. وفى الآية الكريمة إيجاز قصر من روائع المعانى، ففى قوله : ﴿ **عمل صالحاً** ﴾ تعبير جامع لكل أنواع الحسنات فى الدنيا ، وفى قوله ﴿**أساء**﴾ كلمة جامعة تجمع كل أنواع المعاصى والسيئات .

وقد لفتت هذه الآية الكريمة الجامعة أنظار الأشياخ ، وكان كثير من خطباء الجمعة يذكرونها فى مقدمة خطبهم ، لأنها قاعدة عظيمة من قواعد الإيمان والعدل الإلهى ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ ، نعم إن الله ـ جل جلاله ـ أنكر الظلم واستنكره من العباد ، ثم هو عز وجل حرم الظلم قبل ذلك على نفسه ، فقد جاء فى الحديث القدسى ، فيما يرويه محمد ﷺ عن ربه : يقول الله تعالى « يا عبادى : إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » إلى أن قال فى نهاية الحديث ما معناه « يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً ، فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

ثانياً : بعد أن أعلن ربنا تلك القاعدة الكبرى ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها** ﴾، وبعد أن نفى الظلم عن نفسه أتبع ذلك بصفتين من صفاته العلا، وهما : العلم الذى لا تخفى عليه خافية ، والوحدانية التى لا مجال فيها لشريك ، أما صفة العلم فجاءت فى قوله تعالى : ﴿ **إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه** ﴾ ، فعلم الله ـ جل جلاله ـ أحاط بالدنيا وبالآخرة ، والساعة لا يعلمها إلا هو ، ثم إن علمه ـ جل جلاله ـ

أحاط بكل ما فى الأرض من تغيرات فى الحياة النباتية والحياة الإنسانية ، فما يتفتح كمٌ عن ثمرة ، وما تحمل أنثى بجنين إلا وتكون تلك الثمرة، وذلك الجنين محوطين بعلم الله ، وما أجمل الجمع بين الكم متفتقا عن ثمرة أو زهرة ، وبين الأنثى متفتقة عن وليد ، ولا غرو فالكم هو وعاء الثمرة والزهرة فى النبات ، والأنثى هى وعاء الجنين الذى هو ثمرة الحياة الإنسانية .

ثالثاً : أما الوحدانية المبرأة من كل شريك أو مثيل أو نظير ، فقد وردت فى بقية الآيات ﴿ **ويوم يناديهم أين شركائى قالوا آذناك ما منا من شهيد * وضل عنهم ماكانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص** ﴾ ومعنى الآية الكريمة : أن الله ـ جل جلاله ـ يجمع المشركين والشركاء بأنواعهم ثم ينادى: أين الذين يشاركوننى فى الملك والحكم والتدبير ؟ فيعلنون بلسان واحد ﴿**آذناك ما منا من شهيد**﴾ أى نحن نعلن فى حضرتك أن ليس منا شاهد واحد يشهد بأن لك شريكا فى ملكك ، ولا غرو ؛ فقد رأى المشركون معبوداتهم على حال لا يحسدون عليها ، ووجد الشركاء عبادهم على حال من العذاب والشقاء لا تطاق فتبرأ كل من الآخر ، وأيقنوا أن الملك كله لله ، وأن الشفاعة جميعها لله.

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص** ﴾ معناه : أن الأصنام والشركاء المزعومين يضلون فى القيامة عن عابديهم ، فإذا سئلوا : أين شركاؤكم قالوا : ضلوا عنا يعنى أنهم تاهوا وذابوا فى الجمع ، فما يهتدى عابد ليعثر على معبوده ، وعندئذ يوقن المشركون أنهم لا مفر لهم ولا منجى . ويستعمل الفعل ظن بمعنى أيقن كما جاء فى سورة التوبة عن الثلاثة الذين خلفوا فى غزوة العسرة رضى الله عنهم ﴿ **وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه** ﴾ [التوبة : ١١٨] ، وهنا فى الآية الكريمة من سورة فصلت ﴿ **وظنوا ما لهم من محيص** ﴾ أيقنوا أنه

لا مفر لهم من عقاب ولا نجاة .

خامساً : وقع فى الآيات الكريمة إشارت بلاغية ونحوية نوضح بعضها لعشاق البلاغة والنحو ، ففى قوله تعالى : ﴿ **إليه يرد علم الساعة** ﴾ تقديم بلاغى رائع غرضه الحصر أو القصر . فبدلاً من أن تسير الجملة عادية فتكون ﴿ **يرد علم الساعة إليه** ﴾ جاءت بالتقديم ﴿ **إليه يرد علم الساعة**﴾ فأصبح المعنى بهذا التقديم : أن علم الساعة مرجعه إلى الله وحده لا إلى غيره . ثم انظر كيف جملت المعنى تلك الكلمات المتطابقات أى المتعاكسات فى المعنى كقوله : ﴿**عمل صالحاً** ﴾ ، وقوله : ﴿ **أساء** ﴾، وكقوله : ﴿**فلنفسه**﴾ وقوله : ﴿**فعليها**﴾وكقوله: ﴿**تحمل**﴾ وقوله: ﴿**تضع**﴾ . ومن الطرائف النحوية أن كلمة ﴿**ثمرات**﴾ فى قوله : ﴿**وماتخرج من ثمرات**﴾ فاعل مرفوع لفظاً مجرور تقديراً وكلمة ﴿**أنثى**﴾ فى قوله : ﴿**وما تحمل من أنثى**﴾هى أيضا فاعل وكلمة ﴿**شهيد**﴾ فى قوله تعالى : ﴿ **ما منا من شهيد** ﴾ هى مبتدأ مجرور لفظاً مرفوع تقديراً ، وكلمة ﴿**محيص**﴾ فى قوله تعالى: ﴿**ما لهم من محيص**﴾ هى أيضاً مبتدأ مجرور لفظاً مرفوع تقديراً .

سادساً : هنالك آيات من القرآن الكريم تعتبر قواعد مهمة فى بنيان الشريعة كقوله تعالى : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة * شراً يره**﴾ وكقوله تعالى :﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ وكقوله : ﴿**إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ . فما أجمل أن يجعل المؤمن هذه الآية نصب عينيه ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ .

آيات الله واضحات فى الآفاق وفى الأنفس

بهذه الآيات الكريمات ختم ربنا ـ جل جلاله ـ سورة فصلت ، وخواتيم السور كما أسلفنا تكون خلاصات رائعة تترك فى النفس أثراً بالغاً . إن علماء البديع يهتمون بمحسن بديعى سموه حسن الختام ، واعتبروا أن حسن الختام وبراعة الاستهلال ـ أى حسن البداية ـ يتركان فى النفوس آثاراً بلاغية رائعة ، إذ بحسن البداية تستقبل القلوب بالتشويق ، وبحسن الختام تودعها بالتأثر والإعجاب والإقتناع .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد * سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد * ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط** ﴾ [فصلت : ٥٢ ـ ٥٤].

أولاً : موضوع هذه الآيات الكريمات : هو خلاصة لموضوع السورة ، إنه العقيدة المرتكزة على الإيمان بالله وباليوم الآخر ، وبآيات الله القرآنية ، وآياته الكونية . وفى الآية الأولى إقناع منطقى بأن العاقل يستقبل أى دعوة بالتفهم ، والاستماع المتعقل ثم يحكم عليها من منطلق نفعها أو ضررها، لكن قريشاً لم تفعل فى استقبال الدعوة المحمدية فعل العقلاء ؛ إذ من اللحظة الأولى استقبلت تلك الدعوة العظيمة بالشقاق ، والعناد ، والكراهية العمياء ، وظل ذلك دأب قريش منذ قال أبو لهب لمحمد : تباً لك ألهذا جمعتنا ؟! إلى تفاقم الإيذاء ، فهاجر النبى ﷺ وصحبه فراراً بدعوتهم .

هذا ما تشير إليه الآية الكريمة الأولى: ﴿ **قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضَل ممن هو فى شقاق بعيد** ﴾ . ومعنى الآية الكريمة: إذا أثبتت الأيام لكم أن القرآن هو كلام الله وأنه تنزيل من عند الله ، وظللتم أنتم على العناد ، والكفر ، والشقاق ، والمنازعة ، فهل يكون فى الدنيا من هو أضل منكم؟! إن احترافكم للشقاق دونما دراسة وتدبر للقران ، لا يفسر إلا أنه ضلال مطوح ناء عن دروب الخير الهادية .

وفى الآية استفهام بلاغى بليغ غرضه النفى ، وهو قوله تعالى : ﴿ **من أضل ممن هو فى شقاق بعيد** ﴾ ، ومعناه لا أحد أضل ممن استبدل عناداً، ومعاداة ، وشقاقاً .

ثانياً : الآية الكريمة الثانية نبوءة قرآنية معجزة تدل على صدق القرآن ، وأنه من عند الله ـ جل جلاله ـ ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ ، ففى كل يوم تطلع علينا آفاق هذا الكون بكل مدهش معجز من دلائل قدرة الله ، نعم فى كل يوم تضاف براهين جديدة على صدق الرسالة المحمدية والمعجزة القرآنية ، كل يوم تثبت الوقائع أن ما عرضه القرآن من حقائق العلم حق صراح لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

لقد أرى ربنا ـ جل جلاله ـ قريشاً ، أراهم آياته فى أنفسهم حين غلبوا وقتلوا تقتيلاً يوم بدر ، وحين اندحروا صاغرين أيام الأحزاب ، ثم أراهم آياته فى الآفاق حين انتصر المسلمون وغرسوا راية الإيمان فى مشارق الأرض ومغاربها . وما أجمل هذا الاستفهام البلاغى فى ختام السورة ﴿ **أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد** ﴾ هو استفهام تقرير ، والمعنى : كفى بالله ـ جل جلاله ـ أنه على كل شىء شهيد ، أى أنه لا يغيب عن علمه أى شىء فى الدنيا ولا فى الآخرة ، هذا وقد كشف

لنا ربنا ـ عز وجل ـ من عجائب خلقه ودلائل قدرته فى آفاق السموات والأرض وأقطارهما ، فأصبحنا نعرف من أسرار السموات ما لم يصل إليه علم من سبقونا ، وتلك مكتشفات تزيد الإيمان فى القلوب ؛ لأن الإنسان العاقل كلما اطلع على روائع الملكوت زاد يقينه ، وقديما أطلع ربنا جلت حكمته سيدنا ـ إبراهيم عليه السلام ـ على ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين .

ثالثاً : ثم جاءت الآية الخاتمة تعرض شيئين متقابلين متضادين : الكافرين ضعفاء مجادلين مشككين فى لقاء ربهم غير واثقين بقدرته ، وفى مقابل ذلك ربنا جلت قدرته شهيداً على كل صغيرة وكبيرة من المخلوقات ، ألا إنه بكل شىء محيط .

وأكثر ما وردت صفة الإحاطة فى القرآن الكريم فى معرض التهديد ، كقوله تعالى : ﴿ **بل الذين كفروا فى تكذيب * والله من ورائهم محيط** ﴾ [البروج : ١٩ ـ ٢٠] ولهجة التهديد واضحة فى الآية الكريمة، ومثل ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ **والله محيط بالكافرين**﴾ وقوله فى آل عمران : ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط** ﴾ [الأنفال : ٤٧] ، وفى سورة الأنفال: ﴿ **ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط** ﴾ [آل عمران : ١٢٠] . ومن قبل ذلك فى سورة النساء ﴿ **يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهم معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا** ﴾ [النساء : ١٨] . ومن هنا جاءت الآية الخاتمة، وفيها لهجة تهديد مخيفة لمن يمارون ويشككون ويجادلون فى لقاء الله ﴿**ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط** ﴾ .

وفى الآية الكريمة توكيدان بلاغيان بأداة الاستفتاح **﴿وإن﴾** فكما أكد كفرهم بلقاء الله ومجادلتهم فى اليوم الآخر ، أكد أنه لا تخفى عليه من أمورهم خافية ، وأنه ينتظرهم مصير مظلم .

رابعاً : فى إعراب الآية الكريمة ما يستأهل التنبيه **﴿ أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾** تعرب كلمة ربك فاعل مجرور لفظا مرفوع تقديراً ، والمصدر المؤول من أن ومعموليها **﴿ أنه على كل شيء شهيد ﴾** بدل اشتمال من كلمة ربك ، ويصبح التقدير : ألا يكفى ربك شهوده لكل شىء وعلمه به. وفى الآيتين اسمان من أسماء الله الحسنى هما فى الوقت نفسه صفتان من صفاته العلا ، وهما شهيد ومحيط . والشهيد الذى يشهد أفعال العباد ويراها ، والمحيط الذى أحاط علمه بكل شىء ، وأحاطت قدرته بكل شيء ، وأحصى كل شىء عدداً ، ومن هنا جاءت كلمة شهيد فى سياق ذكره لآيات القدرة ، أما كلمة محيط فجاءت موحية بالتهديد ؛ لأن إحاطة الله ـ جل جلاله ـ بكل شىء تشير إلى قدرته الهائلة على استئصال المحاط به إذا كان من أهل المعاصى .

والله أعلم ـ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

حول العقيدة والقرآن
والرسالة المحمدية

سورة الشورى من السور المكية ، وهى ثالثة الحواميم . والمتدبر فى آياتها الثلاث والخمسين يجد أنها عروض من الأساليب البلاغية تدور حول العقيدة والقرآن والرسالة المحمدية ؛ لتثبيت أركان الإيمان وشعبه الحكيمة . لقد بدأت بذكر القرآن ، وانتهت بذكر القرآن فمطلعها : ﴿ **حم * عسق * كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم** ﴾ [الشورى : ١ ـ ٣] وكان مسك ختامها قوله جل من قائل : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾ [الشورى : ٥٢ ـ ٥٣ـ] .

ويلاحظ أن السورة ابتدأت بخمسة حروف من حروف الهجاء ، وأن هذه الحروف تشكل فى المصحف آيتين الأولى ﴿**حم**﴾ ، والثانية ﴿**عسق**﴾ وقد تساءل الأشياخ ؛ لماذا تشكل ﴿**كهيعص** ﴾ آية واحدة وتشكل ﴿**حم**﴾ ﴿**عسق**﴾ آيتين مع أن المجموع فى كل منها خمسة أحرف ؟! وأجابوا : أن ﴿ **حم**﴾ ﴿**عسق** ﴾ هى إحدى مجموعة السور التى أولها ﴿**حم**﴾ أما مريم فلم تتقدمها فى مطالع الكهف والإسراء والنحل حروف هجائية . وللأشياخ رحمهم الله فى التعليق على هذه الحروف نظرات طريفة ، فقد قال بعضهم : إنها ترمز إلى بعض أسماء الله الحسنى الحاء من الرحمن والميم من المجيد ، والعين من العليم ، والسين من السميع والقدوس ، والقاف من القاهر ، وقال آخرون : بل إنها ترمز إلى

بعض صفاته العلا ، فالحاء حلمه ، والميم مجده ، والعين علمه ، والسين سناؤه وسناه أى علوه ونوره . والقاف قدرته ، وأنه جل جلاله يقسم بكل هذه الصفات ، وقد جاء فى الأثر : أنه عندما نزلت هاتان الآيتان ﴿ **حم عسق** ﴾ عرفت الكآبة فى وجه رسول الله ﷺ فقيل له يارسول الله ما أحزنك ؟ فقال ﷺ:

« أخبرت ـ يعنى بهذه الحروف ـ ببلايا تنزل بأمتى من خسف ، وقذف ونار تحشرهم ، وريح تقذفهم فى البحر ، وآيات متتابعات متصلات بنزول عيسى وخروج الدجال » . ومما يلفت النظر أن سورة الشورى تضمنت آيات توحيدية وتشريعية مما يدور على الأفواه ، ويكثر أن يتمثل به ويعلق به على الأحداث ، كقوله تعالى : ﴿ **ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء فى رحمته**﴾ [الشورى : ٨] وكقوله يذكر الأنبياء أولى العزم : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ [الشورى : ١٣] ، وكقوله عز وجل ﴿ **فلذلك فادعُ واستقم كما أمرت** ﴾ [الشورى : ١٥] وكقوله: ﴿ **الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز** ﴾ [الشورى : ١٩]. وكهذه الآية الجميلة المبشرة : ﴿ **وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون** ﴾ [الشورى : ٢٥] ، وكقوله تعالى : ﴿ **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير * وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد** ﴾ [الشورى : ٢٧ ـ ٢٨] . وكقوله جل جلاله : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير**﴾ [الشورى : ٣٠]. وكقوله : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله**﴾ [الشورى : ٤٠].

وفى موضوع البنين والبنات واستئثار الله بالتصرف فى توزيعهم يقول جل

جلاله: ﴿ لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور * أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير﴾ [الشورى : ٤٩ ـ ٥٠] وكقوله في هذه الإشارة التوحيدية الدقيقة ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم ﴾ [الشورى : ٥١] وفى ذكر القرآن وأمية النبى الكريم يقول جل من قائل : ﴿وكذلك أوحينا إليك نوراً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ [الشورى : ٥٢ ـ ٥٣].

كل هذه الآيات الكريمات تعتبر من قواعد التوحيد لأنها تتعلق بمسائل فى العقيدة فى غاية الأهمية ، ولعل من أعظم الآيات التى تقرر فضائل المجتمع الإسلامى قوله تعالى: ﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [الشورى : ٣٨] إذ فى الآية استنكار لطبائع الطغيان والاستبداد ، وتشريع لنظام الحكم المستنير القائم على الشورى ، من أجل هذه الاعتبارات صار حفظ هذه السورة الجليلة من أجل ما يلزم الداعية ، إذ يزوده بقدر عظيم من مقاصد الشريعة وقواعدها ومراميها .

هذا وقد يقول قائل : إنك كلما مررت على سورة دعوت إلى قراءتها وحفظها وقلت : إنها لازمة ، والجواب : أن القرآن الكريم يخاطب أصنافاً شتى من الخلائق ، وكل منهم له اهتمامه العلمى ، أو اللغوى ، أو السياسى ، أو الاقتصادى ، أو العسكرى ، أو فى مجال الدعوة والقضاء والحكم ، ومن ثم ، فسور القرآن تمد كل هؤلاء بغذاء اهتماماتهم واختصاصاتهم ؛ ولهذا فإن حفظ القرآن الكريم مفيد لشتى أصناف الناس وهو ذخيرة لا يستغنى عنها

مؤمن ؛ خصوصاً وأن القرآن الكريم شفاء لما فى الصدور ، وهو أنيس من الوحشة، وجليس فى الوحده ، ومؤنس فى القبر ، وهاد على الصراط ، وشفيع بين يدى الله .

هذا ولعل مما لفت النظر فى ختام السورة : المقطع الختامى الرائع الذى هو بمثابة حكم إلهى على كل أنواع العاملين ، وكل أنواع الأعمال ، ألا وهو قوله تعالى : ﴿ **ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾ هذا المقطع هو الشعار الذى يلتزمه العقلاء فى كل تصرفاتهم ، ولو استنصحنى صاحب سلطان ، أو سلطة مسؤولية ، فيما يحسن أن يكتبه على مكتبه ، لنصحت أن يكتب ﴿ **ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾ ؛ لأنه يذكر كل مسؤول بما يؤول إليه عمله ومسؤوليته ، وأن كل صغير وكبير من أمور ومسؤوليته يصير إلى الله ويعرض على الله ، ومن ثم فلابد أن يجعل مقياس تعامله إرضاء الله جل شأنه ، وهذا ما يجعله على كل أحواله فاعلاً للخيرات متمسكاً بالحسنات ، سالماً من السيئات .

والوحى رسالة الله خلقه
على لسان رسله الكرام

هذا هو المطلع العظيم لسورة الشورى ، وقد بدأت السورة تتحدث عن الوحى ، وأنه يتنزل على رسل الله من عند الله العزيز الحكيم .

بسم الله الرحمن الرحيم : **﴿ حم * عسق * كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم * له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم * تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾** [الشورى : ١ ـ ٥] .

أولاً : أصح التفاسير للحروف التى ابتدأت بها السور القرآنية أنها تنبيه للأذهان بأن هذا القرآن الذى أعجز البلغاء ما هو إلا حروف تتكون منها كلمات، فإذا وقفتم أمام هذا القرآن عاجزين ، فليس لذلك إلاسبب واحد وهو أن القرآن هو من عند الله . وكل ما ذهب إليه الأشياخ من أن هذه الحروف لها معان وإشارات، فهو من قبيل اجتهادات يعوزها الدليل الصحيح الساطع .

ثانياً : قوله تعالى : : **﴿ حم * عسق *كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾** . يبدو من قراءة السياق أن الحروف التى فى مطالع السور لها علاقة مباشرة بالقرآن إذ يغلب أن يأتى بعدها مباشرة ذكر للقرآن الكريم ، كقوله تعالى فى مطلع البقرة : **﴿ الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾** وكقوله فى مطلع يوسف **﴿ الر تلك آيات الكتاب ﴾** وفى مطلع القصص : **﴿ طسم تلك آيات الكتاب**

المبين ﴾ وفى مطالع الحواميم يتضح هذا جيدا ، فقد «جاء حم والكتاب المبين» فى مطلع سورتين منها ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ ، ولهذا يقرب من الحقيقة من يرى أن هذه الحروف ضروب من القسم الإلهى على صدق القرآن ، ولعلها من أسماء الله الحسنى التى اختص بعلمها ، وقد روى أن النبى ﷺ كان إذا دعا قال : «ياكهيعص». بناجى بها ربه . وكلمة ﴿ كذلك ﴾ فى مطلع الآية الكريمة تعنى كما أوحى ربك إلى جميع الأنبياء كذلك يوحى إليك ، ووحى الأنبياء كله إنما هو من الله لا يصدر فى أعماله إلا عن عزة قاهرة، وحكمة باهرة ﴿كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ ، وإن أراد العباد أن يتصوروا شيئاً من عزة ربهم وحكمته، فلينظروا عظم ملكوته ، وعظيم أسمائه وصفاته ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم ﴾ .

ثالثاً : الأسماء الحسنى ، والصفات العلا التى وردت فى الآيات الكريمة يمكن أن يلتمس من بينها اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وهى الله، العزيز ، الحكيم ، العلى ، العظيم ، الغفور ، الرحيم ؛ ذلك لأنها ذكرت لأغراض شتى ، فالله ، والعزيز ، والحكيم ، ذكرت فى معرض الحديث عن وحيه المعجز ، والعلى والعظيم ذكرا فى سياق الحديث عن ملكوته العظيم والغفور والرحيم ، ذكرا فى سياق تعامله فى عباده ، إذ إنه ـ جل جلاله ـ كتب على نفسه الرحمة ثم هو أهل التقوى وأهل المغفرة . وما أجمل أن يقف قارئ القرآن عند الأسماء الحسنى والصفات العلا ، فيتملاها ليرى روعة تجميلها للسياق وإيحائها فى القلوب .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون

بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم﴾، هذه الآية الكريمة حين تدبرتها وجدتها تعرى سلوك الإنسان إزاء ربه ، وهو سلوك لم تسلكه مخلوقاته الهائلة إزاءه ، السماء تكاد تشقق من خشية الله وجلاله وعظمته ، والملائكة كلهم يسبحون بحمده وقدرته ، كل من السموات وما فى الأرض له ؛ قانتون لا يشذ منهم شاذ ، ولا يحيد عن إجلاله وتقديسه وتوحيده إلا جزء من بنى الإنسان . ومع كل هذا الشذوذ عن سائر المخلوقات ، فقد ألهم الله ـ جل جلاله ـ ملائكته أن يستغفروا لأهل الأرض برهم وفاجرهم ولعله ـ جل جلاله ـ برحمته الواسعة وباستغفار ملائكته الكرام رزق من الدنيا البر والفاجر ، وكتب على نفسه هذه السنن الحكيمة فى الحلم عن الإنسان ، وتسخير كل ما فى السموات والأرض له على الرغم من معاصيه ومبارزته ربه بالخطايا . كل ما فى السموات والأرض من ملائكة وشجر وجبال ، وأحياء يسجد لله ويسبح لله ، ولكن لا نفقه تسبيحهم ، إلا أن ذلك النفر الكافر من بنى الإنسان يخالف فطرة الكون ويشذ عن سلوك السموات والأرض حين دعاهما فاطرهما ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا : أتينا طائعين ، وإلى هذا الشذوذ الفاضح من كفرة الإنسانية أشارت تلك الآية العظيمة من سورة الحج : وهى آية حين يتدبرها القارئ يرى فيها أفظع فضيحة للكافر **﴿ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ﴾** [الحج : ١٨] ثم لما وصل إلى الإنسان لم يذكره ذكر عمومه كالأصناف التى سبقته ، لكنه جل جلاله مضى قائلاً : **﴿وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾** [الحج : ١٨] .

خامساً : لقد وقفت ملياً عند قوله تعالى : **﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم**

ويستغفرون لمن فى الأرض ﴾ لقد قيل : إن الملائكة هم أنفع خلق الله لخلق الله، فهم ينفذون تدبير الله وحكمته ويحفظون مخلوقاته بأمره ، ثم هاهم يستغفرون لمن فى الأرض ، ويبدو أن الملائكة ـ عليهم السلام ـ منذ راجعوا ربهم فى استخلاف الإنسان ، وفضلوا فى المراجعة أنفسهم على الإنسان ؛ ألهموا أن يكفروا عن ذلك بالاستغفار للإنسان ، خصوصاً بعد أن علموا ثقل تلك الأمانة المعجزة التى حملها ربنا للإنسان بعد أن أبت أن تحملها السموات والأرض والجبال .

لقد جاء فى الأثر : أنهم اختاروا هاروت وماروت من أعظم صالحيهم ، فلما ابتلوا بما ابتلى به الإنسان وقعوا فى أعظم الموبقات فى ساعة واحدة، لا غرو إذن بإلهام من الله ، العزيز ، الحكيم ، العلى ، العظيم ، الغفور ، الرحيم ، أن يستغفروا للإنسان الذى سبق لهم أن راجعوا ربهم فى أمر استخلافه فقالوا: **﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾** [البقرة : ٣٠] فرد عليهم جل جلاله : **﴿ إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾** [البقرة : ٣٠] ثم لما علمه الأسماء، ولما عجزت الملائكة أن تحفظ ما حفظ آدم ، أسجدهم له بعد أن ذكرهم مرة أخرى قائلاً لهم بأسلوب يقارب اللوم : **﴿ ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾** [البقرة : ٣٣].

اللهم إنا نحمدك بنعمائك ، ونثنى عليك بآلائك لما أكرمتنا به من دعاء الملائكة لنا وتسخير كل ما فى السماء والأرض لخدمتنا .

أمر بالاتحـاد فى وجـه الكفـر

هذه ثلاث من آيات الكتاب الكريم ، من سورة الشورى تذكر الأنبياء أولى العزم ثم توصى رسول الله ﷺ ودعاة أمته أن يقفوا صفاً واحداً فى وجه الكفر ؛ لأن الكفار لن ينفكوا متآمرين على الحق متألبين حول الباطل ، ومن ثم كان على أنصار الحق أن يواجهوا سدنة الباطل متحدين نابذين عرض الحائط كل ما يفتت وحدتهم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب * وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب * فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير** ﴾ [الشورى : ١٣ ـ ١٥] .

أولاً : لقد علم ربنا ـ جل جلاله ـ بعلمه الأزلى أن الحق سيظل دواماً مستهدفاً لمؤامرات الباطل وأهله ومن ثم كان على أنصار الحق أن يقفوا على أهبة استعدادهم لنصرة الحق مهما عربد الباطل ومهما تألب لإطفاء نور الحق والهدى ؛ ولهذا فقد ذكر المؤمنين فى هذه الآية الشريفة بصبر أولى العزم من الرسل وهم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ليتخذهم المؤمنون مثلاً يحتذى فى الصبر

والثبات ، وتحمل الأذى ، وبذل كل غال فى سبيل دعوة الحق .

ثانياً : ذكر ربنا ـ جل جلاله ـ تلك الوصية التى وصى بها أولى العزم من الأنبياء ، وأورثها كل المجاهدين والدعاة من أمة محمد إلى قيام الساعة. وهذه الوصية وإن كانت كلمتين إلا أن تنفيذها يتطلب قدراً هائلاً من العزم والصبر ، وقد وردت الوصية العظيمة بأسلوب من الإيجاز الرفيع **﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾** ومعنى هاتين الكلمتين العظيمتين :

إن على أمة محمد أن تأخذ بالوصية التى شرعها ربنا ـ جل جلاله ـ للأنبياء أولى العزم وأثبتها فيما أوحى إلى نوح ، وفى صحف إبراهيم ، وفى توراة موسى، وإنجيل عيسى ، والقرآن الكريم ، وخلاصتها : أن يقيموا الدين بكل ما فيه من توحيد ، وأحكام ، وتشريع ، وأوامر ونواه ويأخذوا أنفسهم بتطبيق أحكام الله فى أنفسهم وبيوتهم ومجتمعهم ، حتى إذا حققوا كلمة التوحيد انتقلوا إلى وحدة الكلمة ، وحرصوا أن يظل المسلمون يداً واحدة لا تعرف الانقسام والتفرق ، والجرى فى بنيات الطرق وراء الأهواء . والحق أن أمة محمد عبر تاريخها الطويل، ما تمسكت بهذه الوصية إلا أيدها ربنا بروحه ، ونزل عليها نصره. نعم ما أقامت أمة محمد دين الله ، ووحدت صفها تحت لواء الحق إلا كان النصر حليفها ، وعلى العكس من هذا ، فإن أمة محمد ما هدمت قواعد الدين ، وتفرقت حول الشعارات الغوغائية والأهواء إلا هزمت فى كل ميدان ، ورزحت تحت عصابة الشيطان .

ثالثاً : هذه الآية الكريمة : **﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً..﴾**الآية هى من أعظم أوسمة التشريف لأمة محمد إذا هم عملوا بها ، لأن الله ـ جل جلاله ـ جعل أمة محمد ورثة لرسالة أولى العزم من الرسل ، وأمرهم

أن يقتدوا بأولى العزم ، ويصبروا على الشريعة ، كما صبر أولو العزم ، وهى مسؤولية لا تطيقها إلا العزائم العظيمة والنفوس الكريمة ، وقد أثبتت الأيام أن رسالة محمد ﷺ هى وارثة جميع الرسالات ، وأنها خاتمتها والمهيمنة عليها، فها هى تستقبل القرن الخامس عشر ، وقرآنها لم ينقص حرفاً واحداً ، وسنة نبيها تامة مدروسة محفوظة ، وجميع أحكام دينها مفصلة مبينة ، وهذه أطول فترة لم يبعث فيها نبى . لقد كانت أطول فترة لم يبعث فيها نبى هى التى بين محمد وعيسى ومقدارها ستمائة وإحدى عشرة سنة ، أما الآن فقد مضى أربعة عشر قرناً ونيف ، وما ادعى النبوة مدع صادق وما نقص شرع محمد حكماً واحداً. وعلى الرغم من فظاعة المؤامرات ضدها ، وتعاقب البلاء عليها ، فإن لها من الطاقة الروحية ، والبشرية والاقتصادية ما يؤهلها للريادة ، ولو أنها غرست فى نفوسها وصية أولى العزم من الرسل ، فأقامت دين الله ، ولم تتفرق من حوله مع الأهواء ؛ لما وقف فى وجهها عدو ، ولا نال من حماها دخيل ، لكن أمة محمد لا تأتيها الهزيمة إلا من صفوفها ، فهى تنسى ما شرع لها ربها من الدين ، وتتفرق عن صراط المؤمنين ، فتذهب ريحها ويتمزق كيانها، ويطمع فيها الكفر ، فيكثف من حولها مؤامرته المجرمة .

رابعاً : من أجل ذلك بيّن ربنا عز وجل سبب الوصية العظيمة ، وأهمية التمسك بها فقال : ﴿ **كبر على المشركين ما تدعوهم إليه** ﴾ ، ومعنى هذه العبارة العظيمة : أن الكفار لن يستقبلوا دعوة الحق بالمهادنة ، ولن يتقبلوها بسهولة ، بل سوف يرونها خطراً كبيراً عليهم ، فيقاومونها بشتى أساليب الصراع والحيل والمؤامرات ، ومن هنا فاتحدوا يا أيها المسلمون ،

وأقيموا فى وحدتكم جميع شعائر الدين .

خامساً : وقد ختم الآية ـ جل جلاله ـ بقوله : **﴿ الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾** ؛ مشيراً بهذا إلى أن أمة محمد حين كلفت بتوحيد الله ، وبوحدة الكلمة ، والصبر على الإيذاء فإن هذا يعدُّ اجتباء لها وتشريفاً لكيانها مادامت مقيمة لدين الله محافظة على وحدة الصف والكلمة .

سادساً : قوله تعالى : **﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب ﴾** يشير إلى موقف قريش واليهود ، وكيف أنهم كانوا ينتظرون نبياً ، وكانت قريش تتمنى أن يبعث فيها نبى ويقولون : لو أنزل علينا كتاب وجاءنا نبى لكنا أهدى من اليهود والنصارى الذين كانوا يكذبون أنبياءهم ويقتلون علماءهم ومصلحيهم ، وما تفرقت قريش إلا من بعد ما جاءهم العلم وهو دين محمد . أما اليهود الذين أورثوا الكتاب ، فاحترفوا الدسائس وإثارة الشكوك من حول الرسالة المحمدية حسداً من عند أنفسهم .

سابعاً : من أجل ذلك ختم ربنا هذه الآيات بوصايا لرسوله ﷺ ولكل مؤمن يتأسى برسوله **﴿ فلذلك ﴾** أى بسبب كفر قريش واليهود **﴿ فادع واستقم كما أمرت ﴾** أى : فاثبت على دعوتك العظمى واستقم على صراط الله الذى لا عوج فيه **﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾** ؛ أى لا تطعهم إذا دعوك إلى المهادنة بالإغراء وليكن أسلوبك دواماً هو أسلوب الداعية الصبور الحكيم الذى يتألف القلوب بسحر أسلوبه **﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾** أى من كتبكم وجميع الكتب السماوية **﴿ وأمرت**

لأعدل بينكم ﴾ أى سوف تجدون منى كل عدل على الرغم من عدوانكم وعدائكم . ﴿ **الله ربنا وربكم** ﴾ أى إلهنا وإلهكم واحد ﴿ **لنا أعمالنا ولكم أعمالكم** ﴾ أى كل مسؤول عن عمله ، فما يضرنى كفركم ولاينفعنى إيمانى ﴿ **لاحجة بيننا وبينكم** ﴾ لاجدال بيننا بعد أن سطعت البراهين .

وقد أورد أهل التفسير أن هذه الآية نزلت حين أغرى عظيمان من عظماء قريش محمداً ﷺ بالرجوع عن دعوته ومنهم الوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة مقابل أن يتنازل له الوليد عن نصف ماله وزوجه .

التشيع لأهل البيت وما شابه من سلبيات

هذه آية من سورة الشورى تهيئ ـ إن شاء الله ـ فرصة للحديث عن التشيع لآل البيت وما أحاطه من سلبيات ، واكتنفه من إنكار لفضائل الصحابة .

بسم الله الرحمن الرحيم : **﴿ ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور ﴾** [الشورى : ٢٣].

أولاً : حب آل بيت رسول الله دليل على الإيمان ، وعلى حب رسول الله ﷺ ومن أجل هذا ، فإن كل مؤمن يصلى على رسول الله ﷺ يشمل فى صلاته آل بيته الكرام ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، اللهم صلِّ على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبى الأمى ، وعلى آله وصحبه وسلم .

نعم إن حب آل بيت رسول الله دليل على حب الرسول الكريم ﷺ ، ومن أجل هذا فنحن نعتبر حب آل البيت قربة إلى ربنا ـ جل جلاله ـ ورداً لبعض الواجب لرسول الله ﷺ ، وهو الذى هدانا به ربنا ، وعلمنا ديننا ، وتركنا على المحجة البيضاء بعد أن أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وكان الأمين على وحى السماء ، فجزاه الله عن هدايتنا خير ما يجزى نبى عن أمته . ورزقنا الله حبه وحب آل بيته .

ثانياً : إن أعظم حب لرسول الله هو اتباع ما جاء به من عند الله ، وطاعته فى كل أمره واجتناب ما نهى عنه ، أما الحب الأجوف الذى لا يؤيده دليل من العمل الصالح ، والالتزام التام ، فذلك ليس حباً ، بل هو ضرب من النفاق الذى ينطبق عليه قوله تعالى : **﴿ كبر مقتا عند الله أن**

تقولوا ما لا تفعلون ﴾ وإذن فأعظم حب لآل البيت هو الحرص الشديد على طاعة جدهم ﷺ وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، عملا بقوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾. أما ابتداع الأعياد والمواسم ، وتلوين الثياب والعمائم ، وطعن الصدور والأشداق فى عاشوراء ، وعقد البكائيات للنياحة على قوم كرام لاقوا ربهم ، وقدموا على ما قدموا من الصالحات . وأما سباب الصحابة الفضلاء والشك فى الخلفاء الراشدين الأتقياء ، والزيادات على الأذان المشروع، وعلى كتاب الله المعروف والمطبوع ، أقول : أما هذا كله فلا يعدو ضروباً من الكذب المشعوذ ، والافتراء الذى تاجر به بعض سدنة الجهل ، فاسترزقوا من ورائه قرابين الشرك ، وموارد الرزق .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ قل لاأسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ﴾ قيل فى سبب نزولها : إن النبى ﷺ حين قدم المدينة كثر عليه الزائرون ، والضيوف ، ونوائب الحق ، فاجتمع الأنصار ـ رضى الله عنهم ـ وقالوا : إن رسول الله ﷺ هداكم الله به وهو ابن أخيكم ، وتنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما بين يديه ، أفلا ترون أن نجمع له ؟ فجمعوا له مالاً وأتوه به فأجابهم ﷺ بما كان الله قد أنزله عليه ﴿ لا أسالكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ﴾ . ومعنى الآية والله أعلم: إنى لا أسألكم على متاعبى فى إبلاغ الرسالة أجراً ، أو مالاً ، ويكفى منكم أن تلقوا بالمودة لآل بيتى وعترتى وأقاربى ، مثبتاً لهم ﷺ أن دعوته فوق مستوى المال والعرض الأدنى ، وأنها مخلصة لا مقصد لها إلا الهدى والحق والإيمان ، ونشر المحبة والمودة ، وبخاصة لآل بيت رسول الله ﷺ وعشيرته .

رابعاً : إن هذا المقطع من الآية الكريمة : ﴿ قل لا أسالكم عليه أجراً إلا المودة

في القربى ﴾ هو الذى غلا الشيعة فى تأويله ، وغالوا فى مفهومه ومدلوله، ورددوه فى أشعارهم وأقوالهم فقال الكميت بن زيد ، وهو أشهر شعراء الشيعة فى عهد بنى أمية ، من قصيدته الشهيرة التى مطلعها طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب قال فيها يخاطب آل البيت :

وجدنا لكم فى آل ﴿حم﴾ آية   تأولها منا تقى ومعرب

أى : أعلن تأويلها ومعنى التقى المتخوف ، والجرىء الصريح وهو يشير إلى هذه الآية من سورة حم الشورى **﴿ قل ما أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ﴾** إذ لم يزالوا يغالون فى حب آل البيت ـ رضى الله عنهم ـ حتى وصلت فئات منهم إلى حمات الشرك ، فلقد حدثنى زميل لى من بلاد العراق أنه سمع فقيهاً من فقهاء الشيعة يلقى درساً فى أحد مساجد الكاظمية ببغداد ، وكان موضوع الدرس عن فضائل موسى الكاظم ـ رضى الله عنه ـ فسمعه يقول للجمهور المستمع : لا تستهينوا بموسى الكاظم ، فهو ذو جاه عند الله عظيم، تغفر الذنوب كلها بزيارة قبره ، ثم أتبع هذا الغلو بقصة ؛ ليشد بها الانتباه ، خلاصتها : أن رجلاً مر على جامع يطبخ على بابه قربان من القرابين التى تهدى لموسى الكاظم، وإذا الحطب الذى يطبخ عليه القربان كثير الدخان ، فدخل دخان الحطب إلى عينى الرجل فذرفتا من الدخان دموعاً ، فرأى الرجل فى منامه هاتفاً يهتف به : إن الله قد غفر ذنوبك ببركة الدموع التى نزلت من عينيك من ذلك الدخان الذى خرج من الحطب الذى طبخ عليه قربان موسى الكاظم !

إن أهل السنة جميعاً يحبون علياً ـ رضى الله عنه ـ وجميع العترة الطيبين الطاهرين من لدن زين العابدين إلى جعفر الصادق وموسى

الكاظم ، ويصلُّون على آل البيت ضمن الصلاة على جدهم رسول الله ﷺ ، لكن أهل السنة مأمورون أن ينبذوا الغلو ؛ لأن الشرك الأول كان سببه الغلو ، وأهل السنة يعلمون أن الشفاعة لله جميعاً ، حتى إن رسول الله ﷺ قال لأحب الناس إليه فاطمة رضى الله عنها : « اعملى يافاطمة بنت محمد، فإنى لا أغنى عنك شيئاً »، وإذا كان رسول الله ﷺ لا يملك أن يشفع لفاطمة التى هى بضعة منه إلا بإذن الله، فلابد أن يكون موسى الكاظم ـ رحمه الله ـ عند نسبته من الشفاعة .

خامساً : إن الخاتمة التى ختمت بها الآية الكريمة تشير أن العبرة فى مثوبة الله وحسن جزائه تتوقف على العمل الصالح ، والإكثار من الحسنات **﴿ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور﴾** . ومعنى هذا الختام وهو إطناب جميل : أن من يكسب حسنة فإننا نزيد له حسنها وذلك بمضاعفتها وزكائها وحسن عاقبتها وثوابها ، ولا غرو فى هذا العطاء الجزيل ، فالله ـ جل جلاله ـ يغفر للعصاة ، ويشكر للمحسنين ، وما أجل وأجمل أن يتصف ربنا جلت عظمته بالشكر ، إنه يشكر عبده المؤمن المحسن ، مع أن خزائن الخير والإحسان بيديه ، فهو ملهم الإحسان وهو الهادى والإيمان ، ومع ذلك فهو بمنه وكرمه ينسب فعل الخيرات إلى المؤمن رفعاً لمعنويته وتكريماً له ، وحسب المؤمن شرفاً أن يشكره الشاكر العليم .

الله دائماً متفضل
والعبد دوماً مقصر !

هذه ست آيات من سورة الشورى تبدو وكأنها ست لآلئ منثورة ، مع أنها في الحقيقة منظومة تدور كلها في فلك واحد ، وينتظمها موضوع هو : أن الله عز وجل على جميع الأحوال هو المتفضل ، وأن العبد هو المقصر في حق ربه .

بسم الله الرحمن الرحيم : **﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون * ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد * ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير * وهو الذى ينزل الغيث بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد * ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير * وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾** [الشورى : ٢٥ ـ ٣٠].

أولاً : أفعال الله ـ جل جلاله ـ سواء أكانت نعماً أو بلاء ، منعاً أو عطاءً ، قبضاً أو بسطاً ، إحياء أو إماتة تكمن وراءها حكمته البالغة ، وقدره الحكيم ، وعلمه المحيط . وما على العبد حين يحل به قضاء إلا أن يرضى ويسلم ، ويحمد ربه ـ جل جلاله ـ مانعاً ومعطياً عفواً ومعاقباً ؛ لأنه هو الذى خلق العدل ، وهو الذى حرم الظلم ، وهو الذى خلق كل شىء بقدر . إنه جلت عظمته أهل الحمد على كل حال ، وهذا ما تشير إليه آية سورة الأنعام :**﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾** [الأنعام : ٤٥] وآية سورة الزمر :**﴿ وقضى بينهم بالحق**

وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ [الزمر : ٧٥].

ثانياً : الآيات الكريمات التى نحن بصددها تجيب عن تساؤلات قد يتساءلها العباد : لماذا لا يهدى الله كل العباد بحيث لا يذنبون أبداً ولا يعصون الله؟ ولماذا لا يغنى الله جميع خلقه ويبسط لهم الرزق ؟ ولماذا يحبس الله الغيث أحياناً ؟ ولماذا يسوق المصائب أحياناً ؟ وقد جاءت هذه الآيات الكريمات بأسلوب فى غاية الجمال والهدوء والإقناع والمنطق تثبت أن ربنا جلت عظمته على كافة شؤونه هو أهل الحمد والثناء فى كل شدة، أو رخاء ؛ لأنه العدل الذى لا يظلم ، والجواد الذى لا يحرم .

ثالثاً : من أجمل آيات البشائر قوله تعالى : **﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾** . إن هذه الآية الكريمة تفتح باب الرجاء دواماً أمام العبد ، وتدعوه لينسى ماضى الغفلات ، ويشترى نفسه بالطاعات مهما اقترف العبد من ذنوب ، فإن باب التوبة لا يوصد فى وجهه ، ومهما عظم الذنب فعفو الله أعظم . ومن فضل ربنا ـ عز وجل ـ أن التوبة فى ديننا تتم بأسهل الوجوه ، فهو لا يحتاج أن يذهب إلى كاهن فيعترف عنده كما يفعل النصارى ، بل إنه ليكره منه أن يفضح نفسه ، ويحدث عن معصيته بعد إذ ستره الله . وكل ما عليه أن يخلو بنفسه ويتوجه إلى ربه فيقول : يارب إنى قد تبت إليك ، وندمت على ما فعلت ، وعزمت أن أترك الذنوب ، هنالك يجد الله تواباً رحيماً . والله ـ جل جلاله ـ يبسط يده لأنواع التائبين ، ولا يقبضها عنهم إلى قيام الساعة ، وهذا منتهى العدل ، وغاية الكرم : أن يقبل العبد الضعيف بخطاياه ومعاصيه ومبارزاته على ربه المنتقم الجبار المتكبر ، فما يكاد يعلن توبته حتى يرى ربه وقد عفا كل ما كسب من الآثام ، ويَجُبُّ بالتوبة ما

سبقها من الذنوب ، بل إن عفوه ليبلغ القمة حين لا يكتفى بمحو الآثام وإنما يبدلها حسنات .

ويزيد فى عظمة الكرم والجود أن الله ـ جل جلاله ـ يعلم ما يفعل العباد فلا تخفى منهم عليه خافية ، ومع كل هذا العلم المحيط يمحو تلك الذنوب الثابتة التى لا جدال فيها ؛ لأنه رآها ـ جل جلاله ـ وهى تقترف على مرأى ومسمع من رب العزة الذى هو أقرب إلى العبد من حبل الوريد .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ **ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ قول فى منتهى العدل ، إذ لاجزاء للإحسان إلا الإحسان ، ومن ثم فهو يتقبل المؤمنين الصالحين المصلحين الفاعلين للخيرات ، يتقبلهم فى حزبه ويزيدهم على أعمالهم من فضله أضعافاً مضاعفة ، أما الكافرون فيعذبهم وفاقاً لأعمالهم وهذا هو الأمر المنطقى الذى تستقيم عليه الحياة ، أما أن يجعل الصالحين كالمجرمين، فهذا هو المنطق المعكوس الذى لا يليق بجلال الله .

خامساً : من أجل الحكم الإلهية الحكيمة الواردة فى هذه الآية العظيمة :﴿**ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير**﴾ . ومعنى الآية الكريمة : لو أن الله ـ جل جلاله ـ أعطى كل إنسان من الرزق ما يشتهى ، إذن لشاع فى الأرض الترف والغنى ، وهما بلا شك مقدمة البطر والفسق ، وإذن لشاع الظلم فى الأرض بسبب الترف والفسوق، لكن الله ـ جل جلاله ـ يعطى الرزق بحكمة ، فيبسطه لمن يشاء ، ويقدره لمن يشاء على ضوء علمه وحكمته، إذ هو ـ جل جلاله ـ خبير بنفوس عباده بصير بأفعالهم وأحوالهم .

لقد اقتضت مشيئة الخالق ـ جل جلاله ـ أن يستخلف بنى الإنسان فى الأرض ليتعاونوا فى عمارتها ، وليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، فيكون هنالك عمال يعملون فى شتى المرافق ، وصناع يوفرون للأمة الصناعات، ولو أن الله بسط الرزق للجميع ؛ لأقلع الناس عن العمل ولم يتنزل أحد أن يخدم الآخرين.

وفى الأثر فيما يرويه النبى ﷺ : « وإن من عبادى المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده الفقر ، وإن من عبادى المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده الغنى ، وإنى لأدبر عبادى لعلمى بقلوبهم فإنى عليم خبير » ، وقد رأيت بأم عينى من معارفنا من كان أيام كفافه صالحاً كثير العبادة هو وزوجه وذريته ، فلما سيق لهم الغنى قلت عبادتهم ودخلت بيوتهم معاصى الله.

سادساً : ثم يمضى الحق ـ جل جلاله ـ ليذكر ما يحدث من حبسه للمطر أحياناً حتى إذا حزن الناس وأبلسوا وداخلهم القنوط إذا شآبيب الرحمة تهطل ، وإذا الناس مستبشرون بعد أن كانوا يائسين مبلسين ، وإذا آثار رحمة الله زرع ونخيل وفاكهة من كل صنف زوجان . إن هذا يتم أيضاً بحكمة ؛ وذلك لأن احتباس المطر يوقظ القلوب من غفلاتها ، ويذكرها بهفواتها ويوجهها إلى ربها، ومن ثم فهو الذى يحبسه بحكمته ثم هو الذى ينزله بحكمته وقدرته ، وفى كلتا الحالتين من حبس وتنزيل يكون ربنا ـ جل جلاله ـ هو الولى الحميد ؛ أى هو ذو الولاية والهيمنة ، وهو أهل الحمد والثناء حابساً للغيث ومرسلا له ؛ لأنه عز وجل لا يصدر فى أعماله إلا عن حكمة عظيمة.

ولا شك أن المطر له علاقة وثيقة بأعمال العباد واستغفارهم ، يؤيد هذا قوله

تعالى فى سورة نوح : ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا** ﴾ [نوح : ١٠ ـ ١١] وقد ذكر أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يا أمير المؤمنين : قحط المطر وقل الغيث وقنط الناس . فقال له رضى الله عنه: مطرتم إن شاء الله ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ **وهو الذى ينزل الغيث من بعدما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد** ﴾ .

ومما شاهدت بنفسى أن الناس كانوا يستسقون ويصلى بهم إمام صالح فيعودون والمطر مدراراً ، وذلك بشير خير بأن الله ـ جل جلاله ـ رأى فيهم خيراً فرحمهم ، لكن المخيف أننا نستسقى فى هذه الأيام فلا تزيد السماء إلا جفافاً .

سابعاً : فى أثناء الآيات الكريمات ، يذكر الله ـ جل جلاله ـ بعض آيات عظمته ودلائل قدرته ووحدانيته : ﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير** ﴾ وهذا تذكير للناس بالحساب؛ لأن الذى خلق السموات والأرض وكل ما فيهما مما يدب على الأرض من الناس والأحياء والملائكة ، قادر على جمعهم فى أى وقت يشاء ، وقد جاءت هذه الآيات الكريمة بين آيات الرزق ليظل العبد على سائر أحواله على خوف من يوم الحساب .

ثامناً : ثم تجىء الآية الخاتمة لتبين العلاقة بين أعمال العباد ، وما يصيبهم من خير أو شر أو نعمة أو مصيبة : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ إن هذه الآية الكريمة درس للمؤمنين فى الصبر ؛ لأنها توحى أن المصيبة التى تصيب المؤمن تكون كفارة لبعض سيئاته ، ومن ثم فإن الله تعالى يعجل بها للصالحين ، بينما ترى قوماً يمدهم ربنا فى طغيانهم ويؤجلهم حتى يأتوا بأوزارهم كاملة . وفى الحديث الشريف : « ما من اختلاج عرق ، ولاخدش عود ، ولا نكبة حجر إلا بذنب وما يعفو عنه الله أكثر » .

والمصائب التى تصيب الصالحين تكون إما تنبيهاً من غفلات أو تكفيراً لسيئات ، أو رفعاً لدرجات ، وهى على كل أحوالها فضل من الله ونعمة . وعلى العبد إذا أصيب بمصيبة أن يعلم بأن الله ـ جل جلاله ـ إنما يصيب العبد بسبب ما تكسب يداه ، وأنه وإن آخذه بواحدة فقد عفا عنه الكثير ، الكثير من الذنوب والزلات .

اللهم عافنا ولا تبتلنا ، اللهم والطف بنا فى كل ما جرت به المقادير ، وأعذنا برضاك من سخطك ، وبعفوك من عقوبتك ، سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

من صفات المؤمنين حقا

هذه آيات كريمات من سورة الشورى ، تتحدث عن صفات المؤمنين التى بها يرزقهم فى الدارين ويترك لهم ذكراً فى العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون * والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون * والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون * وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل** ﴾ [الشورى : ٣٦ ـ ٤١] .

أولاً : هذه خلاصة شافية للفضائل التى يتحلى بها أفراد المجتمع الإسلامى ، وهى بإذن الله تعالى كافية حين يتحلى بها مجتمعنا أن تحل جميع مشكلاته ، وتحقق السعادة والحب والوحدة بين أفراده وجماعاته ، إنها عشر خصال فيها العز والنصر ، والتمكين فى الدنيا ، وفيها الجنة والرضوان والسعادة فى الآخرة .

ثانياً : تضمنت الآية الأولى خلقين من الأخلاق التى تسود أفراد المجتمع الإسلامى ﴿ **وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ . هذان الخلقان هما : الإيمان بالله ، والتوكل عليه ، وتشير الآية الكريمة : أن هاتين الخصلتين تجعلان من يتخلق بهما راغباً فيما عند الله غير حريص على المتاع الزائل فى هذه الحياة الدنيا ، والحق أن الإنسان إذا صدق إيمانه بربه، وتوكل

على ربه حق التوكل ، فإنه إذ ذاك يرضى بكل قضاء ، ويسلم لكل قدر، ويصبح همه رضاء ربه ، وينزع من قلبه مطامع الدنيا وشهوات الحرام ، وحسبك بمجتمع يسوده الإيمان بالإله الخالق ، والتوكل على الرب الرازق ، إن هذا المجتمع سيهديه ربه بإيمانه ، ويرزقه بتوكله ، والإيمان والتوكل كانا وما زالا جُنَّة من جرائم الطمع ومزالق الكفر ، وعوناً للعبد على الكرم والرحمة .

وقد جاء أن سبب نزول الآية : أنها نزلت فى أبى بكر - رضى الله عنه - حين أنفق كل ماله فى سبيل الله ، فلامه أهله من بنى تيم فنزلت الآية الكريمة: **﴿ وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾** وفى هذا إشارة ربانية كريمة إلى أن الدواء الناجع للبخل واللوم والشح المطاع هو : الإيمان الصادق بالله والتوكل الصادق عليه ؛ لأن المتوكل يوقن أن الرزق كله من الله وأن خزائن رزق الله لا تنفد ؛ ولهذا تجده جواداً كريماً لا يبخل على دينه ومجتمعه بشيء .

ثالثاً : تضمنت الآية الثانية ، صفتين أخريين من صفات المؤمن : **﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾** والصفتان هما : اجتناب الكبائر ، وهى الجرائم التى تخرب الأمن وتنتهك الحقوق، كالقتل ، والسرقة ، والزنا ، والقذف ، وكالتولى يوم الزحف ، وكشرب الخمر إلى زوال العقل ، وظلم العباد ، والغلول . أما الصغائر التى يظلم بها العبد نفسه ، فقد يقع فيها المؤمن ، لكنه يرجع عنها ويستغفر . وباجتناب كبائر الإثم والفواحش يصفو المجتمع الإسلامى من الجريمة ، ويسوده الأمن الذى كتبه ربنا عز وجل للذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم

بظلم وتأتى صفة المؤمنين الرابعة : وهى العفو عند الغضب ؛ لأن الغاضب قد ينتقم فى سوْرة غضبه ، ثم يتضح له أنه انتقم من برىء بجهالة فيصبح على ما فعل نادماً .

وحسبك بمجتمع تعدم فيه الجريمة ، ويسوده العفو ، فتعمه السعادة بالأمن والمحبة بالصفح الجميل ، وما أجمل أن قرن العفو بالغضب ؛ لأن أشد ما يكون العفو صعوبة عند الغضب ؛ لأن الغضب يذهب العقل ويفسد الحلم ، ويخرب المزاج ، فمن عفا وغفر عند الغضب كان عند الرضى بالعفو أجدر .

رابعاً : أما الآية الكريمة الثالثة ، فاشتملت على أربع من فضائل المواطنين فى المجتمع الإسلامى ، فأصبحت الخصال الصالحة بهذه الآية ثمانى خصال **﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾** والخصال الكريمة الأربع التى تضمنتها الآية هى الاستجابة لله حين يأمر بأى أمر ، أو ينهى عن أى منكر ، أو يدعو إلى جهاد وتضحية وإقام الصلاة ، والتزام الشورى فى الأمور ، وإيتاء الزكاة ؛ وقد لوحظ أن الشورى وضعت بين ركنين من أركان الإسلام هما : الصلاة ، والزكاة ، وذلك لأن المجتمع الذى يسوده الاستبداد ، والتسلط ، والطغيان ، والدكتاتورية ، ينطمس فيه الإحسان ، وينمحى منه كيان وحدته ، فلا صلاة تؤلف القلوب فى بيوت الله ولا زكاة تشيع المحبة بين أفراد المجتمع . إن توسط الشورى بين ركنين عظيمين من أركان الإسلام إشارة إلى أن المسلمين لا تستقيم حياتهم وعبادتهم ، إلا بنظام الشورى ، فإذا تسلط على المجتمع الإسلامى دكتاتور ، فإنه لا ينتفع عندئذ بصلاته أو زكاته ، ومازلت أذكر كيف تسلط على إحدى ديار المسلمين دكتاتور

بطش بالعلماء ، وقتل الفضلاء الذين يأمرون بالقسط من الناس فخربت فى عهده العبادة وشاع ، الخوف والقحط وأوحشت المساجد ، ولو أنه طبق النظام الإسلامى فاستشار أولى الصلاح لما شقى به شعبه ولا ضاعت أرضه ، ومقدسات الإسلام فى عهده .

خامساً : أما الصفة التاسعة والصفة العاشرة فقد وردتا فى قوله تعالى : ﴿**والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون * وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لايحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل**﴾ . الانتصار من الظالم ومعاقبته وتأديبه وإعطاؤه درساً فى عاقبة الظلم كل هذه من خصائص المجتمع المسلم وبخاصة حين يكون الظالم المعتدى وقحاً كاليهود . إن السكوت على الظلم ينقلب كبيرة من الكبائر ، إذا كان الظالم كافراً معتدياً يقاتلنا فى ديننا ويظاهر علينا ليخرجنا من بيوتنا . إن المنتصر لدينه من عدو ظالم كافر لالوم عليه مهما عربدت من حوله الأراجيف بل هو فى منازل الصديقين ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ ولا بأس أن يعفو المؤمن ويقبل الصلح إذا كان غريمه أخاه المسلم . أساء إليه ثم ندم على الإساءة ، وقد ورد فى الحديث الشريف : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد : أيكم أهل الفضل ؟ فيقول : ناس فيقال ، لهم انطلقوا إلى الجنة فيدخلونها بغير حساب..» .

أمر البنين والبنات والعقم من الله عز وجل

هاتان آيتان كريمتان من سورة الشورى تضعان حداً لأى اعتراض على ما يقسم الله للعبد من بنين أو بنات . وقد لاحظ أشياخنا تلك البداية الصارمة للآيتين ، وهى بداية لا تترك أمام العبد إلا الرضا والتسليم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور * أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير** ﴾ [الشورى : ٤٩ ـ ٥٠].

أولاً : كثير من الناس يحزن ويغضب ويتجهم وجهه إذا رزقه الله ـ جل جلاله ـ بنتاً ، ويرى أن البنت لا تحفظ سلسلة النسب وأنها مجرد وعاء لا يفيد إلا الصهر، وأنها لا تدفع بسلاح ولا تخوض حلبة قتال ، وقد وصف الله ـ جل جلاله ـ هذا الوضع فى مواضع من القرآن الكريم كما فى سورة النحل فى قوله تعالى : ﴿**وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون** ﴾ [النحل : ٥٨ ـ ٥٩] ومن أجل الحياة الجاهلية التى سادتها شريعة الغاب ، شاع وأد البنات وظلت بينهم تلك العادة الهمجية حتى أنكرها الإسلام وألغاها، وحذر المسلمين من يوم تسأل فيه الموؤودة : ما الذنب الذى جنته لتقتل ؟! وهو سؤال فى قمة بلاغة التعريض ؛ إذ السؤال فى الظاهر لها ، وفى الحقيقة لوليها الذى وأدها فى وحشية لا يتصورها عقل ولا فطرة سليمة .

ثانياً : من أول ما يشد إلى الآية الكريمة هذه المقدمة التى استهلت بها الآية :

﴿لله ملك السموات والأرض﴾ ، إنها كلمات أربع تعلن أن أمر البنين والبنات والعقم لا يجوز أن يناقش أو يستنكر أو يعترض عليه ؛ لأنه من عند مالك السموات والأرض ، ومادام صاحب الشأن هو هذا الملك المهيمن فكيف يسأل عما يفعل وهو رب الجلال والعدل والرحمة ؟!

﴿ لله ملك السموات والأرض ﴾ معناها : يا من يكره الأنثى ، ويتساءل في خلق الله اعلم أنك بسؤالك هذا تنسى الخالق وحكمته ، وتدبيره وتعترض بهذا التصرف على مالك الملك مع أنك تعلم علماً يقينا أن إلهك العظيم لا يصدر عن عمل إلا لحكمة بالغة ، وعدالة مطلقة ﴿ لله ملك السموات والأرض ﴾ وإذن فثق أنت بعدله ، واحمده على عطائه ، وسترى أنك ربما تحب الأمر فيه الشر كله ، وتكره الأمر فيه الخير والسعادة جميعهما .

ثالثاً : لقد رأيت بعيني رجلاً رزق البنين والبنات وكان كلما رزق بنتاً استاء ، فلما شاب هو وعجوزه وحط بهما السن والمرض والضعف ، لم تنفعهما إلا بناتهما بإذن الله ، هجرن بيوتهن ولازمن فراش المرض في حنان كأنهن أيدي ملائكة الرحمة ، أما أولاده وزوجاتهم فتبرموا بمرضهما ، وكان من المفارقات العجيبة أن الشيخ قبل موته ببضع سنين ، كان قد كتب تركته للبنين لكي يحرم البنات . ولا تسأل عن لسعات الضمير وإحساس الخجل ، وشعور الندامة على الظلم ، تلك التي كانت تؤزه كلما نظر إلى وجه بناته الصالحات الخدومات، واستعرض وجوه أبنائه وزوجاتهم وما يعلوها من عدم الاكتراث .

قد يخلف الإنسان عشرة بنين شهوداً ، وابنة واحدة ، فيأتي زمن يتفرق عنه بنوه بزوجاتهم ثم يرزقه ربه صهراً صالحاً يلازمه حين يتفرق عنه

الأحباب ، ويضيق به الصحاب ، وإذن فليكن موقفك من الذكور والإناث فى الذرية أن تتلو كلما رزقت خيراً ﴿ **لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء** ﴾ .

رابعاً : إن بعض الأنبياء كان مثلاً تطبيقياً لهذه الآية ، فإبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يرزق إلا بنين ، ولوط لم يرزق إلا بنتين ، أما إسماعيل وإسحاق فرزقا بنين وبنات ، وأما يحيى وعيسى ابنا الخالة فكانا عقيمين ، وما أجمل أن يأتسى المؤمن على كافة الأحوال بأنبياء الله .

خامساً : فى قوله تعالى : ﴿ **يخلق ما يشاء** ﴾ إيجاز قصر ، جاء من بعده إطناب تفصيل ، والقرآن إذا أوجز ، فهو الحكمة البالغة ، وإذا أطنب فهو المتعة الرائعة ، وهنا جاء قوله فى إطناب التفصيل ﴿ **يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً** ﴾ إن إطناب التفصيل قد تضمن أربعة أصناف ، وقد افتتحها ربنا بالإناث إمعاناً منه ـ جل جلاله ـ فى بسط حكمته ، ولعله من قبيل تشريف الإناث ، ولعله أيضاً إسكات للمعترض ثم ثنى بعد الإناث بالذكور ، رفعاً لمعنوية منجب الإناث، وذكر القسم الثالث وهم أولئك الذى يرزقون ذكراناً وإناثاً ، وختم بمن يكتب عليه العقم ، ولم يذكر الخنثى لأنه حالة نادرة لا يقاس عليها . وبالمناسبة فالخنثى ؛ هو مخلوق تجتمع فيه عناصر تذكير وتأنيث ، وهو فى الميراث يحكم له على حسب الصفات الغالبة .

سادساً : ختم ربنا ـ جل جلاله ـ الآيتين الكريمتين بقوله : ﴿ **إنه عليم قدير**﴾ ؛ ليعتقد الجميع من هذه الفئات أن ربنا ـ جل جلاله ـ لا يصدر فى هذا الأمر المهم إلا عن علم ينفذ كل الحجب ، ويعلم كل الأعمال

والمصائر والخير والشر ، هذا إلى جانب قدرة قادرة على الإبداع فى خزائنها ملايين الملايين من الصور والألوان والمواهب والعقول والغرائز ، ومن ثم فليعلم كل مؤمن أن ربنا ـ جل جلاله ـ هو أهل الحمد والثناء على كافة أنواع عطائه ؛ لأنه فى كل عطاء يعطيه ﴿ **عليم قدير** ﴾.

نسأل الله العليم القدير أن يلهمنا الرضاء بالقضاء ، وأن يجعل كل قضاء قضاه لنا خيراً لنا فى المعاش والمعاد ، وأن يهب لنا ولإخواننا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، ويجعلنا وإياهم للمتقين إماماً .

الوحى نور وهداية
إلى صراط الله المستقيم

بهـذه الآيات الكريمات ختم الله ـ جل جلاله ـ سورة الشورى ، وهى آيات تتعلق بالوحى ونزوله على رسول الله ﷺ بالنور والعلم والحكمة والذكر ، مع أن رسول الله ﷺ كان أمياً .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم * وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾.[الشورى : ٥١ ـ ٥٣]

أولاً : من المستحيل أن يرى بشر فى الحياة الدنيا ربنا ـ جل جلاله ـ ؛ لأن الإنسان لا يرى إلا ما يقع تحت بصره ، والذى يقع تحت البصر يكون محدوداً بجهاته ، وربنا ـ جل جلاله ـ لا يحده زمان ولا مكان .

وقد جاء فى سبب نزول هذه الآية : أن اليهود قالت لرسول الله ﷺ : إن كنت نبياً حقاً فكلم الله وانظر إليه كما فعل موسى ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن موسى لم ينظر إلى الله ولم يستطع ذلك » يشير فى ذلك عليه الصلاة والسلام إلى الآية الكريمة من سورة الأعراف : ﴿ **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه** ..﴾ قال : ﴿ **رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت**

إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ونزل قوله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ﴾ وإذا ادعى المتصوفة أنهم يرون الله ـ جل جلاله ـ فليعلموا أنهم ليس أفضل عند الله من محمد خاتم الرسل وموسى شيخ أنبياء بنى إسرائيل .

ثانياً : إذا أراد الله أن يوصل أمراً من أوامره إلى رسول من أصفيائه ، أوصل الأمر بإحدى ثلاث طرق : إما وحياً ، أى إلهاما يوقع الأمر فى روع النبى ، أى قلبه ، وإما أن يكلمه من وراء حجاب ، وإما أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة وأمين الوحى الإلهى هو الروح الأمين جبريل عليه السلام .

وكان عليه الصلاة والسلام يوحى إليه إما بأن ينفث الأمر فى روعه ، أو يأتيه جبريل بوحى الله مشافهة ، ويوحى إليه بأمر الله ما يشاء ، ومن ذلك قوله ﷺ : « إن روح القدس نفث فى روعى ـ والروع بضم الراء القلب والعقل ـ أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم » . وأما نزول جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ بالوحى فثابت بقوله تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين ﴾ [الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥].

ثالثاً : بعد أن بين الله ـ جل جلاله ـ طريقة مخاطبته لعباده المصطفين الأخيار انتقل إلى القرآن العظيم الذى نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ : ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ ومما يلفت النظر فى هذه الآية الكريمة : وصف الله ـ جل جلاله ـ للقرآن بأنه روح، وهذا يعنى أن القرآن الكريم هو روح الأمة الإسلامية وحياتها وسر بقائها ، وكأنها إذا تخلت عن القرآن الكريم

فكأنما تتخلى عن روحها ، نعم إن الأمة من دون قرآنها هى جسم لا روح فيه .

وقد أثبت التاريخ الإسلامى عبر عصوره أن أمتنا حين تركت كتاب الله ، فقدت روحها وذهبت بذلك ريحها ، ولم تقم لها أمام عدوها قائمة ، فى حين أنها كانت ومازالت إذا أخذت بقرآنها قولاً وفعلاً واعتقاداً فإن عدواً أىَّ عدوٍ لم يستطع ولن يستطيع أن ينال منها .

رابعاً : لابد من وقفة عند قوله تعالى لرسولنا ﷺ :﴿ **ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ فإن من الوهم أن يتصور متصور أن الرسل يكونون قبل بعثتهم مشركين . إن قصص الأنبياء تدل على أنهم من صغرهم محوطون بعين الله ملهمون الإيمان كما هو واضح فى قصة يحيى ، وعيسى ، وموسى ، وسليمان، وإبراهيم ، وغيرهم إذ يتجلى من قصصهم أنهم كانوا مؤمنين منذ نشأتهم ، ورسولنا ﷺ منذ نشأته ما عبد صنماً ولا شرب خمراً ، ولا ارتكب فاحشة ، وكان فى خلوته فى الغار يعبد الله على ملة إبراهيم ، ويعبده بالفكر متأملاً فى ملكوته. لكنه لم يكن يعرف تفاصيل الإيمان وأركانه وشعبه وأصوله ، ثم إنه لم يكن يعرف الكتاب ، أى الكتابة ، فلما بعثه ربه جل جلاله كشف له حقائق الإيمان بعد أن كان تائهاً فى غمار مناهجه وأصوله وتشريعاته ﴿ **ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ فأنعمنا عليك بقرآن معجز أعجز القارئين الكاتبين، وعلمناك من الإيمان ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً .

خامساً : وفى ختام السورة يذكر ربنا ـ جل جلاله ـ نعتاً للقرآن الكريم ، ولدين الإسلام يقول فى نعت القرآن الكريم : ﴿ **ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا** ﴾ ويقول فى نعت دين الإسلام : ﴿ **وإنك**

لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ . القرآن باختصار نور هادٍ يهدى به الله ـ جل جلاله ـ عباده السعداء ، والإسلام هو صراط الله المستقيم الذى وضع أركانه العظيمة رب السموات والأرض ، العارف العليم بما يصلح للعباد من تشريعات حكيمة وأحكام عظيمة ، وفى الكلمتين العظيمتين فى آخر السورة إشارة تربوية لأمة محمد بأنها إذا تركت قرآنها فقد تركت نورها الهادى ، وخبطت فى ظلمات من الأهواء المردية الموبقة تشتت وحدتها وتمزق فاعليتها ، هذا ما نفهمه من قوله تعالى : **﴿ولكن جعلناه﴾** أى : القرآن العظيم **﴿ نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾** ، أما الإشارة الثانية : فوصف الإسلام بالصراط المستقيم صراط الله الذى كل الخلق منه وإليه مرجعهم ومصيرهم إليه ، وهذا تنبيه من الرب ـ عز وجل ـ بأن العرب إذا ابتغوا العزة والهداية فى غير القرآن فإنهم إذ ذاك ينحدرون من الصراط المستقيم إلى بنيات الطرق وما فيها من شتات وضعف وظلام. ليت أمة محمد يحافظون على نور الله وهو القرآن وصراط الله الذى هو الإسلام ، وإذ ذاك يحقق لهم وعده بالنصر والعزة.

قصة النبوة

هذه الآيات الكريمات هى التى افتتح الله بها سورة الزخرف ، وهى تحكى فى إيجاز رائع قصة النبوة منذ نشأتها ، وتنعى على قريش أن يستنكروا نبوة محمد، وهم يعلمون أن الله ـ جل جلاله ـ يرسل النبيين مبشرين ومنذرين ثم ينصر رسله ، وأتباعهم من المؤمنين ، ويدمر على الكافرين الظالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون * وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم * أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين * وكم أرسلنا من نبى فى الأولين * وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون * فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين** ﴾ [الزخرف : ١ ـ ٨] .

أولاً : سورة الزخرف من السور المكية ، وقد أسلفنا أن السور المكية موضوعها العقيدة ، ودحض الشركاء ، وإثبات الوحدانية ، وغرس الإيمان باليوم الآخر . والحق أن سورة الزخرف لها من اسمها نصيب ، فهى فى أكثر من موضع تحذر من الانخداع بزخرف المتاع الزائل ، والبهرج الخداع ، وتشد المؤمنين إلى ما عند الله من دار الخلود ، ترى هذه الحقائق فى مثل قوله تعالى يذكر المترفين ووقوفهم فى وجه كل دعوة للحق والإصلاح:﴿**وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾ [الزخرف: ٢٣] يقولون هذا مخدوعين بما حولهم من زخارف مترفة ، وشهوات تملأ بطونهم على حساب عقولهم ، وكقوله تعالى يذكر مقاييس قريش الزائفة وهم يقيسون الإنسان بماله وزعامته الغشوم :﴿ **وقالوا لولا نزل**

هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : ٣١] يعنى كان يجب أنه ينزل القرآن على أحد الزعماء الأغنياء من مكة أو الطائف لا على رجل متوسط الحال كمحمد. وهنا يرد عليهم ربنا ـ عز وجل ـ بقوله : ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون** ﴾ [الزخرف : ٣٢] ثم أتبع ذلك بهذه الآية التى سميت السورة بلفظة فيها : ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة** ﴾ أى : ينقلبوا كفاراً كلهم ﴿ **لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون* ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون * وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين** ﴾ [الزخرف : ٣٣ ـ ٣٥] آية تبين هوان الحياة الدنيا وزخرفها عند الله ، ومعنى الآية الكريمة : لولا أن يتحول الناس كلهم كفاراً ؛ لأعطينا الدنيا بحذافيرها للكافر فجعلنا بيوت الكافرين كلها من فضة ، وذهب وزخارف، وفرش وثيرة .

وفى موضع آخر يذكر الله ـ جل جلاله ـ فرعون حين جعل المقياس الذى نظر به إلى موسى مقياساً زخرفياً ، فوازن بين نفسه وبين النبى موازنة عجيبة خلاصتها : أن فرعون مزخرف وموسى رجل لا زخارف له ، وكأنما كرامة الإنسان بأساور الذهب لا بروائع الأدب ﴿ **ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين * فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين** ﴾ [الزخرف : ٥١ ـ ٥٣] واستمراراً لحكاية الزخرف يعرض الله ـ جل جلاله ـ نوعاً من النعيم الذى هو خير من كل زخرف . فيه فليتنافس المتنافسون: ﴿ **الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين * ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون* يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما**

تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون * وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون * لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾ [الزخرف : ٦٩ ـ ٧٣] هذا هو العيش الحقيقى ، والنعيم الخالد لا تلك الزخارف التى لا تلبث أن تزول ثم لا تعقب إلا حسرة وندامة .

إن سورة الزخرف درس إلهى للناس ألا ينخدعوا بالمظاهر المزخرفة فى الرجال وفى المتاع ؛ لأن المظهر كثيراً ما يناقض الحقيقة ، ورب رجال تعجبك أجسامهم وملابسهم ، وهم خشب مسندة ، ورب أشعث أغبر يلفه غبار الجهاد يساوى ملء الأرض من تلك الخشب البشرية .

ثانياً : نمر الآن مر الكرام على الآيات التى استفتحت بها السورة : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون** ﴾ [الزخرف : ١ ـ ٣] ومعنى الآيات الكريمة : أقسم بهذا الكتاب المعجز البليغ الذى يبين الأحكام العظيمة والأوامر الحكيمة أن هذا القرآن هو من عند الله ، وقد أنزلناه بلسانكم العربى لكى تفهموه وتعقلوا أسراره وبلاغته وإعجازه وأحكامه ، وفى قوله تعالى : ﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾ إشارة مستقبلية إلى أن هذا القرآن سينقل العرب من الجاهلية إلى العقل ، وسيحولهم أمة عاقلة ، بل إنه سيحفظ لغة العرب وبذلك تخلد هذه الأمة، ويكون لها شرف وذكر عظيم ستسأل عنه يوم القيامة. ويؤكد هذه الإشارة الإلهية العظيمة أنه ـ جل جلاله ـ يقول فى نفس سورة الزخرف، يخاطب محمداً ﷺ ويتحدث عن القرآن : ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** ﴾ يعنى بهذا أن القرآن الكريم هو شرف العرب، وعزهم ومجدهم ، وسوف يسأل العرب فى القيامة ماذا فعلوا بهذا الشرف هل حافظوا عليه أم ضيعوه وتركوه ؟!

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ **وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم** ﴾ [الزخرف : ٤]
معناه : إن هذا القران محفوظة نسخته الأصلية ـ أى فى اللوح المحفوظ ـ مكرمة مكنونة معززة لا يلمسها إلا الملائكة الأطهار ولا تنال الأيام من عليائها وحكمتها وأحكامها.

رابعاً : ثم يمضى القرآن فى لوم قريش على قصور أفكارها وعقولها فيقول : ﴿**أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوماً مسرفين**﴾ [الزخرف : ٥]
وهو استفهام إنكار معناه : هل نتركـكم بدون إنذار ولا رسول من بين الأمم وقد علمتم علماً يقيناً كم أرسلنا من رسول قبل محمد وأن محمدا ما هو بدع من الرسل ؟! ﴿ **وكم أرسلنا من نبى فى الأولين * وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون * فأهلكنا أشد منهم بطشا** ـ كعاد وثمود وفرعون ـ **ومضى مثل الأولين** ﴾ [الزخرف : ٦ ـ ٨] أى : وتحققت سنة الله بهلاك الظالمين كما علمتم من قصص الأنبياء وأقوامهم .

ولقد علمتم أن الله ـ جل جلاله ـ يبعث الرسل فتقوم خصومة يهزأ فيها الباطل من الحق ومن الرسل ، فتكون النتيجة أن يدمر الباطل وينتصر الرسل .

دعاء ركوب الدابة

هذه آيات من سورة الزخرف تشتمل على دعاء مبارك يقوله المؤمن عندما يركب وسيلة السفر ، والمؤمن مطالب أن يكون على كافة أحواله شاكراً نعمة ربه ؛ لأن شكر النعمة يزيدها بإذن الله ، ولأن الشكر بعد ذلك دليل على نبل النفس وطيب الأصل .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **الذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ [الزخرف : ١٢ ـ ١٤].

أولاً : يعدد الله فى الآية الكريمة الأولى بعض نعمه الغامرة على بنى آدم فيقول: ﴿ **الذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون**﴾. لقد ثبت الآن أن كل هذا الكون مكون من وحدات دقيقة جداً هى الذرات ، والذرة : كائن دقيق خلقه بقدرته لاتدركه العين المجردة ، ولكنه على الرغم من دقته مكون من سالب وموجب متعانقين عناقاً قوياً لا تطاق قوته ، والويل كل الويل لمن يتدخل فى هذا العناق يريد أن يفرق الموجب عن سالبه ، أو السالب عن موجبه ، إنه عندئذ الانفجار الذى يمكن أن يدمر كل ما حوله .

لقد كان الناس يعتقدون أن هنالك أزواجاً من النبات كما كانوا يشاهدون فى النخيل وأزواجاً من الإنسان والحيوان والطير ، لكنهم لم يكونوا يدرون أن هنالك أزواجاً من كل شىء مع أن هذ الأمر أشار إليه القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً فقال فى سورة الذاريات : ﴿ **ومن كل**

شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ [الذاريات : ٤٩] وفى سورة يس حيث يقول عز وجل : **﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾** [يس : ٣٦] وقد كان الناس يقرؤون هذه الآية فيعرفون الأزواج مما تنبت الأرض ، ويعرفون الأزواج من أنفسهم ويتساءلون عن الأزواج المقصودة بقوله تعالى : **﴿ ومما لا يعلمون﴾** حتى أعلمهم العلم الحديث أن الكون كله أزواج ، وأن جميع هذه الأزواج مسخرة لبنى آدم فى البر والبحر والجو، وأن على الإنسان أن يحسن الخلافة ويبحث فى شتى الوسائل التى تمكنه أن يستثمر ما سخر له ربه من نعم ظاهرة وباطنة.

ثانياً : حين ذكر الله ـ جل جلاله ـ خلق الأزواج كلها مسخرة للإنسان تحدث عن نعمة أخرى هى وسائل المواصلات ، وقد ذكر الوسائل البرية والبحرية ، وخاطب الناس بما تعرفه عقولهم فقال : **﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾** على أنه فى آية كريمة أخرى من سورة النحل ذكر وسائل الركوب بشكل أوسع حيث ذكر الجمال كوسائل مواصلات للركوب والأثقال، ثم ذكر الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة ثم قال بعد ذلك : **﴿ويخلق ما لا تعلمون ﴾** أى ويخلق من وسائل الركوب ما لا تعلمون ، وكان الناس يتساءلون : ترى ما الذى سيخلقه الله من وسائل الاتصال مما لا نعمله ؟ إلى أن علموه فى هذه الأيام علم يقين ومشاهدة **﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾**.

ثالثاً : ثم يأتى دعاء الركوب ، ركوب أى وسيلة من وسائل المواصلات ، وهو الوارد فى بقية الآيات **﴿ لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ***

وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ ولقد كان من توفيق الله أن ألهم الخطوط السعودية للطيران أن زودت كل طائرة بتسجيل فيه هذا الدعاء المبارك وأدعية سفر أخرى من المأثور.

حقاً لقد كان ذلك مما تطيب به النفس وينشرح به الصدر ويتفاءل به المؤمن بالسلامة إن شاء الله ، وقد أوضحت الآيتان آداب الركوب أن تقول وأنت تهم بالركوب فإذا استويت على الظهر تقول : الحمد لله ذاكراً في قلبك نعمة ربك، فإذا سارت بك ؛ وسيلة الركوب ، تقول الدعاء المأثور : **﴿ سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾** .

والمقطع الآخر من الآية تجديد للإيمان باليوم الآخر وبقدرة الله القادرة على إعادة الخلق كما بدأه أول مرة ، وإنما يفعل المؤمن ذلك لأن المطية من جمل أو حصان أو سفينة أو طائرة قد يحدث لها أمر من الأمر فيموت الراكب فيكون عندئذ على الإيمان بإذن الله . ومعنى قوله تعالى: **﴿ وما كنا له مقرنين ﴾** أى: لو كان الأمر مغالبة ما استطعنا أن نقرن الجمل أو الحصان ، أو البغل ، أو السفينة ، أو الطائرة ، ومعنى أقرن الشيء ، أى : تغلب عليه بالقوة ، والعرب يسمون الرجل مقرّنا ومقرنا ، أى : أنه قادر على إقران الأبطال : أى أخذهم بالقوة .

وروى أن رجلاً كان يركب ناقة عجفاء ، فقيل له : قل سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، فقال : أما هذه الناقة فهى ضعيفة لا مقاومة لها ، وأنا مقرن لها ، فلم يشعر إلا بالناقة وقد قمصت به فدقت عنقه !

وقد علمنا رسول الله ﷺ دعاء السفر إذا استوينا على ظهر الدابة :

«﴿سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمقلبون ﴾ ، اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل والمال ، اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنظر وسوء المنقلب فى الأهل والمال » ، وروى عن على - رضى الله عنه - أنه قال : لما وضع رجله فى الركاب قال : بسم الله ، فلما استوى على ظهر الدابة ، قال : الحمد لله ، ثم قال : ﴿ سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين* وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾، ثم قال : الحمد الله والله أكبر ثلاثا، اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. هذا وقد حذر الأشياخ رحمهم الله من معاقرة اللهو والإنسان فى وسيلة السفر ؛ لأن الراكب قد يتعرض إلى خطر أو موت ، وهو على تلك الحالة التى لا ترضى الله ، وفى هذا سوء الخاتمة والعياذ بالله .

إن بعض شركات الطيران والبواخر تقدم فى رحلاتها الخمر ، وكل الخطوط الجوية تستخدم المضيفات لغير داع إلا إغراء الركاب بالتعامل مع الشركة وكم يكون طيباً من الخطوط الجوية العاملة فى ديار الإسلام لو تستبدل المضيفات مضيفين ، وهم فى الحقيقة أقدر على خدمة ضيوفهم ، وبالله التوفيق والهداية والسداد .

قيمة الدنيا عند الله تعالى

كثيرون أولئك الذين يتمنون الأموال الطائلة ، ويحسدون الأغنياء إذا رأوا لهم نعمة ظاهرة من مال أو عقار ، أو أثاث أو رياش أو أرصدة ، أولئك هم الذين يريدون الحياة الدنيا ، ويخدعون بزخرفها ، وقد لا يعلمون أنهم ربما يتمنون لأنفسهم شراً وهم لا يشعرون ، لقد تمنى أهل النظرة السطحية حينما رأوا موكب قارون أن يكون لهم مثل ما أوتى قارون وقالوا : إنه لذو حظ عظيم، ثم ما هى ليلة واحدة وإذا هم يحمدون الله على أن لم يؤتهم مثل ما أوتى قارون ﴿ **وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون** ﴾ [القصص : ٨٢] إلى من علقوا قلوبهم بالدنيا أسوق الحديث ، حول آيات من سورة الزخرف ، تبين قيمة هذه الدنيا عند ربنا ـ جل جلاله .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون * وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين** ﴾ [الزخرف : ٣٣ ـ ٣٥].

أولاً : هذه الآيات الكريمات توضح مدى تفاهة هذه الدنيا عند ربنا جل جلاله، إذا ما حسبت بالمال والمتاع وغض فيها النظر عن صنائع الحسنات وذخيرة الباقيات ، فهو ـ جل جلاله ـ يقول : ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون** ﴾ والمعنى : لولا أن يتحول الناس كلهم كفارا ؛ لجعلنا زخرف الدنيا كله وذهبها وفضتها وأثاثها الفاخر وبيوتها الرائعة الغالية

للكفار فقط ، لكن علمنا أن النفوس تعشق المال فلم نفعل ذلك حتى لا يصبح الناس كلهم أمة واحدة مجمعة على الكفر بالله .

ثانياً : فضل الله تعالى بعض زخارف الدنيا فقال : ﴿ **لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون * وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين** ﴾ . والمعنى الحرفى للآيات الكريمة : لولا أن يتحول الناس كلهم كفاراً لأعطينا زخرف الدنيا للكافرين فقط وحرمنا المؤمنين منه ، وحينئذ نعطى الكافر بيوتاً سقفها من فضة لها سلالم أو درج من فضة أيضاً يصعدون عليها ، ولها أبواب هى أيضاً من خالص الفضة ، ونصبنا لهم سرراً ينامون عليها تكون من الفضة ، ثم نعطيهم زخرفاً ، والزخرف عند العرب هو الذهب ، كما جاء فى قوله تعالى فى سورة الإسراء : ﴿ **أو يكون لك بيت من زخرف** ﴾ أى : من ذهب، ومن الجائز أنه يعنى الأثاث الفاخر ، والنقوش الرائعة والزينات .

ثالثاً : فى الآيات درس جليل بأن الغنى ليس مقياساً لكرامة المرء عند ربه ، فرب طاغوت يبعثر الذهب ، ورب نبى لم يكن يجد الكفاف ، ورب عاصٍ يتمرغ فى النعيم ، وتقى لا يجد ما يسد رمقه ومن هنا فقد جاءت خاتمة الآية رائعة جداً ، إنها تعليق على زخرف الحياة الدنيا وبهجتها ﴿**وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين** ﴾ وكلمة ﴿**لما** ﴾ هنا معناها إلا ، وكلمة:﴿**إن**﴾ نافية بمعنى ما ، ويصبح تفسير العبارة : وما كل ذلك إلا متاع زائل من حطام الدنيا الفانى ، أما الآخرة حيث النعيم الخالد فهى قصرٌ على الأبرار الأتقياء ، نعم الدنيا لحقارتها عند الله ـ جل جلاله ـ يعطى منها البر والفاجر، أما الآخرة

فالطيبات منها خالصة للذين آمنوا ؛ لأن الآخرة هى الحياة الحقيقية عند الله ، وهى الخلود الأزلى ، ومن ثم فقد جعلها للمؤمنين فقط ، وما للكافرين فيها من نصيب .

رابعاً : لقد كان النبى ﷺ لايكاد يحصل من الرزق إلا على أقل من الكفاف ومثله فى ذلك خلفاؤه الراشدون : أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، وحتى عثمان ـ رضى الله عنه ـ وهو الغنى المعروف ، قرأنا أنه كان يكتفى بالكفاف وينفق الباقى على دروب الجهاد وصنائع المعروف ، حتى لقد كان ربما جهز غزوة بأسرها فى سبيل الله . لكن أولئك الأبرار فتحوا مشارق الأرض ومغاربها ، وهدوها بأمر ربها مثبتين أن البطون الصائمة ، والشفاة الذابلة تستطيع أن تفعل ما تعجز عنه البطون المتخمة ، والأجساد النضرة إذا تسلحت الأولى بسلاح العقيدة الهائل ، وأن العبرة فى الانتصارات بالقلوب المتدفقة بالإيمان لا بالبطون المنتفخة بأنواع الطعام .

خامساً : فى الآيات الكريمة لفتات بلاغية حلوة حقاً نلتقط بعضها :

أ ـ قوله تعالى : ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة** ﴾ أبلغ جداً من قولنا : ولولا أن يتحول الناس كفاراً ، ففى الأولى تعبير بالكناية ، وهو أبلغ من التصريح ، ثم إن اللفظتين ﴿ **أمة واحدة** ﴾ أخف على السمع واللسان من التعبير الثانى ، هذا إلى جانب الحركة الذهنية التى تحركها العبارة القرآنية .

ب ـ فى معرض تزيين البيوت والدرج والسرر ، والسقف والأبواب ذكر الفضة ؛ لأن اللون الأبيض الناصع تستريح له العيون ، ولو شاء لوصفها أنها من الذهب لكن الذهب بلونه الأصفر ، ينفع زخرفاً للحياة لا زخرفاً للأثاث والدرج والسقوف ، إلا على نطاق محدود بحيث لايصبغ

ما حوله باللون الأصفر، وهو لون غير صحى للعين .

جـ ـ أكثر مما تتركز الزينة فى أربعة أشياء ، وقد جاء مرتبة كالتالى : السقف، والدرج ، والأبواب ، وغرف النوم ، ويبدو أنها مرتبة ترتيباً ، فالدرج قد يستقبلك قبل الباب ، ثم يطالعك الباب بزخرفه كواجهة تنطق بالغنى ، ثم ترى السقوف عند دخولك ، وأخيراً تبلغ الزينة ذروتها فى غرفة النوم حيث السرر .

فرعون يغتر بملكه
وغناه ويسخر من موسى عليه السلام

قلت فيما مضى من حلقات : إن بعض الناس يأخذون بمقاييس قاصرة تدل على ضعف فى العقل وضيق فى الأفق . فهم يقيسون الناس بظاهر من بهرج الزينة ، وزيف المنصب ، وبريق الذهب ، وعبية النسب . ولقد كان فرعون من أولئك الذين سقمت أفهامهم ؛ لأنه نعى على موسى ـ عليه السلام ـ أنه رجل متوسط الحال لايملك إلا كفافه .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون * أم أنا خيرٌ من هذا الذى هو مهينٌ ولايكاد يبين * فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين * فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾ [الزخرف : ٥١ ـ ٥٤] .

أولاً : إذا اختلفت نظرات البشر فى مقاييسهم للإنسان وكرامته ، فإن مقياس الإسلام لكل إنسان فى هذه الدنيا ثابتٌ لايتغير ، وهو مقياس يجعل الكرامة بالتقوى ، وهو الذى نطقت به الآية الكريمة من سورة الحجرات: ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ . ويبدو أن فرعون كان فى قياسه للرجال سطحياً يغتر بالجاه والمال والمنصب ، وكان على ما يبدو مستبداً يفرض إرادته مهما نصحه العقلاء ، ويبدو استبداد فرعون فى كيفية اختياره لأعوانه الكبار ، فلقد كان قارون مضرب مثل فى الجشع وحبّ

المال أما هامان فكان أداة طيعة لا رأى له ولا نصيحة ، وكل ما كان يعمله هو تلبية رغائب فرعون التى لا حصر لها .

ثانياً : حينما بعث الله موسى بآياته وتوراته ومعجزاته ، أحسّ فرعون أن المنطق يخذله ، فبعد تسع آيات من العبر والخوارق والعقوبات ، انقطع فرعون فى يد البراهين الساطعة ، وهنا رأى أنه لايجد منطق العقل فلجأ إلى تخبطات الأهواء ، وهو ما نسميه بالغوغائية .

وهذا شأن كل حاكم يفلس من الإنجاز الحقيقى فيلجأ إلى الصخب الدعائى الأجوف ، ولكن الكذب كما جاء فى المثل : ليس له قوائم ، ومن ثم فهو لا يلبث أن يطيح حالماً يصله النور ، وهذا ما حدث لفرعون، فقد طاح منطقه ، ولم يجد له وسيلة إلا عربدة الدعاية .

ثالثاً : هنالك نادى فرعون فى قومه بوسائل الإعلام المتوفرة لديه ، فاجتمعوا عنده فألقى فيهم خطبة كلها تناقضات وهراء وأباطيل : ﴿ **ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون * أم أنا خيرٌ من هذا الذى هو مهينٌ ولايكاد يبين * فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين** ﴾ ، أفكار صغيرة محدودة لا حجة فيها ولا برهان ، وخلاصتها : موازنة بين البهرج الذى يعيش فيه فرعون والكفاف الذى يعانى منه موسى ، وقد خلص فرعون من الموازنة بأنه أحق بالزعامة من موسى ؛ لأن له ملك مصر ، ولأن الأنهار تجرى من تحته ، وأنه ذو فضة وذهب ، وحُلى فاخرة. أما موسى فهو فى نظر فرعون حقيرٌ ؛ لأنه يعيش على عمل يده ، ولأن فى

لسانه حبسة ولأنه لايلبس فى يديه أساور من ذهب. نسى فرعون أن موسى كان له من مقومات القيادة مالم يتوفر لفرعون ، فقد كان عليه السلام قوى الشخصية عظيم البنية ، وأنه كان جلداً على الملمات ، فكان يصرع الرجال ، ويرفع الأثقال ، وأنه كان إلى جانب ذلك عظيم الأخلاق فيه الصدق والعفاف والوفاء . وقد وصف ربنا ـ جل جلاله ـ نبيه موسى بأنه كان مخلصاً ، أى مصفى من كل شائبة تنال من أخلاقه، وأنه كان القوى الأمين وأن ربه أتاه حكماً وعلماً بعد أن بلغ أشده واستوى . وإذن فقد أهل الله ـ جلّ جلاله ـ موسى للقيادة منذ زاده بسطة فى العلم والجسم ، والحكم والعلم، والفضل والأخلاق .

رابعاً : يبدو أن طبائع الاستبداد فى الحاكم الطاغية ، تعلم الشعب طبائع النفاق، والخنوع فتخف أحلامهم ، ويحترفون التزلف ، وطمس الحقائق، وهذا ما حصل لشعب فرعون فقد مرد على الخفة وداوى ما كان يلقاه من معاناة التضليل بالانحلال والفسوق وإلى هذا يشير قوله تعالى : **﴿فاستخف قومه فأطعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾** . لقد ثبت فى علم الاجتماع أن الأخلاق تنمو وتزدهر وتزكو فى ظلال الحكم المستنير القائم على الشورى ، واحترام كرامة المواطن وحريته ورأيه بينما يؤدى الحكم الجائر المستبد إلى تخدير الشعب بالأكاذيب ، وصرفه عن الحقائق وبذلك يشيع فى المجتمع الفسوق كردّ فعل للكبت والتسلط والطغيان .

خامساً : فى عصور الإسلام الطويلة ، رأينا السلف الصالح يأخذ بالقياس الإلهى فى الكرامة ، فبلال سيّد من سادة الصحابة وهو ذلك العبد الحبشى ، وأبو لهب هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم من ذؤابة قريش ، لكنه حين حطه الشرك لم يرفعه الحسب والنسب ، وسلمان فى نظرة الرسول الكريم ﷺ من آل البيت ، بينما سيد بنى مخزوم أبو جهل لا يقام له فى نظر الصحابة وزن .

المرء فى الإسلام يرفعه إيمانه ولو كان عبداً فارسياً أو حبشياً ، أما الكافر فيحطه كفره ولو كان شريفاً قرشياً . ولقد كانت الأحوال تتقلب على العرب والمسلمين ، فكانوا إذا تحكمت فيهم المظاهر ، وعربدت من حولهم الشكليات وخفت فيهم صوت الحقائق والأعمال أقول : كانوا يهزمون ، وعلى صخرة المظاهر الزائفة يصعقون ذلك ما حدث فى عصور من الدولة العباسية ، وفى آخر دولة بنى أمية ، أما حين كانوا يأخذون بالمقاييس الصادقة ويخلدون إلى الحقائق المتألقة ، ويسابقون إلى الأعمال الجليلة ، فما كان يشق لهم غبار ، ولاينال منهم قوى جبار .

ومن الغريب أن مقاييس النسب والبهرج تتلاشى فى بلاد الأجانب ، حتى إنك قد ترى رئيس وزارة إنجليزى ، كان والده دهاناً ، بل إن أحدهم كان سائق عربة يجرها حصان ، أما فى شرقنا الذى قلد فنسى الأصل والتقليد معاً فقد ترى عاطلاً طفيلياً مترهّلا من ترفه ، يفتح شدقيه حين تسأله عن عمله ويرفع عقيرته وهو يقول : أنا ابن فلان ؛ كان أبى وكان جدى ! مثل هذا هو الذى شبهه النبى بالجعل كل عمله وفائدته أن يتعامل مع الأوساخ .

بعض نعيم الجنة

هذه آيات من سورة الزخرف تذكر لقطات من نعيم الجنة ؛ ليوازن بين زخرف الفانية ونعيم الباقية ، إنه نعيم تباشيره فى ساحات القيامة ، وتتضح حقيقته حين تتفتح أبواب الجنان ، ويستقبل السعداء رضوان وهو ملك يبدو من اسمه أن فيه نفحة من رضاء الله .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون * الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين * ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون * الذين آمنوا وكانوا مسلمين * ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون * يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون * وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون * لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون** ﴾ [الزخرف : ٦٦ ـ ٧٣].

أولاً : تأتى كلمة : ينظر بمعنى ينتظر ، كما فى قوله تعالى : ﴿**انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾ [الحديد : ١٣] وكقوله ـ جل جلاله : ﴿ **ولتنظر نفس ما قدمت لغد**﴾ [الحشر : ١٨] أى : ولتنتظر وهنا يقول ربنا جل جلاله بأسلوب الاستفهام الذى يفيد التهديد ﴿**هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون**﴾ ومعنى الآية الكريمة : ماذا ينتظر المجرمون نتيجة لإجرامهم هل ينتظرون إلا صعقة القيامة أن تفاجئهم بغتة وهم فى غفلتهم وهم لا يشعرون ؟!! كما تقول لولدك : هل تنتظر بإهمالك إلا أن يفاجئك السقوط ؟! وهو استفهام يفيد التهديد والنفى معاً .

ثانياً : إذا كان يوم القيامة ، رأيت حلقات الأصدقاء صنفين هنالك حلقة أو ثلة إذا التقى أعضاؤها لعن بعضهم بعضاً فى مغاضبة وعداء ، كأن لم تكن بينهم معرفة ، أو كأن معرفتهم قد انقلبت من صداقة إلى عداء بغيض ، هؤلاء هم الذين جمعتهم صداقة الفساد والمعصية ، وتحلقوا فى اجتماعاتهم الدنيوية حول الشيطان يسيطر عليهم ويزين لهم ، ويغريهم بكل فاحشة . وهنالك فى القيامة ثلل من الأصدقاء يتعارف أعضاؤها ، ويأتنس كل منهم بالآخر ، ويكون بينهم من الألفة والتعاطف أكثر مما كان بينهم فى الحياة الدنيا ، هؤلاء هم المتقون يناديهم الله جل جلاله : ﴿ **ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون**﴾.

وقد روى أن المنادى ينادى فى ساحات القيامة : ﴿ **يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون** ﴾ فيرفع جميع الخلائق رؤوسهم ويقولون كلنا لله عباد فينادى الثانية : ﴿ **الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين** ﴾ فينكس الكفار رؤوسهم ويبقى أهل التوحيد رافعى رؤوسهم .

ثالثاً : بعد أن يتزيل أهل التوحيد من أهل الكفر ، يقال لهم : ﴿ **ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون** ﴾ ، ومعنى ﴿ **تحبرون** ﴾ : تسرون وتبتهجون من الحبور وهو السرور ، وأزواجهم من نسائهم المسلمات فى الدنيا ومن الحور العين ، ولأن سرور المرء لا يتم إلا بوجود زوجته معه يدخل الله المؤمنين الجنة ومعهم أزواجهم، وقد علا وجوههم الحبور والاستبشار .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ **يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون** ﴾ ، هذه الآيات جمعت كل أنواع النعيم فى ست كلمات ﴿ **وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين** ﴾ وورد فى مطلع الآيات ، إطناب تفصيل هو قوله تعالى :

﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب﴾ ، لأن الذهب لا يصلح لأن يتمتع به المسلمون فى الدنيا ، ثم ختم بإطناب تفضيل آخر ، هو قوله تعالى :﴿وأنتم فيها خالدون﴾ ؛ لأن نعيم الدنيا يعكره الموت ، أما نعيم الآخرة فيجمله الخلود ، ولم يذكر الأطعمة والأشربة لأنها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين يدخل فيها كل لذائذ الأطعمة والأشربة .

خامساً : الصحاف : أوعية يصب فيها الطعام عند الأكل وهى تشبع خمسة أشخاص ، وأكبر منها القصعة ، وأكبر من القصعة الجفنة ، والأكواب : أكواز ليس لها عرى ، أى آذان يتسع أحدها لشربة من الماء ، أو النبيذ ، وعلى ذكر الذهب والفضة ، فإن استعمالهما واقتناءهما حرام ، قال رسول الله ﷺ : « لا تلبسوا الحرير والديباج ولا تأكلوا فى آنية الذهب والفضة فإنها لهم فى الدنيا ـ أى للكفار ـ ولكم فى الآخرة » وقال رسول الله ﷺ : «الذى يشرب فى آنية الذهب والفضة كأنما يجرجر فى بطنه نار جهنم» . أما المضبب ، أى : المطلى بالذهب ، فالأكل فيه والشرب مكروهان والله أعلم .

سادساً : أما حول قوله تعالى : ﴿ **وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين** ﴾، فقد روى الترمذى أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ ، يارسول الله هل فى الجنة خيل؟ فقال : « إن الله أدخلك الجنة ، أفلا تشاء أن تحمل على فرس من ياقوتة حمراء يطير بك فى الجنة حيث شئت » ، وسأله رجل : هل فى الجنة إبل ؟ فقال : « إن الله حين يدخلك الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك» .

ومن الطرائف أن أعرابياً سأل فقيهاً هل فى الجنة جمر رائع نستدفئ به ونستمتع بمنظره ؟ فقال له الفقيه : إنك لن ترى فى الجنة زمهريراً ،

لكن إن اشتهيت منظر الجمر فإن لك فى الجنة ما تشتهيه .

سابعاً : من عادة الكرام أن يرفعوا معنوية الضيوف ، فإذا شكر الضيوف مضيفاً كريماً قال لهم : هذا من بعض أفضالكم . وهنا يحصل فى الجنة أمر يشبه هذا، فإن أهل الجنة حينما يفاجؤون بنعيم لم يخطر على قلب بشر ولا تعلمه نفس من خلق الله ، تصغر فى عيونهم أعمالهم وتتضاءل فى حسابهم حسناتهم ، ويقولون : ﴿ **الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله** ﴾ فتناديهم الملائكة : ﴿ **تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ والمعنى : إن هذه الجنة العظيمة هى ثمرة لأعمالكم الصالحة ، وفى هذا رفع لمعنوياتهم وإشعار لهم بأنهم عملوا الصالحات فاستحقوا عالى الجنات .

فسبحان من يملك كل شىء ، ويعطى كل شىء ، وينسب لخلقه فضلاً وكل الخير والنعمة والفضل ، وكل الملك والحمد والثناء ، وكل الجلال والعظمة والكبرياء له وحده لا شريك له .

آيات تثبت وحدانية الله تعالى

هذه هى الآيات التى ختم بها ربنا عز وجل سورة الزخرف ، وقد وجدت أن بعضها لا يخلو من متشابه يحتاج إلى جلاء وإيضاح . وخصوصاً ما نراه فى الآية الأولى ، والآية الخاتمة للسورة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين * سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون * فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون * وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم * وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون * ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون * ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون * وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون * فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون** ﴾ [الزحرف : ٨١ ـ ٨٩].

أولاً : الآيات التى تتطلب بعض الإيضاح فى هذه الخاتمة المباركة هى قوله تعالى : ﴿ **قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون * فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون** ﴾ .

ثانياً : الموضوع الرئيسى للآيات هو العقيدة ، وإثبات وحدانية الله ـ جل جلاله ـ وتنزيه عن الصاحبة والولد ، والشريك والشبيه والمثيل ، وقوله تعالى : ﴿ **قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين** ﴾ معناه : إذا صح بالدليل الذى يقبله العقل ويطمئن إليه القلب أن لله ولداً فأنا أول من

يعبده ، ولكن قد جاءكم من الدلائل والآيات والبراهين الساطعة فى الكتاب والسنة ، ومنطق العقل : أن الله ـ جل جلاله ـ لا يمكن أن يكون له ولد ؛ لأن الزوجة أو الصاحبة تكون عادة من نفس فصيلة زوجها أو صاحبها ، والله ـ جل جلاله ـ ليس كمثله شيء ، ومن ثم فلا يمكن أن تكون له صاحبة ، وتعالى الله ربنا جل جلاله ما اتخذ صاحبة ولا ولدا . ولأجل غرس هذه الحقيقة الساطعة أتبع الله هذه الآية الكريمة بقوله : **﴿سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون﴾** ، أتنزه لا إله إلا هو عن هذه الأوصاف التى لا تليق بعزته وجلاله. ومضى بعدها يهدد أهل الكفر على عظيم جرائمهم وظلمهم بنسبتهم الابن إلى الله **﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ﴾** .

ثالثاً : إذا قرأ قارئ ممن لا يدركون أسرار اللغة ، قوله تعالى : **﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم ﴾** فلربما يتصور أن كلمة **﴿إله﴾** الثانية غير إله الأولى كما تقول لرجل : لك خلق فى بيتك وخلق عند الناس ، وهذا التصور خطأ ؛ فالقاعدة أن تكرار النكرة المشتقة لا يفيد أن تكون الثانية غير الأولى ، لكن تكرار النكرة الجامدة هو الذى يفيد أن الثانية غير الأولى ، وكلمة **﴿ إله ﴾** معناها : معبود وهو اسم مشتق ويصبح المعنى : وهو الذى يعبد فى السماء ويعبد فى الأرض ، وهذا كلام أكيد . أما الجامد فهو الذى إذا كرر كان الثانى غير الأول،كما تقول لك أجر فى الدنيا وأجر عند الله فى الآخرة ، وكقولك: له ابن مهندس وابن طبيب ، فالثانى فى العبارتين غير الأول والآية الكريمة إكمال للحقيقة العظمى التى من أجلها خلق الله السموات والأرض ، ألا وهى حقيقة التوحيد **﴿ وهو الذى فى السماء إله ﴾** أى

ملك معبود ، ﴿ وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم﴾ ، أي يدبر الكون بحكمة بالغة وعلم واسع . ﴿وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون * ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا * من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ هذه الآيات الكريمة جردت الشركاء من كل قدرة على العطاء أو الملك أو الشفاعة بمن فيهم الأنبياء الذين أشركهم اتباعهم بالله وهم عن هذا غير راضين، فهؤلاء الأنبياء لا يملكون الشفاعة إلا بإذن الله مشروطة بأن تكون شهادتهم حقاً، وأن تصدر عن علم لا يخامره شك .

رابعاً : الآيات الثالثة التى تحتاج إلى بعض الإيضاح ، هى قوله تعالى : ﴿وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون * فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾ فى قراءة حفص وفى المصحف المتداول كتبت : ﴿ وقيله ﴾ بالجر ، ورويت قراءات أخرى بالنصب ، والرفع .

وقد ذكر أشياخنا من المفسرين عدة تفسيرات لهذه الآية : ﴿ وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ لكن هذه التفسيرات لم يطمئن لها قلبى ؛ لأنها تعطف ﴿قيله﴾ على ألفاظ مفصولة عنها فصلاً طويلاً لا يتفق مع الانسجام البلاغى الذى نجده فى عبارات القرآن، والتفسير الذى اطمأننت إليه ، هو ما ذهب إليه الزمخشرى فى « الكشاف » ، ومع أن الرجل - غفر الله له - فى كشافه آراء معتزلية تعقبها كثيرون من صالحى المفسرين، وكشفوا خطأها ، إلا أن تخريجاته البلاغية فى التفسير لا يمكن أن تنكر ، وفى هذه الآية يرى أن العبارة قسم ختم به ربنا عز وجل سورة الزخرف ، والقسم فى القرآن كثيراً ما يحذف جوابه لشدة سطوعه ، كالقسم فى مطلع سورة القيامة ، وسورة النازعات، وسورة الفجر ، ويصبح معنى الآية الكريمة : أقسم بشكوى محمد من كفر

قريش حين يجأر بالقول : يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، كأنه يكاد يستيئس من إيمانهم ، وجواب القسم محذوف ، وتقديره : إنهم سينالون جزاءهم ويبوؤن بهزيمتهم أمام الإيمان ؛ ولهذا فاصبر يامحمد وانتظر ، **﴿فاصفح عنهم وقل سلام﴾** أى : قل قولا مسالماً تسلم به من شرهم ، **﴿فسوف يعلمون﴾** ما يؤول إليه أمرهم من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

القرآن رحمة للعالمين

إن سورة الدخان من السور المكية بالإجماع ، نزلت بعد الزخرف ، وموضوعها هو نفس الموضوع الرئيسى للسور المكية ألا وهو العقيدة ، ولكن سورة الدخان تعالج موضوع التوحيد بغير الأسلوب المعنوى الوارد فى سورة الزخرف . فقد ذكرت العرب بمصائر الأمم السابقة التى كذبت رسلها واختارت الشرك فهلكت ، وذكر فى هذا المعرض قوم موسى وقوم تبع ، وكيف أهلكهم الله حين عصوا رسل ربهم ، وقد بدأت السورة بذكر القرآن ﴿ حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان : ١ ـ ٣]وختم السورة الكريمة بذكر القرآن : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ [الدخان : ٥٨ ـ ٥٩]. وقد ورد فى بركة سورة الدخان آثار حسان : وكنا نسمعها من عمار مساجد الله ورداً فيقرؤونها ليلة الجمعة مداومين عليها ، فقد روى أن رسول الله ﷺ قال «من قرأ الدخان فى ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له » ، وجاء أنه ﷺ قال : « من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى الله له بيتاً فى الجنة » . ولعل الحرص على قراءة سورة الدخان فى ليالى الجمع سببه أنها تبدأ بذكر ليلة مباركة ، أنزل فيها القرآن وفيها يبرم الله الأحكام ، فيمحو ما يشاء ويثبت ، ومن ثم فقراءة سورة الدخان فى ليلة الجمعة المباركة يرجى به أن يبرم الله لقارئها أمر رشد وسعادة ، ويلطف بقارئها فى مجرى المقادير .

وإنى مورد هنا مطلع السورة المباركة ملتمساً بتفسيره أن يبرم الله لأمة محمد أمر رشد يعز به المسلمون ويرتكس فيه اليهود والكافرون .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ

مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الدخان : ١ ـ ٦] .

أولاً : جميع الحواميم مبدوءة بذكر القرآن الكريم ، مما يدل على بركتها ، حتى لقد قال بعض المفسرين : إن حم اسم من أسماء القرآن الكريم ، وسورة الدخان مطلعها ﴿ حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ .

وفى تفسير الليلة المباركة ، قال بعض الأشياخ : إنها ليلة النصف من شعبان، فيها تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح ويولد له وقد خرج اسمه فى الموتى . وهم يعتمدون فى ذلك على حديث رواه الترمذى عن عائشة رضى الله عنها وهذا الحديث وغيره . مما روى فى فضائل ليلة النصف من شعبان كلها ضعيفة ، والحق أن الليلة المباركة التى أنزل الله فيها القرآن هى ليلة القدر ، لأنه ـ جل جلاله ـ يقول مصرحاً : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر﴾ .

ثانياً : وفى تفسير قوله تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ طريفة لطيفة من لطائف التفسير خلاصتها : أن الله ـ جل جلاله ـ يرحم عباده ويلطف بهم فيما جرت به المقادير ، يأمر الملائكة أن ينسخوا من اللوح المحفوظ ما كتبه على خلقه من قضائه العادل الحكيم ، وقدره القاهر الرحيم ، فإذا شرعوا فى نقله تجلت من الله صفتان من صفاته العلا ، الرحمة ، واللطف ، فيمحو ـ جل جلاله ـ ما يشاء ويثبت ما يشاء ، حتى إن الرجل لتراه يمشى فى الأسواق ، وقد تزوج وأنجب ويكون اسمه فيمن وقع عليه الموت ؛ ذلك لأن الله ـ جل جلاله ـ رحمه ولطف به لما وصل من رحم ، أو صنع من معروف .

ثالثاً : قد يسأل سائل : كيف يغير الله القضاء الذى قضاه فى علمه الأزلى فيمحو ويثبت ؟ والجواب : أن القضاء الأول قضاء من الله ، والقضاء الملطف هو أيضاً قضاء من الله ، ثم إن فى هذا درساً للعباد يحدوهم أن يعملوا ولا ييئسوا فربك ـ جل جلاله ـ مستعد أن يلطف بك ويرفق ، إذا أنت وصلت رحمك فيزيد رزقك وينسئ فى أجلك ، و إذن فإذا وسوس إليك الشيطان بأن كل شيء قد قضى وانتهى ولا مجال لتغيير القضاء ، فتذكر قوله تعالى عن ليلة القدر ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ثم اذكر قوله تعالى: ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ أى: عنده النسخة الأصلية ، من أعمال الكتاب محفوظة فى اللوح المحفوظ .

رابعاً : قد يتساءل سائل فى معرض قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ : ما جدوى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِين ﴾ مع أنها مفهومة من قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ ؟ والحقيقة أن قوله تعالى ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِين ﴾ تبين حكمة كبرى تدل على عظمة عدالة الله ، فهو لا يعذب ولا يعاقب إلا بعد إنذار وتحذير لكى لا يكون للناس حجة فيقولوا : ما جاءنا من نذير . لقد جاءهم النذير من رسل الله ومن كتبهم وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِين ﴾ .

خامساً : ولئلاً يظل فى صدور المستمعين أى تساؤل حول الأمور الحكيمة التى يبرمها الله ـ جل جلاله ـ فى ليلة القدر ، والتى تنسخها الملائكة سنوياً من النسخة الأصلية المحفوظة في اللوح المحفوظ لابد من وقفة متأنية عند الآيات الكريمة : ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ . إن الذى يبين لأول وهلة من الآيات الكريمات أن الله ـ جل جلاله ـ يأمر الملائكة فى ليلة

القدر أن تنسخ من اللوح المحفوظ ما يكون فى العام من موت أو حياة أو رزق أو مطر وحتى عدد الحجاج والمعتمرين وهو فى كل أمر محكم من أوامره قد يمحو ما يشاء بلطفه ورحمته ، ويثبت ما يشاء بعدله وحكمته.

فقد جاء فى الحديث الشريف : « من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أجله ، فليصل رحمه » . وإذن فرب عبد كتب الله له أن يعيش خمسين ـ عاماً ـ مثلاً ثم جاء أمر الله بلطفه وبرحمته بأن يعيش ستين عاماً لمضاعفة بره بوالديه وصلته لأرحامه . والدليل على أن هذا المحو والإثبات ، إنما هما من منطلق لطف الله ورحمته أنه يقول فى ختام الآيات : ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : أنه ـ جل جلاله ـ يتجلى على العباد فى ليلة القدر لطيفا عظيم اللطف رحيماً واسع الرحمة ، فيبرم لهم فى كل عام أموراً يتجلى فيها اللطف وتنيرها الرحمة ، فيتوب بها على من يشاء ، فإذا قال قائل : إن لى فى المعصية ماضياً أشعر معه بأنى من أهل الخسار والتباب ، فقل له حالا : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ . إننى أعد من أعظم البشائر التى تبعث الرجاء قوله تعالى وهو يذكر ليلة القدر : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾؛ لأن هذا معناه بأن لله ـ جل جلاله ـ فى كل عام وفى اللحظات المباركات التى أنزل فى مثلها القرآن الكريم نظرات راحمة لطيفة على صفحات القضاء والقدر، ينظر فيها إلى ما سمعه من أقوال عباده وما علمه من أفعالهم ، وهو السميع العليم ، فيلطف ـ جل جلاله ـ فيما جرت به المقادير .

وقد كان رسول الله ﷺ يكثر أن يدعو : « اللهم إنى لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف » ، اللهم يا لطيف يا سميع يا عليم يا خبير ، نسألك أن تلطف بنا فيما جرت به المقادير .

حقائق عقلية منطقية تصك
أسماع أهل الهوى

سورة الجاثية من السور المكية وهى إحدى الحواميم السبع ، وقد بدئت بتعداد طائفة من آيات الله ودلائل قدرته ، ومضت تعدد نعمه وكيف أنه سخر للإنسان كل ما في السموات وما فى الأرض ، وانتهت بقوله عز وجل : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الجاثية : ٣٦ ـ ٣٧] والآيتان أجمل تعليق على مابدأت به السورة من الآيات والنعم ، فالآيات تنطق بكبرياء الله وعزته وحكمته والنعم تتطلب شكر هذا الرب المنعم ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

على أن الموضوع الرئيسى للسورة هو الدعوة إلى الإيمان بالله عن طريق التدبر فى آيات قدرته وعظمته وفى ألوان نعمته وكرمه ، والتعامل مع العقيدة عن طريق التأمل المتعقل لا عن طريق الهوى المتبع ، ولعل من أعظم محاسن الإسلام أنه يكره الهوى وينهى عن اتباعه ، ويدعو فى الوقت نفسه إلى اتباع الحق متمثلاً فى العقل المستنير المتبصر .

وقد أوردت فى هذه السورة الكريمة آيات مما يلفت النظر ويدور على الألسنة وتدور عليه العقيدة كقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [الجاثية : ١٥]، وكقوله ـ جل جلاله ـ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية : ١٨]، وكقوله عز وجل : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [الجاثية : ٢١] وكقوله فى بيان بعض الأفكار

المنحرفة : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية : ٢٤] .

ثم إن سورة الجاثية طائفة من الحقائق العقلية المنطقية يقذف بها ربنا فى أسماع أهل الهوى ، أولئك الذين يصدرون فى أحكامهم عن غوغائية لا سند لها من عقل ولا منطق .

أولاً : ابتدأت السورة الكريمة بقوله تعالى : ﴿ حمٓ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾[الجاثية : ١ ـ ٥] وفى هذا الكلام دعوة لاستعمال العقل فى الوصول إلى الإيمان وانظر إلى استعماله العبارات : ﴿ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِين ﴾ ، ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُون ﴾ ،﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ كل هذه حرب على الغوغائية والهوى ودعوة إلى العقل والمنطق . ومن ثم فقد أتبعها بذم من يصم أذنيه عن استماع الحق وتدبره ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ * وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ...﴾ [الجاثية : ٦ ـ ٩] الآيات .

ثانياً : وفى كل آيات السورة دعوة إلى التعقل والتروى ، فهذه آية : قيل إنها نزلت فى عمر ـ رضى الله عنه ـ حين أراد الانتقام ، وهو قوله تعالى : ﴿ قل للذين آمنوا يغفرو للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ [الجاثية : ١٤] إنها تدعو إلى عدم التعجل فى

الانتقام؛ لأن الانتقام يصدر عنه الهوى ، أما المغفرة والصفح فمصدرها العقل .

روى أن عمر ـ رضى الله عنه ـ استل سيفه وذهب ليقتل رأس المنافقين عبد الله ابن أبيٍّ ، أو حين أراد أن يقتل فنحاص اليهودى . لقد تكلم هذان كلاماً يفور الدم ويزلزل أركان الحلم . فى غزوة « المريسيع » ذهب غلام المنافق يستقى فسبقه إلى الاستقاء غلام لعمر ، فقال المنافق: إنما مثلنا وهؤلاء المهاجرين كمثل القائل : أشبع كلبك يأكلك ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ لو أنكم لا تنفقون على هؤلاء المهاجرين لانفضوا من حول محمد . أما فنخاص فقد سمع الآية الكريمة ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ فقال : افتقر رب محمد واحتاج فلما ذهب عمر ليبطش أنزل الله على رسوله : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ فما بلغ ذلك عمر ، حتى وقف عند الأمر ، مع أن هواه كان لا يشفيه إلا السيف والانتقام لكن الإسلام ـ كما أسلفنا ـ يعلم المؤمن أن يكون وقافاً عند منطق عقله خارجاً على نزوات هواه.

ثالثاً : ويمضى ربنا ـ جل جلاله ـ داعياً إلى اتباع الحق وعدم اتباع الهوى ، فيقول لرسوله ﷺ وللمؤمنين الذين يقتدون به : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية : ١٨] ومعنى الآية الكريمة لقد آتيناك شريعة الإسلام فالتزم أحكامها ، وإياك وأهواء الجهلة الذين لا يعلمون .

أذكر أن حاكما من حكام المسلمين فى عصرنا هذا أفلس من الإنجازات الملموسة ، فلم يحقق شيئاً فى خمسة عشر عاماً من حكمه ، فلما لم تظهر له مآثره ، ولم يتحقق له إنجاز ؛ لجأ إلى البذاءة والدعايات يستثير

بها الغوغاء والرعاع الذين لا يستعلمون عقولهم ، وتمكن فعلاً أن يستفزهم فما هى إلا سنة حتى سقطت بلاده فى قبضة أعدى أعداء المسلمين ، ولا يزال المسلمون حتى اليوم يعانون من عواقب ذلك الحكم الغوغائى ؛ ذلك لأنه نسى أو جهل قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ﴾ .

رابعاً : وفى الحرب على الهوى يمضى ـ جل جلاله ـ فيرسم لصاحب الهوى صورة منفرة حقاً ، فهو بلا سمع ولا عقل ولا بصر ومن ثم فهدايته والتأثير فيه ونصحه أمور شاقة ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٣] ومضى إلى نهاية السورة يقذف الحق فى وجه الهوى فيدمغه حتى ذكر أهل الأهواء الباطلة أنهم يخسرون فى اليوم الآخر كما خسروا فى الدنيا ؛ لأن اليوم الآخر إنما هو أعمال فقط : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُون وتري كل أمة جاثية كل أمة تدعي إلي كتابها ﴾ أى : كتاب أعمالها وهناك يقول لهم ربهم : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُون ﴾ نعم لا مجال هنا للأهواء ، وإنما أعمالكم التى أمرنا الملائكة أن ينسخوها هى التى تنطق عليكم .

إن سورة الجاثية دعوة من الله ـ جل جلاله ـ أن يتعامل الإنسان فى قضية دينه وإيمانه مع العقل ، وينبذ الهوى الذى يردى صاحبه ، قال ابن عباس : ما ذكر الله هوىً فى القرآن إلا ذمه .

نسأل الله أن يرزقنا الحق والعمل به ، وأن يجنبنا الهوى واتباعه ، اللهم امدد حكام المسلمين بالحق ومنطق العقل ، اللهم وجنبهم الهوى ومتاهات الغوغاء.

متعة الكفار فى الدنيا
وبـال عليهم فى الآخـرة

سورة الأحقاف من السور المكية وهى كسائر السور المكية ، موضوعها العقيدة لكنها تعالج هذا الموضوع المهم عن طريق إنذار الناس بمصارع الكفرة الظالمين الذين أوتوا نعم الله فبطروها ، وتوالت عليهم النذر فتجاهلوها . والأحقاف: مساكن عادٍ قوم هود ، وكانت والله أعلم على بحر العرب بين عمان وعدن ، وهى مجموعة كثبان رملية سكنتها قبيلة من فخوذ عاد هى قبيلة إرم ، وقيل : بل كانت إرم عاصمتهم ، وقد عظمت نعمتهم ، وامتدت تجارتهم وزراعتهم حتى وصف الله ـ جل جلاله ـ تلك القبيلة ، أو المدينة بقوله : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾ [الفجر : ٨] .

وسميت السورة باسم الأحقاف؛ لأن فى منتصفها ذكراً لقبيلة عاد فى تلك الأحقاف بحضرموت حين أنذرها نبيها هود ـ عليه السلام ـ فلما لم تؤمن أهلكهم الله بريح صرصر عاتية ، دمرت كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم .

وسورة الأحقاف ؛ سلوى لرسول الله ﷺ ولكل دعاة الخير ، فهى تؤكد مصارع الظالمين وحسن عاقبة المؤمنين ؛ لكى يطمئن كل داعية أن الله ينصر رسله وعباده المؤمنين ؛ فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، والظاهر أنها نزلت بعد عودته ﷺ من الطائف وقد لقى من هوازن وثقيف ما لقى من الإيذاء والبلاء ، فنزلت هذه السورة تشد من عزيمته وتخبره أن الجن آمنوا به ، ثم كان بعدها الإسراء حيث أمره ربه أن يؤم الأنبياء وكأنه يقول له : إذا آذاك السفهاء فى الأرض فأنت عند ربك إمام الأنبياء فى الأرض وفى السماء .

بدئت سورة الأحقاف بذكر ما يلقاه الرسل من عناد الكافرين وإعراضهم ، وختمت بحث لرسول الله ﷺ أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ؛ ليرى بنفسه مصارع الظالمين . وفى أثناء السورة ينعى القرآن الكريم على الكفار مطالبتهم لمحمد ﷺ بأمور لا طاقة للبشر بها ، فمحمد ما هو إلا بشر رسول قد خلت من قبله رسل كلهم من البشر ، والقرآن ليس بدعاً فى الكتب ، فمن قبله كتاب موسى الذى بشر بمحمد ووصفه وصفاً دقيقاً شهد به علماء بنى إسرائيل ، وعلى رأسهم عبد الله بن سلام الذى كان أعلم علمائهم بالنبوة والكتاب ، وقد جاء فى إسلامه أنه أسلم سراً ثم أوعز لرسول الله ﷺ أن يطلب حكمه فى أمر النبوة ويكون حكماً بين محمد واليهود ، فقال ﷺ لزعماء اليهود : « ألا ترضون أن يحكم بينى وبينكم أعلمكم بالدين » ؟! قالوا : بلى ورضى بذلك رسول الله ﷺ ، فأحضروا هم أنفسهم عبد الله بن سلام ؛ لأنه كان عالم علمائهم ، وقالوا له : ماذا تقول فى نبوة محمد ؟ وهل لها ذكر فى التوراة؟ فقال رضى الله عنه نعم لقد جاء ذكره والبشارة به فى التوراة وإنى أشهد أنه رسول الله ، وكان موقفاً مشهوداً خزى فيه اليهود خزيا شديداً وسبوا عبد الله بن سلام وناقضوا أنفسهم فذموا علمه وفهمه ومعرفته .

وتمضى السورة فى عرض النذر فتذكر نوعين من الأبناء ، وتزف بشرى لكل ابن يبر والديه ، ويذكر متاعب أمه فى حمله وفصاله ، فيدعو لوالديه ولذريته ، ويقابل هذا بإنذار لكل عاق يدعوه والداه إلى الخير ويستغيثان الله ليتأثر ويؤمن وهو عنيد لا يزيد على أن ينكر البعث ويقول : ما هذا إلا أساطير الأولين.

وتمضى بعد ذلك منذرة من كل همهم بطونهم تذكر قصة عاد وما كان من تدميرهم وتصفع المشركين فتذكر لهم أن الجن آمنوا بمحمد بمجرد

سماعهم للقرآن الكريم ، فكانوا بذلك أفضل من مشركى قريش الذين نزل القرآن بلغتهم فأعرضوا وما أغنت عنهم النذر .

هذا وإنى مورد هنا آية واحدة من سورة الأحقاف أذكرها كلما ذكرت ما نحن فيه فى هذه الأيام ، حياة رغدة تتوفر فيها كل المطاعم اللذيذه ، والمشارب السائغة العذبة ، التى نستغرق فيها وننسى شكرها .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

أولاً : إذا أقبل أهل الكفر والفسوق والاستكبار على النار ذكروا ما كانوا فيه من مطاعم ومشارب ونعمة ، وذكروا مناصب لهم أغرتهم بالكبرياء ، ذكروا ترفهم الذى حملهم على الفسوق فتقول لهم الملائكة الكرام : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

ثانياً : من الواضح فى الآية الكريمة أن سبب العذاب الهون ليس التمتع بالطيبات ، ولكنه ما رافق ذلك من استكبار وغطرسة بغير الحق ، ومن فسوق ومعصية لله هيأتهما لهم إمكانياتهم وغناهم .

إن التمتع باللذائذ الحلال أمر مباح يقول الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، وفى سورة الأعراف : ﴿ قُلْ مَنْ

حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ ، وفيها ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾ حتى لقد أباح اللذائذ الحلال والطيبات للرسل ، فقال تعالى فى سورة المؤمنون : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ ولكن حين يكون التمتع بالشهوات مقترنا بالكبرياء والغطرسة ، وبالفسوق والعصيان ، فهذا هو الذى يمقته الله ويحذر منه ويتوعد صاحبه بالنار .

ثالثاً : لكن الذى عرفناه من سيرة السلف الصالح ، أنهم كانوا لا يغرقون فى الملذات من طعام وشراب ، فقد كان كثير منهم يقدر عليها لكنه لا يلتزمها ؛ وذلك لعلمه أن ملاحقة الشهوات تضعف الروح وتنال من القلب ، ولعلمهم أن من يلبى كل شهواته ، ويمرد على عيش الترف ، فلربما يلجأ إلى أساليب الحرام إذا تغير عليه الحال ، فيحاول أن يوفر لنفسه شهواتها عن طريق الحرام ، إن الأيام دول وإن الحياة عسر ويسر فماذا يفعل من تعود الشهوات إذا حالت به الأحوال من نعومة العيش إلى شظفه ؟

رابعاً : لقد كان عمر - رضى الله عنه - إماماً فى قهر نفسه ، وحملها على الخشونة مع أنه كان وافر الإمكانيات - رضى الله عنه - لقد سمعه الأحنف بن قيس وهو يقول : لأنا أعلم بخفض العيش ولو شئت لجعلت أكبداً وصلاءً وصناباً وصلائق ولكني استبقى حسناتى ، فإن الله تعالى وصف أقواما فقال : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ والصلاء معناه : الشواء ، والصنابا : البهارات ، والصلائق : الخبز الرقيق العريض .

وروى أنه قدم له فى الشام طعام لم ير مثله فنظر إليه واغرورقت عيناه وهو يقول : هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير !!

وقال أحد الصحابة : كنت أتغدى مع عمر الخبر والزيت ، والخبز والخل، والخبز واللبن ، والخبز والقديد ، وأقل ما رأيته فى غذائه اللحم الغريض، أى الجديد ، فجعلنا لا نأكل معه لخشونة عيشه فقال : والله إنى لأستطيع أن آمر بعناق مصلية وأن آمر بنبيذ زبيب كأنه دم غزال ، والله الذى لا إله إلا هو لولا أنى أخاف أن تنقص حسناتى فى القيامة لشاركتكم فى العيش .

وبعد، فإلى إخوانى الذين يتمتعون بنعم ما حلم بها آباؤنا أسوق هذا السؤال : هل هذه النعم تدوم بما شاع فى مجتمعنا من فسوق طغى على كثير من الشباب والشيوخ ؟؟ اللهم لا تعاملنا بأعمالنا وعاملنا بعفوك .

الله يهلك قوم هود لكفرهم وعنادهم

هذه آيات كريمات من سورة الأحقاف ما قرأتها إلا أحسست جواً من الذعر ؛ لأنها تحكى فى إيجاز خاطف بليغ قصة قوم دهمهم العذاب ، وهم فى أوج قوتهم وغناهم ، وعمرانهم وبسطة أجسامهم ، وقد كان فى قدرة الله أن يأخذهم فى ساعة من نهار بل فى لحظة واحدة ، لكنه استغرق فى تعذيبهم وإهلاكهم سبع ليال أو قل إن شئت : ثمانية أيام نحسات حسوماً ليكون عذاباً مروعاً تتقلب فيه الليالى والأيام كأنها كوابيس خانقة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف : ٢١ ـ ٢٥].

أولاً : كان قوم هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقيمون فى حضرموت بين عمان وعدن ، وكانت ديارهم تسمى الأحقاف ؛ لأنها كانت كثباناً رملية ، والحقف : واحد الأحقاف وهو الكثيب المرتفع من الرمال ، وجاء وصف عاد فى القرآن فى أكثر من موضع ، ففى سورة الأعراف أنهم كانوا ذوى أجسام عظيمة قوية فارعة ، وأن الله استخلفهم بعد قوم نوح ورزقهم، وفى هذا يقول الله ـ جل جلاله ـ على لسان هود لقومه : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾

وفى سورة هود يقول الله ـ جل جلاله ـ على لسان هود لقومه : ﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ ، وفى سورة الشعراء يبدو أنهم كانوا ذوى طاقات عمرانية ، وفنون فى البناء ، وكانت لهم موارد للماء ينونها ، وأنهم كانوا إذا حاربوا أو انتقموا لا يرحمون بل يبطشون فى جبروت وقسوة ، وفى هذا يقول الله تعالى على لسان هود لقومه : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : ١٢٨ ـ ١٣٠] ، وفى سورة الفجر يصف الله عاداً ومدينتهم إرم ، بأنها لم يخلق مثلها فى البلاد ، وعلى الجملة فقد عاشت عاد فى رغد من العيش ونعمة وصحة وعمران ومياه ، وهذا كله يتطلب لدوامه إيماناً بالله وشكراً له وأعمالاً صالحة ، وتلك هى التى دعاهم إليها نبيهم هود ـ عليه السلام .

ثانياً: لقد كان رد عاد على نبيهم هود ، رداً قاسياً فيه البذاءة وفيه العناد دعاهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالحسنى والكلم اللين ، فكان جوابهم كما جاء فى سورة الأعراف : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[الأعراف : ٦٦] ثم تحدوه قائلين : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠] .

إما هود ـ عليه السلام ـ فيقول لهم : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف : ٦٥] ، ﴿ يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين ﴾ [الأعراف : ٦٧ ـ ٦٨] .

وفى سورة الأحقاف التى نحن بصددها يروى الله ـ جل جلاله ـ محادثة

قصيرة يبدو فيها سمو الذوق ، وروعة الحكمة فى منطق هود ـ عليه السلام ـ كما تبدو روح التحدى والحدة فى منطق القوم فهو يقول لهم: ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إنه ـ عليه السلام ـ يحب لهم الخير والسعادة والنجاة من العذاب فيردون كما روى عنهم ربنا ـ جل علاه ـ: **﴿قَالُوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾** وفى كلمة **﴿ تأفكنا ﴾** منتهى الظلم ؛ فهم يتهمون رسولهم الهادى أنه يريد أن يأفكهم ، أى يميل بهم عن الحق إلى الباطل ويصرفهم عن الأصنام إلى التوحيد ، لكنه يجيبهم بما روى الله عنه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ ﴾ أى أن الله هو الذى يعلم من الظالم الذى يريد أن يأفك الآخر ، وقد أنذرتكم وحذرتكم ولكنى أراكم قوماً تجهلون .

ثالثاً : الآيتان الخاتمتان للقصة مروعتان حقاً ، يأخذك فيهما أسلوب جزل مرهب كأنما هو وقع الصاعقة ، لقد ظن القوم أن السحاب الذى استقبل أوديتهم من أطراف البلدة ، إنما هو سحاب ممطر سيحمى أرضهم ويثرى زروعهم وثمارهم ، فكانت المفاجأة المروعة ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

لقد وصلتهم تلك الريح الصرصر العاتية ، وهدى الله سيدنا هوداً والقلة المؤمنة التى آمنت به وصدقته إلى مكان آمن تأتيهم الريح فيه أنساماً رطبة، وهم فى حظيرة ينظرون منها إلى أعلى فربما رأوا قافلة بأسرها من الكافرين طائرة فى الفضاء مع الريح تصلهم بالحجارة حتى يهلكوا . لقد جاءهم العذاب من السحاب الذى استبشروا بمائه حين رأوه ، لقد فوجئوا

حين وصلتهم الريح أنها تحمل الخيام والظعائن فتطير بها كأنها جراد ، ثم تضرب بها الصخور ، ورأوا بأعينهم أنعامهم تطير فى الريح كأنها الريش ، فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابها ، فاقتلعت الريح الأبواب ودخلت عليهم فدمرتهم ثم أمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال ، فمكثوا تحت الرمال سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً ، ولهم أنين ثم أخفت الله أنفاسهم، وإذا القوم صرعى فى الرمل كأنهم بقايا نخل مكسرة ساقطة . وقد عاش هود ـ عليه السلام ـ بعد مصرع قومه مائة وخمسين عاماً .

رابعاً : الريح من جنود الله التى قد تحمل العذاب حين أهلك بها قوم هود ، وأرسل حاصباً منها على قوم لوط ، ومن أجل ذلك فقد كان رسول الله ﷺ يعرف الخوف فى وجهه إذا هبت عاصفة من الريح .

روى البخارى عن أمنا عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكاً حتى أرى منه لهواته ، أى حلقه ، وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف فى وجهه . قلت يارسول الله : الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف فى وجهك الكراهية . فقال : « ياعائشة ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ؟! عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا».

خامساً : مما يروعك فى أسلوب القرآن الكريم أنه يتصرف فى الإيجاز والإطناب تصرفاً يجعل كلا منهما فى قمة التأثير ، فقد جاء وصف العذاب الذى حل بعاد موجزاً على الرغم من طول وقائعه فى سبعة أيام ، لقد ورد موجزاً في سورة القمر : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر : ١٨ ـ ٢٠] وفى سورة الحاقة: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ

فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة : ٦ ـ ٧] على أن ما يفيض الدموع حقاً ويخلع القلوب خوفاً ، هذا الأسلوب الموجز الفخم ، الذى وصف الله فيه عذاب قوم هود والريح التى دمرتهم، فليكرره كل من أراد أن يذكر أو يخشى ﴿ **فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين** ﴾ .

اللهم إنا نعوذ بعفوك من عقوبتك .

الجن يحيبون داعى الله
ويدعون قومهم للإيمان

هذه ثلاث آيات من سورة الأحقاف تتحدث عن إيمان الجن برسول الله ﷺ، ولعل أوضح طريقة فى تفسيرها هى أن نورد قصة إيمان الجن برسول الله ﷺ ، وما سبقها من الآلام التى تعرض لها فى رحلته إلى الطائف .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف : ٢٩ ـ ٣١] .

أولاً : لعلّ أشد موقف مر به رسول الله ﷺ كان رحلته إلى الطائف حتى لقد كان يعدها رسول الله ﷺ أشد من يوم أحد حين قتل عمه حمزة وقرابة سبعين من خيرة أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ وأصيب هو ﷺ ونزف جرح خدّه حتى كاد يموت .

وخلاصة تلك الرحلة : أن رسول الله ﷺ أشتدت عليه الأمور فى عام الحزن، فطاف فى الموسم يطلب النصرة والجوار من القبائل فلم يجد من يجيره. فظن أن يجد خيراً فى قبيلة ثقيف فى الطائف ، فخرج وحده بليل متوجّهاً إلى الطائف حتى لا تراه قريش فتلاحقه ، وحتى لاتشمت به قريش إذا أخفق فى مهمته . كانت رحلته شاقة إذا قطع المسافة مشياً، وكان يختفى عن عيون المارة حتى إذا اقترب من الطائف تذكر أن قرشية من بنى جمح ، كان قد تزوجها أحد زعماء ثقيف ، وهو عبد ياليل بن

عمرو فتوجه إلى ناديه ، فوجد عنده أخويه مسعوداً وحبيباً فجلس إليهم ، وأخبرهم بما جاءه من الحقّ وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام، ودعاهم إلى الإيمان وسألهم أن يجيروه وينصروه . فقال له أحدهم : أنا أمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك . وقال الثانى : أما وجد الله من يرسله غيرك .

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً لأنك إن كنت صادقاً وربك يكلمك فأنت أعلى من أن يكلمك الناس وإن كنت كاذباً فما تستحق أن يكلمك الناس ! فقال لهم رسول الله ﷺ : « أما إذ رددتمونى فاستروا أمرى حتى لاتشمت بى قريش » ، فرفضوا طلبه وجمعوا عدداً من السفهاء وصغار الصبية وأغروهم به يسخرون به ويرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه ، ولم يزالوا به حتى بلغ ضواحى الطائف فلجأ إلى بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة القرشيين حيث جلس فى ظل شجرة . فعطف عليه الرجلان وقالا لغلام لهما اسمه عداس : خذ قطفاً من العنب ، وضعه فى طبق ، وضعه بين يدى ذلك الرجل.

كان رسول الله ﷺ خائفاً من شيء واحد فقط ، وهو أن يكون ما حدث له من إيذاء إنما كان لغضب من الله عليه ، فكان جالساً وهو يدعو دعاءً عظيماً : « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أو إلى عدوّ ملكته أمرى ، إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك أو يحلّ علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولاحول ولا قوة إلا بك » . فلما وصل عداس بطبقه وضعه بين يديه تناول النبى واحدة وهو يقول : « بسم الله » فأعجبت التسمية عداساً فسأله رسول الله ﷺ : « من أى البلاد أنت ؟ » قال : من نينوى . قال: «بلد العبد الصالح يونس بن متى » . قال عداس : وما يدريك ما يونس بن

متى. قال ﷺ : « ذاك أخى كان نبيا وأنا نبى» . فما راع عتبة وشيبة إلا أرأيا عداساً يقبل رأس رسول الله ﷺ ، فقالا : صبأ العبد .

ثم انصرف رسول الله ﷺ حتى وصل إلى موضع غير بعيد من الطائف يقال له : بطن نخلة فأدركه الليل فنام قليلا ثم قام من الليل يصلّى ويقرأ القرآن بصوت هادئ جميل كأنما أراد بذلك أن يؤنس تلك الفجاج الموحشة ، فصرف الله جماعة من الجن من بلدة نصيبين فى تركيا ، فلما سمعوا نغمات القرآن العذبة منبعثة فى جوف الليل كأنها مجامر الطيب نافحة بالمسك الأذفر قال بعضهم لبعض : أنصتوا ، فلما قضى محمد ﷺ قراءته مضوا حالاً إلى قومهم فى ديارهم ، والجن كما هو معروف يقطعون المسافات فى زمن قصير جداً . وحين وصلوا إلى القوم أنذروهم بما سمعوا ويبدو أنهم كانوا على دين موسى ـ عليه السلام ـ وقالوا لقومهم ما رواه الله عنهم ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ، وآمن قومهم ، ومنذ ذلك الحين دخل كثير من الجن فى دين الله، وكان محمد بذلك رسولاً إلى الثقلين .

يؤيد هذا ما جاء فى صحيح مسلم من حديث جابر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من قبلى : كان كلُّ نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وفى رواية : وبعثت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض طيبة طهوراً ومسجداً ، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة » .

ثانياً : قلنا : إن سورة الأحقاف كلها نزلت فى عام الحزن ، وإبان رحلة الطائف

بمثابة تسلية لرسول الله ﷺ ، ومن هنا فقد كانت هذه الآيات الكريمة حول إيمان الجن رفعاً لمعنويته وتجديداً لعزيمته ، وخصوصاً حين جاءت بعدها رحلة الإسراء التى كان فيها جبريل روح الله وأمين سر السماء فى خدمة رسول الله ﷺ ، ومرافقا له فى رحلته حيث كان محمد ﷺ محلّ إجلال من الأنبياء وسكان السماء ، كأنما يقول له ربه : إن رحلتك فى السماء ثواب لك على ما لقيته فى رحلتك إلى الطائف ، وإذا كان أهل الأرض بقصورهم وجهلهم آذوك وسخروا منك ، فأنت فى أهل السماء فى المنزلة التى رأيتها من الإجلال والتكريم.

لاعجب إذا عاد الرسول ﷺ من رحلة الإسراء وهو أمضى ما يكون عزماً ، وأعظم ما يكون معنوية ، وأنه بعد أن أعلمه ربه أن الجن أصبحوا من أمته وأن جميع الأنبياء يسعدون بإمامته ، إذا جهل أهل الأرض منزلته، فإنه سيد أهل السماء من ملائكة وأنبياء . وإذن فلا تهمنك مقاييس الأرض الفانية بعد إذ رأيت مقاييس السماء الإلهية الخالدة . لقد سمع رسول الله بأذنيه جبريل وهو يقول للبراق : لو عرفت من الذى يمتطيك لعلمت أنه أكرم خلق الله على الله .

ثالثاً : الجنُّ كالإنس مكلفون بطاعة الله والإيمان بوجودهم واجب ، وأكثر الأئمة على أن صالحيهم يدخلون الجنة ، والخطبة التى ألقوها فى قومهم، والتى أوردها الله كاملة فى سورة الجنّ ، تدل على أن إيمانهم كان صادقاً وأنهم حين وجدوا أن السماء حرست منهم بالشهب الثاقبة اعترفوا أنهم لايدرون من الغيب شيئاً ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا * وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ

بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ٨ ـ ١٠] لقد أعجب الجن بالقرآن ووصفوه بأنه قرآن معجب يهدى إلى الرشد والطريق الصحيح ، وفى هذا درس يرفع معنوية المؤمنين ويبعد من قلوبهم خوف الجن ويشعرهم أن لهم إخوة فى الإيمان مرئيين وغير مرئيين .

الله يضل أعمال الكافرين
ويكفر سيئات المؤمنين ويصلح بالهم

سورة محمد ﷺ من السور المدنية ، وموضوعها من أولها إلى آخرها القتال والحث على الشهادة ، وإنذار المسلمين إذا هم تركوه وتهديد الكافرين بالهزيمة؛ ولهذا فقد سميت سورة محمد ﷺ سورة « القتال » . وهى أشد السور القرآنية لهجة على المشركين والكافرين ، وأعنفها أسلوباً فى التعامل معهم ؛ وذلك لأنهم ارتضوا الكفر والفسوق والعصيان ، وإذن فلابد أن يؤدبوا ويكون تأديبهم على يد المسلمين .

الناس فى سورة محمد قسمان : كفار جندوا أنفسهم لنصرة الباطل ، ومحاربة الحق ، هؤلاء لاهم لهم إلا بطونهم وشهواتهم ، ومؤمنون يحملون لواء الحق ويجاهدون لإحقاقه ، ويعيشون على الطموحات الشريفة لجنة الله ورضوانه: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [محمد : ١ ـ ٢] .

وهاتان هما الفئتان ، أما مصير كل منهما ، فقد ذكره الله بإيجاز رائع فى السورة ، فقال عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد : ١٢] وتمضى سورة محمد تلاحق هذا التقسيم وتعقب عليه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد ٧ ـ ٩] .

ثم يقول متبرئاً من أعمال المشركين : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد : ١١] ، ثم يقول عن المنافقين الذين يعيشون على الخداع الجبان : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : ١٦ ـ ١٧] ويمضى بعدئذ فى فضيحة المنافقين، الذين كانوا يخلون باليهود فيقولون لهم : سنكون طوع خططكم ، ثم يعدونهم أن ينصروهم إذا قوتلوا ، ويخرجوا معهم إذا أخرجوا ، ويمضى فى تحريض المؤمنين على الإمعان فى قتل الكافرين وأسرهم ، ويأمر المسلمين ألا يكونوا هم البادئين فى طلب السلم ، وألا يدعوا إلى السلام إلا بعد أن يؤدبوا الكافرين ويثخنوهم ويبشرهم أن الله دواماً معهم يبارك لهم جهادهم وأعمالهم .

إن سورة محمد يجب أن تكون دستور السياسة للمسلمين فى أيامنا هذه ؛ لأنهم الآن قد تخلوا فى التعامل مع اليهود عن الخيار العسكرى ، واختطوا سياسة نهاهم الله عنها ، فى قوله تعالى : ﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٥] ، وكما بدأ الله السُّورة بتعرية الكفار واحتقارهم فقد ختمها بحثّ المسلمين على الجهاد بالمال، والإنفاق فى سبيل الله ، وتهديد المسلمين إذا تخلوا عن الجهاد أن يهلكهم ويستبدل بهم قوماً مؤمنين مجاهدين .

ألا ما أجدر المسلمين أن يكتبوا سورة محمد ويخطوها دستوراً لسياسة جديدة فى جيوشهم ؛ ليعطوا اليهود درساً بأن ديار الإسلام ومقدساته هى أجل وأسمى من أن يدنسها أى كافر أو يهودى مجرم قذر من أحفاد القردة والخنازير ومحترفى الربا وتجارة الأعراض .

وإنى مشنفٌ أسماع المؤمنين بهذه الآيات الكريمات من سورة محمد ،

وهى التى ترسم لنا سياسة التعامل العسكرى مع أهل الكفر .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم * يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم** ﴾ [محمد : ٤ ـ ٨] .

أولاً : أوّل أركان السياسة القتالية التى يجب أن تتخذ إزاء الكفار عامة واليهود خاصة هى : أن يكون قتالهم بلا رحمة ، ولا شفقة ؛ بحيث تقتل رجالهم فى غلظة عنيفة ، وأن يستحر فيهم القتل حتى ييتم أطفالهم وترمل نساؤهم ، ويجرب الثكل شيوخهم ، وهذا مايشير إليه افتتاح الآية الكريمة: ﴿ **فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ** ﴾ وقد أكده ربنا ـ جل جلاله ـ بقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [التحريم : ٩] وقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ ، وقوله عز وجل : ﴿ **فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ أى : اهجم عليهم هجوماً صاعقاً يصعق متقدميهم فيوقع الرعب فى قلوب من خلفهم فيشردون لا يلوون على شىء .

هذا البند الأول من السياسة القتالية لم يجربه العرب مع اليهود فما عرف منذ اللحظة الأولى من قتال اليهود أن العرب اجتاحوا بلدة يهودية عامرة بالسكان ، فقتلوا رجالها وروعوا نساءها وشيوخها وأطفالها . وعلى العكس من ذلك فقد فعل ذلك اليهود بالقرى الإسلامية ، فكانت لهم

مجازر ملعونة بدأت بمذبحة «دير ياسين» وكان من أواخرها مذابح لبنان.

وقد سمعنا إرهابياً ملعوناً منهم يقول: على الرغم مما نال إسرائيل من تشويه بسبب مذبحة: «دير ياسين» فأنا أعدها إنجازاً عظيماً؛ لأنها أدبت العرب وعلمتهم الخوف، وكان من نتائجها أن فرّغت القرى العربية من سكانها.

ثانياً: إذا عظم القتل في صفوف الأعداء، وأثخنهم المسلمون، أي تركوهم صرعى مثخنين، فعليهم أن يحكموا وثاق الأسرى، وبذلك يأمنون بهؤلاء الرهائن أن يذلوا بقاياهم، فلا يقوموا بأية حركة مخافة أن يقتل الأسرى. وهذا الأمر أيضا لم يقاسه اليهود، بل على العكس من ذلك كانوا هم الذين يغيرون بطيرانهم ورجلهم على القرى العربية فيجمعون شبابها ويعتبروهم أسرى، فيظل العرب في إذلال وحزن على أبنائهم الذين يلاقون عذاب الهون عند أقذر وألد أعداء المؤمنين.

ثالثاً: على المسلمين أن يظلوا على أقصى حالات الاستعداد، وألا يتخلوا عن الحالة العسكرية، والتدريب على جميع الأسلحة حتى تضع الحرب أوزراها.

وهذا الأمر للأسف المميت لم يحصل من العرب؛ فقد كنت ومازلت ترى العواصم العربية، ولا أثر فيها لحالة الحرب، حتى لقد بدأ أمرنا مع اليهود وانتهى، ولم يقفل مرقص ولادار من دور السينما، ولا نقص على الشعوب مادة غذائية واحدة. وأخيراً أعلن العرب أن حالة الحرب غير ضرورية وأن الأرض والكرامة وعزة الدين يمكن أن ترد بمفاوضات يعربد فيها اليهود من منطلق القوة الغاضبة، ويسجع فيها العرب سجع

الحمام ، متمسكنين لمن لاتعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه المجرم !!

رابعاً : فى بقية الآيات درس للمسلمين أن الله لو شاء لانتصر من الكافرين ودمرهم ، ولكنه بالجهاد يريد أن يتميز الصابر والمجاهد والبطل من المنهار والقاعد الجبان ، وأن يختار شهداء يهديهم حتى بعد موتهم فلا يطوى سجلات أعمالهم ، حتى يملؤوها بصالح الأعمال ؛ لأنهم أحياء يقيمون فى الجنة التى عرفوها وعرفوا مساكنهم فيها ومن ثم يرسل نداء علوياً بأن على المسلمين أن يكونوا دائماً فى نصرة الحق والدين لينصرهم الله ويثبت أقدامهم ، وأخيراً : يطمئن المؤمنين أن الذين كفروا سيظلون طول حياتهم فى نكسة وانحلال وضياع وهزيمة.

سورة أحب إلى
الرسول مما طلعت عليه الشمس

سورة الفتح سورة مدنية مباركة ، نزلت ليلاً بين مكة والمدينة ، موضوعها غزوة الحديبية ، وماكان فيها من بيعة الرضوان والصلح ، وما كان من نتائجها العظيمة من سقوط حصون خيبر فى أيدى المؤمنين .

روى البخارى أن النبى ﷺ قال لعمر - رضى الله عنه - : « لقد أنزلت علىّ الليلة سورة لهى أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس » ثم قرأ : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبينا** ﴾ [الفتح : ١]ورواية مسلم: « لقد أنزلت على آية هى أحب إلىّ من الدنيا جميعا» .

وفى فضل سورة الفتح روى المسعودى : « أنه من قرأ سورة الفتح فى أول ليلة من رمضان فى صلاة التطوع حفظه الله ذلك العام » .

وهنا بعض لطائف حول سورة الفتح وصلح الحديبية .

أولاً : فى شهر ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة أخبر رسول الله ﷺ أصحابه أنه رأى فى منامه رؤيا صالحة بأنه هو والمؤمنين ذهبوا إلى مكة واعتمروا وأتموا عمرتهم وحلقوا وقصروا وعادوا سالمين ، ونادى رسول الله ﷺ فى الناس بالمدينة وضواحيها من مسلمين ومشركين : « ألا إننا نريد العمرة فمن أراد أن يعتمر فليصحبنا » ، ولم يخرج معه المشركين إلا أشخاص قلائل ، وكان عدد الذين ساروا مع النبى ﷺ بين ألف وأبعمائة إلى ألف وخمسمائة ، وتوجه رسول الله ﷺ إلى مكة المكرمة فنزل بالحديبية وكان قد ساق معه الهدى ، سبعين ناقة معلناً بذلك أنه لايقصد إلا العمرة ، وذلك ليظهر قريشاً فى قبائل العرب بمظهر من

يصد عن سبيل الله إذا هى ردتهم عن البيت ومنعتهم من عمرتهم .

ثانياً : دارت سفارة بين رسول الله ﷺ وقريش ، فأرسل عثمان ـ رضى الله عنه ـ إلى مكة يخبرهم أن النبى ﷺ ما خرج يريد قتالاً وأنه يستأذن ليعتمر ، فركبت قريش رؤوسها وأقسمت ألا يدخل محمد والمسلمون مكة هذا العام ، وبعد مشاورات تزعمها سهيل بن عمرو ـ رضى الله عنه ـ وكان مشركاً ، وافق المشركون بمكة أن يعتمر المسلمون فى عامهم القادم ، وألا يحملوا أسلحة إلا السيوف فى القرب ، وأن تُخْلى لهم مكة ثلاثة أيام ليتموا مناسكهم . هذا إلى جانب هدنة مدتها عشر سنوات ، يأمن فيها محمد وأحلافه ، وقريش وحلفاؤها، وحضر سهيل بن عمرو إلى معسكر النبى ﷺ لإبرام الصلح وكتابته وحصلت أثناء الكتابة مشكلات تجرعها بعض المسلمين على مضض ، كعمر ـ رضى الله عنه ـ واستسلم آخرون لرأى رسول الله ﷺ منهم أبو بكر .

وزاد من أسى المسلمين : أن النبى ﷺ رضى أموراً رأى فيها المؤمنون شيئاً من الإذلال ، منها : عودة المسلمين عامهم دون عمرة ، ومنها : أن يرد المسلمون من يجيئهم مسلماً من مكة ، بينما لايرد المشركون من جاءهم مرتداً من المدينة، ومنها : إصرار سهيل على أن تمحى كلمة : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ ويستبدل بها « باسمك اللهم » وتمحى كلمة رسول الله ، ويستبدل بها : «محمد بن عبد الله » ! حتى لقد ثار عمر ، وقال : ألسنا على الحق ، فلماذا نعطى الدنية من أنفسنا ؟! والمهم أن رسول الله ﷺ أعلن فى الناس انتهاء الأمر على ذلك النحو ، ونحر هديه فاقتدى به الناس ينحرون الناقة عن سبعة معتمرين.

ورجع المسلمون كاسفى البال فكانت فرحة عظمى أن أنزل الله على رسوله

أثناء منصرفه من الحديبية سورة الفتح ، مفتتحاً إياها بقوله : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا** ﴾ [الفتح : ١ ـ ٣] وفرح المسلمون؛ لأن الله ـ جلّ جلاله ـ سمى صلح الحديبية فتحاً وبشر النبى ﷺ بغفران ذنبه ، وبشر المؤمنين الذين صحبوه بالجنة والمغفرة . ومن المعروف أن الأنبياء تقع منهم صغائر الذنوب التى لا تسقط شيئاً من مروءتهم كما تشير إليه آية ﴿ **عبس وتولى** ﴾، وقوله تعالى : ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم** ﴾ وكقوله ـ جل جلاله ـ : ﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى** ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون** ﴾ كل هذه الأمور وكثير غيرها من وعد بالنصر والغنائم ، ورضاء الله عن أهل بيعة الرضوان .

ذكرت فى مطلع السورة الكريمة من قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾ إلى أن قال ـ جل جلاله ـ : ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** ﴾[الفتح : ١٨].

ثالثاً : لقد كان ما تحمله النبى ﷺ من انتقاد بعض الصحابة ، وخصوصاً حين أمرهم بنحر الهدى دون ، أن يبلغ محله ، فلم يفعلوا إلا بعد أن بدأ هو بالنحر ، كان لهذا الصبر ولصلح الحديبية نفسه آثار حميدة ونتائج عظيمة ، فقد فرغ المسلمون بالهدنة ففتحوا خيبر ، واستولوا على أراضيها ليعمل فيها اليهود كمزارعين بنصف إنتاجها ، وشاع فى العرب صبر المسلمين ، وحكمة رسولهم فى عدم اقتحام مكة فاحترموا المسلمين ورسولهم وأقبلوا على الإسلام، وفيهم خالد بن الوليد ، وعمرو

ابن العاص ، والكثير من رجالات قريش ولم يخسر المسلمون شيئاً برجوعهم دون عمرة ، فقد اعتمر النبى ﷺ حسب شروط الصلح عمرة القضاء بعد سنة ، فصدق الله ورسوله الرؤيا بالحق ودخل المسلمون المسجد الحرام وخرجت قريش من مكة وأخلتها للمسلمين يملؤون آفاقها بالتلبية والتهليل والتكبير ، حتى لقد كانت قريش تسد آذانها بالقطن خشية أن تميل قلوبهم إلى الحق إذا سمعت الذكر والدعاء . وحسبك دليلاً على تلك النتائج الباهرة أنه فى خلال سنتين بين السنة السادسة والثامنة ، زاد جيش المسلمين من ألف وأربعمائة شهدوا الحديبية إلى عشرة آلاف ، شهدوا مع النبى ﷺ فتح مكة .

رابعاً : لقد عانت قريش كثيراً من نتائج صلح الحديبية ، فقد شكل المسلمون الذين ردهم رسول الله ﷺ إلى مكة تنظيماً بقيادة أبى جندل بن سهيل ابن عمرو رضى الله عنه إذ قطع الطريق على تجارة قريش ، وروع أمنها فى رحلة الشتاء والصيف ، حتى جاء وفد من زعماء الشرك صاغرين يتوسلون إلى محمد ﷺ أن يقبل من يأتيه مسلماً من مشركى مكة فانتهت الأمور أحسن نهاية بحمد الله ومنته .

خامساً : كشفت غزوة الحديبية وجوه المنافقين وأقنعتهم من أعراب المدينة ومحترفى النفاق كابن أبى فافتضح أمرهم ثم تميزوا غيظاً حتى هموا بالذهاب إلى خيبر مع جيش الحديبية طمعاً فى غنائمها المؤكدة ، فمنعهم رسول الله ﷺ ، حين أعلن بأن الله ـ جل جلاله ـ أمر ألا يقاتل فى خيبر إلا من شهد الحديبية، فطفق المنافقون يقولون للنبى ﷺ : أنتم تحسدوننا وتريدون أن تستأثروا بالغنائم دوننا.

سادساً : وفى الوقت نفسه تكشفت معادن المسلمين عن جوهر فرد يتيم أسمى

وأجل من كل معادن الأرض ، فقد ابتلى المؤمنون فى الحديبية ، وامتحنوا امتحاناً شديداً حين شاع فى مخيمهم أن أهل مكة قتلوا عثمان ابن عفان سفير رسول الله ، وأزمعوا قتال المسلمين ، وفى الليلة نفسها هجم ثمانون من جيش المشركبن على معسكر المسلمين ، ليقتلوا رسول الله ﷺ فنصب حراس المعسكر لهم كميناً وأسروهم وسلموهم لرسول الله ﷺ فأمر بإعتاقهم ، وردهم إلى قومهم بمكة .

وكان رسول الله ﷺ فى اليوم التالى تحت شجرة ، وقد بدأ فى وجهه الهم؛ لأن استعداد المسلمين وسلاحهم وعددهم ، كل هذا لم يكن على مستوى اقتحام مكة ، وإذا مئات من الصحابة يتوافدون عليه تحت الشجرة ويبايعونه على القتال حتى الموت هنالك ـ رضى الله عنهم ـ وجعل يده وقوته فوق أيديهم مؤيدة لهم حين تجلى ما فى قلوبهم ونفوسهم من إيمان عظيم وتضحية هائلة .

سابعاً : وددت لو أن المسلمين تأملوا صفات السلف الصالح من الصحابة الكرام كما وصفهم ربهم فى التوراة والإنجيل ، ثم جعلوا هذه الصفات قدوتهم، لقد كانوا كما جاء فى التوراة أشداء على الكفار رحماء بينهم، وكانوا إلى جانب بطولتهم تراهم ركعاً سجداً متعبدين يرجون فضل ربهم ورضوانه علائم الصلاح فى وجوههم من أثر السجود ، أما الإنجيل فيصفهم أنهم ينشئون كما ينشأ الزرع الزكى الخصب ثم ينمون حتى يصبحوا كأعظم ما يكون الزرع خصباً فيكون إزدهارهم غيظاً للكافرين، وختم بوعد لهم وبشرى بأن فى انتظارهم مغفرة وأجراً عظيماً . ترى ماذا يكون الحال إذا تحول مجتمعنا كهذه الكوكبة الكريمة القوية بالله المتعبدة التى تراها فى ليلها تذرف دموع الخشوع والتوبة ؟!

الله يأمر بتوقير الرسول وطاعته

سورة الحجرات كلها مجموعة من الآداب الإسلامية ، وكم يكون طيباً لو أن كل مسلم وكل مسلمة حفظوها وعملوا بكل أدب من آدابها وبكل حكم من أحكامها ، وهى ثمانى عشرة آية نزلت بالمدينة المنورة ، بدأها ربنا ـ جل جلاله ـ آمراً باحترام رسول الله ﷺ وطاعته ، وختمها أيضاً بإجلاله وذكر أفضاله .

قال تعالى فى افتتاحها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون * إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوي لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ [الحجرات : ١ ـ ٣]. واختتمها عز وجل بقوله : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات : ١٧ ـ ١٨] وقد سرد الله ـ جل جلاله ـ أثناء هذه السورة العظيمة آداباً وأحكاماً حول التروى وعدم التعجل بالانتقام ، وحول أخوة المؤمنين والإصلاح بينهم ، وحول تعامل المجتمع الإسلامى بما يضمن الوحدة والمحبة كاجتناب السخرية والعيب والتنابز بالألقاب، وكاجتناب سوء الظن ، والتجسس والغيبة ، ثم يعلن أن الناس كلهم سواسية ، نسبهم واحد وكرامة المرء بتقواه ، وأخيراً يوجه الكلام إلى الأعراب لكثرة ما كان يلقاه النبى ﷺ من خشونه سببها الجهل ، وإنى إن شاء ذاكر بعض ما اشتملت عليه سورة الحجرات من إشارات بلاغية ومعنوية ومناسبات

تزيد المعنى سطوعاً .

أولاً : يعجب كثير من المسلمين بما فى المجتمعات الأوروبية من انضباط والتزام للنظام والنظافة ، وانشغال كل فرد هناك بنفسه وعمله لا بعيوب الغير واحتقار الناس ، ويظنون أن هذه الآداب الإنسانية نشأت فى المجتمعات الأجنبية ؛ ناسين أو متناسين بأن كل الآداب الاجتماعية والنفسية قد رسمها الإسلام العظيم والقرآن الكريم وحث عليها قبل أن يكون دول أوروبا بألف سنة ، وأن جيوش الإسلام من صحابة رسول الله ﷺ هم الذين علموا الدنيا أدب الدنيا والدين قبل أن يكون لأوروبا ودولها ذكر فى الحضارة أو قدم فى الآداب ، وإذن فإن أول شىء على المسلمين أن يدركوه ، هو أنهم ذوو تراث عظيم يصلح أساساً لكل نهضة حضارية ، وهو تراث أرسى قواعد البطولات والتضحية ، وعلم الدنيا بأسرها مثل الإنسانية العليا من الشجاعة والجود والتعاون والرحمة والعدالة والإخاء والمساواة ؛ لأن من يعرف أساس ماضيه يسهل عليه البناء ، وخصوصاً حين يكون هذا الأساس قائماً على أثبت القواعد وأسماها وأشرفها . وإذا كان هنالك أمم بنيت على غير أساس ، فإن أمة الإسلام لها أساس متين قائم يسهل عليها عملية البناء .

ثانياً : بعث النبى ﷺ فى أمة كانت على شفا جرف هار من الهلاك والكفر والعداوة والثارات ، كما بعث فى أرض صحراوية يكاد يموت فيها الضب، فلما نجحت تجربته ، وتحول أعراب الجزيرة الجفاه إلى علماء يهدون بالحق وبه يعدلون ، وصاروا بعد السلب والنهب خير أمة أخرجت للناس ، وأصبحت بلاد العرب منبع الهدى والحق والإيمان والعدل والفضائل والعلم ، أقول : حين حدث هذا كله على يد محمد ﷺ ،

كان ذلك إثباتاً أن دين محمد ﷺ أصلح الأديان لإنقاذ هذه الدنيا من الظلم والفساد ، ومن الأثرة العنصرية ؛ لأنه نجح فى أخشن بيئة وأقحل أرض ، وأصعب أمة ، فمن الطبيعى أن ينجح فى بيئات العصر الحديث بما فيها من علم وثقافة وتفتح واستنارة .

ثالثاً : من الكنايات الرائعة قوله تعالى : ﴿ لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ؛ إذ معناه الظاهر : لا تتقدموا عليه أمامه والمعنى الحقيقى : اجعلوه قدوتكم ولا تسابقوه أو تتقدموا عليه فى أى حكم من الأحكام أو أدب من الآداب ؛ لأنه إنما بعث ليكون أسوة المؤمنين وقدوة الأبرار .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ هذا الأدب يمكن تطبيقه فى مسجده وعند قبره ، وعند قراءة أحاديثه ، فما ينبغى لمؤمن أن يحدث ضوضاء فى هذه المواطن ، وفى الآية استعارة حلوة ؛ إذ شبه قلب المؤمن بالمعدن الغالى يمتحن ، أى يخلص من الشوائب ، والمؤمنون الذين يحترمون رسول الله ﷺ قد أخلص الله قلوبهم من شوائب الشرك لتدخلها التقوى ويملأها الإيمان .

خامساً : قدم وفد من أعراب تميم على رسول الله ﷺ فطفقوا ينادونه من خارج حجرته : اخرج إلينا فنحن أعز العرب ، ويقول زعيمهم الأقرع بن حابس : إن مدحى زين وإن ذمى شين ، فخرج إليه رسول الله ﷺ وهو يقول: «ذلك هو الله » ، ونزلت الآية تنعى عليهم جهالاتهم ونقص عقولهم وأذواقهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى

تَخرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات : ٣ ـ ٥] والآية درس فى أدب الاستئذان .

سادساً : أرسل النبى ﷺ الوليد بن عقبة بن أبى معيط لجمع الزكاة من إحدى القبائل ـ بنى المصطلق ـ فلما وصل إلى أبياتهم أقبلوا عليه يريدون استقباله ، فخافهم وظن أنهم يقبلون عليه ليقاتلوه وانطلق إلى رسول الله ﷺ ، فلم يتعجل فى مداهمتهم وأمر خالداً أن يأتيه بالحقيقة ، فاتضح أن الوليد بن عقبة لم يتحر الحقيقة فنزلت الآية الكريمة وما بعدها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات : ٦] وهى من أعظم آيات القرآن حكمة وفائدة فكم نجا بها من برىء ووقعت بمخالفاتها من ندامات ، ولعل هذه الآية الكريمة للحكام ومن فى أيديهم العفو والانتقام .

سابعاً : إذا تقاتلت فئتان من المسلمين ؛ وجب على المسلمين أن يسارعوا للإصلاح ، فإذا اتضح أن إحدى الطائفتين هى الباغية ولم تستجب هذه الباغية لنداء المسلمين ودعوتهم للإصلاح ، كان فرض كفاية على القريبين من المؤمنين أن يقاتلوا الفئة الظالمة حتى تقبل الرجوع إلى حكم الله ، وعندئذ يطبق المسلمون حكم الله بينهما من حيث تحميل الظالمين المسؤولية ودفع الحق المترتب على كلٍ منهما ، وقد ختمت الآيتان بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات : ١٠] إنها أخوة الإيمان التى نحن فى هذه الأيام فى أمس الحاجة إليها ، وما أجمل أن تكون من المسلمين قوة مشتركة تكون وظيفتها فض المشكلات والحروب التى تقوم بين دولتين مسلمتين بالإصلاح ، وإن لم يجد فبالقتال والانتصار للدولة المظلومة .

ثامناً : في سورة الحجرات ثلاث آيات متتاليات من قوله تعالي : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات : ١١] إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] هذه الآيات تشكل دستوراً فى الأخلاق والتعامل بين أفراد المجتمع الإسلامى وجماعاته ومنها اجتناب سخرية المؤمنين بعضهم ببعض وبخاصة النساء ، لأنهن أكثر سخرية من الرجال، وذلك لأنه رب مسخور منه يكون أفضل من الساخر ، ثم ينهى ربنا ـ جل جلاله ـ المؤمنين أن يعيب بعضهم بعضاً أو ينبزه بلقب يكرهه ؛ لأن مثل هذا العمل فسوق . وما يجوز للمؤمن أن يستبدل لقب فاسق بلقب مؤمن ، هذا ومن الرذائل الاجتماعية التى نهى عنها القرآن فى سورة الحجرات تجنب الظن السيئ والتجسس والغيبة ، وشنع على الغيبة فشبه المغتاب بمن يأكل لحم أخيه المؤمن وهو ميت ، ولكى يربى المؤمنين العصاة تربية تقوم على الأمل والرجاء ؛ أعلن أن التائب من هذه النقائص بتركها والإقلاع عنها فإن الله تواب رحيم له ولأمثاله .

تاسعاً : حبذا لو يكتب العالم كله فى قاعة الأمم المتحدة هذه الآية الكريمة مع ترجمة ساطعة ضافية لها ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] وذلك إعلان إلهى للإخاء الإنسانى والمساواة الحقة ، ومقياس عادل للكرامة الإنسانية التى تنال بالتقوى لا بمعايير النسب والجاه والمال، وأخيراً : فعلى المؤمن أن يبدأ بأداء أركان الإسلام كاملة لأنها هى التى تنقله إلى مرحلة الإيمان ومنها إلى مرحلة الإحسان وألا يعتقد أن بضع ركعات وبضعة دراهم تنوله منازل المؤمنين ، فتلك

لابد لها من طاعة الله ورسوله ، ولا بد لها من جهاد فى سبيل الله وطاعة مطلقة لله ورسوله ، واعتقاد أن كل الفضل فى إيمان العباد إنما هو لله ، وأنه بركة رسول الله ﷺ وطول صبره على متاعب الدعوة ، ومن ثم فلابد من إخلاص الحب لله ورسوله ، فله المنة فى الهداية ، ولرسوله الفضل فى إبلاغ الرسالة والأمانة ونصح الأمة .

مشـــاهد مروعــة
مــن يـــوم القيامـــة

سورة « ق » من السور المكية موضوعها العقيدة كسائر السور المكية ، وهى سورة تبعث الخشوع والبكاء من خشية الله وخوف الحساب ، وذلك لما ترويه من بداية خلق الإنسان ومبعثه وحسابه ، وما فيها من ذكر لعذاب جهنم واستزادتها من الكافرين الظالمين ، ثم تلك الخاتمة المروعة بما فيها من لهجة الإنذار الهائلة . وقد بدأت السورة الكريمة بذكر القرآن المجيد يقسم به ربنا عز وجل إن القيامة والبعث والحساب والجزاء حق ، وختمت أيضاً بذكر القرآن الكريم الذى هو ذكرى لكل من يخشى وعيد ربه .

وقد جاء فى فضل سورة «ق» : أن رسول الله ﷺ كان يحرص على قراءتها حرصاً عظيماً ، حتى لقد حفظها كثير من الصحابة مشافهة من فم رسول الله ﷺ ؛ لكثرة ما كان يرددها فى خطب الجمعة ، فعن جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الفجر ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيد ﴾ إذا أراد التخفيف فى القراءة ، وحدثت أم هشام بنت حارثة أن رسول الله ﷺ كان جارهم لمدة سنتين وأن تنورهم وتنور رسول الله ﷺ كان واحداً ، وأنها ما حفظت سورة « ق » إلا من كثرة ما سمعتها من رسول الله ﷺ وهو يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس . وفى حديث أبى واقد الليثى أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى الأضحى وفى الفطر بـ ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيد ﴾ ﴿ **واقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ ولعله كان يقرؤها فى يوم الجمعة كما كان يقرأ فى فجر الجمعة بسورة السجدة وسورة الدهر ؛ لأن هذه السور الثلاث تذكر الإنسان بقصة حياته من نشأته الأولى فى الأرحام إلى مصيره من جنة أو نار ، وهذا الأمر كان ﷺ

حريصاً أن يذكر به الناس فى كل ليلة جمعة . أما سورة الكهف فلعل قراءتها فى أيام الجمع ليعتبر المسلمون بقصص السابقين ، وليمتعوا نفوسهم بأخبار الأولين ، وهم فتية الكهف ، وقصة الغنى الكافر ، والفقير المؤمن ، وقصة آدم حين أبى أبليس أن يسجد له ، وقصة موسى والعبد الصالح ، وقصة ذى القرنين، ولا غرو ، فالجمعة عيد المصلين ، والإنسان فى عيده يتأثر ويستمتع بما يستمع . وفى سورة «ق» موضوعان رئيسيان أولها : إثبات البعث على ضوء إحياء الأرض بالمطر بعد موتها بما ينبت فيها ربنا من زرع ونخيل وحدائق ، فكذلك يكون خروج الموتى ، أما الموضوع الثانى فمشاهد مروعة من يوم القيامة تبعث فى النفوس الخشوع والإيمان .

وإنى مكتف من السورة بتفسير هذه الآيات الكريمات التى تصور مشهداً مروعاً من مشاهد القيامة فيه حوار وجدل .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ * وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق : ١٥ ـ ٢٩]

أولاً : فى الآية الأولى بلاغة مقنعة وإقناع بليغ حقاً ، واستفهام بارع الجمال ،

مطابقة يزيدها التضاد سطوعاً ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ . ومعنى الآية الكريمة وهل صعب علينا خلق الإنسان أول مرة حين أنشأناه من نطفة إذا تمنى حتى يرتاب الكافرون فى قدرتنا على بعثه وهو عظام؟! إن النشأة الأولى أعظم إبداعاً واقتداراً من النشأة الثانية ؛ لأن الأولى كانت على غير نموذج ، أما الثانية فعلى نموذج مرسوم والاستفهام الرائع ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ يفيد النفى ؛ لأنه معناه : نحن ما عيينا بخلق الإنسان الأول ، وهنالك طباق حلو بين كلمتى الخلق الأول وخلق جديد . إن فى هذه الآية القصيرة المكونة من عشر كلمات تصرفاً بين الإنشاء والخبر تنوع فيها الأسلوب بين نفى لتصورات الكفار وبين تهكم بعقلياتهم المنكرة لأمر بديهى هو البعث وبين الإنشاء والخبر يسطع إقناع رائع بديهى خلاصته أن من خلق الإنسان على غير مثال وفطره فى نشأته الأولى على غير نموذج قادر على بعثه بعد موته .

ثانياً : ثم يمضى ربنا ـ جل جلاله ـ فى الحديث عن عظيم قدرته وواسع علمه فيقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ليت من يعصون الله فى الخفاء يقرؤون هذه الآية الكريمة فى كل حين ، ليعلموا أن الله يعلم من الإنسان حتى هواجس نفسه ، وأنه أقرب إليه من حبل وريده ، وهو عرق معلق بالقلب فى مركز جسم الإنسان . وبهذه الآية الكريمة أكمل القرآن الكريم رسم لوحة فنيه لإبداع القدرة الإلهية فى خلق السموات والأرض والحياة النباتية الجميلة ثم أتم أجزاء الصورة المبدعة بخلق الإنسان .

ثالثاً : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٧ ـ ١٨] هاتان الآيتان فى أحداثهما فى الحياة الدنيا ، أما ما بعدهما من أحداث وحوار ففى القيامة ، ومعنى

هاتين الآيتين : أن الله ـ جل جلاله ـ قد وكل بكل عبد من خلقه ملكين : أحدهما عن يمينه وهو الذى يكتب حسناته، والآخر عن شماله وهو الذى يكتب سيئاته ، فإذا عمل حسنة كتبها حالاً ملك الحسنات عشراً إلى سبعمائة ، وإذا اقترف سيئة كان ملك الحسنات أميناً على ملك السيئات ، وروى أنه يقول له : أنظره سبع ساعات لعله يتوب أو يستغفر ، وكل هذا من رحمة الله وحلمه وحبه للمغفرة والتوبة .

وأكثر ما يشغل الملكين اللسان ؛ ولهذا جاءت الآية الثانية مقصورة على اللسان ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد ﴾ .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ إلى آخر الآيات ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيد ﴾ وقصة مشهدها كالآتى : يظل الإنسان مراقباً من ملكيه حتى تأتيه سكرة الموت ، فيتكشف له الحق ، ويتأكد من وعد الله بالبعث والجزاء ، وهذا ما كان يخشاه الكافر ويحيد منه ، ثم يسير كل عبد إلى الحساب ، وقد وكل الله به ملكين أحدهما يسوقه ، والآخر يشهد عليه ، ويسمع الكافر وهو متوجه إلى الحساب لوماً من الملائكة يقولون له : لقد كنت غافلاً شاكاً ، أعمى مرتاباً فى قدرة الله على بعثك وجزائك ، أما الآن فقد أصبح بصرك حاداً وتكشفت لك الحقيقة الساطعة . نعم يكون الكفار فى الحياة الدنيا عمياناً عن صراط الإيمان ، والإيمان بوحدانية الله وباليوم الآخر ، أما فى الآخرة فيكون من أشد الناس إبصاراً ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى فى سورة مريم : ﴿ **أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين** ﴾ [مريم : ٣٨] ومعنى الآية الكريمة : ما أسمع الكافرين وما أشد إبصارهم يوم يبعثون إلينا ، أما الآن فهم فى تيه وشك وضلال وعمى عن الحق ، ثم إذا وصل العبد إلى مكان الحساب حيث الموقف بين يدى الله ، قال ملك الأعمال الموكل

به : هذا ما حضر لدى وتوفر عندى من عمله ، ويكون عند الله ـ جل جلاله ـ ملكان موكلان بإنفاذ حكمه فيقول لهما ألقيا فى جهنم كل كافر عاند الحق ومنع الخير واشتغل بالعدوان ، وارتاب فى التوحيد واليوم الآخر ، يصدر الله ـ جل جلاله ـ هذا الأمر كقاعدة عامة ، وهنا يحاول الكافر الظالم أن يدافع عن نفسه ، فيتهم قرينه من شياطين الإنس والجن أنه هو الذى أغواه ، وفى لمح الطرف إذا القرين حاضر يقول : يارب أنا ما أطغيته ، ولكن طبيعة الإجرام كانت فيه ، ولقد كان طيلة عمره فى ضلال يبعده عن الحق ، وهنا يكشف ربنا للطرفين حقيقة الأمر بشهود من الجوارح والملائكة والرسل ، ويعلنها فى المتخاصمين ﴿ **لا تختصموا لدى** ﴾ وتجادلوا ، فقد أعذرت إليكم وأنذركم رسلى عذابى ، والقول الحق ثابت عندى ما يبدل ولا يغير ، وما أنا بظلام لعبيدى ، وفى هذه اللحظة يتكشف لكل عبد عمله ، وتشرق الأرض بعدالة الله ، ويكون القضاء الحق الذى لا يظلم حبة خردل ، فتقر كل أهل الموقف من ملائكة وبشر بأن قضاء الله حق وأنه أهل الحمد والثناء ﴿ **وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ [الزمر : ٧٥].

سورة تصور مصارع الكافرين المعاندين للحق

سورة الذاريات هى سورة من عدة سور مكية نزلت أثناء الشدائد التى كان يعانى منها رسول الله ﷺ فى عام الحزن وقبيل الهجرة حين بلغ الإيذاء أشده ، ولعل الطور والحواميم والإسراء كلها من هذا القبيل ، والحق أن أسلوب سورتى الذاريات والطور أسلوب مرعب حقاً ، فالبدايتان والخاتمتان فيهما تهديد مروع، ثم إن قصر الفواصل ، وفخامة الألفاظ ، وجلجلة الإيقاع ، كل هذه تحدث فى النفس رهبة عظيمة . وسورة الذاريات من أولها إلى آخرها تسلية لرسول الله ﷺ، عما به وتعده بنصر الله الذى كتبه للمؤمنين وبالمصير المظلم الذى ينتظر الظالمين ، وفى أثناء ذلك تتخللها قصة إبراهيم إذ رزقه الله الولد بعد يأس وكبر، وأثبت له أن الله ـ جل جلاله ـ قادر إذا أراد أن يأتى بالخوارق ، فلا عجب إذا نصر المؤمنين وهم مستيئسون ، وذكر بعد ذلك مصارع قوم لوط حين مردوا على الفسق ، وقوم فرعون وقوم هود ، وقوم صالح ، ومن قبلهم قوم نوح . والملاحظ أن السورة الكريمة بدأت بقسم عظيم منه ـ جل جلاله ـ ، أقسم فيه بالريح والملائكة وهما من جنود ربك حين يعاقب بأن وعده صادق فى عقوبة الكفار ، وأن حسابهم وجزاءهم واقع ، وختم السورة منذراً بأن الكافرين سينالهم نصيب من العذاب كذلك الذى حل بإخوانهم من مواكب الكافرين عبر الأجيال ، وفى هذا طمأنة لرسول الله ﷺ أن العاقبة للمتقين مهما عربدت من حولهم غطرسة الباطل .

وفى سورة الذاريات أساليب متنوعة ممتعة حقاً تثبته فى طريق الدعوة المغروس بالقتاد ، وحسبك بهذه الأقسام أو الأيمان الثلاثة التى يحمل كل واحد منها

لوناً من الطمأنينة وسكينة القلب ، فأولها قسم من الله ـ جل جلاله ـ بالريح والملائكة بأن ما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع والدين هو الحساب والجزاء، والثانى قسم بالسماء ذات الحبك ، أى ذات الطرق والأفلاك القوية المحبوكة والمحبوك فى اللغة القوى يوصف به الفرس ، وقد توصف به الخطبة والقصيدة ، وقد أقسم بالسماء المحبوكة المسائر بأن اختلاف الكافرين من حول دعوة الحق وأخذهم بالتخرُّصات والريب سيكون سبب دمارهم فى الدنيا والآخرة ، أما القسم الثالث فهو أعظم من القسمين من قبله ، فقد أقسم بذاته العظيمة ، وبوصفه ربّاً للسماء والأرض بأن رزق العبد مضمون عند ربه فى السماء ، وبذلك طمأن نبيه ﷺ وثبت قلبه بأنه لا خوف عليه من هزيمة جائحة ولا ضياع ولا فاقة مذلة.

إن موضوع الرزق كثيراً ما يخيف العبد من الجهاد والتضحية والقتال فى سبيل الله ، ومن هنا ففى موضع من سورة الذاريات ذكر الله أشياء لم يقسم عليها ، لكنه حين وصل إلى موضوع الرزق أقسم للعباد قسماً من أعظم الأقسام فى القرآن بأن رزقهم مكتوب عند ربهم فى الماء : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٠ ـ ٢١] ثم قال : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٢] وأقسم بعدها بربوبيته فوق كل من فى السماء والأرض بتربيته لهم وبتكفله بعيشهم فقال : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات ٢٢ ـ ٢٣] يعنى : إن ضمان الرزق فى السماء أمر حق ساطع واضح وضوح حاسة النطق فيكم عندما يتكلم أحدكم بكامل وعيه فلا يشك فى كلامه . إن كل حاسة قد تخدع صاحبها كالسمع له طنين ، والبصر له زيغ، والشم والذوق لهما تلون وتأثر بما يكون فى الأنف أو الفم من تغيرات إلا النطق ، والإنسان فى وعيه ؛ ولهذا يؤخذ بما ينطق به الإنسان

الواعى كبينة تسجل عليه ، وفى الخبر حول آية الرزق وما تبعها من قسم عظيم: أن رسول الله ﷺ قال : « قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم بنفسه ثم لم يصدقوه» قال الله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ .

وهنا أسرد على الإخوة هذه الآيات التى ختم الله بها الذاريات ، ثم أشير إلى بعض إشارات من إعجازها .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ * فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : ٥٢ ـ ٦٠].

أولاً : قصة النبوة واحدة ، ومن ثم فما على رسول الله ﷺ إلا أن يتسلى بسير الرسل ، يصبر فى وجه الكفر المعاند كما صبر كل إخوانه من الأنبياء .

إن كل الأمم من قبل العرب أجابوا رسلهم إجابة واحدة ألا وهى اتهامهم لرسلهم بأنهم إما سحرة أو مجانين ، فكأنما أوصى بعضهم بعضاً بهذه الإجابة ، وقد جاء التعبير عن قصة النبوة المتكررة فى جملتين : إحداهما خبرية وهي قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾، والغرض البلاغى للجملة الإخبارية هى : ذم مشركى العرب ، والثانية : جملة إنشائية استفهامية ، وهى قوله تعالى : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ ومعناها : هل أوصى بهذا الأمر بعضهم بعضاً من لدن نوح إلى محمد : أن يتهموا أنبياءهم بالسحر والجنون؟ وهو استفهام غرضه التعجب ، والجملتان كلتاهما تسلية لرسول الله ﷺ عن همومه

عام الحزن والإيذاء ، ثم يجيب الله ـ جل جلاله ـ عن التساؤل : بأنهم لم يتواصوا بالتكذيب ، وإنما تشابهت فيهم طباع الظلم والطغيان .

ثانياً : الخاتمة كلها التى ذكرنا آياتها ألوان من أساليب التسلية البليغة ، فقد جاءت هذه التسلية في أربعة أساليب متنوعة : أولها ﴿ **كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ** ﴾ وهى تسلية بسير الرسل وأممهم من قبل محمد ، فجميع الرسل لقوا من التكذيب ما لقى محمد ﷺ من قريش ، وثانى الأساليب فى التسلية الجميلة ؛ هو قوله تعالى : ﴿ **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ * وذكر فإن الذكري تنفع المؤمنين**﴾ وهو أسلوب حلو يخلى رسول الله ﷺ من المسؤولية ، وما عليه أن يعرض عنهم ويتحاشى شرهم بعد أن أدى ما عليه من تبليغ الرسالة وتذكير الغافلين . عليه فقط أن يذكر بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولابد أن يجد أن الذكرى نفعت من شرح الله قلبه للإسلام وصفى فطرته لقبول الإيمان ، وهذا أسلوب فى التسلية عظيم ، فمحمد مذكر غير مسيطر ، وما على هذا الرسول إلا البلاغ المبين ، ولا لوم عليه إن أصروا علي شركهم مادام قد بلغ وأدى ونصح ﴿ **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أما الأسلوب الثالث فى التسلية ، فهو تقرير للحقيقة العظيمة الثابتة التى من أجلها خلق الله السموات والأرض ألا وهى حقيقة التوحيد الراسخة الثابتة ، وهى حقيقة تحقق مصلحة البشرية التى يوفر لها التوحيد سعادة الأمن ، إذ التوحيد شعب كلها فضائل وأخلاق . فالإنسانية هى التى تجنى ثمرته وحدها ، والله ـ جل جلاله ـ غنى عن الخلق لا يكلفهم رزقاً ولا إطعاماً ، بل إنه على العكس من هذا هو الرزاق القوى الذى يعطى كل شىء خلقه ويزيد بعد ذلك فى إفضاله فيهديهم بعقولهم وأنبيائهم ، وإذن فليطمئن

محمد وليتسلَّ ؛ فإن ربه هو وليه وناصره وهو رازق الناس وهاديهم ، وإذن فمحمد فى كنف قوة الإله وقدرته ورزقه ، وهو بهذا يأوى إلى ركن شديد من رعاية الله وكلاءته ونصره وأما الأسلوب الرابع والأخير فى التسلية ، فهو أن المشركين وجميع أنصار الشيطان مصيرهم معروف ـ إنه المصير المظلم ، والعقاب الشديد الذى أصاب أمثالهم من شياطين الكفر ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ الذنوب : هو الدلو تملأ بالماء من البئر ، وكان المستقى يوزع على من حوله ذنوباً ثم يعيد الكرة ، وسينال كفار قريش الذين كذبوك يامحمد ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم الذين سبقوهم بالكفر ، فيا ويلهم من يومهم الذى حدده ربنا لهزيمتهم وعقابهم ، وفى الكلام استعارة حلوة ؛ إذ أن كلمة ﴿ذنوبا﴾هنا استعملت بمعنى نصيباً ولقد جاءهم يومهم حين قتل صناديدهم وخضع أساطينهم فى الفتح وانتشر الإسلام رغم أنوفهم . اللهم ارزقنا جهاداً كجهاد نبيك تزينه المصابرة والمرابطة حتى تكون كلمتك هى العليا .

سورة تسلى رسول الله وتهون عليه

سورة الطور كما أسلفنا من السور المكية التى نزلت تسلية للرسول ﷺ فى شدائد الحزن والإيذاء ، وقد أشرنا أنها ذات أسلوب عظيم التأثير . قرأنا أن عمر رضى الله عنه سمع قارئاً يقرأ ﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور : ١ ـ ٨] فمرض ـ رضى الله عنه ـ وعاده الصحابة .

وقد جاء أن رسول الله ﷺ كان يحرص على قراءة سورة الطور ، وأنه كان يرددها فى صلاة المغرب ، وبين الطور والذاريات تشابه كبير ، فقد بدأت الطور بعدة أيمان بالغة من الله ، أقسم الله فيها بمبعث موسى وقرآن محمد ، وبالبيت المعمور فى الأرض ، وفى السماء بأن عذاب الله واقع بالكافرين لا يستطيع دافع أن يدفعه عنهم ، ثم انتهت السورة بما انتهت به سورة الذاريات ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ [الطور: ٤٧ ـ ٤٩] .

وقد لاحظ المفسرون رحمهم الله تكرر الأسلوب الاستفهامى المؤثر فى سورة الطور ، فقد تتابعت فيها اثنتا عشرة جملة استفهامية من الاستفهام البلاغى ، وهو استفهام يمتزج فيه الإنكار والنفى والتعجب والتهديد ، إذ يستنكر الله ـ جل جلاله ـ أعمال الكفار وأقوالهم ، وينفى مزاعمهم وافتراءهم ، ويعجب من منطقهم المعوج المريض الذى لا يسيغه عقل ، وأخيراً يتهددهم بقوله الكريم: ﴿فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون﴾ [الطور : ٤٥] إلى

ختام السورة الكريمة .

وقبل أن أخوض فى تفسير الاستفهامات البليغة فى الطور ، أشير إلى القسم الوارد فى مطلع الطور الذى اشتمل على كلمتين كان المفسرون رحمهم الله يستغربونهما فيذهب الكثير منهم فى تفسيرهما مذاهب شتى ، وهما قوله تعالى: ﴿ والبحر المسجور ﴾ فالمسجور معناه : المشتعل ، وأشيع معنى للفعل سجر هو أشعل النار فنقول : سجرت التنور ، أى أشعلته وأوقدت عليه كثيراً لكن البحر ماء فكيف يشتعل الماء ؟ لقد عرف العلم فى هذه الأيام كيف يشتعل الماء؛ لأن هذا الماء العجيب الذى جعل الله منه الحياة يتكون من مادتين : إحداهما : شديدة الاشتعال يصحب اشتعالها تفجر ألا وهى الهيدروجين ، أما الثانية فمساعدة على الاشتعال لا يتم الاشتعال بدونها وهى الأكجسين ، فسبحان من جعل منبع الحياة من مشتعل ، ومن مساعد على الاشتعال ، ويبدو - والله أعلم - أن ماء البحر يشتعل ويتفجر يوم القيامة ، ففى الطور : ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ وفى التكوير ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ وفى الانفطار : ﴿وإذا البحار فجرت ﴾ ، وما يدريك لعل دمار هذا العالم يأتى من العبث بهيدروجين المحيطات والبحار على أيدى صانعى الدمار فى هذا العالم ، ويلاحظ فى الطور عظمة القسم فى مطلعها إرهاباً للكافرين من عذاب ربك ، فقد أقسم ربنا - جل جلاله - بالطور مبعث موسى الذى تجلى فيه ربنا على شيخ أنبياء بنى إسرائيل وكلمه تكليماً ، وثنى فأقسم بالقرآن ، وحسبك به عظمة وشرفاً ، ثم أقسم بالبيت المعمور وهو الحرم الشريف فى الأرض وما يقابله فى السماء من البيت العظيم الذى تعمره آلاف آلاف من الملائكة ، كما جاء فى الحديث الشريف ، ثم أقسم بالسقف المرفوع وهو السموات العلا ، وأخيراً أقسم بالبحر المسجور الذى هو مظهر مروع من مقدمات قيام الساعة .

أما تلك الاستفهامات التى أشرت إليها ، فسوف أشرحها فى إيجاز لما فيها

من متعة فنية ووقع فى القلوب ، حتى لقد سجد لسماعها الكافرون كما أسلفنا :

أولاً : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ [الطور : ٣٠] ؟ تستعمل كلمة ﴿ أم﴾ فى كلام العرب للتخلص من موضوع والانتقال إلى موضوع آخر ، وذلك حين تأتى ابتداء فى الجملة ، أما حين تأتى متوسطة فهى حرف عطف لطلب التعيين أو الاختيار ، كقولك : أخالداً قابلت أم عمرا ؟ لطلب التعيين وكقولك : أأسقيك ماء أم أعصيراً ؟ للتخيير ، وقد تأتى بمعنى بل ومعنى الآية الكريمة : أيقولون عنك إنما هو شاعر وسوف يموت كما مات الشعراء من قبله فنستريح منه ؟ وهو استفهام إنكارى وفيه توبيخ وتهديد ونفى ؛ إذ التقدير : لا لست شاعراً وسوف يعلم الكفار عاقبة كذبهم

ثانياً : الاستفهام الثانى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُون ﴾ ؟ [الطور : ٣٢] ومعناها : هل تأمرهم عقولهم بالكفر ؟ لا ، إن العقل لايأمر بالكفر ، لكنهم قوم ذوو طغيان وتجاوز للحق ، وهو استفهام نفى يوبخ الكفار بأنهم لايتبعون عقولهم لكنهم يركضون وراء الهوى المطغى.

ثالثاً : الاستفهام الثالث هو قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَه ﴾ [الطور : ٣٣] ؟ ومعناه : أم يقولون إن محمداً افترى القرآن وتقوله من عنده ؟ ورد ـ جل جلاله ـ فقال : ﴿ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِين﴾[الطور : ٣٣ ـ ٣٤] والمعنى: إن كان محمد قد تقول القرآن فليأتوا هم ، وهم البلغاء بكلام مثله ، والأمر هنا ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِه﴾ للتعجيز ، والإستفهامان الرابع والخامس هما قوله تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُون ﴾ ؟ [الطور : ٣٥] ومعنى الآية الكريمة : أم

هل خلق الكفار الجاحدون دونما تدبير ولا قدرة ولانطفة ولابويضة ولارحم ؟ هل خلقوا دون إبداع من المبدع العظيم ؟ أم ترى هم الذين خلقوا أنفسهم ؟ الحقيقة : أن كل هذا لم يحدث ، وأن كلامهم ما هو إلا نتيجة لكفرهم وعدم يقينهم . والإستفهام السادس هو قوله تعالى : **﴿أَمْ خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴾**؟ [الطور : ٣٦] ومعناه : هل الكفار الجاحدون هم الذين خلقوا السموات والأرض؟! إنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك ، ولكنهم كفار ، ومن كفرهم هذا جاء إنكارهم لآلاء الله وآياته ، والاستفهامان السابع والثامن هما قوله ـ جل جلاله ـ : **﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ ﴾** [الطور : ٣٧] ؟ ومعنى الآية الكريمة : هل يملك الكافرون خزائن رزق الله ورحمته ؟ أم لهم أى سيطرة أو سلطان على ملكه العظيم ؟ والجواب : أنهم أذل وأحقر من أن يملكوا شيئاً من هذا ، فهم ليس بأيديهم رزق ولاهيمنة. والاستفهام التاسع هو قوله تعالى : **﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾** ؟ [الطور : ٣٨] والمعنى : هل لهؤلاء الكفار سلم يستمعون بوساطته أسرار السماء وعلم الغيب؟! ويجيب الله ـ جل جلاله ـ فيقول : **﴿ فليأت مستمعهم بسلطان مبين﴾** [الطور : ٣٨] ومعناه : فليبرهن مستمعهم الذى وصل إلى السماء على ذلك بدليل واضح . والاستفهام العاشر هو قوله تعالى: **﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾**؟ [الطور : ٣٩] ومعناها : هل فضلكم على نفسه فرزقكم البنين واختص نفسه بالبنات اللاتى نسبتموهن إليه افتراء عليه كاللات والعزى ومناة والملائكة ؟!

وتتابعت عندئذ أربعة استفهامات وهى قوله تعالى : **﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾** ؟ [الطور : ٤٠] ومعناه : هل طلبت منهم أجراً على متاعب التبليغ فأثقلت كواهلهم بالغرامة والضرائب ؟! وقوله تعالى :

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُون ﴾ ؟ [الطور : ٤١] ومعناها : هل أوتوا علم الغيب فسجلوا لديهم ما سيحدث للخلائق. وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يُرِيدُون كَيْدًا﴾؟! [الطور : ٤٤] ومعناها : هل يريدون بكفرهم أن يكيدوا الله ورسوله ؟ ويجيب عز وجل فيقول : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُون ﴾ [الطور : ٤٢] ؛ أى أن الكافرين هم أضعف من أن يكيدوا الله ورسوله ، ولكن الله ـ جل جلاله ـ هو الذى سيكيدهم ويحبط كيدهم ، ثم يختم الكلام باستفهام هو خلاصة ما سبق فيقول : ﴿ أم لهم إله غير الله﴾؟ [الطور : ٤٣] ومعناه: هل هنالك إله لهم غير الله ينصر وينفع ويعطى ويمنع ويخلق ويرزق ، إن كان كذلك فأين هو؟! ثم ينفى ذلك فيقول : ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ [الطور : ٤٣] نعم، تنزه ربنا جلت عظمته عن الشريك ، وسبحان من هذا كلامه ، وهذا بيانه وبلاغته وإعجازه .

النبى يبلغ وحى الله ولا ينطق عن الهوى

سورة النجم من أروع السور الكريمة إيقاعاً ، وأذكر أننا حفظناها فى الصغر فى يسر وسهولة لما بين آياتها الكريمة من انسجام واتساق ، وكنا نطرب جداً إذا سمعناها من القراء . آياتها فى مجموعة قصيرة متوازنة كأكثر السور المكية ، وهى فى نصفها الأول أهدأ وعيداً ، بل إن فيها بشرى بواسع مغفرة الله لأهل اللمم إذا اجتنبوا الجرائم الكبيرة ، لكن النصف الثانى منها شديد الوقع عنيف الوعيد حتى لقد روى أن النبى ﷺ بعد أن قرأ قوله : ﴿ **أزفت الأزفة * ليس لها من دون الله كاشفةٌ أفمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون ولا تبكون * وأنتم سامدون** ﴾ [النجم : ٥٧ ـ ٦٢] أى : لاهون لم ير ضاحكاً حتى مات لكنه كان يبتسم . وقد ابتدأت السورة بالإشادة بمحمد ﷺ وصدقه ، وأنه أبعد شىء عن الضلالة والغواية والأهواء ، فكلامه بوحى من الله ، والقرآن يعلمه إياه جبريل من عند الله، وسورة النجم فى نهايتها سجدة . يروى أن النبى ﷺ سجدها فسجد بسجوده المسلمون والمشركون لما استولت السورة على القلوب حتى قلوب المشركين .

وسورة النجم نسج الكذابون من المشركين والملاحدة حولها فرية لا أساس لها من الصحة ، خلاصتها : أنه أثناء قراءة الرسول ﷺ لسورة النجم فى البيت الحرام سمعه المشركون يمدح اللات والعزى ومناة ، وأنه قال أثناء التلاوة : ﴿ **أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى** ﴾ [النجم : ١٩ ـ ٢٠] تلك الغرانيق العلا وشفاعتهن لترتجى، ومثلهن لا ينسى وهو كلام يناقض نفسه؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لو قال ذلك ؛ لما ذمها مباشرة بقوله تعالى:﴿ **إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ**

الـظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنـفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ [النجم : ٢٣] والغرانيق: معناها البيض . والقصة لا أساس لها من الصحة ؛ لأن أسلوب العبارات الثلاث المزعومة هابط عن مستوى الإعجاز القرآنى .

وهذه بعض إشارات بلاغية جميلة فى سورة النجم :

أولاً : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ [النجم : ١] أى : إذا مال إلى جهة الغرب ونزل إيذاناً بالغروب ، إذ يكون الليل قد أدبر ، واشتد سواده ، وبدا النجم ساطعاً شديد السطوع. هذا المنظر الرائع يمكن أن تراه إذا ابتعدت عن أضواء المدينة ، وأرسلت بصرك إلى السماء فى أول هوى النجوم نحو الغرب ، ومن ثم فقد أقسم بالليل إذ أدبر حيث تسطع نجومه سطوعاً شديدا ، وقد أقسم ربنا بالنجم فى أشد سطوعه على صدق محمد ﷺ وكأنه يشير ـ جل جلاله ـ إلى أن كلام محمد ﷺ يتألق متلألئا فى ظلام شركهم كما يتألق النجم فى وسط الليل المظلم الداجى إذا أدبر قبل أن يسفر الصبح . والله أعلم .

ثانياً : وفى تعبيره بالكناية عن رسول الله ﷺ بكلمة ﴿ **صاحبكم** ﴾ ما يجعل المعنى ألصق بالنفس ، فمحمد صاحبهم والصاحب الصادق لايريد لصاحبه إلا الخير ؛ لأن من أدب الصحبة أن يخلص الأصحاب كل للآخر ، وثم كناية ثانية عن جبريل عليه السلام هى ﴿ **شديد القوى** ﴾ . ومثلها ﴿ **ذو مرة** ﴾ والمرة : هى القوة التى استحكمت بالفتل الشديد ، وجبريل يدنو من الله ـ جل جلاله ـ حتى يكون على بعد قوسين ، والقوس: العربية طولها قريب من أربعة أقدام ، وهناك يوحى ربنا إليه ليعلم بالوحى الرسل . وقال أشياخ آخرون : بل الضمير فى قوله ﴿ **ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما**

أوحى﴾[النجم : ٨ ـ ١٠] إنما يعود إلى رسول الله ﷺ ، وأنه هو العبد الذى أوحى إليه ربه الصلاة حين كان من ربه قاب قوسين ، وأن الله ـ جل جلاله ـ أكرم محمداً عليه الصلاة والسلام برؤيته كما أكرم موسى بتكليمه ، وإبراهيم بخلته . ورؤية رسول الله ﷺ لربه ليلة الإسراء مختلف فيها فمنهم من يقول : إنه رآه بقلبه نوراً أحاط به من كل أرجائه ، وأنه بذلك أفضل من موسى ؛ لأن موسى لم يطق رؤية الله وخر صعقاً . ومنهم من يقول : إنه لم يره ، ولكن الله جل علاه قربه إليه جداً إلى قاب قوسين ، وفى هذا إبانة عن عظيم منزلته ﷺ عند ربه ، وشرف رتبته، وإشراق أنوار معرفته ، ومشاهدة أسرار قدرته ، ثم إن فى هذا التقريب تأنيساً ومبرة وبسطاً وإكراماً لمحمد ﷺ ، وبالمناسبة فالمتصوفة يدّعون لأنفسهم مرتبة المشاهدة ، وقد يدعيها بعض جهلتهم ممن لايقيمون القرآن ، مع أنها مرتبة لم يدّعها رسول الله ﷺ ، فقد سئل عليه الصلاة والسلام . هل رأيت ربك ؟ فقال ﷺ : «نورٌ أنى أراه» ؟! يعنى كيف يحدق البشر فى النور الساطع .

ثالثاً : سدرة المنتهى هى فى السماء السابعة ، ويروى أنها الحد الذى تستطيع الملائكة الوصول إليه ، أما ما وراءه فلا يوصل إليه لجلال الله ومهابته ، وقد جاء فى وصفها أن ثمرها كالقلال العمانية ، وأن ورقها كآذان الفيلة ، وهذا تقريب وصفى لأذهان البشر وتصورهم ، وقيل : إنها سميت سدرة المنتهى ؛ لأن إليها تنتهى رحلة الملائكة والأعمال .

رابعاً : اللات والعزى ومناه من أشهر أصنام العرب التى كان العرب يدعون أنها بنات الله ، فجاء ذلك الاستفهام البليغ الإنكارى : ﴿ **ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضيزى** ﴾ [النجم : ٢١ ـ ٢٢]؟ أى قسمة جائرة ، ومناة : صنم كان بين مكة والمدينة تعبده خزاعة وهذيل والأوس

والخزرج ، وكان أهل المدينة ربما صنعوا أخشاباً على هيئته ، فجعلوها في بيوتهم كما فعل عمرو بن الجموح ـ رضى الله عنه ـ أيام جاهليته، وقد بعث النبى ﷺ علياً عام الفتح فهدمها .

وأمّا اللات فكان سدنتها من ثقيف وكانت فى منتصف مدينة الطائف ، وكانت صخرة مربعة نصبتها ثقيف وأقامت عليها بنياناً ،فكانت قريش وجميع القبائل تعظمها ، ولم تزل معبودة إلى أن أسلمت ثقيف ، فأرسل النبى ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرّقها بالنار ، وأمّا العزى بوادى نخلة الشامية فوق ذات عرق فبنوا عليها بيتاً ، وكانت تحدث فى داخل البيت أصواتاً ، ويبدو أنها كانت شيطانة من شياطين الإنس أو الجن تخدع عبادها بالصوت وتأوى فى كهف كبير تحت ثلاث سمرات كبار ، فلما كان فتح الطائف أرسل خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ للقضاء على العزى ، وقد قاتل دونها فرسان من تلك المنطقة من هوازن وثقيف وسليم ، وروى أنه قتل دونها سبعون فارساً ، فلما انتهت المقاومة قصد خالد ـ رضى الله عنه ـ إلى السمرات فقطع أول واحدة ، فانكشف ما تحتها فلم ير شيئاً ، ثم أقبل على الثانية فقطعها فلم ير شيئا ثم لما قطع الثالثة ، خرج من تحتها سادن العزى واسمه دبية السُّلمى ، ومعه العزى على هيئة حبشية شديدة السواد ، نافشة الشعر وقد وضعت يديها على عاتقها ، فأقبل عليها خالد ـ رضى الله عنه ـ فضربها بسيفه ضربة فلقت رأسها ، ثم قتل سادنها دبية ، وأنهى بذلك خرافة الوثنية فى عرب الجزيرة ، فيالله من دين حرر العقول ، وشريعة وضاءة جاء بها أكرم رسول .

خامساً : فى مواضع من سورة النجم جاءت ألوان من البلاغة والصور البيانية والحلية اللفظية :من بينها هذا الإطناب الذى يجرى مجرى المثل ﴿ وَإِنَّ

الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم : ٢٨] تعليقاً على قوله تعالى ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ [النجم : ٢٨] وكالطباق الجميل فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ [النجم : ٣٠] وقدم الضالين ، لأنهم أكثر من المهتدين والطباق الجميل الآخر : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١] ، وما أجمل الإطناب ـ وأحلى مناسبته فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ [النجم : ٣٢] ، ثم جاء الإطناب فى قوله : ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم : ٣٢] على من تزكى نفسك ؟ أتزكيها عند من أنشأك من الأرض وراقبك وأنت جنين فى بطن أمك ؟ وقد أتبع هذا التعليق بذكر الوليد بن المغيرة الذى تولى عن الإسلام بعد أن أعجبه : ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَى ﴾ [النجم : ٣٣ ـ ٣٤] لقد أسلم الوليد ، لكن أحد المجرمين من الكفار رده عن الإسلام ، وذلك بأن قال له : إن تعطنى كذا وكذا من الإبل أدخل النار مكانك ، فرجع عن الإسلام ، وأعطى الكافر الذى رده بعض ما وعده ، لكنه أكدى فى الباقى ـ أى لم يتمم العطاء ـ من أجمل ما قرأنا من المقابلات الحلوة والطباق البليغ ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى * وأنه هو أمات وأحيا * وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [النجم : ٤٣ ـ ٤٥] إلى أن قال : ﴿ وأنه هو أغنى وأقنى﴾ [النجم : ٤٨] ومعنى أقنى : أفقر .

ومن أجمل الإيجاز قوله تعالى وهو يتحدث عن قرى قوم لوط : ﴿ فغشاها ماغشى ﴾ [النجم : ٥٤] فأوجز عذاب قوم لوط فى قوله : ﴿ ماغشى ﴾ هذا إلى جانب عدد من الاستفهامات البليغة ذات الوقع

الرائع ﴿أفتمارونه على ما يرى﴾ [النجم : ١٢] ؟! يعنى : أتجادلونه على شىء رآه بعينه، وكقوله : ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ [النجم : ١٩] ؟! وقوله : ﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾ وقوله : ﴿ أم للإنسان ماتمنى ﴾ [النجم : ٢٤] وقوله : ﴿ أفرأيت الذى تولى ﴾ وقوله: ﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ .

﴿ أم لم ينبأ بما فى صحف موسى * وابراهيم الذى وفى ﴾ [٣٦ - ٣٧]وقوله ﴿ فبأى الآء ربك تتمارى ﴾ [النجم : ٥٥] وقوله ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون ولاتبكون ﴾ [النجم : ٥٩ - ٦٠] وهو استفهام رائع يفيد الإنكار والتوبيخ والتعجب معاً، فسبحان من هذا كلامه المعجز وبيانه البليغ .

تهديد للمشركين وتهويل لعذابهم

سورة القمر من السور المكية التى نزلت والنبى ﷺ فى غمار الإيذاء تسلية لرسول ﷺ عن آلامه ، ومن ثم كثرت فيها أساليب التهديد وتهويل العذاب للمشركين ، وتنوعت فيها تلك الأساليب بين الخبر والاستفهام والأمر ، فمن أساليب التهديد الخبرية قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر : ١] وقوله تعالى : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ ﴾ [القمر : ٢٦] وقوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر : ٤٥] وقوله جلّ جلاله : ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر : ٤٦]، وقوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ أما التهديد بالاستفهام والتهويل فقد جاء مكرراً فى قوله تعالى: ﴿ فكيف كان عذابى ونذر﴾ [القمر : ١٨ ـ ٢١ ـ ٣٠] . وقد تكررت هذه الآية الكريمة خمس مرات فى السور . وأسلوب التكرار يأتى فى القرآن الكريم لتوكيد المعنى ، وتهويل المواقف ، ويبدو هذا التكرار واضحاً فى سورة القمر ، وسورة الرحمن ، وسورة المرسلات ، والآيات التى تتكرر تكون تعليقاً على كلام مهم يسبقها ، وتكون من الأسلوب الإنشائى كالاستفهام أو التعجب كقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر : ١٨ ـ ٢١ ـ ٣٠] وكقوله ـ جل جلاله ـ : ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[القمر:١٧ـ ٢٢ ـ ٣٢ ـ ٤٠]وقوله فى سورة الرحمن بعد ذكر النعم وآيات القدرة ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وكقوله من أسلوب التهويل فى المرسلات ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وقد جاء فى مناسبة نزولها ، ما روى البخارى وغيره : أن أهل مكة سألوا النبى ﷺ أن يأتيهم بآية تثبت صدقه، وقالوا له : إن كنت صادقاً فاشقق لنا القمر فرقتين : نصف على أبى قبيس ونصف على قعيقعان ، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما قالوا ، فانشق القمر فرقتين ، ورسول الله ﷺ ينادى

المشركين : « يافلان ، يافلان اشهدوا » . ورغم أن المشركين رأوا انشقاق القمر، فقد قالوا : هذا من سحر ابن أبى كبشة لقد سحركم ، فنزلت الآية : ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌ ﴾ [القمر : ٢] والحديث من أخبار آحاد عدول ، لكنه روى فى الصحيح . وقال آخرون من المفسرين : إن القمر لم يشق لكن الآية الكريمة جاءت بالفعل الماضى ؛ لتدل على أن القمر سينشق لامحالة كقوله تعالى فى النحل : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوه ﴾ وأمر الله هو الساعة ، وهى لما تأت ، لكن لتأكيد حضورها استعمل الفعل الماضى ، وقالوا : لو انشق القمر لرآه الناس فى كل مكان ، وهم يمارون فى الحديث الصحيح ؛ لأنه خبر آحاد.

والحق : أن القول هو ما ورد فى البخارى من أن القمر قد انشق فرقتين فعلاً، وذلك لأن معجزات الأنبياء تأتى بأمر الله حين يبلغ التحدى ذروته ، وقد تحدى المشركون رسول الله ﷺ فدعا ربه ولجأ إليه ، فكانت المعجزة ، والله ـ جل جلاله ـ قادرٌ أن يجعل أبصار المشركين المكابرين ترى القمر وهو ينشق، وليس من الضرورى أن يراه غيرهم فى سائر أنحاء العالم ؛ لأن العبرة أن يستجيب لنبيه فى شدته .

وقد ذكر ربنا ـ جل جلاله ـ لنبيه ﷺ أخبار خمس من الأمم عاندوا رسلهم، فهلكوا بمصارع مخلتفة ، فمنهم من أغرقه الله كقوم نوح ، ومنهم من أهلكوا بريح صرصر عاتية ، كقوم عاد ، ومنهم من أخذته الصيحة كثمود قوم صالح ، ومنهم من أهلك بحاصب صحبه خسف كقوم لوط ، ومنهم من عوقب عدة عقوبات انتهت بالغرق كقوم فرعون ، ومن بين هؤلاء الأقوام أمم من العرب البائدة وهم : عاد وثمود وثالثة هى بنو إسرائيل ، وإذن فلينتظر كفار قريش قارعة تصيبهم بما صنعوا أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتى وعد الله إما بإهلاكهم فى الدنيا أو بعقابهم فى الآخرة .

والملاحظ في سورة القمر أنها كررت آية جليلة أربع مرات ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ والآية جملة خبر للمدح، وجملة استفهام للتخصيص والحثّ . وفى تفسيرها تتكشف كل يوم براهين جديدة : آخرها ما نراه من مئات المطابع المتخصصة فى طباعة القرآن الكريم حتى إنك لاتجد كتاباً سماوياً تتداوله الأيدى كالقرآن الكريم ؛ إنك تستطيع أن تقتنى ببضعة دراهم نسخة شديدة الوضوح جميلة الطباعة من القرآن الكريم لأن الله ـ جل جلاله ـ وعد بحفظه ويسره وسهله ليذكر الناس ربهم . لقد كان رجال الكنيسة يمنعون العامة أن يتداولوا الكتاب المقدس ليظل قصراً على الإكليروس الذين هم رجال الدين ، أما الإسلام فقد اعتبر كل المسلمين رجال دين ، ومن ثمّ فالقرآن الكريم فى يد كل مؤمن بالله ، وبوعد الله وإذنه وأمره سيظل القرآن ميسراً سهلاً قريب المأخذ فى الأذهان لتتذكر به الإنسانية ربها ، ولتهتدى بهذا القرآن سبل المحبة والسعادة والسلام .

وقد اختتمت فواصل سورة القمر بحرف الراء ، وهو من الحروف الحلوة الإيقاع مهما تكرر ، حتى لقد تكرر فى آية واحدة من سطر واحد سبع مرات . وهي قوله تعالى في سورة الجن : ﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٠] ومما يجمل الأسلوب فى هذه السورة العذبة المخيفة ذلك الإيجاز الرائع الذى عرض عليك أخبار خمس أمم كفرت فهلكت ، والحق : أن القدرة المعجزة فى التصرف البلاغى بين الإطناب والإيجاز هى من أبرز ما يروعك فى أسلوب القرآن الكريم ، فقد وردت قصة نوح فى سورة هود فى قرابة أربعين سطراً . ثم جاءت في سورة القمر في خمسة أسطر مع أن الثانية وافية محققة للغرض والعبرة ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ

أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ * وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر : ٩ - ١٦] وعلى الرغم من أنه أسلوب إيجاز ، فإن فى الآية الأولى إطناباً ، إذ كرر كلمة كذبوا لطول الفصل حتى لايختل أى دقيق من روائع الأسلوب .

والحق : أن هذه الآيات الموجزة هي من روائع الأسلوب القرآنى ، لقد لخص الإيذاء بقوله : ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ وفى كلمة ازدجر إيجاز قصر ؛ لأن الزجر يتضمن كل أنواع المقاومة إلى القتل . وانظر إلى أسلوب الإيجاز الرائع وهو يلخص دعوة نوح على قومه فى ثلاث كلمات ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ وفيها حلية لفظية من الطباق الجميل بين كلمتى ﴿مَغْلُوبٌ﴾ وانتصر .

ومن روائع التصوير قوله تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ وهو من أعظم ما يصور به المطر ، وتمت صورة الطوفان بقوله تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ التقى ماء السماء وماء الأرض على طريقة مقدرة أحكم تقدير ، ولاغرو فكل شيء عند ربنا بمقدار ، وفى السورة نفسها : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] ، ثم جاءت فى هذه الآيات الموجزة هذه الكناية الرائعة ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ وهى كناية عن السفينة والدسر جمع دسار وهو رباط قوى يسد مسد المسمار . وانظر إلى الصورة الحلوة ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ ومعناها : تجرى بعنايتنا ورعايتنا جزاء لمن كذبه من الكفار عليه الصلاة والسلام . إن تكرار القصة فى سور القرآن هو أيضاً من تيسير القرآن ؛ لأن من المسلمين من تسعفه قدراته الثقافية ووقته فيقرأ مفصل الأنباء فى السور الطويلة ، ومنهم من يفوته المفصل لضيق ثقافته فيعاد عليه فى السور القصيرة موجز الأنباء . هذا وما أجمل تلك الخاتمة الرائعة للسورة : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ

مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٤٥ ـ ٥٥] لقد اتقوا ربهم حق تقواه ، فبشرهم بأعظم لون من نعيم الجنة ألا وهو التمتع بنزل وضيافة من الغفور الرحيم ، روى أن المتقين يعرض عليهم نعيم الجنة فيقولون : بل نريد مقعد الصدق ، نريد أن نرى وجه المليك المقتدر .

هذا ولم أستوف إلا قطرة من بحر السورة ؛ لأنى لو وقفت عند كل لفظة من سورة القمر ، لوجدت فيها إعجازاً بليغاً وبلاغة معجزة . اللهم اجعل خلقنا القرآن ، وأحينا وأمتنا على الإيمان ، واكتب لنا ولإخواننا السعادة وحسن الختام.

سورة الرحمن دعوة
لتدبر آيات الله ودلائل قدرته

هذه سورة الرحمن ؛ مدنية فى المصاحف المطبوعة ، مكية فى قول كثير من الصحابة ، ومهما يكن من شىء ، فهى ذات أسلوب من السحر الحلال سمعه الجن فى وادى نخلة ، فهداهم بنوره إلى الإيمان ، وروى أن رسول الله ﷺ قرأ الرحمن على أحد سادة تميم وحلمائهم وحكمائهم وهو قيس بن عاصم المنقرى فقال : أعدها ، فأعادها ، ثم استعادها الثالثة ، فأعادها عليه ﷺ فما وسعه إلا أن أسلم وهو يقول : والله ما يقوله بشر ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . وفى الحديث المروى عن على - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « لكل شىء عروس ، وعروس القرآن سورة الرحمن » . والحق : أن سورة الرحمن ذات بركة مجربة وأن الحرص على قراءتها مما يزيد إيمان العبد ويكون سبباً فى تفريج كربه بإذن الله . وقد بدأ الله سورة الرحمن فباركها باسم عظيم من أسمائه الحسنى وختمها بذكر اسم آخر من أجل أسمائه الحسنى : ﴿تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام﴾ [الرحمن : ٨٧] وقد ذكر فيها هذا الاسم العظيم الذى حث النبى ﷺ على تكراره وتذكاره - وهو ذو الجلال والإكرام - فورد فى قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ - ٢٧] إلى جانب وروده فى ختام السورة الكريمة .

وسورة الرحمن فى مجموعها نداءٌ للإنس والجن أن يتدبروا آلاء الله وآيات قدرته فيؤمنوا بها ولايقابلوها بالعناد والتكذيب ، وهى من أولها إلى آخرها عرض لآيات القدرة القادرة ، ومظاهر النعم باطنة وظاهرة يتبعه سؤال بليغ بعد

كل آية من آيات قدرته أو فضل من عظائم نعمته ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان**﴾ وهذا من الاستفهام البلاغى المؤثر الذى تستجيب له القلوب المستنيرة ، فترى نفسها شعورياً وهى تجيب : لانكذب بأى من آلاء ربنا . لقد روى الترمذى من حديث جابر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا بعد ختامها فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « لقد قرأتها على الجن ليلة ، فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله تعالى ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ قالوا : « لا بشىء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد » . والتكرار فى أكثر كلام البشر مملول ، لكنه فى القرآن يحلو به اللفظ والمعنى كلما تردد . لقد كررت فى سورة الرحمن الآية الكريمة ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إحدى وثلاثين مرة .

وإنى مسجل هنا إن شاء الله بعض اللطائف التى اشتملت عليها سورة الرحمن :

أولاً : بدأت السورة باسم الله العظيم ألا وهو الرحمن ؛ لأنها تعدّد نعمه الغامرة فى البر والبحر والجو ، وكيف أن هذه النعم تقابل من كفار الإنس والجن بالكفران والجحود والشرك . إن السورة الكريمة كلها عرض لنعم العفو الغفور الحليم الرَّحْمَنِ الذى يعطى النعم فيجزلها ويرحم أهل المعاصى فيغفرها . لاشك أنها أعظم رحمة من المقتدر الحليم ، والقهار الرحيم أن يتقرب ويتحبب إلى عبيده الضعفاء بالنعم ، وفى مقابل هذه يتمقتون إليه بالمعاصى والكفر .

ثانياً : أوّل نعمة ذكرها هى نعمة القرآن الذى أنزله على رسوله وعلمه الناس، والنعمة الثانية أنه خصّ الإنسان بنعمة لم يؤتها غيره ألا وهى الفصاحة ، وتذوق البلاغة ، وروعة التعبير الكلامى ، وبهذه النعمة يفهم القرآن

ويتذوقه ويتأثر بما فيه من إعجاز ، فيؤمن بكتاب الله ، وما نزل فيه من الحق والحكمة ، ومن النعم التى عدها فى المقطع الأول أنه بعد أن خلق الإنسان وعلمه القرآن والبيان، سخر له الشمس والقمر يسيران بتقدير حسابى دقيق . إنهما يجريان بحساب ويعلمان الحساب ، ثم ذكر من النعم الحياة النباتية وهى حياة تعلم الإنسان الإيمان ؛ لأن كل نجم من النبات (والنجم : هو كل نبات ساقه طرية كالزروع والأزهار والخضر والبقول) كل هذه مع الشجر الضخم تنطق بكل لسان أن الذى أحيا بها الأرض بعد موتها قادر أن يحيى الموتى وهذا هو سجودها ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ .

ثالثاً : فى قوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن : ٥ ـ ٦] تورية حلوة عذبة فى كلمة والنجم ؛ لأن لها معنى: هو النجوم التى فى السماء، وهذا المعنى تغريك به كلمتا الشمس والقمر ، لكن المعنى المقصود بالنجم هو النبت الطرى الساق .

رابعاً : لشدة اهتمام الإسلام بالعدالة جعلها ربنا النافذة التى تطل منها رحمة الله فى السماء على أهل الأرض ، وكأن العدالة حين ترفع من الأرض ترفع معها رحمة من فى السماء ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٧] والميزان : هو العدالة التى فرض الله على أهل الأرض أن يلتزموها وألا يتعدوها ويطغوا فيها وأن يقيموها كما يقيمون الصلاة .

خامساً : لقد ذكر الله الحياة النباتية مرتين : مرة كنعمة تعلم الإيمان ، ومرة كنعمة لغذاء الإنسان : ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ [الرحمن : ١٠ ـ ١٢] وقد ذكر الفاكهة ثم الرطب والحبوب؛ لأنهما غذاءان ثم الأزاهير التى

هى متعة النظر والقلب .

سادساً : بعد هذه النعم السبع العظيمة سأل الله الجن والإنس : بأى نعم الله تكذبان ؟ وهو استفهام بلاغى فيه إنكار وتوبيخ للثقلين ، فهو ينكر عليهما ويوبخهما على أن يقابلوا نعم الله بالتكذيب بدلاً من أن يقابلوها بالإيمان والشكر.

سابعاً : قد يتساءل متسائل : إذا كان الله ـ جل جلاله ـ جعل موضوع السورة تعداد نعم الله وإنكار كفرانها فما النعمة فى قوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن : ١٧] وفى قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٦ ـ ٢٧] وفى قوله تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ [الرحمن : ٣١]؟ وفى قوله تعالى : ﴿ لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن : ٣٣] وفى قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمن: ٣٥] إلى قوله تعالى : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن : ٤٣ ـ ٤٤] ؟ وقد أجاب أشياخنا بأن كل هذه الأشياء آيات وحدانية فهى إذاً دروس فى الإيمان ، والإيمان من أجل النعم ، ثم إن قوله تعالى : ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ معناه : أن الله هو مربى هذا العالم بجميع ما فيه ، ومن ثم فتربيته هذه شاملة كل خلقه ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ معناها : أن الموت هو مصير ينتظر كل من على الأرض من الملوك الكبراء إلى العبيد الضعفاء ، وهذا منتهى العدالة والمساواة ، ثم إن الموت نقلة إلى حياة أخرى ، ويكون وراءه بعث ينال فيه الصالحون أكرم الجزاء، كما ينال فيه الظالمون المجرمون أشد العقاب ، وفى هذا رحمة من

الله بعباده تأخذ بحجزة الظالم لتردعه وتأخذ بيد المحسن ليستزيد من العدل والإحسان ، وإعطاء ذى القربى ، ويبتعد عن الفحشاء والمنكر والبغى ، ثم إن عدم قدرة الإنس والجن على النفاذ من أقطار السموات والأرض هى أيضا نعمة ؛ لأن الله ـ جل جلاله ـ خلقه من الأرض ليعمر الأرض ويوحد الله بما فى الأرض والسماء من دلائل التوحيد ، وهو إذا رقى فى السماء فإنه سيجد فى طريقه الموت المحقق من أشوظة النار والنحاس وهو الدخان ، وسيجد فى طريقه جمرة فى السماء من اللهب تحول السماء إلى كتلة حمراء كالصبغ الأحمر القانى وكلمة ﴿وردة﴾ معناها : حمراء .

ثامناً : بعد أن ذكر الله ـ جل جلاله ـ نعمه فى الدنيا ذكر ما يخبئه من نعم لأهل الجنة فى الآخرة ، ولكى يقرب الأمر إلى الأذهان وازن بين الجنتين أو الحديقتين اللتين يملكهما فى الجنة كل من خاف مقام ربه، أى وقوفه بين يدى ربه للحساب وهم المقربون وبين اللتين يعطاهما أصحاب اليمين من أهل الخطايا المغفورة ، فالأوليان ذواتا أفنان والأخريان مدهامتان ، أى لكثرة شجرهما تبدوان بلون الظل ، والأوليان فيهما عينان تجريان ، أما الأخريان فعيناهما نضاختان ، أى تفوران فى مكانهما ، والأوليان فيهما من كل فاكهة زوجان ، والأخريان فيهما فاكهة ونخل ورمان ، وأهل الأوليين متكئون على فرش بطائنها من استبرق ، أي حرير صاف وهذه هى البطائن فما بالك بالوجوه ، أما أهل الأخريين فمتكئون على رفرف أى مساند خضر وعبقريات جيدة والعبقرية : السجادة وهكذا.

وبعد ، فسورة الرحمن عروس القرآن لرونق أسلوبها ؛ ولأنها من أعظم حجج الله على الكافرين ، وبما وضحته من نعم الرحمن على الإنس والجان ، وما أشارت إليه مثبتة كنود الإنسان والجان .

الناس فى الآخرة أنواع ثلاثة

إنى محدّثكم عن سورة الواقعة وهى سورة أدركنا أشياخنا ـ رحمهم الله ـ وهى يقرؤونها كل ليلة ؛ لأن الله ـ جلّ جلاله ـ يستجيب بها الدعاء ، ويقضى بها الحوائج ، ويكشف بها الكربات ، فقد جاء فى الخبر : أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ دخل على عبد الله بن مسعود يعوده ، فدار بينهما حديث قال فى نهايته عثمان ـ رضى الله عنه ـ : سنجرى رزقك إن شاء الله على بناتك من بعدك . وكأنه أراد أن يطمئن ابن مسعود حتى لايخشى أن تصيب البنيات من بعده فاقة ، فقال ابن مسعود ـ رضى الله عنه : أتخشى على بناتى الفاقة ؟ إنى أمرتهن أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة ؛ لم تصبه فاقة أبداً » .

ومن الطرائف التى شهدتها حول سورة الواقعة : أنَّ قوماً من بلدنا كانت لهم دار ضيافة يجلسون فيها من المغرب إلى ما بعد العشاء ، فيصلون العشاءين جماعة ، ويسمرون قليلاً ، وكانوا يقرؤون بعد صلاة المغرب سورة الواقعة فى كل ليلة ، وفى ضحى أحد الأيام انهار بناء المضافة ، وخوت فجأة على عروشها، فطفق القوم يتساءلون : ماذا لوكنا فيها وسقطت ليلاً ؟ إذاً لهلكنا جميعاً فأقبل عليهم أحد شيوخهم وهو يحمد الله ثم قال : لقد نجوتم من هذه الواقعة ببركة سورة الواقعة ، وكانت حكمة .

والحق : أن سورة الواقعة ـ وهى كغيرها ـ من السور التى نزلت فى عام الحزن تحمل فى طياتها تسلية لرسول الله ﷺ لكن أسلوب العزاء فى الواقعة

مختلف عنه فى السورة التى نزلت قبلها وهى (طه) وتلك التى نزلت بعدها وهى الشعراء . التسلية فى سورة الواقعة تذكر لرسول الله ﷺ قصة الحساب يوم تقع الواقعة يقيناً بحيث لاتستطيع نفس أن تكذب وقوعها ويكون شأنها أن ترفع أقواماً وتخفض آخرين على حسب أعمالهم ، وكيف أن وقوعها مروّع تُرجُّ فيه الأرض رجاً ؛ أى يتزلزل تكوينها وتتحول الجبال إلى هباء منتثر فى الجو بعد أن يبسها ربك بساً ؛ أى يفتتها ذرات ، هنالك ينقسم الناس إلى ثلاثة أقسام.

وقد ذكر الله ـ جل جلاله ـ الأقسام الثلاثة مجملة وهم : أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال ، والسابقون بالخيرات ، ثم فصّل أحوالهم ، كما ختم السورة بخلاصة موجزة ضافية لهؤلاء الفئات الثلاث وما ينتظرهم من جزاء يتناسب وأعمالهم ، وكان مسك ختام السورة آية كريمة نستجيب لها فى كل ركوع نركعه ألا وهى قوله تعالى : ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ .

والحق أن كل ما ذكر القرآن من فواكه وثمار وخمر وحور فى الجنة ماهو إلا لتقريب الكلام إلى العقول لكن نعيم الجنة فوق كل تصور ، فهو ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر .

وإنى مورد هنا بعض اللطائف من سورة الواقعة ، سائلاً الله السميع القريب المجيب أن يملأ قلوبنا بأنوار القرآن :

أولاً : إذا حشر الناس إلى ربهم يوم القيامة ، رأيت الناس ثلاثة أصناف : أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، والسابقون .

أما أصحاب اليمين ، فهم الذين يموتون على التوحيد وقد خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فأولئك عسى الله أن يتوب عليهم .

وأصحاب الشمال : أو المشأمة ، هم الذين ماتوا على الكفر والعياذ بالله أو الذين اقترفوا الكبائر ولم يرزقوا التوبة .

وأما السابقون : فهم الذين آمنوا بالله ورسوله وسابقوا فى ميدان الخيرات والإحسان فسبقوا . هؤلاء هم صفوة خلق الله ؛ ولهذا كرر الله ـ جل جلاله ـ ذكرهم تكريماً لشأنهم ، ووصفهم بأنهم المقربون إلى ربهم فى مقعد الصدق . ويلاحظ أن ترتيب التقسيم ذكر أولاً الكتلتين الكبيرتين: أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ثم ذكر السابقين ؛ لأنهم قلة بالنسبة للصنفين الأولين .

ثانياً : فى تعداد النعم التى تنتظر المؤمنين ، يظهر لأول نظرة أن فى الجنة درجات أكبر وأجل من درجات الدنيا ؛ لأن لكل من فى الجنة درجة من عمله الذى قدمه فى دنياه . وانظر إلى النظم القرآنى الباهر وهو يذكر منازل السابقين ثم درجات أصحاب اليمين . قال جل جلاله فى الدرجات العلا التى يتبوؤها السابقون ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة : ١٠] يكرر اسمهم تعظيماً لشأنهم ﴿أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة : ١١] يعنى هم قريبون من رضوان ربهم ورحمته وتجلياته القدسية ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة : ١٢] إنها جنات يتجلى فيها النعيم الذى حدود له ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ [الواقعة : ١٣ ـ ١٤] إنهم مجموعة كبيرة من السلف وقليل من الخلف لأن الدنيا تسير نحو الفساد حتى إن الساعة لا تقوم على موحد صادق التوحيد ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ [الواقعة : ١٥] أى منسوجة بالذهب والدرر واليواقيت ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا

مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الواقعة : ١٦] . ينظر بعضهم فى وجوه بعض لشدة ما ينظمهم من محبة وإخاء ووفاء ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ [الواقعة : ١٧ ـ ١٨] يتردد عليهم خدمه لهم لعلهم أولادهم الصغار أو هم من خدم الجنة فيقدمون لهم أكوابا وهى أقداح ليس لها عرى يصيبون فيها خمر الجنة من أباريق باهرة لكنها خمر على عظمة لذتها وإمتاعها لا تصدع أو تحدث آلاما كخمر الدنيا ولا تذهب بالعقل . ثم إن لهم فى الجنة كل أنواع الفاكهة والطعام ، يتنقون منها ما يحلو لهم ويناسب أذواقهم ويتوج هذا النعيم أزواج مطهرة ﴿ وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة : ٢٢ ـ ٢٣] فى روعة نقائها كأنها الياقوت والمرجان واللؤلؤ المصون ، ثم إن كل الكلام فى الجنة طيب لذيذ تسوده لهجة السلام المؤنسة ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة: ١٩ ـ ٢٣] .

ورفعا لمعنويات المؤمنون يقول لهم ربهم إن هذا هو جزاء أعمالكم الصالحة وعلى الجملة فإن كل الكلام الذى يسمعه أهل الجنة حلو ممتع نابع من اسم الله الكريم السلام ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا * إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة : ٢٥ ـ ٢٦] ثم لما تحدث ربنا عن أصحاب اليمين قال إنهم ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ [الواقعة : ٢٨]لا شوك فيه ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ [الواقعة : ٢٩] أى موز رائع الترتيب وظل ممدود ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : ٣١ ـ ٣٣] يتوج كل ذلك الأزواج المطهرة اللاتى أنشأهن الله إنشاء وجعلهن

﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب وهى المخلصة لزوجها وكلهن فى سن واحدة أتراب فى ميعة الشباب . وواضح فى النظم القرآنى أن النعيم يتفاضل على حسب المنازل والدرجات .

ثالثاً : ثم ذكر أصحاب الشمال وهم أهل النار والعياذ بالله وما هم فيه من سموم وحر لافح وظل من الدخان الخانق الذى لا برد فيه ولا لذة ، ومر على ذكرهم مرا سريعا ثم انتقل إلى توحيد ربوبيته وكيف أنه أبدع خلق الإنسان من نطفة منى ثم كتب الموت بأجل مسمى وأن إحياء الموتى وإنشاءهم نشأة أخرى أهون من النشأة الأولى ثم ذكر نعم الحرث والماء الذى خلق الله منه الأحياء والنار التى بها يطيب الطعام ويكون دفء المقوين الذين يعانون البرد ويختم كل ذلك بهذه العبارة التى تخلص الحمد لله الواحد العظيم ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ [الواقعة : ٩٦].

رابعاً : فى السورة إشارة لطيفة تبين عظمة منزلة القرآن عند الله ، فقد أقسم بعظمة الكون والسماء على عظمة القرآن مما يدل على أن القرآن يرجح بالكون، ولاغرو فالكون خلق ليوصل الخلق إلى الوحدانية والقرآن وحده علم التوحيد : ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ** ـ وهو اللوح المحفوظ ـ * **لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الواقعة : ٧٥ ـ ٨٠]وفى ختام السورة يتحدى القرآن كل قدرات البشر أن يرجعوا الروح بعد أن تخرج من المحتضر وهم ينظرون إليه ، معلناً أن الموت يقهر قهر عظيم ، يدل على أن الناس مدينون ، أى خاضعون لله ، وأخيراً جاء مسك ختام السورة تلخيصاً لآياتها العظيمة : ﴿ **فأما إن كان من**

المقربين* فروح وريحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين* وأما إن كان المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم ﴾ [الواقعة : ٨٨ ـ ٩٤] (أى ضيافة أعددناها له فى جهنم يكون دفئه فيها الجحيم وشرابه فيها الحميم (الماء الذى يغلى) **﴿ إن هذا لهو حق اليقين ﴾** [الواقعة : ٩٥] يعنى أعلى درجات الصدق والواقع ، وإذن فاصبر يامحمد لافتراءاتهم على الله ، ونزه الله العظيم عما يصفون

الحديد نعمة عظيمة من الله
متعددة المنافع

فى القرآن الكريم خمس سور تسمى بالمسبحات تبدأ بقول الله تعالى : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الحشر ، الصف ـ ١] أو ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد : ١] أو ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [الجمعة ، التغابن : ١] وهى الحديد ، والحشر والصف ، والجمعة، والتغابن ، وقد جاء فى الحديث الشريف أن النبى ﷺ كان يقرأ بالمسبحات قبل أن يرقد ، ويقول : « إن فيهن آية أفضل من ألف آية » .

وسورة الحديد من السور المدنية كسائر أخواتها المسبحات ، ولكنها أطول المسبحات ، ومن ثمّ فقد اشتملت على عدد كبير من الإشارات البلاغية ، ألفت الأنظار إلى بعضها وبالله التوفيق والفتوح والسداد .

أولاً : بدأت السورة بالثناء على الله الذى يدبر أهل السماء والأرض بعزته القاهرة، وحكمته الباهرة ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد : ١] واختتمت السورة بالثناء على الله أيضاً ، الذى بيده الفضل يؤتيه من يشاء بحكمته وتدبيره ، والله ذو الفضل العظيم ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحيد : ٢٩] وبين تلك البداية المؤثرة وتلك الخاتمة المعبرة ، وردت ألوان مطربة معجبة من المعانى .

ثانياً : من أعظم ما شدّنى إلى سورة الحديد : ذلك الأسلوب العظيم الذى تحدث به ربنا عن الحديد ورسالة الحديد ، وما ينطوى عليه من بأس

شديد ، ومنافع للناس فى الصناعات ، وأن الحديد مادة فعالة فى نصرة الدين ، ومظهر من مظاهر قوة الله وعزته .

إن الآية الكريمة التى يذكر ربنا فيها الحديد هى آية عجيبة حقاً : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحديد : ٢٥] الله أكبر ، ما أسمى هذه المعانى، وما أعظمها لو أدركنا مراميها سلاح الرسل ثلاثة : الكتاب ، والميزان ، والحديد .

الكتاب هو الشريعة الغراء ووسيلة إبلاغها ميزان وحديد . إن الشريعة تنفذ بالعدالة المقتبسة من الكتاب ، كما تنفذ بالحديد . الحديد فى الآية اختبار للمؤمنين يتبين به من ينصر الله ورسله ويستعمل الحديد فى ميادين التضحيات.

إن الحديد فى هذه الأيام وفى مفهوم أكثر العرب والمسلمين ، مادة تستعمل لإقامة العمائر بالأسمنت المسلح . ثم هو المادة التى تتكون منها السيارات الفاخرة ، وآلات الترف والموسيقى ولعب الأطفال وهو أيضاً يستعمل فى خناجر تلبس للزينة ، ولو أنك مررت على الأماكن التى ترمى فيها السيارات التالفة لوجدت آلاف الأطنان من الحديد ملقاة تحت الشمس والمطر ، ومنها سيارات اشتريت بعشرات الآلاف فابتليت بسواق حطم بطر النعمة ففقد حياته وسيارته ، وكان كالمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

ما أجمل أن يتدبر المسلمون قرآنهم فيستعملوا الحديد فى نصر الله وإعلاء كلمته . وإنه لمن المؤسف ـ والله ـ أن يصنع الكافر من الحديد مقابض

من ذهب ويزخرفها ببعض الأثاث الناعم الفاخر يحشو به السيارة المترفة ، ويصنع إلى جانبه ذلك دبابات ومدافع وصواريخ ، ثم إذا هو يصدر إلى أمة محمد وسيلة الترف ويحتفظ لبلاده بوسيلة القتال ، ثم ترى بعض الشباب الغافل من أمة محمد غارقاً فى فرش السيارة الناعمة ، فى حين ترى الشباب الكافر على مقعد الحديد مدافعاً عن الباطل فى بأس شديد .

ثالثاً : افتحت سورة الحديد المسبحة بالثناء على الله من كل خلقه ، ثم جاء فى معرض الثناء ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم ﴾ [الحديد : ٣] وقد فسر النبى ﷺ هذا الآية الكريمة ، فجاء تفسيره نفحة وحى حقاً . قال عليه الصلاة والسلام : « هو الأول فليس قبله شيء ، والآخر فليس بعده شيء ، والظاهر فليس فوقه شيء ، والباطن فليس دونه شيء » .

رابعاً : إذا كان يوم القيامة زوّد الله ـ جلّ جلاله ـ كل إنسان بفانوس يكون نوره على قدر عمل الإنسان ، فيسير العباد حتى إذا كانوا فى وسط العناء والعقبات أضاءت بعض المصابيح ، وإذا نور تام وضيء يكشف كل العقبات فيسير السعداء أهل النور على هدى وصراط بيّن مستقيم يهديهم الله بنور أعمالهم وإيمانهم ، وترى نورهم يسعى بين أيديهم وبخاصة من جهة اليمين حيث كتاب أعمالهم في عليين . ويرون الملائكة فى النور يقولون لهم : ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم﴾ [الحديد : ١٢]. أما المنافقون والكفار فيسيرون متخبطين مكبين على وجوههم فى ظلام أعمالهم الدامس . فى ذلك الموقف الرهيب يظن المنافقون أن قرابتهم للمؤمنين وجيرتهم لهم ، ومخالطتهم لمجتمعهم ستنفعهم ، فإذا مرت عليهم مواكب الأنوار صاحوا: ياأيها المؤمنون انتظرونا كى نقتبس من نوركم ما نسير على

هداه، فتقول لهم الملائكة : لقد خلفتم النور وراءكم حيث يوزعه رب العزة فارجعوا والتمسوا النور من هناك ، وهنا يرون سوراً ارتفع بينهم وبين المؤمنين باطنه مما يلى المؤمنين روضة من رياض الجنة ، وظاهره مما يلى الكفار قطعة من عذاب جهنم . وهنا يصرخ المنافقون بأقاربهم ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ [الحديد : ١٤] نعيش ونأكل ونشرب معاً . فيجيبهم أقاربهم : بلى لقد كنتم معنا ولكنكم كنتم فى شك من نصر الله ، وكانت قلوبكم مع الكافرين من اليهود والمشركين من قريش . كنتم تتربصون بالمؤمنين الهزيمة وتعيشون على تلك الأمانى الخبيثة ركضاً وراء الشيطان الغرور ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٢ ـ ١٤] .

خامساً : بعد هذه الآيات الكريمات آية ذات بركة مجربة كثيراً ما هدى الله بها عصاة غافلين فصاروا من كبار الصالحين ، من هؤلاء العالم الزاهد المجاهد عبد الله بن المبارك ، فقد كان فى صغره غوياً يعزف على العود ، ويتردد على مجالس اللهو والغناء . فسمع فى بعض تلك المجالس قارئاً يقرأ من مسجد مجاور: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : ١٦] فترك مجلس اللهو وتحول إلى طلب العلم والجهاد . ومنهم صاحب القصة المعروفة :

الفضيل بن عياض ، وكان قاطع طريق وله مغامرات وبينما هو ذات يوم يتسلق جدار امرأة واعدها إذ سمع قارئا يقرأ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ فنزل عن الجدار وهو يقول: بلى والله لقد آن .

سادساً : ومن أروع الأمثال اللطيفة ذلك التشبيه الذى وازن فيه ربنا بين الحياة الدنيا ونعيمها الزائل وبين الآخرة وما فيها من الخلود إما فى العذاب الشديد أو فى جنة الرضوان ، وما أجمل الترتيب فى المراحل ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ ﴾ [الحديد : ٢٠] أى من الأطفال ﴿ وَلَهْوٌ ﴾ أى فى سن الشباب ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ أى فى سن الكهولة ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ ﴾ [الحديد : ٢٠] أى فى سن الكبر ، وهى بهذا تشبه زرعاً يبلغ أوج خصبه وروعته ثم إذا هو حصيد حطام . وأخيراً : يذكر الله فى أواخر سورة الحديد أن الرهبانية ليست من الإسلام ، وإنما ابتدعها النصارى وما وفوها حقها . ويختم بأن الأحبار والرهبان لا يملكون شيئاً من فضل الله ، وأن الفضل كله من الله يؤتيه من يشاء بحكمة .

حوار يسمعه الله من
علياء سماواته ويبين به حكم الظهار

سورة المجادلة من السور المدنية المباركة تحكى فى مطلعها قصة حوار جرى بين رسول الله ﷺ وامرأه من الأنصار يقال لها : خولة بنت ثعلبة ، وقيل بنت حكيم كانت زوجة : لأوس بن الصامت ، أخى عبادة بن الصامت ـ رضى الله عنهما ـ وكان حواراً مباركاً سمعه الله من علياء سمواته وبين الله ببركته حكما شرعياً هو حكم : الظهار الذى كان أهل الجاهلية يعدونه طلاقاً .

كانت قضية خولة بإيجاز : أن زوجها كانت فيه حدة وحماقة فحصل بينه وبينها خلاف فقال لها : أنت على كظهر أمى . فذهبت إلى رسول الله ﷺ تبكى وتقول : يارسول الله أكل شبابى ونثرت له بطنى حتى إذا كبرت سنى وانقطع ولدى ظاهر منى ، ويبدو أن رسول الله ﷺ لم يكن لديه فى الأمر حكم، وكان المعروف فى الجاهلية أن الظهار طلاق ، وروى أنه قال لها : « لقد حرمت عليه فطفقت ـ رضى الله عنها ـ تجادل رسول الله ﷺ وتقول له : ما ذكر طلاقاً ثم رفعت وجهها إلى السماء وهى تقول : أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى ووحشتى وفراق زوجى وابن عمى ، وعادت تحاول إقناع رسول الله ﷺ أنه ليس طلاقاً فلم تبرح مجلسها حتى نزل من فوق سبع سموات : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُور ﴾ [المجادلة : ١ ـ ٢] إلى قوله تعالى: ﴿وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ [المجادلة : ٤] وبهذه الآية الكريمة وببركة تلك المجادلة المظلومة خفف الله عن

المؤمنين ذلك الإصر ووضع عنهم غلاً كان عليهم قروناً طويلة .

روى البخارى ـ رحمه الله ـ عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ ، وأنا فى ناحية البيت وأسمع ما تقول فأنزل الله عز وجل : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ فتبارك الذى وسع سمعه كل شيء .

ويبدو أن خولة هذه كانت امرأة ذات صلاح وصلة بالله ـ جل جلاله ـ.

فقد روى أن عمر ـ رضى الله عنه ـ مر بها وهو خليفة وهى على حمار وحوله جماعة من الناس فاستوقفته ـ رضى الله عنهما ـ وأخذته بعيداً وقالت له: ياعمر قد كنت تدعى عميراً ثم قيل لك عمر ثم قيل لك أمير المؤمنين ، فاتق الله ياعمر فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت أى ضياع الفرصة ومن أيقن بالحساب خاف العذاب وهو واقف يسمع كلامها فقيل له : يا أمير المؤمنين ، أتقف لهذه العجوز كل هذا الوقوف فقال : والله لو حبستنى من أول النهار إلى آخرة ، لازلت إلا للصلاة المكتوبة أتدرون من هذه العجوز ؟ هى خولة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر ؟ ..

ولقد أكمل الدارقطنى حديث المجادلة فروى أن رسول الله ﷺ قال لزوجها «أعتق رقبة » قال : مالى بذلك يدان قال : « فصم شهرين متتابعين » فقال : إذا لم آكل ثلاث مرات فى اليوم يكلُّ بصرى . قال رسول الله ﷺ : « فأطعم ستين مسكينا » قال : ما أجد إلا أن تعيننى بعون وصلة فأعانه عليه الصلاة والسلام بخمسة عشر صاعاً ، ويبدو أن أوساً كان عنده خمسة عشر أخرى فكملت بذلك كفارة الإطعام .

وهذه القصة من سماحة الإسلام وتيسيره إذ ساير صاحب الذنب حتى

أوصله إلى أيسر السبل وما جعل عليه من حرج ، وهذا هو شأن الإسلام في كل ذنب يظلم فيه الإنسان نفسه ، أما حين تكون الجريمة ظلماً للغير بالكبائر ، فعندئذ يشتد الشرع في حدود الله ، وهذه طائفة من إشارات البلاغة في سورة المجادلة .

أولاً : اشتملت سورة المجادلة على طائفة من الآداب الإسلامية وهي دروس في الذوق الرفيع منها تشبث الحرة بزوجها وفاء لصحبته ومنها اجتهاد المرأة في استنباط الأحكام الشرعية فالمجادلة تقول لرسول الله ﷺ : يارسول الله إنه لم يذكر طلاقاً فكيف يكون طلاقاً ، ثم هي في النهاية تسلم لحكم رسول الله ﷺ وترضى لكنها تبكي وتشتكي إلى الله ، وهذا أيضاً أدب رفيع ومن تلكم الآداب ألا يقول المؤمن إلا بالحق فيبتعد عن الظهار ؛ لأن امرأة الإنسان ليست أمه فالظهار إذن لفظ منكر وزور .

ثانياً : النجوى معناها : أن يخلو اثنان أو أكثر فيقرب كل منهم رأسه من رأس صاحبه ، ويتكلمون في تهامس . وكان المنافقون يكثرون من النجوى ليغيظوا المؤمنين ويحزنوهم وإن من سوء الأدب فعلاً أن يسير ثلاثة فيتفرد اثنان منهم ويتناجيان أي يتساران ، وصاحبهما وحده جاء في الصحيحين. أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس ، إن مناجاة اثنين دون أخيهما الثالث أمر محزن ، فقد يوهمه أنهما يتناجيان بعيب من عيوب أخيهما ، وقد يظن أنهما لا يريانه أهلاً للاشتراك في الحديث ؛ ولهذا نهى النبي ﷺ عن ذلك لما فيه من كسر لشعور أخيهم لقد كان ؛ المنافقون إذا مر عليهم المسلمون ينطح كل منهم أخا ويتناجون فيظن المسلمون بنجواهم شراً ، ويتأذون منها .

ثالثاً : ومن الآداب الجميلة فى هذه السورة : التفسح فى المجالس ليجد كل قادم مجلساً يجلس فيها وأجمل ما يكون التفسح ، إذا كان إكراماً لأهل الصلاح والإيمان ، وتبجيلاً للعلماء وأهل الفضل ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي المجالس فافسحوا يفسح الله لكم﴾ .

رابعاً : ومن الآداب فى سورة المجادلة : ترك الحلف لأنه منقصة وسقوط فى المروءة ، قال الله تعالى فى وصف المنافقين : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [المجادلة : ١٤] وقال تعالى ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ [المجادلة : ١٨].

خامساً : ومن الآداب عند إلقاء التحية أن يلقيها فى وضوح وثقة أما الهذرمة فربما توهم من تلقى عليه السلام أن فى الأمر استهزاء وسوءاً ، وقد كان اليهود يقولون لرسول الله ﷺ : السام عليكم ، والسام الموت فيقول لهم : « وعليكم » فنزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [المجادلة : ٨] أى لو كان محمد نبينا لعذبنا الله بكلامنا عليه واستهزائنا به وإيذائنا له .

سادساً : من أعظم آيات القرآن الكريم الآية التى ختمت بها سورة المجادلة : ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ..... ﴾ [المجادلة : ٢٢] الآية إلى قوله تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] جاء فى تفسيرها وسبب نزولها : أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ قتلوا أقرباءهم فى القتال فمنهم من قتل أباه كأبى عبيدة حين تعرض له أبوه فى بدر ليقتله ، فاضطر ـ رضى الله عنه ـ إلى قتله ، وكعمر الذى قتل خاله العاص بن هشام فى بدر ، وكمصعب بن عمير الذى قتل

أخاه عبيداً فى بدر ، وكعبد الله بن عبد الله بن أبى استأذن الرسول ﷺ فى قتل أبيه : حين قال لأبيه يا أبت اشرب من هذا الإناء ، فإن هذا الماء من سؤر رسول الله ﷺ فقال المنافق لابنه الصالح : هلا أحضرت من بول أمك فهو أطهر منها .
هنالك أشاع المشركون والمنافقون واليهود أن المسلمين يكافئون آباءهم بالقتل فنزلت الآية الكريمة تؤيد عمل المؤمنين ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى يمنحون ودهم لمن عادى الله ورسوله ولو كانوا آباءهم ...

الله يقذف الرعب فى قلوب اليهود وينصر عليهم عباده المؤمنين

سورة الحشر من السور الخمس المسبحات ، وهى سورة جليلة لما اشتملت عليه فى خواتيمها من أسماء الله الحسنى وصفاته العلا . ففى الآية الأولى من السورة الكريمة ذكر الله ـ جل جلاله ـ ثلاثة من أسمائه العظيمة ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر : ١] ، وفى الآية الأخيرة كرر هذه الأسماء الجليلة المباركة **﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾** [الحشر : ٢٤] وزاد عليها الذى لا إله إلا هو ومن أسماء الله الحسنى التى ذكرت فى أواخر سورة الحشر : عالم الغيب والشهادة ، والرحمن ، والرحيم ، والملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر .

وجاء فى الأثر : أن من قرأ سورة الحشر فمات من يومه أو من ليلته مات شهيداً ، وعن أبى هريرة أنه سأل رسول الله ﷺ عن اسم الله الأعظم فقال : «يا أبا هريرة ، عليك بآخر سورة الحشر فأكثر من قراءتها» . ومن حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال : «من قرأ خواتيم سورة الحشر فى ليل أو نهار فقبضه الله إليه فى تلك الليلة أو ذلك اليوم فقد أوجب الله له الجنة» . وروى الترمذى أن النبى ﷺ قال ما معناه : «من قال حين يصبح : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وقرأ ثلاث آيات من سورة الحشر وكل الله به ملائكة يصلون عليه وإن مات فى يومه مات شهيدا» .

وسورة الحشر من أولها إلى آخرها تدور حول قصة اليهود من بنى النضير الذين نقضوا عهد رسول الله ﷺ ، ومردوا فى تحديهم حتى نصر الله ـ جل

جلاله ـ رسوله عليهم فحشرهم وأخرجهم إلى خيبر بعد أن كانوا مغرورين بمناعة حصونهم ، وبمحالفة المنافقين لهم فلم يغن عنهم كل ذلك من الله شيئاً فغلبوا وحشروا وأخرجوا من ديارهم لأول الحشر وسيكون لهم حشر إلى جهنم وبئس المهاد .

وإنى ذاكر هنا قصة إجلاء بنى النضير من حصونهم وبذلك تتضح المعانى والإشارات الواردة فى السورة الكريمة . كان بنو النضير من أقوى قبائل اليهود وكانوا يقيمون فى حصن لهم بمكان يقال له (البويرة) على بعد ميلين من المدينة المنورة ، وكان من زعمائهم حيى بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق وكنانة بن الربيع ، وقد عاهدهم رسول الله ﷺ حين قدم المدينة أن يكونوا لا عليه ولا له ، لكن مشركى قريش راسلوهم أن يقاوموا رسول الله ﷺ وينقضوا عهده ووعدهم المنافقون إذا هم ناصبوا العداء رسول الله ﷺ أن يقاتلوا معهم وإذا أخرجهم المسلمون من ديارهم أن يخرجوا معهم ، فغرر بهم هؤلاء وأولئك ودبروا مؤامرتين لقتل رسول الله ﷺ إحداهما حين جاء يطلب منهم المساعدة فى دفع دية قتيلين من بنى عامر حيث جلس عليه الصلاة والسلام فى ظل جدار حصنهم فهمّ يهودى أن يدهده عليه صخرة من أعلى الحصن ، وفى المرة الثانية أرسلوا إلى النبى ﷺ أن أخرج فى ثلاثين من أصحابك ونأتيك نحن فى ثلاثين من أحبارنا فإذا أقنعتمونا بدينكم آمنا طائعين . وبيتوا إذا حضر وفد المسلمين أن يغتالوا رسول الله ﷺ وفى أثناء ذلك أمعن زعيمهم سلام بن أبى الحقيق فى إيذاء رسول الله ﷺ وكبار الصحابة وعندئذ أجمع النبى الكريم أمره على الفتك بهم فدبر خطة لقتل زعيمهم سلام نفذها صحابى يقال له محمد بن مسلمة وأخ لسلام من الرضاع اسمه أبو نائلة ثم حاصرهم رسول الله ﷺ فشفع لهم منافقو المدينة ولكن النبى ﷺ أصر على إجلائهم عن المدينة المنورة وعاد إلى حصارهم وقطع بعض نخيلهم الرائع ، ونزل القرآن الكريم يعطى

الرسول الحق فى قطع النخيل أو تركه قائما على أصوله .

وقد استسلم اليهود بعد واحد وعشرين يوما من الحصار وسمح لهم رسول الله ﷺ أن يحملوا ما يمكنهم حمله فكانوا يخربون بيوتهم لسحب بعض الأخشاب أو تخريب بعض الزينات وجلوا عن المدينة تشيعهم لعنة الله على كل غادر . وقد جمعت الغنائم التى لم يتعب فيها جيش المسلمين ولم يسافر لها بعيدا فنزل القرآن يعطى رسول الله ﷺ حرية التصرف فيها فقضى النبى ﷺ أن توزع على فقراء المهاجرين لشدة احتياجهم ولم يعط من الأنصار سوى ثلاثة من فقرائهم ورضيت نفوس الأنصار طيبة بذلك ومدحهم القرآن الكريم بقوله : ﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ [الحشر : ٩] وفى الآية التى تليها شرع جل جلاله حب المهاجرين والأنصار والدعاء لهم ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾ [الحشر : ١٠]وفى السورة الكريمة يكشف الله عز وجل جبن اليهود فيعلن أنهم يخافون المؤمنين أكثر مما يخافون الله وأن اجتماع شملهم أمر مصطنع فهم قوم متباغضون وهم لا يجيدون القتال إلا من وراء تحصينات وأسوار عالية كما هو دأبهم فى زماننا هذا ﴿ **لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون * لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾ [الحشر : ١٣ ـ ١٤] ويذكر جل جلاله وعود المنافقين لليهود وكيف جبنوا عن تنفيذها حين ورطوهم فى مستنقع الخيانة والغدر وأسلموهم للهزيمة وخراب البيوت ﴿ **ألم تر**

إلى الذين نافقوا ﴾ [الحشر : ١١] من أمثال عبد الله بن أبي وحزبه **﴿ يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾** [الحشر : ١١] وهم يهود بني النضير **﴿ لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾** [الحشر : ١١] إلى أن يضرب الله هذا المثل للمنافقين واليهود وهو من أروع التشبيهات في القرآن الكريم :

﴿ كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ﴾ [الحشر : ١٥] وهم كفار قريش الذين ذاقوا الويلات في بدر قبل وقت قريب من جلاء بني النضير : **﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾** [الحشر : ١٦ ـ ١٧] . ما أجمل أن يعرف المسلمون حقيقة اليهود كما فصلها ربنا عز وجل في سورة الحشر . إن اليهود ولو سرقوا ذخائر المسلمين وتراثهم وعربدت مسيراتهم الشامتة حول المسجد الأقصى لا يزالون جبناء يخافون المسلمين أكثر مما يخافون الله وهم فئران يلوذون بجحورهم إذ هاجمهم المؤمنون . وأقسم لو شمر المسلمون عن سواعدهم وتركوا معاصيهم ما ثبت اليهود في ديار المسلمين أياما معدودات .

سورة تنظم العلاقات بين المسلمين والكافرين

سورة الممتحنة ـ أو الممتحنة بفتح الحاء وكسرها ـ ، من أهم السور المدنية؛ لأنها تفصِّل لأمة محمد أحكام العلاقات التى يتبادلها المسلمون والكافرون ، وما يحل منها وما لا يجوز وكيف أن الكافر المسالم الذى لا يتآمر على الإسلام والمسلمين وديار المسلمين يمكن أن يحظى بإحسان المسلمين وعدلهم.

ولأهمية هذه الأحكام ، أوردها هنا فى نقاط موجزة وافية إن شاء الله .

أولاً : لا يجوز بأى حال من الأحوال أن يوالى المسلم أىّ يحالف أى كافر من يهودى أو نصرانى أو مشرك ، إذا كان هؤلاء معلنين عداءهم للإسلام والمسلمين متآمرين على ديار الإسلام، هؤلاء لا يجوز أن يعطوا أى موالاة أو مودة مادامو قد جندوا قواهم الشيطانية لمناصرة الكفر على الإسلام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة : ١] أى أنهم بإيذائهم تسببوا فى هجرة المسلمين من ديارهم فى مكة إلى مهاجرهم بالمدينة ، وما كان للمسلمين من ذنب إلا أنهم يؤمنون بالله ورسوله .

وقد نهى القرآن الكريم عن موالاة الكافرين أو محالفتهم ومناصرتهم وغلظ في ذلك فقال في سورة المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ وهذا يعنى أن جميع عملاء الأعداء المنبثين فى صفوف المسلمين كفار مهما انتحلوا من المعاذير .

ثانياً : جاء أن هذه الآية الكريمة نزلت فى صحابى ممن شهدوا بدراً اسمه حاطب بن أبى بلتعة وكان يمانياً يعيش بين قريش حليفا للزبير بن العوام، وقد أسلم وهاجر وشهد بدراً ، ولم يعهد عليه من سوء لكنه حين توجه النبى ﷺ لفتح مكة اقترف ذنباً فظيعاً ، فقد عمد إلى جارية اسمها سارة كانت أمة لبعض بنى هاشم ، وحملها كتاباً لقريش يقول لهم فيه : إن محمداً قد سار إليكم بجيش كأنه السيل فخذوا حذركم .

فأعلم الله رسوله بالكتاب فبعث علياً فى نفر ـ من الصحابة ، وقال لهم : « إذا وصلتم روضة خاخ ـ وهى مكان على بعد عشرين كيلو مترا من المدينة المنورة ـ فستجدون ظعينة معها كتاب فخذوه منها » . انطلقوا ـ رضوان الله عليهم ـ حتى وجدوها فى الروضة فأنكرت الكتاب وحلفت فقال لها علىّ لتخرجن الكتاب أو لننزعن الثياب وهددوها بالقتل ، فأخرجته من داخل عقاصها فقال رسول الله ﷺ : « ياحاطب ما هذا ؟ » فقال : يارسول الله، ما هو كفر ولا ارتداد ، ولكنى كما تعلم كنت ملصقاً فى قريش ولى بمكة أقارب فأردت أن أتخذ بهذا الخطاب يداً عند قريش يحمون بها قرابتى فقال النبى ﷺ : «صدق» فقال عمر : دعنى يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله ﷺ : « إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال لهم : افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ؟! وعفا عنه فسن بذلك حكما من السياسة الشرعية تجيز للحاكم المسلم أن يخفف العقوبة عمن له سابق خدمات للدولة المسلمة إذا اتضح صدقه وتوبته .

ثالثاً : لفت الله ـ جل جلاله ـ أنظار المسلمين فى سيرة إبراهيم عليه السلام ، ومن آمن معه حين هجروا قومهم فى سبيل الله ، وأعلنوا عليهم العداء،

وتبرؤوا منهم ومن كفرهم إلى أن يؤمنوا ، وبرر استغفار إبراهيم لأبيه أنه كان عن موعده وعدها إياه ، وأن هذا موقف لا يؤتسى فيه بإبراهيم عليه السلام ، وخطاب في هذا المجال حاطباً وأمثاله بقوله : ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة : ٣] وما أجمل أن لفت نظر حاطب وأمثاله إلى الموقف الساطع القوى لإبراهيم والمؤمنين ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ إنه قطع علاقات مع الكفار ولو كانوا إخوانا أو آباء أو أقارب .

رابعاً : حين يضحى المؤمن فى سبيل الله عليه أن يوقن أن الله جل جلاله لن يتخلى عنه وأنه سيحميه بأكثر مما تحميه أقاربه ، وهذا ما يعنيه دعاء إبراهيم والمؤمنين بعد إعلانهم براءتهم من قومهم ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

خامساً : فى التعامل مع الكفار علينا أن نميز بين كافر ذمى مسالم لا يتآمر على الإسلام ، ولا يتربص بالمسلمين الهزيمة ، ولا ينصب من نفسه عميلاً للأعداء الذين يقاتلون المسلمين ، ويخرجونهم من ديارهم ، وبين كافر عدو يقاتل المسلمين ليخرجهم من ديارهم ويظاهر ـ أى يعاون ـ كل من يغزو ديار الإسلام . أما القسم الأول وهو الذمى المسالم فلا ينهانا ربنا أن نحسن إليهم وأن نعاملهم بالقسط أي العدل ، وأما الصنف الثانى وهو الكافر المعادى كاليهود فى هذه الأيام فما يجوز لنا بأى حال من الأحوال أن نحالفهم ، ومن يحالفهم فهو عند ربه ظالم ، وإلى هذا

أشارت الآيتان الكريمتان : **﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين .... إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ﴾** .

وقد جاء فى سبب نزول هاتين الآيتين الكريمتين أن والدة أسماء بنت أبى بكر ـ واسمها قُتيلة بنت عبد العزى ـ قدمت من مكة وهى مشركة لتزور ابنتها أسماء بالمدينة وقد حملت إليها هدايا فاستشارت أسماء ـ رضى الله عنها ـ رسول الله ﷺ هل تستقبل أمها وتبرها أم تقاطعها وتردها ؟ فقال لها رسول الله ﷺ صلى أمك . ونزلت الآيتان .

سادساً : أي امرأة تأتى من ديار الكفر مؤمنة أو تعلن إسلامها كما تفعل بعض الوافدات إلى البلدان الإسلامية من بلاد الكفر ، هذه المرأة على المسلمين أن يمتحنوها ، فإن تأكدوا أنها لم تدخل الإسلام لمصلحة دنيوية كحرص على وظيفتها أو عشق لرجل أو كراهة لزوجها بسبب مشادة وخلافات لا علاقة لها بالإسلام ، فحينئذ لا يجوز ردها إلى الكفار ، لأنها بأسلامها صارت محرمة عليهم . وعلى المسلمين أن يدفعوا لزوجها الكافر مهرها وما أنفقه عليها عند الزواج وتدفع هذا إما الدولة أو من يتقدم لخطبتها بعد إسلامها وكذلك على المسلم إذا ارتدت زوجته أن يتخلى عنها ولا يمسك بعصمة الكافرة وأن يطالب من لجأت إليهم من الكفار بالمهر .

سابعاً : إذا جاءت امرأة تعلن إسلامها فيشرع أن يبايعها الإمام أو من ينوب عنه ألا تشرك بالله شيئا ، ولا تسرق ، ولا تزنى ، ولا تقترف بجوارحها أى بهتان ، ولا تعصى الحاكم المسلم فى أي أمر فيه صلاح . ثم إن عليه ألا يضع يده فى يدها عند البيعة بل يكتفى بالإشارة .

وأخيرا : ينهى الله ـ جل جلاله ـ أمة محمد أن تعقد أملا على مصادقة الكفار أو يتوقعوا منهم نصرا ، لأنه ليس عد الكفر ذنب ، وليس بعد إنكار

الحساب أخلاق ، لقد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من حياة الموتى وبهذا استعبوا الذنوب ، وجؤوا عليها ، وأذهبوا طيباتهم فغضب الله عليهم ﴿**يأيها الذين أمنوا لا تتولوا** ﴾ [الممتحنة : ١٣] أى تصادقوا وتناصروا : ﴿ **قوما غضب الله عليهم * قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور** ﴾ ليت المسلمين يتدبرون سورة الممتحنة ليحعلوا كل ثقتهم فى الله والمؤمنين .

أربح تجارة للمؤمن في الحياة

سورة الصف من السور المدنية ، ويبدو أنها نزلت بعد معركة أحد حين فر بعض المقاتلين ، وكانوا قبيل المعركة يقولون : اللهم اشهد لئن قاتلنا المشركين لنفرغن وسعنا لنكفر عن تقصيرنا في أحد فلامهم ربهم ـ جل جلاله ـ بقوله: ﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ١ ـ ٢] ويبدو والله أعلم أن معركة أحد قد نالت من معنويات بعض الناس لما حصل فيها من قتل الصناديد ، وجرح رسول الله ﷺ ، وأن سورة الصف نزلت لتشحذ الهمم ، وتزيل التقاعس ، وتحذر أصحاب رسول الله ﷺ مصير قوم موسى وعيسى الذين تخاذلوا من حول الأنبياء فأزاغ الله قلوبهم ، ثم هي تحثهم أن يكونوا حول محمد ﷺ كما كان الحواريون من حول عيسى عليه السلام حين أعلنوا وتعاهدوا بينهم أن يكونوا أنصار الله .

وهذه بعض لطائف حول الأربع عشرة آية التي تتكون منها سورة الصف :

أولاً : سورة الصف من السور الخمس التي تسمى بالمسبحات ، والمسبحات كلها تدور حول الجهاد بالنفس والمال ، لكن ميزة سورة الصف أنها من ألفها إلى يائها دعوة إلى الوقوف صفاً واحداً حول دعوة الحق التي جاء بها رسل الله، ومن ثم فهي دعوة إلى الجهاد وإلى وحدة الأمة صفاً في الجهاد ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف : ٤].

ثانياً : من الآيات المهمة المؤثرة في السورة قوله تعالى : ﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ وقد صيغت الآية الأولى منهما على هيئة استفهام بليغ ﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُون ﴾ وهو استفهام غرضه اللوم الشديد وقد بلغ اللوم ذروته لأن هذا الاستفهام جاء بعد قوله تعالى : ﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾.
وقوله تعالى : ﴿ **كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ تعبير غاضب يجلى شدة غضب الله ـ جل جلاله ـ على من يقول ولا يفعل ﴿**وكبر**﴾ فعل يشبه فعلى المدح والذم له فاعل ومخصوص ، وفاعله هنا ضمير مستتر تقديره هو ، ، والمصدر المؤول : ﴿ **أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ هو المخصوص بالذم ويعرب المخصوص : مبتدأ مؤخرا خبره الجملة قبله ، أو خبر لمبتدأ محذوف .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ تهديد لكل من يأمر الناس بالمعروف وينسى نفسه وينهى الناس عن المنكر ويأتيه ، وهي آية تلزم كل من تصدى لوعظ الناس وإرشادهم أن يلتزم بما يدعو إليه الناس ومن هنا كان على موظفى الدعوة والإرشاد ، وائمة المساجد والخطباء ، أن يدركوا ثقل الأمانة التى حملوها ، لقد جمع عمر رضى الله عنه قراء أهل البصرة وإذا هم أكثر من ثلثمائة فقال لهم : اتلوا كتاب الله ولا يطلولن عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم كما قست قلوب الذين أوتوا الكتاب من قبل وكان بعض السلف إذا سئل أن يعظ قال : كيف أعظكم وقد عجزت عن أن أعظ نفسى ! أتريدوننى أن أقع فى مقت الله وسخطه إذ يقول ﴿ **كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ ؟ أم تريدوننى أن أتهم فى عقلى حين آمركم بالبر وأنسى نفسى فأكون كما قال ربنا ـ جل جلاله ـ ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون**﴾ [البقرة : ٤٤] ؟ والحق أنا لا نؤيد هؤلاء؛ لأن العصمة لا

تكون إلا للأنبياء ولو أن كل واعظ ترك الوعظ لما يعمله من ذنوبه لضاع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إن الواعظ كثيرا ما يشعر أنه يعظ نفسه فتراه يتوب لربه ، ويبكى عند ذنبه ويتأثر بكلامه كما يتأثر المستمعون إليه .

رابعاً : بعد أن حث الله المسلمين على الجهاد ، ذكرهم بمصائر الأمم من قبلهم وكيف أزاغ الله قلوب الكافرين من قوم موسى حين زاغوا عن أوامر نبيهم ، وكيف أركس الله قوم عيسى بظلمهم حين تفرقوا من حول عيسى عليه السلام الذى بشر بنبوة محمد ﷺ وذكر أن اسمه أيضا أحمد ، وفى الحديث الصحيح « لى خمسة أسماء : أنا محمد ، وأحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى تحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » إن الأسماء : أحمد محمدا ومحمودا كلها مشتقة من الحمد ، ومحمد ﷺ كان على كل أحواله محمود الفعال فى أهل السموات والأرض .

خامساً : من أروع الاستفهامات البلاغية استفهام التشويق ، ومن أجلّ أمثلته قوله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾** [الصف : ١٠] ؟ لقد ظل الصحابة بعد هذه الآية متشوقين أن يعرفوا هذه التجارة وهذا الأسلوب فى الاستفهام يستعمله المحدثون والخطباء والمعلمون لجذب الانتباه ، كما يقول المعلم لتلاميذه : هل أحدثكم عن الساحرة التى قتلها خالد بن الوليد ؟ فيشد بذلك انتباههم إلى قصة هدم العزى . وقد أجاب الله ـ جل جلاله ـ عن السؤال فقال : **﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾** .

سادساً : حبب الله عز وجل الجهاد للمؤمنين حين ذكر لهم نتيجتين عظيمتين من نتائجه أولاهما جنة الله التى تجرى من تحتها الأنهار حيث المساكن العالية فى الجنات العلا ، والثانية : فرحة النصر التى تقر بها عيون المؤمنين وتحبها قلوبهم ، وأخيرا يحثهم ربهم أن يكونوا حواريين للإسلام ، ولرسول الله ﷺ مهما تألب من حولهم الكفر : ﴿ **فلما أحس عيسى منهم الكفر** (أى رأى أن أكثر من حوله فى قلوبهم كفر) **قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون** ﴾ . ما أجمل أن يلومهم على التخوف من الجهاد ، وكأنه يقول لهم : إذا كان التخوف من الجهاد يصدر عن الكفار فما يكون له أن يصدر عن الذين آمنوا ؟ وأبلغ ما يكون الاستفهام إذا حمل فى طياته معنى التناقضى فى السوك كما تمر على شباب مسلمين فى بعض ديار الكفار ، وهم يركضون وراء المعاصى فتقول لهم : أهذا هو الجهاد فى سبيل الله يا أتباع محمد ؟ أو تقول لهم : أهذه أوامر القرآن الحكيم يا أمة القرآن ؟

يوم الجمعة أفضل الأيام

سورة الجمعة من السور المدنية ، بدأها ربنا ـ جل جلاله ـ بذكر نعمة هى أعظم النعم ألا وهى إكرامنا برسالة محمد ﷺ ، يزينها كتاب الله ، وروائع الحكمة ، ووضاءة الإيمان والعبادة : ﴿ **هو الذى بعث فى الأميين ـ** أى العرب أو أهل مكة ـ **رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ [الجمعة : ٢] ثم حذر العرب والمسلمين أن يسلكوا مع هذه النعمة الجليلة كما سلك اليهود فى التعامل مع النبوة الكتاب، ذلك السلوك الحيوانى المفرط مما جعلهم كالحمار يحمل كتباً يشقى بثقلها ولا يعرف شيئاً مما فيها ، وبذلك السلوك حرموا النبوة فانتقلت إلى غيرهم ، وفى هذا تحذير لأمة محمد بأن فضل النبوة قد ينزع منهم إذا هم سلكوا سلوك اليهود ، أما المقطع الأخير من سورة الجمعة فهو أحكام تتعلق بصلاة الجمعة ذلك اليوم الكريم المبارك الذى يجمع المصلين فى بيوت الله يستمعون من إمامهم كلام الله وسنة رسوله ، ويملؤون مساجدهم بالشذا والمحبة ونظافة الظاهر والباطن .

نعم إن يوم الجمعة هو عيد المصلين ، وهو خير الأيام الذى يستجاب فيه الدعاء، إذا فيه ساعة لايدعو فيها مؤمن دعوة إلا استجابها الله وقد سمى يوم الجمعة ؛ لاجتماع الناس فيه ، وأول جمعة صلاها رسول الله ﷺ كانت فى مسجد قباء ، والثانية فى مسجد بسيط البناء لبنى سالم بن عوف ، وكانت بعدها جمعة فى البحرين فى قرية يقال لها : جواثى لا تزال معروفة إلى الآن فلا عجب أن كان القادة من سلفنا يخوضون معارك البطولات يوم الجمعة فى الساعة التى يتوجه فيها أئمة المسلمين بالدعاء إلى الله أن ينصر دينه ونبيه وعباده

المؤمين . جاء فى صحيح مسلم : أن رسول الله ﷺ قال : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ؛ فيه خلق آدم ، وفيه دخل الجنة ، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة ».

وإنى مورد هنا لقطات من لطائف هذه السورة المباركة :

أولاً : افتتاح السورة : يسبح لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الملك القدوس الْعَزِيزِ الْحَكِيمُ ﴾ [الجمعة : ١] وهو إذا تدبرناه متميز على فواتح المسبحات الثلاث التى قبله إذ كلها تبدأ بقوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ ﴿ أو ما فى السموات وما فى الأرض﴾ ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أما فى سورة الجمعة، فأضيف اسمان عظيمان كريمان من أسماء الله الحسنى وهما الملك القدوس ، ويبدو والله أعلم أنهما يناسبان ما ذكر بعدهما من أن رسالة محمد هى فضل عظيم على البشر عامة فضل على الأميين الذين آتاهم الله بالرسالة عزاً وملكاً ومجداً ، وجعلهم أشرف أمم الأرض ، وهى فضل على آخرين لم يأتوا بعد من عرب وعجم سوف يتوارثونها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها : ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة : ٤] إن اسمى الملك والقدوس اللذين ذكرا فى مطلع السورة فيهما لفت نظر بأن الله ـ جل جلاله ـ سيعطى أمة الإسلام شرفاً وملكا مستمدين من نبوة محمد ، وأن عليهم أن يقدسوا له دائماً على ما حباهم وهداهم وجعل لهم بالرسالة ذكراً إلى يوم القيامة .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الجمعة : ٣] نبوءة صادقة بأن نبوة محمد ﷺ سوف ينتصر لها آخرون من المؤمنين يجيؤون بعد جيل الصحابة ، وقد رأينا فعلاً أجيالاً من

التابعين وتابعيهم معظمهم من الأعاجم حفظوا علوم الدين ونشروه فى العالمين جاء فى الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ نزلت سورة الجمعة، فلما قرأ : ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا ﴾ قال رجل : من هؤلاء يارسول الله؟ فلما راجعه النبى ﷺ حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثاً قال : وفينا سلمان الفارسى فوضع النبى ﷺ يده على سلمان ثم قال : « لو كان الإيمان فى الثريا كان له رجال من هؤلاء » ، وفى رواية : « لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس حتى يتناوله » وقد حقق الله ذلك وحسبك بأبى حنيفة والبخارى وأصحاب السنن وآلاف العلماء العاملين من الفرس رحمهم الله .

ثالثاً: كرر فى الآية ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهما نفس الاسمين اللذين فى مطلع السورة مشيراً بذلك أن دين محمد ﷺ إن تمسك به المسلمون آتاهم الله به عزة فى الناس ، وفتح عقولهم بالعلم والحكمة . وجاء فى الآية التى بعدها قوله : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ ذلك إشارة إلى الدين والنبوة : ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء ﴾ وقد شاء أن ينزع ذلك الفضل من بنى إسرائيل ويعطيه العرب ، وهذا هو الفضل العظيم الذى على العرب أن يؤدوا حقه.

رابعاً : من أشد التشبيهات إهانة لكفار بنى إسرائيل خاصة بل ولليهود عامة قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ [الجمعة : ٥] أى لم يفقهوها ويقوموا بحقها ويتدبروا آياتها ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ أى حمل كتباً كبيرة ينوء تحتها ويشقى بحملها ولا يستفيد منها شيئاً ، وهو مثل ينطبق على كل عالم لم يفده علمه صلاحاً وفقهاً وفهماً

لمقاصد الدين ومراميه وقد ختم الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ مشيراً أن الذى يؤتى علماً ولا يعمل به فقد اقترف ظلماً مبيناً.

خامساً : كشف القرآن الكريم أن اليهود أهل ادعاءات كاذبة ، فهم يزعمون أنهم أولياء الله وأنهم أبناؤه وأحباؤه من دون الناس ، والقرآن هنا يحرجهم فيبين سلوكهم الذى يناقض ادعاءهم أنهم أشد الناس حرصاً على الحياة وكراهية للموت ، ولو كانوا كما يدعون لتمنوا لقاء الله ؛ لأنه فى زعمهم أبوهم الذى يحبهم ، لكنهم لا يتمنون الموت ولن يتمنوه أبداً ؛ لأنهم يعلمون سوء أعمالهم ، ولأنهم جبناء يحرصون على أى حياة ولو كانت ذلاً ومسكنة . وفى الآية الكريمة إشارة لأمة محمد أن الحرص على الحياة قد يحرمهم أنوار الإيمان كما أطفأها فى قلوب بنى إسرائيل. إن سورة الجمعة دروس لأمة محمد بأن يتعظوا بما حدث لنبى إسرائيل حين كفروا فنزعت منهم النبوة .

سادساً : جاء في سبب نزول الآية الكريمة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ أن قافلة لدحية الكلبى رجعت من الشام وكان مستقبلوها يضربون بين يديها بالدفوف للإعلان عن وصولها ، وكان رسول الله ﷺ قائما يخطب فتفرق المصلون من حوله ولم يبق سوى اثنى عشر رجلاً فنزلت الآية الكريمة تنعى على الذين انصرفوا تفضيلهم التجارة والطبول على الصلاة ومنذ ذلك اليوم صارت الكلمة قبل الصلاة ليكون سماعها لازماً وفى الآية الكريمة التالية ما يشعر أن العمل يوم الجمعة بعد الصلاة حلال لأن دين الإسلام دين العمل والكسب الحلال ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾ .

المنافقون أخس
الفئات وهم أضر من الكافرين

سورة (المنافقون) من السور المدنية ، وهى من أولها إلى آخرها تدور حول هذه الفئة الرخيصة القذرة التى ارتضت لنفسها سلوكاً جباناً متلوناً ، وعاشت على الفساد تتآمر على مجتمعها الكريم المعطاء ، كما تعيش الطفيليات على السَّرحة الزكية تمص منها عصارة الحياة ، وتفرغ فيها جراثيم الموت .

المنافقون فى المجتمع الإسلامى أضر من الكافرين ؛ لأنهم عدو داخل البيت، والكافرون عدو خارجه ، وفى المثل : ألف عدو خارج البيت ولا عدو داخله . من أجل ذلك قال ربنا ـ جل جلاله ـ فى سورة النساء : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ .

بدأ ربنا عز وجل سورة (المنافقون) بفضح أخلاقهم وفى مقدمتها الكذب، حتى إذا عرَّاهم وتركهم بلاستر ختم السورة يحث المؤمنين أن يتجنبوا أخلاق المنافقين الذين اعتنقوا النفاق خوفاً على أموالهم وأعمارهم ، وهذه بعض لطائف معنوية وبلاغية وردت فى هذه السورة الجليلة :

أولاً : جاء فى سبب نزول السورة الكريمة : أن النبى ﷺ غزا بنى المصطلق على ماء يقال له المريسيع فاختصم على الماء غلام لعمر يقال له : جهجاه ، وغلام لعبد الله بن أبى يقال له : سنان ، فلطم جهجاه سناناً فقال ابن أبى : إنما مثلنا ومثل هؤلاء كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، لو أنكم لا تنفقون على هؤلاء المهاجرين والأعراب لانفضوا من حول محمد، ثم أردف قائلاً : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ [المنافقون : ٨] قال زيد بن أرقم رضى الله عنه : سمعت هذا

الكلام من عبد الله بن أبي فأخبرت رسول الله ﷺ فدعا عبد الله بن أبي فأقسم المنافق بالله ما قال ، فصدقه رسول الله . ﷺ ، قال زيد بن أرقم : فأحرجت إحراجاً شديداً ، وقال لي عمي : لقد كذبك رسول الله ﷺ وكذبك المسلمون . ثم إن رسول الله ﷺ أتاني وقد مال رأسي من الهم ، فعرك أذني وضحك في وجهي فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا ، فلحقني أبو بكر - رضي الله عنه - وسألني : ماذا قال لك رسول الله ﷺ ؟ فأخبرته أنه عرك أذني وضحك في وجهي ، ولحقني عمر - رضي الله عنه - فسألني فأخبرته ، فقالا لي : أبشر ونزلت سورة (المنافقون) تصدقني وتكذب المنافق .

ثانياً : المنافق يقول الصدق بلسانه ومع ذلك يعتبر كاذباً مما يدل على أن الصدق محله القلب ؛ ولهذا فربما قال المنافق : لا إله إلا الله فتكتب عليه سيئة؛ لأنه يوحد بلسانه وقلبه كافر .

ثالثاً : تشبيههم بالخشب المسندة يحمل عدة معان أولها أن لهم أجساماً فارعة ، والثاني : أن تلك الأجسام لا فائدة منها ؛ لأن الخشبة تفيد وهي جزء من سقف ، أما حين تكون مسندة فهي غير مفيدة ، والثالث : أنها ضارة؛ لأنها تأخذ حيزاً وتكظ المكان دونما فائدة إلا التضييق واحتجان الأوساخ تحتها .

رابعاً : هنالك صورة بارعة في قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [المنافقون : ٤] لأن المريب المجرم الذي يخفي جريمته إذا سمع أي صيحة ؛ ارتجف قلبه وظن أن الصائح يدل عليه ، وكذا شأن المنافقين فقد كانوا على الدوام مذعورين ، إذا صاح صائح ظنوا أنه يؤذن بقتلهم أو فضيحتهم .

خامساً : المنافقون أيام رسول الله ﷺ أقل ضرراً من منافقى زماننا ؛ لأن أولئك كانوا يسترون نفاقهم ويستحون إذا كشف شيء من نواياهم ، أما هؤلاء فهم يجاهرون بالنفاق ، بل لقد رأينا منهم من يفاخر بأنه منافق موالٍ للأعداء معادٍ لأبناء دينه ووطنه . إن كثيراً ممن يتصدرون مناصب عليا معروفون بصبغة سياسية معينة فمنهم من يفاخر بأنه يوالى الشيوعية ، ومنهم من يجاهر بأنه يؤمن بالغرب، وكلاهما يحتقر من عرفوا بالصبغة الإسلامية ويلمزهم بالرجعية ، وذلك هو البلاء الذى أوقع أمة محمد ﷺ فى الهزائم .

سادساً : فى الآيات ما يوحى أن الله ـ جل جلاله ـ لا ينظر إلى الأجسام بل العبرة عنده بالقلوب ، ورب جسم فارع يعجبك شكله طولاً وعرضاً وهنداماً يكون أذل عند الله من بعوضة ، ورب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره .

سابعاً : فى قوله تعالى : ﴿ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ ﴾ [المنافقون : ٥] كناية محسوسة عن شيء معنوى، وهو الرفض والاستهزاء ، وأجمل ما تكون الكناية إذا صورت المعنوى فى ثياب المحسوس لقد كان المنافقون إذا قيل لهم **﴿تعالوا يستغفر لكم رسول الله ﴾** [المنافقون : ٥] ﷺ يلوون رؤوسهم بحركات قذرة فيها الهمز والاستعلاء والرفض .

ثامناً : الآية الكريمة : **﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾** [المنافقون : ٦] وفى سورة التوبة : **﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾** دليل على فظاعة إجرام المنافقين ، حتى إن إجرامهم لتضيق به شفاعة الأنبياء حتى لو استغفر لهم أنبياؤهم سبعين مرة . وكلمة السبعين هنا للدلالة على التكثير وليس على العدد بذاته ،

فلو استغفر لهم الرسول ﷺ سبعمائة مرة ما غفر الله لهم .

تاسعاً : في الآيتين التاليتين إطناب تعقيب أو تذييل في غاية المناسبة والروعة ، فحين ذكر قول المنافقين : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾ [المنافقون : ٧] عقب بقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ثم بقوله : ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون : ٧] وهذا أروع ما يمكن أن يعقب به على كلامهم الذى لا يدل إلا على جهلهم وقصر نظرهم ، وحين ذكر قول المنافقين : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ [المنافقون : ٨] عقب بقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] ثم أردف : ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون : ٨] وهذه الآية الكريمة من معجز القرآن؛ لأن فيها إشارة مفهومة غير مكتوبة واضحة وضوح الشمس بأن الأذلاء هم المنافقون ، وبأن الأعزاء هم المؤمنون ، مع أن هذا لم يذكر صراحة .

عاشراً : ختام السورة الكريمة نداء للمسلمين ألا يشغلوا أنفسهم بحطام الدنيا الفانية؛ لأن من تبدل دنياه بآخرته فهو الخاسر ، وكيف لا وقد باع فانياً بباق ؟! وهو هنا يعرض بأن من يبع آخرته بدنياه فقد سلك سلوك المنافقين الذين نافقوا من أجل أموالهم ، ومن أجل متاع الدنيا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٩].

دعوة العباد إلى الكسب
الحقيقى والاهتمام بالثواب الخالد

سورة التغابن من السور المدنية ، وقال بعض الأشياخ : إنها مكية ، والصحيح والله أعلم هو الرأى الأول ؛ لأن فى أسلوبها هدوءاً وسكينة فى وعدها ووعيدها، وهذا أبرز خصائص السور المدنية . وسورة التغابن فيها آيات تعتبر من أصول العقيدة ، كآية الإيمان باليوم الآخر ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن : ٧] وكالآية الخاصة بالبلاء يحل بالمؤمن فيهديه الله إلى الرضاء والتسليم ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن : ١١] والموضوع الرئيسى لسورة التغابن دعوة من الله لعباده أن يسعوا إلى الكسب الحقيقى وأن ينقلوا اهتمامهم من العرض الأدنى إلى الثواب الخالد الذى يتحقق بالإيمان والعمل الصالح والجهاد ، لا بالمال والبنين وبهرج الحياة . وقد جاء فى مناسبة نزول السورة : أن صحابياً اسمه عوف بن مالك الأشجعى شكا إلى رسول الله ﷺ أنه كلما هم بالجهاد تعرض له أولاده وزجته ولا يزالون يكون ويقولون له : سنضيع من بعدك حتي يصدوه عن الجهاد ، فنزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن : ١٤ ـ ١٥] وقد جاء فى الحديث الذى رواه عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال « ما من مولود يولد إلا وفى تشابيك رأسه ـ أى فى تكوينات دماغه ـ خمس آيات من فاتحة سورة التغابن وهذه بعض إشارات لطيفه من سورة التغابن :

أولا : التغابن : هو أن يدخل اثنان فى صفقة مشتركة فيغبن كل منهما الآخر، أى يحاول الربح على حساب شريكه ، بأن يغلبه فى الكسب أو الشروط . والناس فى هذه الحياة يتظالمون أثناء تعاملهم وصفقاتهم ، لكن خسارة المظلوم فى الدنيا لا تقاس إلى خسارة الظالم فى الآخرة ، ومن هنا سميت القيامة يوم التغابن لما يحدث للظالمين من خسارة فادحه فى حسناتهم حين تؤخذ من موازينهم لتوضع فى موازين المظلومين ، وقد يقال : إن الغبن حرام فكيف يتغابن الناس يوم القيامة ؟ والجواب : أن هذا من قبيل جزاء الذنب بمثله كقوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ وكقوله ـ جل جلاله ـ فى سورة التوبة : ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ والتغابن الذى حصل هو ما حدث من الظالمين فى الحياة الدنيا من غبن المظلومين حيث يقابلوا فى الآخرة بمثل ظلمهم وغبنهم

ثانياً : بدأت التغابن بفعل مضارع هو ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [التغابن : ١] شأن سورة الجمعة بينما بدأت المسبحات الثلاث الأخرى بفعل ماض : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ ويلاحظ أن الجمعة والتغابن اشتملت الافتتاحية فى كل منهما على عدد أكبر من أسماء الله الحسنى إذ زيد فى مطلع الجمعة: ﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ﴾ وفى مطلع التغابن: ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن : ١] وهذه الأسماء يسبح بها المصلون فى أدبار صلواتهم فيقولون : لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، وهو تسبيح يكرره المؤمنون ليلاً ونهاراً إذ يثنون على الله بملكه ويقدسونه بوحدانيته .

ثالثاً : قدم الكفار على المؤمنين فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ

كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [التغابن : ٢] ؛ لأن الكفار أكثر عدداً من المؤمنين ، وختام الآية إطناب رائع المناسبة إذ يدل على أن الرب ـ جل جلاله ـ محيط بأعمال الناس برهم وفاجرهم وصيغة الآية تدل على الإنسان في بطن أمه لا يكون مؤمناً أو كافراً ، لكنه يتحول من فطرته إلى الإيمان أو الكفر فيما بعد، وهذا ما تحتمله العبارة القرآنية : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

رابعاً : في قوله تعالى : ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن : ٦] استعمل عبارة ﴿ واستغنى الله ﴾ والله تعالى غنى قديم لم يكن غناه حادثاً،لكنها المشاكلة المعنوية هنا ليكون الجزاء من جنس العمل ، فقد أظهر الكافرون استغناء عن الله بكفرهم وتوليهم ، فجزاهم جزاء من جنس عملهم .

خامساً : استعمل القرآن أسلوب التوكيد المضاعف في إثبات البعث والحساب ؛ لأنه رد على الكفار ، والكافر يتطلب لإقناعه توكيداً شديداً ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ [التغابن : ٧] وختم الآية الكريمة بقوله ـ جل جلاله ـ : ﴿ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ تنبيهاً للكفار أن الذى فطر الإنسان على غير مثال قادر أن يعيد إلى الحياة عظامه بعد أن عرف مثاله وهيئته وخلقته .

سادساً : بعد أن أقسم بذاته وأقنعهم بالمنطق بأن النشأة الآخرة أهون من الأولى. وجه للناس أن يؤمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزله وهو القرآن الكريم ، وأن يعتقدوا أنه ـ جل جلاله ـ خبير بأعمال عباده يوم يعرضون في يوم التغابن لا تخفى منهم خافية .

سابعاً : المؤمنون قد يبتلون ، وليس هذا غضباً من الله عليهم ، لكنه تمحيص لقلوبهم وإخلاص لها كما تخلص المعادن من شوائبها بالنار . والفرق بين المؤمن إذ يصاب ، والكافر إذ يبتلى : أن المؤمن يرضى ويسلم لعلمه أن كل ما يصيب الإنسان إنما هو بقضاء من الله . ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ « إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل » والمصيبة حين تصيب المؤمن تكون إما تكفيراً لسيئاته ، أو تنبيهاً له من غفلاته ، أو رفعاً من ربه لدرجاته وكل ذلك خير .

ثامناً : يحرص كثير من الناس على أن يستكثروا من الأزواج والأولاد ناسين أو متناسين أن من الأزواج والأولاد من يجرُّ على المرء الويلات . إن كثيراً من الناس كانوا سعداء فلما تزوجوا انصب عليهم سوط الشقاء من زوجاتهم فذاق من شموسها وخلافها الويلات ، وكثير من الآباء رزقوا من البنين ما كان عدوا لهم وفتنة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن : ١٤ ـ ١٥] . والحق : أن الزوجة والأولاد يسببون تحولاً عظيماً فى أخلاق الإنسان فى شجاعته وكرمه ، ويكون فى كثير من الأحوال لوالدهم منحلة مجنبة ، بل إن كثيراً من الأولاد والأزواج كانوا سبباً فى مصائب مروعة جروها على ذويهم .

نسأل الله أن يهبنا وإياكم من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، ويجعلنا وإياهم للمتقين إماماً .

في رحاب
الأحكام الفقهية الخاصة بالمرأة

إن سورة الطلاق من السور المدنية المباركة وهى سور واسعة الأحكام ، حتى لقد ألف طالب علم معاصر كتاباً كبير الحجم فى الأحكام التى اشتلمت عليها سورة الطلاق ، والسورة الكريمة اثنتا عشرة آية منها سبع آيات فى ذكر احكام تتعلق بالطلاق وخمس آيات يشتلمن على إنذار لمن يغفل أحكام الله وحدوده ، وبشرى لمن يلتزم الإيمان ويتبع الرسول فى كل ما أمر به من أحكام وعبادات وآداب ومعاملات . وهذه بعض الفوائد الفقهية المتصلة بهذه السورة :

أولاً : الطلاق تشريع إلهى حكيم شرعة ربنا ـ جل جلاله ـ كآخر علاج للخصومات الزوجية حين تتبدل المودة والرحمة الزوجيتان إلى بغض وخصام وشقاق ، هنالك يكون الطلاق كالعملية الجراحية الحاسمة ، وأكبر دليل على عظمة التشريع الإسلامى وملائمته للإنسانية : أن النصارى رجعوا إلى الطلاق بعد أن كانوا يحرمونه ؛ وذلك لأنهم اصطدموا بواقع الحياة حين رأوا أن العلائق الزوجية كثيراً ما تصل إلى طريق مسدود ، وأن كثيراً من الأزواج قد يبتلى بزوج يشقيه طول حياته، وهنالك لا يكون للداء برء إلا بالتفريق بين الزوجين بالطلاق .

ثانياً : مع أن الطلاق حلال ومشروع ، إلا أنه أبغض الحلال إلى الله ، فقد جاء فى الحديث الشريف : « إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق » . ومن حديث على رضى الله عنه : « تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش» وقال رسول الله ﷺ : « لا تطلقوا النساء إلا من ريبة فإن الله لا

يحب الذواقين ولا الذواقات » ومن حديث معاذ فى سنن الدارقطنى : «يامعاذ ما خلق الله شيئاً على وجه الأرض أحب إليه من العتاق ، ولا خلق الله شيئاً على وجه الأرض أبغض من الطلاق فإذا قال الرجل لمملوكه : أنت حر إن شاء الله فهو حر ولا استثناء له ، وإذا قال الرجل لامرأته : أنت طلاق إن شاء الله فله اسثناؤه ولا طلاق عليه » .

ثالثاً : من هنا كان للطلاق آداب وأصول يجب أن تراعى قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق : ١].

هنالك طلاق يوافق السُّنة ويصيب الحكمة وهو الذى يتم على الطريقة الآتية :

أ ـ ألا يكون أثناء حيض المرأة ؛ لأن المرأة لا يحصل بينها وبين الرجل إفضاء وهى حامل ، ولا تكون على درجتها المعروفة من النظافة ، فربما يطلقها زوجها على تلك الحال حتى إذا تطهرت ونظفت اشتهاها ووقع فى الندم ، ثم إن طلاقها أثناء الحيض يطيل مدة عدتها ؛ إذ مدة الحيض لا تحسب من العدة والعبرة بالقروء ، وهى : مدة الطهر ، وقد طلق عبد الله بن عمر زوجة له وهى حائض فأمره رسول الله بأن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر وتحيض ثم تطهر.

ب ـ أن يكون الطلاق بعد أن تطهر المرأة من حيضها وتبدأ قرءها ، أى طهرها فيطلقها عندئذ دون أن يطأها ؛ وذلك ليكون ذلك الطهر مستبرأ من ماء الرجل ولتحسب العدة من بداية هذا الطهر ، وعندئذ يتأكد للمشرع الحكيم أن الرجل زاهد فى زوجته فعلاً غير ميال إليها ولا نادم على فراقها .

ج ـ ألا يطلقها فى أثناء طهر قد جامعها فيه ؛ لأنه عندئذ سيطول انتظارها فى العدة إلى أن تتأكد ، ألا حركة للجنين وأنها مستبرأة من الحمل . ويجوز للرجل أن يطلق المرأة وهى حامل حملاً مستيقناً ؛ لأن عدتها عندئذ تكون معروفة ومحددة حين تضع حملها ، وقد يقول قائل : إن العدة حينئذ قد تطول عدة أشهر إلى أن تضع حملها وفى هذا إعنات للمرأة ، والجواب : أن طول العدة يعطى فرصاً للرجوع خصوصاً وأن المرأة أثناء العدة تكون فى بيت زوجها وقريبة منه يتردد عليها ويحادثها فربما يحدث الله أمراً ويؤلف القلوب فى جو اللقاء المستمر وانتظار مولود زكى بإذن الله ، وتكون المراجعة بإخبار الزوجة أو بالمباشرة أو القبلة أو الجماع .

د ـ ومن أداب الطلاق ألا يخرجها الرجل من بيتها أثناء العدة ، بل يبقيها إلى جواره إلا إذا جاءت أثناء العدة بفاحشة مبينة ، كأن تكثر الخروج إلى أماكن لا تليق بمثلها ، أو أن تدخل بيتها رجالاً بدون إذن زوجها ، أو أن تدخل مع أهل رجلها فى خصومات يتحللها البذاء والسفاهة من المرأة ، فعندئذ يخرجها إلى بيت أهلها روى ابن ماجة أن رسول الله ﷺ طلق حفصة رضي الله عنها فذهب إلى بيت أهلها فنزل قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾ [الطلاق : ١] ورُوى أن طلاق حفصة كان ، لأن النبى ﷺ استأمنها على سر فأفشته لعائشة رضى الله عنها فقيل له من لدن ربه : راجعها فإنها صوامة قوامة، وهى من أزواجك فى الجنة ، فأعادها إلى بيتها وراجعها عليه الصلاة والسلام وعليها رضوان الله .

هـ ـ ألا يطلقها ثلاثاً فى مجلس واحد ، بل يجعل الطلقات متفرقات فيطلقها واحدة ثم يراجعها وهى فى بيتها لا تخرج منه إلى بيت أبيها ، ويطلقها الثانية لا تخرج من بيتها ثم يراجعها ، ثم يطلقها الثالثة وحينئذ تغادر

البيت ولا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره ، على أنه فى أثناء ذلك ينفق عليها حيت تنتهى عدتها . وقد اختلف الأشياخ ـ رحمهم الله ـ هل إذا طلقها ثلاثاً فى مجلس واحد أو طلقها وهى حائض أو طلقها فى طهر مسها فيه هل تقع عليه هذه الأنواع من الطلاق البدعى ، أم أنه يكون آثماً ولا يقع عليه الطلاق؟ فقال بعضهم بوقوع الطلاق ، وقال آخرون بأنه لا يقع ، وعندى ـ والله أعلم ـ أن يؤخذ بالأيسر ، فإن ثبت التعجل وحصل الندم ، ووقع الضرر بسبب العجلة، وثبت أن الأمر عابر وأن الحب موجود ؛ فهنا يؤخذ بالقول الثانى ، وإن ثبت أن الطلاق كانت له مقدمات من الخلاف والكراهية وعدم التوافق وأنهما إذا تراجعا لم يقيما حدود الله ورسوله فلا جناح عليهما عندئذ أن يتفرقا وتحسب الطلقات ، والله أعلم .

و ـ لا يجوز ضرار المرأة بأن يتركها الرجل معلقة لا هى بالزوجة ولا هى بالمطلقة ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه واعتدى على حق غيره قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ٦] أما أن يتلاعب الرجل بمصير المرأة لأن فى يده عصمة ، فذلك هو الظلم والاستهزاء بالشرع الشريف .

ز ـ إذا أرضعت المطلقة ولدها فلها على الرضاع أجرتها من الزوج ، وإذا اختلفا على قيمة الأجرة ، كان من حقها أن تتخلى عن الرضاعة وتسلم الولد إلى أبيه ليلتمس لابنه مرضعة أخرى .

ى ـ لم تكن للمرأة فى الجاهلية عدةَ وأول من أنزل فيها الغيرة للطلاق أسماء بنت يزيد الأنصارية وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ [الطلاق : ١] وعدة المطلقة المدخول بها إن كانت تحيض ثلاثة أطهار أما اليائسة من المحيض والصغيرة التى لم تحض فعده كل منهما ثلاثة أشهر ،

وعدة الحامل حين وضع حملها وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام ، أما غير المدخول بها فلا عدة عليها ، واختلف الأئمة فى عدة المشتبه فى حملها .

ح ـ ومن السنة أن يشهد الرجل على الطلاق وأوجب بعض الأئمة ذلك حملاً على الآية الكريمة : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ [الطلاق : ٢] .

ط ـ من الآيات المبشرة : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ... ﴾ [الطلاق : ٢ ـ ٣] إنها وعد من الله ـ جل جلاله ـ أن يفرج كرب الأتقياء ، قيل إنها نزلت فى صحابى اسمه عوف بن مالك الأشجعى أسر المشركون ابناً له يقال له سالم ، فحزن وجزعت الأم وافتقرت الأسرة ، فأمرهما رسول الله ﷺ أن يعتصما بالتقوى والصبر ويكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فامتثلا لأمر النبى الكريم فهيأ الله لسالم فرصة الفرار وصادف فى طريقة عدداً كبيراً من الإبل والغنم فساقها عائداً بها إلى والديه وهو فى أشد السعادة والغنى .

لا ينبغي تحريم ما أحل الله

سورة التحريم من أواخر السور المدنية نزولاً ، وتسمى سورة النبى ؛ لأن لها مناسبة تتعلق بأمر شخصى من سلوك النبى الكريم، والجميل فى سيرة الرسول ﷺ أنها ساطعة لا يستتر منها شيء ؛ وذلك لأنها فى مجموعها مثل عليا جعلها ربنا أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً . لقد سأله مرة رجل : أتقبل يارسول الله فى رمضان ؟ وكانت قريبة منه أم سلمة ، فقال للرجل : «اسألها» فأجابته : نعم ، ولكنه يملك إربه ، تعنى أنه يحكم نفسه فلا يزيد إلى ما يفسد صومه وتتكون سورة التحريم من نصفين أولهما : حول حادثة كانت شخصياتها بعض نسائه ، والثانى : يتعلق بموقف الناس فى الآخرة ، حيث كل إنسان وعمله لا يضره طغيان أقرب المقربين إليه ولا ينفعه صلاح أقرب المقربين إليه . وهذه بعض من لطائف تفسير السورة الكريمة :

أولاً : جاء فى سبب نرول الآية الأولى روايتان : أولاهما فى الصحيح ، والثانية سندها حسن لكنها لم تذكر في الصحيح : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التحريم : ١].

والتفسير الظاهر للآية سؤال بلاغى غرضه اللوم : يا أيها النبى لماذا تحرم على نفسك الحلال لكى ترضى أزواجك ، وفى الآية جو من الاحترام لرسول الله ﷺ فعلى الرغم من أنها ملامة إلا أن ربه ناداه بالنبوة وختم الآية بما يوحى أنه غفر له بدأها بقوله : ﴿ يا أيها النبى﴾ وختمها بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . ومن الممكن أن يكون الغرض من قوله تعالى: ﴿يأيها النَّبِي﴾ التعريض بالرسول الكريم كأنه يقول له: كيف تفعل هذا وأنت النبى كما تقول لطالب مهمل وأبوه عالم : كيف تهمل يا ابن

شيخنا الجليل.

جاء فى صحيح مسلم حول مناسبة الآية ، أن رسول الله ﷺ ، كان يدخل بعد العصر على زوجاته فيدنو منهن ويلاطفهن ، ويبدو أن زينب بنت عمته كانت لديها عكة عسل فكانت ربما سقته من ذلك العسل ، فغارت عائشة بنت الصديق وحفصة بنت الفاروق من ذلك الشرف ـ والمرأة هى المرأة ـ فتواطأتا معا على رسول الله ﷺ ليمتنع عن شرب العسل عند زينب. واتفقتا أن تسألاه سؤالا موحدا فلما دخل عند عائشة ـ رضى الله عنها ـ سألته: إنى لأجد منك ريح مغافير هل أكلت مغافير؟ والمغافير : بقلة رائحتها ليست بشيء. وكان عليه الصلاة والسلام يكره أن يشم منه ريح إلا الشذا الطيب فقال عليه الصلاة والسلام : « لم آكل مغافير ولكنى شربت عسلاً عند زينب » وظن أن عائشة لم تتأكد من رائحة العسل . ولكنه حين مر على حفصة ودنا منها سألته السؤال نفسه ، وعندئذ وقع فى نفسه أن عسل زينب فيه رائحة مغفافير وهنا قال لحفصة : « بل شربت عسلاً عند زينب » وحلف لحفصة ألا يعود إلى شرب ذلك العسل ، وبذلك نفذت خطة عائشة وحفصة وحرمت زينب وعسلها من ذلك التشريف . وقال النبى ﷺ : « اجعلى ما قلته لك وحرمته على نفسى سراً بينى وبينك ولا تطلعى عليه عائشة » لكن حفصة ـ رضى الله عنها ـ أنبأت عائشة بما كان من الرسول الكريم لكى تسرها ونزل قوله تعالى : ﴿ **يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك** ﴾ [التحريم : ١] وعلى هذا القول يكون الذى حرمه رسول الله على نفسه هو عسل زينب ، والعسل شيء طيب فيها شفاء وقد أحله الله لما فيه من فوائد .

أما الرواية الثانية فى سبب نزول الآية : فهى مارواه الثعلبى من أن رسول الله ﷺ خلا بجاريته مارية أم إبراهيم فى بيت حفصة ـ رضى الله عنها ـ وكانت حفصة فى بيت أهلها ، فقالت لرسول الله ﷺ : كيف تدخلها بيتى ، ما صنعت بى هذا من بين نسائك إلا لهوانى عليك ، فقال لها رسول الله ﷺ : « إن مارية حرام علىَّ إن قربتها لا تذكرى هذا لعائشة» وعلى هذه الرواية يكون الذى حرمه النبى على نفسه هو أن يعتزل مارية فنزل قوله تعالى : ﴿ يـأَيُّهَا الـنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الـلَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ [التحريم : ١] أى رضاء حفصة بتحريم مارية .

ثانياً : قوله تعالى: ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ [التحريم : ٢] يدل على أن الله ـ جل جلاله ـ اعتبر كلام النبى ﷺ حين حرم على نفسه العسل وماريه ، أن ذلك كان يميناً يتطلب كفارة .

ثالثاً : اختلف العلماء فى من قال لزوجته : أنت حرام علىَّ . فقال بعضهم : هو قول مفترى لا شىء فيه . وافتى آخرون أنه يمين يحتاج إلى كفارة . وقال فريق ثالث: إن ذلك يقع طلقه رجعية ، والثالث أرجح والله أعلم .

رابعاً : قوله تعالى :﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾ [التحريم : ٣] إلى آخر الآية يشير إلى ما أسره النبى إلى حفصة حين حرم على نفسه مارية . والحادثة تدل على دماثة أخلاق الرسول الكريم ورفقه فى معاملة أزواجه ، وحرصه على إرضاء أمهات المؤمنين ـ رضى الله عنهن ـ والحادثة من الهفوات التى عدها الله ـ جل جلاله ـ على رسوله ﷺ ، وهو ما يفهم من صيغة الاستفهام ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الـلَّهُ لَكَ ﴾ وهو استفهام غرضه اللوم فالله ـ جل جلاله ـ يلومه على شيئين : أولهما : أنه حرم على نفسه شيئا حلالا ، والثانى : أنه فعل ذلك إرضاءً لأزواجه .

خامساً : فى آخر السورة درس إلهى موجه إلى زوجات النبى ﷺ بأن يعتمدن

على العمل الصالح ؛ لأنه لن ينفعهن قربهن من رسول الله ، وكونهن زوجات له إذا لم يقرن ذلك بالعمل الصالح . إن امرأة نوح ، وامرأة لوط في جهنم مع أن كلاً منهما زوجة نبى . أما امرأة فرعون ففى الجنة مع أنها كانت امرأة طاغية . إن نوحاً ولوطاً لم يغنيا عن زوجتيهما من الله شيئاً ، وإن فرعون بطغيانه لم يضر زوجته المؤمنة بطغيانه ؛ لأن كل إنسان عند الله مسؤول عن عمله ولا يضيره أن يكون أقرب الناس إليه كافراً كما لا ينفعه أن يكون قريباً لتقى إذا لم يكن عمله هو الذى يؤهله للجنة .

سادساً : فى السورة الكريمة وصية تربوية بالأبناء ؛ إذ على الآباء الصالحين أن يحموا ذرياتهم من نار جهنم ، بتعويدهم صالح الأعمال . وهو يذكر الأب أن ابنه حين يصلى نار جهنم فإن المنظر هذا سوف يقطع رباط قلبه، ومن ثم فإن على المؤمن أن يحرص على ابنه من المعاصى أكثر مما يحرص على نجاة ابنه من أى خطر ؛ لأن المعاصى تورد العاصى ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد . إن على الأب أن يحرص على ولده من نار جهنم أكثر من حرصه على ولده من أى مهلكة .

سابعاً : ذكر مريم ابنة عمران ـ رضى الله عنها ـ وما تحلت به من عفاف وعمل صالح وعطفها على آسية امرأة فرعون ، وكيف أن مريم ـ رضى الله عنها ـ لم تعتمد على نشأتها المباركة فى بيت النبوة ، وعلى أنها كانت منذورة لله وهى فى بطن أمها ، لقد علمت أن النسب والنشأة ليس هما الأساس فى الحساب والجزاء ، لكن العبرة بالعمل الصالح ، ومن ثم فقد حرصت على عفافها وصدقت بكلام الله وجميع كتبه ، وعكفت فى محراب العبادة قانتة حتى اصطفاها ربها على نساء العالمين.

سورة تدعو إلى
التوحيد الخالص لله رب العالمين

سورة تبارك سورة مكية من أجلّ السور القرآنية موضوعاً ، وأعظمها بركة ، موضوعها هو التوحيد ، وقد كانت وما فتئت ورداً للصالحين يداومون قراءتها ويلتمسون بركتها . موضوعها عرض لروائع ملك الله وشواهد وحدانيته ، ومن ثم سميت سورة الملك ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك : ١] إنها ثناء على الله بعظمه ملكه وفيض آلائه وجلال آياته . إنها ثلاثون آية جليلة قال فيها رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذى : « إن سورة من كتاب الله ما هى إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى أخرجته من النار يوم القيامة وأدخلته الجنة ، وهى سورة تبارك » . وتسمى سورة تبارك : المانعة ، كما تسمى المنجية والواقية ؛ لأنها بإذن الله حماية لقارئها من السوء ، وقد جاء فى فضلها : أن من قرأها كل ليلة كانت أماناً له من الفتن ، وروى أن رسول الله ﷺ قال : « وددت أن تبارك الذى بيده الملك فى قلب كل مؤمن » ولعل سبب هذه الأمنية : أن سورة الملك من ألفها إلى يائها براهين عظمة ودلائل وحدانية ، ومن ثم فهى من مثبتات الإيمان ، قال ابن مسعود : إذا وضع الميت فى قبره فيؤتى من قبل رجليه فيقال : ليس لكم عليه سبيل ، فإنه كان يقوم بسورة الملك على قدميه ، ثم يؤتى من قبل رأسه فيقول لسانه : ليس لكم عليه سبيل إنه كان يقرأ بى سورة الملك . وما أجمل أن يقرأها الإنسان بنفسه ويكررها فى مرض موته ؛ لأن كل معظم آياتها تحمل معنى كلمة التوحيد . وهذه بعض لطائف من أسرار بلاغتها ودلائل إعجازها :

أولاً : فى الآية الأولى من سورة الملك إيجاز قصر جمع كل مظاهر القدرة

والجلال والعظمة والخلق والأمر في عبارتين قصيرتين ، أولاهما : ﴿ بيده الملك﴾ ، والثانية : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وفى العبارة الأولى أسلوب قصر إذ قدم الخبر ليفيد أن الملك بيده لا بيد غيره .

ثانياً : عد من الآيات قدرة الله وشواهد وحدانيته فى مطالع السورة خمسة أمور شاملة :

أولها : أنه خلق الموت والحياة اختباراً فى أعمالهم .

والثانى : أنه خلق سبع سموات طباقاً لا تفاوت فيها ولا تشقق .

والثالث : أنه خلق النجوم زينة للسماء وحفظاً لها .

والرابع : أنه يعلم الجهر والسر وأخفى ، لأنه هو الذى خلق .

والخامس : أنه ذلل الأرض وسهلها ويسرها للسعى الدؤوب والرزق الحلال ، وما على الإنسان إلا أن يمشى فى الأرض ليجد بإذن الله رزقه بسهولة ويسر .

ثانياً : أسلوب سورة الملك ليس عنيفاً ولا قصير الفواصل ، إنه أسلوب الإقناع المنطقى على ضوء العقل ؛ ولهذا فهو يشبه أسلوب السور المدنية ، ويبدو أن سورة تبارك من أواخر السور المكية نزولاً ؛ إذ لم ينزل بعدها سوى تسع سور كلها قصار عدا سورتين .

ثالثاً : أسلوب الاستفهام البليغ هو الطابع المميز لسورة الملك ، والحق : أن الإقناع عن طريق الاستفهام يحدث تجاوباً واستجابة بين السائل والمجيب . وإنى مستعرض هنا أساليب من الاستفهام البليغ وردت كلها فى سورة الملك :

الاستفهام الأول : قوله تعالى : : ﴿ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك : ٣] ؟ يعنى هل ترى من شقوق فى السماء ، وغرضه أن ينفى عن السماء العظيمة

المحكمة أى خلل أو تشقق فى صنعها المحكم .

الثاني : قوله تعالى على لسان الملائكة يخاطبون الكفار وهم فى النار : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [الملك : ٨] ؟ وهو استفهام للتوبيخ والتقرير معاً . إذ هو يقرر أن الله أعذر حين أرسل رسلاً ثم هو يوبخ الكفار على تكذيبهم للرسل .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] ؟ ومعناه : كيف لا يعلم الله كل شؤون مخلوقاته ، وهو الذى خلقهم ومن صفاته العلا أنه لطيف لا تحجزه الأشياء أن ينفذها ، وأنه خبير بكل صغيرة وكبيرة من أحوال عباده ، وغرض الاستفهام التقرير ؛ لأنه يقرر أنه ـ جل جلاله ـ يعلم من خلق .

الرابع : قوله تعالى : ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ [الملك : ١٦] ؟ وبعده :

الاستفهام الخامس : ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك : ١٧] ؟ وبعده :

الاستفهام السادس : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الملك: ١٨] ؟! وكل هذه الثلاثة غرضها تهويل عذاب الله ، وإنكار على الناس أن يأمنوا عذاب الله وبطشه .

السابع : قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ـ أي باسطات أجنحتهن فى الجو أثناء الطيران ـ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ ﴾ [الملك : ١٩] ؟ وهو استفهام غرضه لفت نظر الناس إلى شاهد من شواهد الوحدانية وهو هذه الطير التى تبسط أجنحتها لتهبط ؟ وهى فى

كلتا حاليها ما يمسكها إلا الرحمن البصير بعباده .

الثامن : قوله تعالى : ﴿ **أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ** ﴾ [الملك : ٢٠] ؟ .

والتاسع : قوله تعالى : ﴿ **أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ** ﴾ [الملك : ٢١] ؟ ومعناهما : هل ينصركم أحد إذا خذلكم الله ؟ وهل يرزقكم من أحد إذا أمسك الله عنكم رزقه ، وكلا الاستفهامين غرضه النفى ، إذ هو ينفى أن ينصرهم من دون الله أى نصير أو يرزقهم من دون الله أى رازق .

والعاشر : قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [الملك : ٢٢] ؟ ومعناها : هل من يمشى اعتسافا فى طريق يجهلها كمن يمشى على هداية فى طريق قد خبر معالمها ؟ وغرض الاستفهام هو تعيين الحق من الباطل . وفى الآية الكريمة صورة فنية رائعة ، فالكافر كمن يمشى فى متاهة على هدى ، والمؤمن كمن يمشى فى طريق مستقيم مأمون العثار آمن من كل خوف ، وفى الآية طباق لطيف بين العبارتين : ﴿ **مكبا على وجهه** ﴾ و ﴿**سويا على صراط مستقيم** ﴾.

والحادى عشر : قوله تعالى على لسان الكفار : ﴿ **ويقولون مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [الملك : ٢٢] ؟ أى متى يأتى الوعد الذى وعدكم ربكم بالنصر علينا ، أو بقيام القيامة والحساب ، وهو استفهام غرضه الاستبعاد والتكذيب ، فهم يستبعدون أن يكون بعث وجزاء .

والثانى عشر : قوله تعالى على لسان رسوله : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [الملك : ٢٨] ؟ ومعناه : خطاب للمشركين الذى كانوا يتربصون بمحمد أن يموت كما مات الشعراء من قبله، ويقول لهم : لنفرض أن الله ـ جل جلاله ـ **أهلكنى**

والمؤمنين معى فمتنا فهل يعنى هذا أنكم نجوتم من العذاب ؟ ومن الذى يجيركم من العذاب إذا نحن متنا ، وغرض الاستفهام النفى إذ المعنى لا أحد سينجيكم من عذاب الله إذا نحن هلكنا .

وأخيراً قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك : ٣٠] ومعناها : لو أن الماء الذى تشربونه يغور فى الأعماق فلا يمكن الوصول إليه : من الذى عندئذ يمكن أن يأتيكم بماء عذب يروى عطشكم ومزروعاتكم، وغرض الاستفهام النفى ، إذ المعنى لا أحد غير الله يأتيكم بماء عذب .

الإسلام دين العلم
وليس المسلمون كالمجرمين

إن سورة القلم أو سورة (ن) هى ثانى سورة نزلت من القرآن الكريم ، وأنه لشىء مدهش حقاً أن ينزل القرآن فى العرب الأميين فتكون أول آياته ﴿ اقْرأ ﴾ وتكون السورة الثانية بعد العلق ، سورة القلم ، فما أروع هذا الكتاب العظيم دعوة أولها العلم ، وأوسطها الإيمان ، وثمرتها العمل والفضائل . ياليت أمة محمد يتدبرون قرآنهم ، إذن لاستحقوا بتربيته أن يظلوا كما شاء الله لهم خير أمة أخرجت للناس . وسورة القلم أربعة مقاطع ، أولها : إشادة بأخلاق محمد ، وآخرها تثبيت لفؤاده أن يصبر وألا يستيئس ويفقد صبره كما فعل سيدنا يونس عليه السلام ، أما المقطعان الآخران فأولهما قصة أصحاب البستان ، والثانى مشهد من مشاهد القيامة ، وهذه بعض لطائف من سورة القلم :

أولاً : افتتاح السورة بذكر النون ومعناه الدواة ، وبذكر القلم وما يسطره العلماء به من العلم والإقسام بهذه الأشياء العظيمة ، دليل على أن الإسلام دين العلم، وعلى أن القرآن دعوة عظمى إلى العلم والإيمان .

ثانياً : أقسم الله ـ جل جلاله ـ بالدواة والقلم ، وكتب العلم على عظمة أخلاق ﷺ، وبراءته مما ينسب إليه الكفار من الجنون ، وفى هذا إشارة إلى أن أخلاق محمد وأن نبوة محمد وأن دعوة محمد كل هذه تدور فى فلك العلم ، وتبنى على أساسه المنير الراسخ .

ثالثاً : أعظم وسام قلده رسول الله ﷺ أن يخاطبه ربه بصيغة التوكيد المضاعف ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] معلنا بهذا أن هذا النبى الكريم

هو أنموذج الكمال الإنسانى وقدوة الركب البشرى فى الأخلاق .

رابعاً : كان المشركون يغرون محمداً ﷺ بشتى وسائل الإغراء كانوا يجاملونه ويداهنون ، وعرضوا عليه أموالاً ليمدح الأصنام ويرجع إليها ، وكان ممن عرض عليه المال الوليد بن المغيرة ، فنزل القرآن يحذر محمد ﷺ من تلك الإغراءات الشيطانية ﴿ فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ .. ﴾ [القلم : ٨ ـ ١٠] ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ إن المشركين يتمنون لو تداهن لهم وتجاملهم على حساب دينك فيقابلوا ذلك بالمثل لأن كل همهم أن يزعزعوا ثباتك العظيم .

خامساً : الإسلام دين الأخلاق ، يحب للمسلمين مكارم الأخلاق ومن أجل هذا يلفت أنظارهم أن يجعلوا أسوتهم رسول الله ﷺ صاحب الخلق العظيم . وفى مقابل هذا ذكر أخلاق أعداء المسلمين ونموذجهم هو الوليد بن المغيرة لكى يتجنب المؤمنون تلك المساوئ ﴿ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴾، أى كثير الحلف لحقارته ومهانته ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾، أى أنه يلمز الناس ويعيبهم، ويفسد بينهم بالنميمة ﴿ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أى أنه بخيل كثير العدوان والآثام وأنه إلى جانب ذلك عتلٌ ، أى شرس الطباع جاف شديد غليظ كثير الأكل ، ثم هو زنيم ، أى ملصق بالقوم وهو ليس منهم ، ومن معانى الزنيم : ابن الزنا ولم يكن المشركون يتحرجون من الزنا ، فكان كثير من ولدهم أدعياء ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ [القلم : ١٥].

سادساً : سورة القلم حافلة بالأساليب ذات الأغراض من أخبار وأوامر ونواه واستفهامات كالمدح فى قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

وكالتهديد فى قوله عز وجل ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ [القلم : ٥ ـ ٦] ومعنى الآية الكريمة سوف ترى قريباً من الذى ستحل به الفتنة أى العذاب ومن أساليب التهديد المخيفة قوله تعالى يتهدد المشرك المتكبر : ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ أى سوف نكويه بالنار على أنفه وإنما خص الأنف ؛ لأنه موضوع الشمم والكبرياء والإباء، كما تقول لعدوك: سوف أكسر أنفك وأمرغه فى الرغام . ومن أساليب الاستفهام الرائع قوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم : ٣٥] وهو للإنكار أو الاستنكار وقوله ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم : ٣٦] ؟ للتوبيخ والتعجب وقوله تعالى : ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ* إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ [الملك : ٣٧ ـ ٣٨] وهو استفهام للنفى والتكذيب ومعناه هل عندكم كتاب وعدناكم فيها أن نعطيكم ما تخيرون ؟! وهكذا .

سابعاً : قوله تعالى :﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إلى قوله عز وجل ـ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم : ١٧ ـ ٢٣] يحكى قصة إخوة كان لهم بستان عظيم الثمار وكان أبوهم إذا قطف ثماره قطفها نهاراً ، وأعطى الفقراء منها ، فخالفوا سنة أبيهم وأجمعوا أن يقطفوها ليلاً حتى لا يستفيد من ثمارها فقير ولا مسكين ، فكان قصاصهم أن دمر الله جنتهم ، فوجدوها محطمة قاحلة محترقة ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ [القلم: ١٩ ـ ٢٠] أى كحطام الزرع بعد حصاده وهى قصة ضربها ربنا مثلا لقريش التى أكرمها برسالة محمد فبطرت النعمة ولم تشكر كما أكرم ربنا أصحاب الحديقة بخيبتهم فبطروا النعمة ولم يشكروا .

ثامناً : قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا

يَسْتَطِيعُونَ* خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ [القلم : ٤٢ ـ ٤٤] يصور مشهداً من مشاهد القيامة وما أجمل الكناية في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ وهي كناية عن اشتداد الأمر وهول الموقف كما لو اجتاح الخوف قوماً ، فهربوا كاشفين عن سوقهم ؛ ليتمكنوا أن يسرعوا في ذلك الموقف الرهيب يتمنى الكافرون لو يعودون إلى الحياة ؛ ليؤمنوا ويعبدوا الله. ولكي تزداد حسرتهم يدعون أن يسجدوا فإذا هموا بالسجود وجدوه مستحيلا ؛ لأن أرجلهم لا تنثني هنالك يأسفون على عمر ضيعوه ، وكانوا أثناءه سالمين يستطيعون السجود في سهولة ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ* خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ .

تاسعاً : إن سورة القلم بحر زاهر بجواهر البلاغة ، ولو تتبعت آياتها ؛ لوجدت في كل آية سراً من أسرار البلاغة ودليلاً من دلائل الإعجاز ، وانظر إلى مسك ختام السورة : ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم : ٥١ ـ ٥٢] إن كلمة ﴿ إن ﴾ هنا في قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ هي المخففة من الثقيلة ، والمعنى : أن الكافرين لشدة عداوتك يكادون يصرعونك بنظراتهم الحاسدة وقلوبهم الحاقدة ، وإذا سمعوك تقرأ القرآن، وتقرع الحجة بالحجة ملأت قلوبهم بالإعجاب لكن هذا الإعجاب يتحول إلى حسد ، فيلجؤون إلى الكذب والغوغائيه ، ويقولون : بصيغة التوكيد ﴿ إنه لمجنون ﴾ وهم على ثقة أن محمداً غير مجنون لكنه عليه الصلاة والسلام شرف لهذا العالم كله يذكر أهل

الدنيا بدينهم وربهم وأخلاقهم.

عاشراً : العالم فى هذه الأيام يعيش أزمة أخلاقية أركسته فى الضياع ، وأودت به إلى متاهات الخوف والهلاك ، وسوة ن دروس فى الأخلاق ، والعلم الصحيح والصبر . لقد اكتظ العالم فى هذه الأيام بكل حلاف مهين هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم ، يدل بكثرة ماله ، ويتكبر على آيات ربه ، ولعمر الحق لن يصلح آخر زماننا إلا بما صلح به أوله وهو أن يترسم الناس منهج محمد ﷺ ، وخلقه العظيم، الذى استمد فضائله من القرآن الكريم سئلت عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن خلق محمد ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن ، وما أروع ما قال شوقى ـ رحمه الله ـ وهو يمدح محمدا ﷺ بأخلاقه :

يامن له الأخلاق ما تهوى العلا ... منها وما يتعشق الكبراء
فإذا سخوت بلغت فى الجود المدى ... وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادرا ومقدرا ... لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب ... هذان فى الدنيا هم الرحماء
وإذا خطبت فللمنابر هزة ... تعرو الندى وللقلوب بكاء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته ... فجميع عهدك ذمة ووفاء

حول توحيد الله تعالى

هذه الحلقة تدور حول توحيد الله ـ جل جلاله ـ وهى مستقاة من سورة نوح ـ عليه السلام ـ التوحيد بعبارة مختصرة : هو أن تخلص العبادة لله وحده لا شريك له . وضد الشرك وهو أن تعبد مع الله أى شرك إنساً كان أو جناً ، أو ملكاً ، أو حيواناً ، أو نباتاً ، أو جماداً .

والوصول إلى التوحيد سهل ؛ لأن كل شىء فى هذا الكون ينطق بغير لسان ، أن الله صانعاً عظيماً ، أوجده وخلقه بقدر . أما الشرك فهو الذى لا برهان له ؛ لأن جميع الشركاء وباعتراف عابديهم لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون.

وأوسع الأبواب التى يدخل منها الشرك هو باب الغلو ، ومن ثم فالإسلام دين الوسط وأمة محمد أمة وسط ، وخير الأمور أوساطها ، إذ الفضائل كلها وسط بين أمرين مضرين . وقد حذر القرآن الكريم الأمم السابقة من الغلو فى أنبيائهم ونسيان بشريتهم . يقول الله تعالى فى سورة النساء : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [النساء : ١٧] ويقول ـ جل جلاله ـ فى سورة المائدة : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ وإنما نهى الإسلام عن الغلو ؛ لأنه إغفال للعقل والإسلام دين العقل ؛ ولأن الغلو فى العبيد يجعلهم آلهة ، كما أن الغلو فى كل أمر يحوله إلى ضده . والمؤمن

يحرص على عقيدته أن ينال منها الغلو إذ عقيدة المؤمن :

هى عقيدة التوحيد الخالص التى بها يغفر الله الذنوب وبإخلاصها يرب العمل القليل حتى تكون التمرة فى حجمها وثوابها كجبل أحد . وكما يتحول ثواب التمرة عند الله مثل أحد ، فكذلك يتحول ثواب صدقة ، كجبل أحد إلى سراب خادع إذا خالط الأعمال شرك أو رياء ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ .

من أجل ذلك يحرص أهل الإيمان على توحيدهم أكثر مما يحرصون على حياتهم ، وأى قيمة للحياة إذا رزئ الإنسان فى عقيدته .

وقد قرآنا فى تفسير سورة نوح أن أول ما دخل الشرك على قلوب قومه ، أنه كان فيهم أولياء صالحون ، فلما ماتوا سول الشيطان لبعض القوم أن يصنعوا لهم تماثيل ويصوروا لهم صوراً ؛ ليتذكروهم فاختاروا خمسة من أعظم صالحيهم ، وهم ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، لصبوا لهم تمثيل وصراً ؛ ليأتنسوا بمنظرهم أول الأمر ، ثم مالبثوا أن عبدوهم فتنقلت عبادتهم إلى العرب فيما بعد .

فأما ود فهو : أول صنم عبدوه وسموه وداً من الود ، أى المحبة وكانوا ربما سموا أولادهم :عبدود . وقد عبدته قبيلة كلب وهى قبيلة من قحطان كانت تقيم على طريق الشام بدومة الجندل ، ثم عبدته قبائل قحطانية أخرى .

وأما سواع فكان صنماً معظماً لديهم بساحل البحر ، وكان سدنته والناشرون لعبادته من قبيلة هذيل التى ينتمى إليها عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ وأما يغوث فكان أعظم شهرة من سابقيه فكنت ترى العرب يسمون أولادهم عبد يغوث ، وقد عبدته القبائل من قحطان منها قبيلة مراد ، وقبيلة

طيء ومذحج ثم عبدته بعض القبائل العدنانية كغطفان وخزاعة ، وكان يغوث مصنوعاً من الرصاص وكان عباده ربما تنقلوا به من قبيل الدعاية ، فيحملونه على جمل ، ثم لا يهيجون الجمل حتى يبرك وحده فيقيمون على يغوث بناء ويعبدونه ويستخفون به عقول الجهلاء .

وأما نسر فكان صنماً لقبيلة ذى الكلاع من حمير ، وكان على صورة نسر من الطير ، كما كان ود على صورة رجل وسواع على صورة امرأة مع أنه رجل واسمه مصروف ، ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة حصان . وهكذا يفعل الشرك إذ هو يطمس العقل ويحكم الهوى ويذهب بالتفكير إذ كيف يقدم إنسان كرمه ربه بالعقل علٍ عبادة حجر ، أو جماد لا يضر ولا ينفع ، ولا يملك لنفسه دفعاً حتى حط من على وسجر فى الجحيم ؟!

وأعظم ما يكون التوحيد فى قلبك إذا أنت وصلت إليه عن طريق التفكر فى آيات الله وبدائع خلقه ، وإجالة البصر فى ملكوته قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٥] لقد أسلم عليه الصلاة والسلام عن طريق التدبر والتأمل فى ملكوت الله يضىء إن التوحيد يضىء الأعمال وينورها فى الدنيا ، فتكون فى الحياة نوراً هادياً تستنير الأجيال المتلاحقة بسناه حتى إذا كان يوم القيامة رأيت أهل التوحيد يمشون فى هالات من النور ، بينما ترى أهل الشرك يخبطون فى ظلام شركهم ؛ لأن أعمالهم لم تكن سوى رياء دنيوى يطلبون به ثواب الدنيا .

فى القيامة ترى المؤمنين : ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم : ٨] وفى ذلك الجو الهادى من الأنوار تناديهم الملائكة ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الحديد : ١٢] أما

المشركون فيتساءلون : أين أعمالنا الصالحة التى أسلفناها فى الدنيا لماذا لا نراها؟ فيقال لهم : لقد ذهب الشرك بنورها وأحبطها فلم تعد ترى لما يؤزها من ظلمات بعضها فوق بعض ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من ونور . اللهم ياربنا أتتم لنا نّور توحيدنا ، ونور به أعمالنا فى الدنيا والآخرة ، إنك على كل شىء قدير .

سـورة يحبها الله تعـالى ويحبهـا أحـباب الله

القرآن الكريم كما هو معلوم مائة وأربع عشرة سورة وقد تضمنت الأجزاء الثلاثة الأخيرة من القرآن نصف هذا العدد أى سبعاً وخمسين سورة من سورة المجادلة إلى سورة الناس وهذه السور القصار نسبياً معظمها من السور المكية ، فقرابة أربعة أخماسها نزلت فى أول عهد النبوة ، ومعنى هذا أن هذه السور على قصرها تضمنت أساس العقيدة الإسلامية ؛ ولهذا فإن من حفظ العشر الأخير من القرآن فقد أوتى خيراً كثيراً ؛ لأن هذا العشر المبارك يحتوى كما أسلفنا على سبع وخمسين سورة من كتاب الله لكل واحدة منها فضلها وبركتها وإعجازها وبلاغتها . إن سورة الإخلاص مثلاً خمس عشرة كلمة ، وهى على قصرها تعدل ثلث القرآن . وإذن فما يكون للمسلم أن يتقالّ السور القصيرة ؛ لأنها ذات شأن خطير وحسبك أنها أرست أساس الإسلام ، فلقد مكث وحى أكثر من خمس سنوات وهو لا ينزل إلا بسورة قصيرة وفى هذا حكمة بالغة من الله ــ جل جلاله ــ ، إذ لو بدأ بإنزال السور الطوال ؛ لشق ذلك على الناس وهم إذاك فى العقيدة لطلاب الصف الأولى الابتدائى .

هذه المقدمة قصدت أن أمهد بها ، لتفسير سورة الإخلاص التى يحبها أحباب الله لأنها صفته ؛ ولأنها بكلماتها القليلة أعطت أبلغ وصف لأعظم عظيم ، فما يستطيع بلغاء الإنس أن يتزيدوا على هذا الوصف العظيم ولو بكلمة واحدة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [سورة الإخلاص] .

أولاً : كانت قريش والعرب عامة يعتزون بالأنساب ، فقالوا لمحمد ﷺ : إن آلهتنا هي بنات الله ، فانسب لنا ربك ؟ أي أوضح لنا نسبه وكانت قريش تهتم كثيراً بصناعة آلهتها فتصنعها من الذهب والنحاس والصخر ، فقالوا لرسول الله ﷺ : صف لنا ربك من ذهب هو أم من نحاس أم من صخر ؟ روى الترمذى من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ انسب لنا ربك فنزل قوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [سورة الإخلاص].

ثانياً : هذه السورة المكونة من أربع آيات قصار كانت سبباً فى هداية الكثيرين من علماء الأديان كثيرون أولئك الذين كانوا ينشدون صفاء التوحيد لم يجدوه فى عقيدة النصارى حيث يختلط عندهم الأب والأبن وروح القدس ، ولا وجدوه عن اليهود حيث العزيز ابن الله وحيث هم جميعاً ابناء الله فلما قرؤوا : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ إذا هم بإزاء توحيد خالص لا يشوبه شرك ، فالإله الذى يدعو محمداً إلى توحيده هو الواحد المتفرد بصفات العظمة والكبرياء والجلال ، وكل من سواه عبد الله مخلوق بيديه.

ثالثاً : صفات الله ـ جل جلاله ـ كما وردت فى سورة الإخلاص هى : أنه ﴿أَحَدٌ ﴾ ومعناها أنه الواحد الذى لا يعبد بحق إلا هو ، والذى ليس له شريك في ملكه ومن ثم فما يجوز أن يجعل له شريك فى عبادته ثم هو ﴿ الصَّمَدُ ﴾ والصمد : هو السيد المقصود فى الحوائج ترى كل الخلائق ينزلون حوائجهم به، فلا تضيق خزائن رزقه ورحمته بعبد من عباده .

الوصف الثالث : أنه ﴿ لَمْ يَلِد ﴾ والرابع : أنه ﴿ لَمْ يُولَدْ ﴾ ومعناه : أنه ـ جل جلاله ـ لا والد له ، ولا ولد فيا لروعة النسب إذ يبدأ النسب

العظيم به وينتهى به وفى هذا رد على النصارى الذين يعبدون مريم التى لها أب، ويعبدون عيسى الذى ولد من مريم .

ثم جاءت الصفة العظيمة الخامسة وهى قوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أى أنه ـ جل جلاله ـ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ولا يشبهه فى قدرته ، وعظمته ، وملكوته ، وهيمنته أى مكافئ أو شبه .

رابعاً : جاء فى صحيح الحديث مواضع كثيرة تثبت فضل سورة الإخلاص

وإنما سميت سورة الإخلاص والله أعلم ؛ لأنها تعلن صفاء التوحيد ، والخلوص من أى شرك . روى البخارى أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبى ﷺ وذكر ذلك له وكأن الرجل يتقالها ، فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن » . وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ » فشق ذلك عليهم وقالوا : أينا يطيق ذلك يارسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ « قل هو الله أحد ثلث القرآن » . وفى سورة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ اسمان عظيمان من أسماء الله الحسنى ، لم يردا إلا فى سورة الإخلاص وهما: الأحد ، والصمد .

وفى صحيح مسلم عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً عن سرية وكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : سلوه لأى شيء يفعل ذلك ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال رسول الله ﷺ : «أخبروه أن الله ـ عز وجل ـ يحبه » وفى رواية : أنه قال :« إن حبها أدخلك الجنة» . وروى الترمذى بسنده عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : أقبلت مع النبى ﷺ فسمع رجلاً يقرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فقال رسول الله ﷺ «وجبت»

قلت : وما وجبت فقال : « الجنة » .

إن سورة الإخلاص من أعظم سور القرآن إيناساً للنفس ، تشعر وأنت تقرؤها أنك فى كنف مولى عظيم تهون أمام عظمته كل العظيمات ، وتصغر إزاء كبريائه كل الكبراء ، ويفتقر لغناه كل الأغنياء ، ويذل بنى يدى عزته كل الأعزاء ؛ ولهذا فالسورة تذهب الخوف فى السفر المظلم وفى الجهاد الخطير المصابر . اللهم اجعل إخلاص التوحيد شفيعاً لنا عندك .

فى رحاب المعوذتين

فى ختام المصحف الشريف سورتان مكيتان قصيرتان جداً هما المعوذتان سورة الفلق وسورة الناس ، وهما سورتان من سور الشفاء ، وكل القرآن شفاء إنهما أعظم سلاح يتقى به مشعوذو الجن وأهل العبث من كفارهم ، وقد جربنا فخست الشياطين من مجرد تلاوتهما ، وكان لهما أثر كبير فى سكينة القلوب وروح النفوس .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [سورة الفلق].

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ [سورة الناس].

أولاً : المعوذتان و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ كان رسول الله ﷺ يكثر من قراءتها يتعوذ بها حين سحرته اليهود،فقد جاء فى الصحيحين عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ سحره يهودى من يهود بنى زريق يقال له : لبيد ابن الأعصم حتى يخيل إليه أنه كان يفعل الشىء ولا يفعله ، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث ثم قال « يا عائشة : أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيته فيها ؟ أتانى ملكان فجلس أحدهما عند رأسى والأخر عند رجلى فقال الذى عند رأسى للذى عند رجلى ما شأن الرجل ؟ قال : مطبوب أى مسحور قال : ومن طبه؟ قال : لبيد بن الأعصم . قال فى ماذا ؟ قال فى مشط ومشاطه وجف طلعة ذكر تحت راعوفة فى بئر ذى

أروان فجاء البئر واستخرجه » هذه رواية الصحيح ووردت عن ابن عباس الزيادة التالية : « أما شعرت يا عائشة أن الله أخبرنى بدائى ؟ ثم بعث علياً والزبير وعمار بن ياسر فنزحوا ماء تلك البئر كأنه نقاعة الحناء ، ثم رفعوا الصخرة وهى الراعوفة صخرة متحرك أسفل البئر يقوم عليها المائح وأخرجوا الجف ـ وهو غشاء يكون على طلع النخلة فى الذكر والأنثى ـ فإذا مشاطه رأس إنسان أى ما يعلق بالمشط من الشعر إذا مشط الإنسان رأسه ـ وأسنان من مشط ، وإذا وتر معقود فيها إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر ، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العقد ، وأمر أن يتعوذ بهما فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة حتى انحلت العقدة الأخيرة فكأنما أنشط من عقال وقام ليس به بأس وجعل جبريل يرى رسول الله ﷺ فيقول : « بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر حاسد وعين ، والله يشفيك » فقالوا يارسول الله ألا نقتل الخبيث ؟ فقال النبى الكريم الرحيم : «أما أنا فقد شفانى الله وأكره أن أثير على الناس شراً» .

وخلاصة الحديث : أن أحد اليهود احتال حتى حصل على مشاطة رأس النبى ﷺ وبعض أسنان من مشطه فوضعهما فى جف طلع نخلة أى غشاء الطلع ونفث فى عقد وتر هو يقرأ سحراً ضاراً ، ثم وضع هذه الأشياء تحت راعوفة أى صخرة فى بئر يقال لها : بئر ذى أروان ، وأن رسول الله ﷺ قرأ المعوذتين والحديث فى الصحيحين ، والسحر وارد ومعروف الضرر ، والله غالب على أمره .

ثانياً : ورد فى فضل المعوذتين ما رواه النسائى من حديث عقبة بن عامر قال أتيت رسول الله ﷺ وهو راكب فوضعت يدى على قدمه فقتل : أقرئنى

سورة هود . أقرئنى سورة يوسف فقال لى : ولن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وعنه ـ رضى الله عنه ـ أنه كـان مع النبى ﷺ بين الجحفة والأبواء فغشيتهم ريح مظلمة شديدة ، فجعل رسول الله ﷺ يتعوذ بالمعوذتين وفى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث .

ثالثاً : المعوذتان لجوء إلى الله واحتماء بحصنه من كل شرور الدنيا ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ ومعناهما : أستعيذ وألجأ وأحتمى ، وأتحصن برب الصباح المنير من شر جميع خلقه ، وما أجمل أن يتعوذ العبد برب النور من ظلمات الشر ، إن النور ليست مناخاً ملائماً للشر والجريمة وأكثر ما تقترف الجريمة فى الظلام ، فالله ما أبلغ هذا المطلع الكريم : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ* مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ ثم مضى يستعيذ من أشياء أخرى كلها مظلمة والعياذ بالله ﴿من شر غاسق إذا وقب ﴾ أى من شـر ليل إذا أظلم ، وقـد أسلفنا أن الظلام صديق الجريمة واللصوص ، بينما النور هو البيئة الصالحة للخيرات ، ومن ثم فقد تركنا نبينا ﷺ على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك . ﴿ وَمِن شَرِّ الـــنَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ أى من شـر السحـر والسـاحـرات ، والسحـر ظلمات؛ لأنه تعمية وصلات مشبوهة بكفار الجن وظلامهم ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ والحاسد والعياذ بالله مظلم النفس والقلب تتكدس فى قلبه طلمات بعضهـا فوق بعض من الحقد والكراهية والشرور . وشر الحاسد قد يحضر أول الأمر فى عينيه المسمومتين ، لكنه قد يتطور إلى المؤامرات والانتقام كـما حسد قابيل أخاه فقتله ، وكما حسد يوسف إخوته ، فألقوه فى غيابة الجب .

إن سورة الفلق عرض تصويرى بارع بليغ رسمت فيها صورة نور من نور الله يشق ظلام الليل بفلقه فيزيل كل ترويع يترعرع فى الظلام .

أما سورة الناس ، فهى استعاذة بالله من أنواع الشياطين ، ومعناها : اللهم إنى أحتمى بحماك يا الله ، يامربى الناس بنعمتك ويا مالكهم بقدرتك ، ومعبودهم بآيات وحدانيتك ، يامن ينظر إليك الطفل راعياً مربياً ، ينظر إليك الشاب ملكاً قادراً قاهراً ، واسع الملكوت هائل الجبروت ويامن يراك الكهول من أهل العبادة إلها لا يعبد بحق سواك اللهم إنى أحتمى بك من شر كل شيطان يوسوس للصالحين ، ويخنس أمام إيمانهم واليقين ، سواء أكان هذا الشيطان من الإنس من بنى آدم ، أو من الجن من ذرية إبليس اللعين .

الفهـــــرس

رقم الإيداع
٩٧ / ١٤٥٥٣
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977-5268-87-7